معهد الأبحاث والدراسات للتعريب



زهر الأكم في الأمثال والحكم

للحسن اليوسي

الجزء الثاني

حققه

الدكتور محمد حجي و الدكتور محمد الأخضر

الشركة الجديدة
دار الثقافة
32·34 شارع فكتور هيكو
الهاتف 26·53·46 — 26.23.75
ص.ب. 4038 الدار البيضاء (المغرب)

الطبعة الأولى 1401 — 1981


زهر الأكم
في الأمثال والحكم

بسم الله الرحمان الرحيم:

هذا الكتاب وقف لله تعالى على

مكتبة المسجد النبوي من بدربه و

السيد زنه محمد واهل أمينو من الدار البيضاء

المغرب.

نطلب ممن يطلع عليه أو يستفيد منه الدعاء

لنا بصلاح الدارين وحسن الخاتمة ولوالدينا

بالمغفرة وحسن الثواب.

والله الموفق وعليه

التكلان.

أمينو

بسم الله الرحمن الرحيم

بَـابُ الـثَّـاءِ

الثَّبَات يَكْسِرُ الوثبات.

الثَّبَات : الرزانة والحلم، وهو ضد الخفة والطيش. والوثَبات : جمع وثْبَة، وهي الصولة والانتقام . وهذا مثل ظاهر المعنى، وهو مصنوع فيما أظن.

أثْقَفُ مِنْ سِنَّوْرٍ.

يقال ثَقُفَ الرجل، بضمّ القاف، يثقُف ثَقافة، فهو ثَقِف وثقيف ؛ وثَقِفَ، بكسرها، يَثْقَف ثَقفا، فهو ثَقْفٌ وثَقُفٌ، كَنَدْسٍ ونَدُسٍ، إذا كان حاذقا فطنا خفيفا . ومنه، حديث أنس : وكَان غُلامًا ثَقِفًا . السِّنَّوْرُ، على وزن جِرْدَحْل : الهِرُّ المعروف، والأنثى سِنَّوْرَة، وله أسماء كثيرة، حتَّى حُكي أنَّ أعرابيًا صاده ولم يعرفه . فلقيه إنسان، فقال له : ما هذا السِّنَّور ؟ ثمَّ لقيه آخر، فقال : ما هذا الهِرّ ؟ ثمَّ لقيه آخر، فقال: ما هذا القِطّ ؟ ثمَّ آخر، ثمَّ آخر . فلمَّا رأى كثرة أسمائه ظنَّ أنَّ ذلك لخير عظيم فيه، فقال : أبيعه، لعلَّ الله تعالى يرزقني مالا كثيرا . فلمَّا وقفه في السوق قيل له : بِكَمْ تبيعُه ؟ قال : بمائة دينار . فقيل له انه لا يساوي إلاَّ نصف درهم . فرمى به وقال : لعنه الله ! ما أكثر أسماءه، وأقلَّ بركته ! وهو في الخفَّة وسرعة الاختطاف النهاية . فمن ثَمَّ ضُرب به المثل .

أثْقَلُ رأسًا مِنْ فَهْدٍ.

الفَهْدُ، بفتح الفاء وسكون الهاء بعدها دال مهملة، الحيوان المعروف الذي يُتصيَّد به، وهو سَبُع، يزعمون أنه متولّد من بين الأسد والنمر . وفَهِدَ الرجل، بالكسر، تَشَبَّه بالفهد في نومه وتمدّده، كما في حديث أمّ زرع : **إنْ دخَلَ فَهِدَ، وإن خَرَجَ أسِدَ.** ويقال فَهِد أيضا إذا نام وتغافل عمَّا يجب تعهدّه . والفهد كثير النوم ثقيله، ومن ثَمَّ قالوا : **أنْومُ مِنْ فَهْد، وأثْقَلُ رأسًا مِنْ فَهْد.**

مُثْقَلٌ اسْتَعَانَ بِذَقَنِهِ .

المُثْقَلُ، من الثّقل المذكور، وهو ضدّ الخفّة . يقال : ثَقُلَ الشيء بالضمّ، يَثْقُلُ، ثِقَلاً، على مثال عِنَب، فهو ثقيل ؛ وثَقّلَهُ تَثْقِيلاً ؛ وأثْقَلَهُ . والاسْتِعَانَةُ : طلب العون . والذّقَنُ، بفتحتَيْن والذّال معجمة، : مجمع اللحيين من أسفل .

يُضرب هذا المثل للذليل يستعين بمثله أو أذلّ منه . وأصله في البعير يحمل عليه ثقل فلا يستطيع أن ينهض به، فيضرب بذقنه على الأرض، معتمدا عليه ليقوم.

أثْقَلُ مِنْ حَدِيثٍ مُعَادٍ.

الثّقَل تقدّم ؛ والحديث : الخبر ؛ والمعاد : الذي سمعته ثمّ أُعيد عليك مرة أخرى، فهو يثقل على السماع كثيرا لعدم الداعي الى سماعه، مع الملل الحاصل للنفس من تكراره . والنفس، للطافتها وروحانيّتها، أكثر من البدن تألّما بالاذاية وأقلّ صبرا واحتمالا، فلا تكاد ترتاح إلاّ الى ما فيه غذاؤها، من علوم تستحصلها، أو غرائب ولطائف تتفكّه بها . فإذا عدمت ذلك غلبها الضجر، ونَفَرَت غاية النفر ؛ ومن ثَمَّ تَسْتَثْقِل الكلام المعاد وتملّ منه، ولو كان في نفسه بليغا عجيبا، إذ لم يبق لها حظ فيه . وكان عدم الملل في كتاب الّله تعالى، مع معاودته على مرور الليالي والأيّام، معجزة ظاهرة للعيان ؛ ومن ثمّ قيل : كُلُّ مُكَرَّرٍ مَمْلُولٌ إلاّ القُرآنَ . وممّا قيل في ثقيل :

يَا ثَقِيلاً على القُلوبِ إذا عنّ	لَها أيْقَنَت بِطولِ الجهَاد !
يا قذى في العيون يا غُلّةً بَين	التّراقي حَرارةً في الفُؤاد !
يا طَلوعَ العَذولِ يا بين إلفٍ	يا غريمًا أتى على ميعاد !
يا ركوما في يومِ غَيْمٍ وصيفٍ	يا وجوهَ التُجّار يومَ الكَساد !
خلِّ عنّا فإنّما أنتَ فينَا	واوُعَمْرٍو وكالحَديثِ المُعَادِ !
وامْضِ في غَير صُحبَةِ الّله ماعشتَ	مُلَقّى مِن كلِّ فجٍّ وواد
يتخطّى بِكَ المَهامِهَ والبِيدَ	دليلٌ أعمَى كثيرُ الرُّقَادِ
خَلفَكَ الثّائِرُ المُصَمّمُ بالسّيفِ	ورجْلاكَ فَوقَ شَوكِ القَتَادِ !

1) في جـ : يا قذى في العين...، وهو لا يستقيم وزنًا.

وقال بعضهم في صفة ثقيل : هو أثْـقَـلُ مِنْ دواءٍ بلا عِلَّة ، وأبغضُ من خَراجٍ بِلا غَلَّة ؛ قد خرج عن حدّ الاعتدال، وذهب من ذات اليمين إلى ذات الشِّمال ؛ يَحْكِي ثِقَل الحديث المُعَاد، ويمشي على القلوب والأكباد ؛ إذا نظرت الى مشيته أنشدتَ :

مَشَى فَدَعَا مِن ثِقلِه الحوتُ ربَّه   وقال : إلاَهِي زيدَتِ الأرضُ ثامنه !

وقد يُستحسن إعادة الحديث، لا لذاته، بل لأمر عارض، فيه للنَّفْس أرَب، إمَّا رغبة في كلام المتكلّم خصوصا، أو في نغمته، أو في النظر إليه، أو في دوام جلوسه، أو عدم قضاء الوطر من ذلك الكلام بعدُ أو نحو ذلك . ومن ثَمَّ يُستعاد حديث المحبّين والمغنّين، كما قيل :

وكُنتُ إذا ما جِئتُ سُعْدى أزورُها   أرَى الأرضَ تُطْوى لي ويدنو بعيدُها

مِن الخفراتِ البيضِ ودّ جَليسُها   إذا ما انقَضَت أحدوثَةٌ لو تُعيدُها

ولهذا الشعر حديث عجيب : ذكروا أنّ رجلا خرج في طلب إبل له أضلّها . قال : فبينما أنا في واد إذ سمعت صوت منشد ينشد : وكُنتُ إذا مَا جِئْتُ سُعْدَى أزُورُهَا (البيتَيْن) . فدنوت من الصوت، فإذا أنا براعٍ قد ضمّ غنما له تحت شجرة وهو يترنّم، فسلّمت عليه، فردّ عليّ السلام وقال : من الرجل ؟ فقلت : منقطع به المسالك، أتاك يستعين بك ويستجير . فقال : أهلا ومرحبا، انزل على الرحب ! فعندي وطاء وطي، وطعام غير بطي . فنزلت، فنزع شَمْلَته، فبسطها تحتي، ثمّ أتاني بتمر وزبد ولبن وخبز، ثمّ قال : اعذرني في هذا الوقت ! فقلت : والّله إنّ هذا لخير كثير ! فمال إلى فرسي فربطه وسقاه وعلق عليه . فلمّا أكلت صلّيت واستندت . فبينما أنا بين النائم واليقظان، إذ أقبلت من فوق الوادي جارية أطلعت الشمس لغير أوان طلوعها، فوثب الفتى إليها، وجعل يقبّل الأرض حتّى وصل إليها . فأخذا في حديث مستلذّ، مع شكوى وزفرات، وأنا متناوم، وهما لا يهم أحدهما لصاحبه بقبيح . ولم يزالا كذلك حتّى طلع الفجر، فعانقها وتنفّس الصعداء وبكيا، ثمّ قال لها : يا ابنة العمّ، بالّله لا تبطئي عليّ كما ابطأت الليلة ! فقالت : يا ابن العمّ، أما علمت أنّي أنتظر الرقباء والوشاة حتّى يناموا ؟ فودّعها وافترقا، وكلّ منهما ينظر لصاحبه ويبكي . فبكيت رحمة لهما ثمّ قلت في نفسي : أستضيفه الليلة الأخرى حتّى أنظر ما يكون من أمرهما . فلمّا أصبحنا قلت له : جعلني الّله فداك، الأعمال بخواتمها، وقد نالني أمس تعب، وأحبّ أن أستريح عندك اليوم . فقال :

على الرحب والسعة ! لو بقيت عندي بقيَّة عمرك ما وجدتني إلاّ كما تحبّ . فعمد إلى شاة، [فذبحها] وشواها، فقدّمها إليّ، فأكلت وأكل معي إلاّ أنّه [أكل] أكْلَ من لا يريد أكْلاً . فلم أزل معه نهاري ذلك، ولم أر أشفق منه على غنمه ولا ألين جانبا ولا أحلى كلاما منه ؛ إلاّ أنّه كالولهان، ولم أعلمه بشيء ممّا رأيت . فلمّا أقبل الليل وطّأ وطائي، وصلّيت وأعلمته أني أريد الهجوع لتعبي . فقال : نـَمْ هنيئا ! فتناومت، فقام ينتظرها إلى هنيئة من الليل، وأبطأت . فلمّا حان وقت مجيئها قلق قلقا شديدا، فبكى ثمّ جاء فحرّكني، فأوهمته أني كنت نائما، فقال : يا أخي، هل رأيت الجارية التي كانت تتعهّدني وجاءتني البارحة ؟ قلت : قد رأيتها . قال تلك ابنة عمّي وأعزّ الناس عليّ، وإني لها محبّ وفيها عاشق، وهي كذلك وأكثر . ومنعني أبوها من تزويجها لفقري وفاقتي، وتكبّر عليّ، فصرت راعيا بسببها، فكانت تزورني كلّ ليلة . وقد حان وقت مجيئها، واشتغل قلبي عليها، وتحدّثني نفسي أن الأسد قد افترسها، ثمّ أنشأ يقول :

ما بَالُ ميَّة لا تأتي لعادتِها ؟ أعاقَها طربٌ أم شدَّها شَغَلَ ؟
نفسي فِداؤك قَد أحللتِ بي سقمًا تكادُ من حرِّهِ الأعضاءُ تنفصلُ !

ثمّ ذهب فغاب عنّي ساعة، ثمّ أتى بشيء فطرحه بين يديّ، فإذا بالجارية[2] قتلها الأسد وأكل أعضاءها وشوّه خلقتها . ثمّ أخذ السيف وانطلق . فغاب ساعة، فإذا هو قد جاء برأس الأسد، فطرحه ناحية ثمّ قال :

ألا أيُّها اللَّيثُ المُدِلُّ بنفسِه هَلَكتَ لَقد جرَّيتَ حقًّا لك الشرَّا !
أخلَّفتني فَردًا وقَد كُنتُ آنِسًا وقَد عادتِ الأيَّامُ من بَعدها صِفرا

ثمّ قال : بالّله يا أخي إلاّ ما سمعت منّي، فإنّي ميت لا محالة ! فإذا أنا متّ، فكفّنّي في عباءتي، وضمّ [إليّ] ما بقي من أعضائها، وادفنّا في قبر واحد . وخذ شُويْهاتي هؤلاء وعصاي وثيابي، فسوف تأتيك عجوز، فأعطها ذلك فهي والدتي . وقل لها : مات ولدك كمدًا، فإنّها تموت عند ذلك . فادفنها إلى جانب قبرنا، وعلى الدنيا [منّا] السلام! فلم يكن إلاّ قليلا حتّى صاح صيحة، ووضع يده على صدره فمات من ساعته . ففعلت به جميع ما أوصاني، وبتّ حزينا [باكيا] فلمّا أصبحنا، أقبلت عجوز ولْهَى، فسألتني عنه، فأخبرتها خبره، فجعلت تبكي حتّى إذا أقبل الليل شهقت شهقة فارقت

2) في ج : فإذا أنا بالجارية...

الدنيا . فدفنتها إليه، وبتّ الليلة الرابعة . فلمّا أصبحت، ركبت فرسي، وسقت الغنم، وإذا أنا بهاتف يقول :

كُنّا على ظَهرها والدّهر يجمعُنا والشّملُ مُجتمِعٌ والدّار والوطنُ
ففرّق الدّهرُ بالتّفريقِ ألفتنا فصار يجمعُنا في بَطنِها الكَفَن

قال : فأتيت الحيّ، ودفعت الغنم لبني عمّهم، وانصرفت.

أثْقَلُ مِن حِمْلِ الدُّهَيْمِ .

الثّقَل تقدّم ؛ والحِمْلُ معروف ؛ والدُّهَيْمُ على وزن زُبَيْر ـ: اسم ناقة عمرو بن الرّيّان الذُّهْلِي، قُتل هو وإخوتُه، فحُمِلت رؤوسهم عليها . وتقدّمت هذه القصّة في حرف الهمزة، فقالوا : أشْأمُ مِنَ الدُّهَيْمِ، **وأثْقَلُ مِن حِمْلِ الدُّهَيْمِ**.

وظاهر كلام الصحاح أنّ قولهم للداهيَة الدُّهَيْم وأمُّ الدُّهَيْم مأخوذ من هذا.

أثْقَلُ مِنَ الزّوَاقِي .

الثّقَلُ مرّ ؛ والزُّقَاءُ : الصِّيَاحُ . يقال : زَقَا الصّدَا، يَزقُو، ويَزقِي، زُقَاءً وزُقِيّا إذا صاحَ . قال :

ولو أنّ لَيلى الأخْيَلِيّة سَلّمت عليّ وفوقي جندلٌ وصَفَائحْ
لَسلّمْت تَسليمَ البَشاشَةِ أو زَقى إليها صدًى من جانِب القَبر صائح

والزّواقي في المثل : الدّيَكَةُ، جمع زَاقٍ وزَاقِيَة . وكانوا يسمرون بالليل، فإذا صاحت الديكة تفرّقوا، فيستثقلونها بذلك فقالوا : أثقَلُ مِن الزّواقِي.

أثْقَلُ مِنْ مُغَنٍّ وسَطٍ .

الثقل مرّ، والمُغَنّي اسم فاعل من الغِنَاء، بالمدّ، وهو الصّوْت . والوَسْط يكون تارة اسما غير وصف . فإن كان بالتحريك، فاسم صريح لما بين طرفي الشيء ؛ وإن كان بالسكون فظرف، كقول عنترة :

ما رَاعَنِي إلاّ حَمولَةُ أهْلِهَا وسْطَ الدّيَار تَسَفُّ حبّ الخِمْخِمِ

ويقال : كلّ موضع صلح فيه بين فهو بالتسكين، وإلاّ فبالفتح . وقيل : هما جاريان فيما

كان مصمتا **كالحلقة** ؛ فإن كان متباين الأجزاء فبالسكون فقط . قال صاحب الفصيح فيما يُثقَّل ويُخفَّف باختلاف المعنى : تقول جلس وسْط القوم - يعني بينهم - أي بالتسكين؛ وجلس وسَط الدار، واحتجم وسَط رأسه، أي بالتحريك، وهذا الذي قلنا أوّلا . وقد يكون الوسط وصفا، إمَّا بمعنى الأعْدَل، كقوله تعالى : **وكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وسَطًا** ؛ وإمَّا بمعنى المتوسّط بين أمرين، ومنه المثل . قال السُّهَيْلي : الوسط من أوصاف المدح والتفضيل، ولكن في موضعَيْن : في ذكر النسب، وفي ذكر الشهادة . أمَّا النسب فلأنَّ أوسط القبيلة أعرقها وأولاها بالصميم وأبعدها عن الأطراف وأجدر ألاَّ تُضاف إليه الدعوة ، لأنَّ الآباء والأمَّهات قد أحاطوا به من كلّ جانب، فكان الوسط، من أجل هذا، مدحًا في النسب بهذا السبب . وأمَّا الشهادة فنحو قوله سبحانه : **قَالَ أَوْسَطُهُمْ. وجَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** . **فكان هذا مدحًا في الشهادة، لأنَّها غاية العدالة في الشاهد أن يكون وسَطا كالميزان لا يميل مع أحد، بل يصمّم على الحقّ تصميما، لا يجذبه هوى ولا تميل به رغبة ولا رهبة من هاهنا ولا من هَاهنا، فكان وصفه بالوسَط غاية في التزكية والتعديل . وظنَّ كثير من الناس أنَّ معنى الأوسط الأفضل على الاطلاق، وقالوا : معنى الصلاة الوُسْطى الفُضْلى . وليس كذلك، بل هو في جميع الأوصاف لا مدح ولا ذمّ، كما يقتضيه لفظ التوسّط . فإذا كان وسطا في السِّمَن، فهو بين المُمِخَّة والعجفاء، والوسط في الجَمال بين الحسناء والشوهاء، الى غير ذلك من الأوصاف، لا تعطى مدحا ولا ذمّا . غير أنَّهم قالوا في المثل : أثْقَلُ مِنْ مُغَنٍّ وسَطٍ على الذمّ، لأنه إن كان مُجيدًا جدا أمتع وأطرب ؛ وإن كان باردًا جدًا أضحك وألهى، وذلك أيضا ممَّا يُمتع . قال الجاحظ : «وإنَّما الكرب الذي يجثم على القلوب ويأخذ بالأنفاس الغناء البارد الذي لا يُمتِع لحسن ولا يُضحك بلهو » انتهى . وقال ابن رشيق : « قال بعضهم : الشعر شعران : جيّد مُحَكَّك، ورديءٌ مضحك . ولا شيء أثقلُ من الشعر الوسط، والغناءِ الوسط » . وقد قال ابن الرومي يهجو ابن طيفور :**

عَدمتُكَ يا ابن أبي الطَّاهِرِ وأُطعِمتُ ثُكْلَكَ من شَاعِرِ
فَما أنْتَ سَخْنٌ ولاَ بَاردٌ ومَا بَيْنَ هَذَا سِوَى الفَاتِرِ
وأنْتَ كَذَاكَ تُغَثّي النُّفُوسَ تَغَثِّيَةَ الفَاتِرِ الخَاثِرِ

ونحو هذا قول الآخــر[3] :

مَسِيخٌ مَلِيخٌ كَلَحْمِ الحُوَارِ فَلا أنْتَ حُلْوٌ ولاَ أنْتَ مُرّ !

وسيأتي هذا المعنى بعد، إن شاء الله تعالى .

أَثْقَلُ مِنَ الفِيلِ .

الثِّقَل مَرَّ ؛ والفِيل، بالكسر، الحيوان المعروف، وثقله معروف . وممَّا قال بعض الثقلاء يخاطب ثقيلا :

أنْتَ يَا هَذَا ثَقِيلُ وثَقِـــيلٌ وثَقِـــيلُ

أنْتَ فِي المَنْظَرِ إنْسَانٌ وفِي المَخْبَــرِ فِـيلُ

لَوْ تَعَرَّضْتَ لِظِلٍّ فَسَدَ الظِّلُّ الظَّلِيلُ !

وقال الآخــر :

فَمَا الفِيلُ تَحْمِلُهُ مَيِّتًا بِأثقَلَ مِن بَعضِ جُلاَّسِنا!

ويُحكى أنَّ الأعمش كان ينشد هذا البيت عندما يستثقل جليسا، وزعموا أنَّه قال : من فاتته ركعتا الفجر فليلعن الثقلاء ! وأنَّه نقش على خاتمه : يا مَقِيت، أبْرَمْتَ فَقُم ! فإذا استثقل جليسًا ناوله إيَّاه ؛ وأنَّه قال له رجل يوما : مِمَّ عمشت عيناك ؟ فقال : من النظر الى الثقلاء !

وفي حقّ الثقلاء قال جالينوس : لكلّ شيء حُمَّى، وحُمَّى الروح النظر الى الثقيل . وقيل له : لِمَ صار الرجل الثقيل أثقل من الحمل الثقيل ؟ فقال : لأنَّ ثقله على القلب دون الجوارح، والحمل الثقيل يستعين القلب عليه بالجوارح . وقال زياد بن عبد الله : قيل للشافعي : هل يمرض الروح ؟ قال : نعم، من ظلّ الثقلاء . قال : فمررت به يوما وهو بين ثقيلَيْن، فقلت له : كيف الروح ؟ فقال : في النزع !

كان بعضهم إذا رأى ثقيلاً يقول : قد جاءكم الجبل . فإذا جلس قال : قد وقع عليكم !

قيل لبعض الظرفاء، وكان له ثلاثة بنين ثقلاء : أيّ بنيك أثقل ؟ فقال : ليس بعد الكبير أثقل من الصغير إلاّ الوسط . وكان بشَّار يأتيه ثقيل يقال له أبو سفيان . فسئل عنه بشَّار

3) هو الأشعر الرقبان الأسدي الجاهلي يخاطب رجلا اسمه رضوان كما في **لسان العرب**، وذكر ثلاثة أبيات قبل البيت المذكور هنا . (انظر مادة مسخ).

يوما فقال : لا أدري لِمَ لا تحمل الأمانة أرضٌ حملته، ولا كيف احتاجت الى الجبال بعدما أقلّته ! كأنّ قربه أيّام المصائب، وليالي النوائب ؛ وكأنّ عشرته فقد الحبائب، وسوء العواقب . ثمّ أنشد :

رُبَّما يثْقُلُ الجَلِيسُ وإن كان خَفِيفًا في كِفَّةِ المِيزَانِ
ولَقَد قُلتُ حِينَ وتَّدَ في البَيت ثَقِيلٌ أرْبَى عَلى ثَهلانِ[4]
كَيفَ لا تَحمِلُ الأمَانَةَ أرضٌ حَمَلَت فَوقَهَا أبَا سُفْيَان ؟

وكان لبشّار أيضا صديق يقال له هلال، فقال لبشّار يوما : يا أبا معاذ ! إنّ الّله لم يُذهب بصر أحد إلاّ عوّضه منه شيئا، فما عوّضك ؟ قال : الطويل العريض . قال : وما هو ؟ قال : ألاّ أراك ولا أرى الثقلاء أمثالك ! ثمّ قال : ياهلال، أتطيعني في نصيحة أخصّك بها ؟ قال: نعم ! قال : إنّك كنت تسرق الحمير زمانا، ثمّ تبت وصرت رافضيّا ؛ فعُد إلى سرقة الحمير، فهي والّله خير لك من الرفض ! وفي هلال هذا يقول بشّار :

وكَيفَ يحقُّ[5] لي بَصَري وسَمْعي حولي عَسْكَران مِن الثِّقَال[6]
قُعودًا عنْدَ دسْكُرَتي ودَاري كأنّ لَهُم عَلَيَّ فُضُولَ مال ؟
إذا ما شِئتُ صبَّحَني هِلاَلٌ وأيُّ النَّاسِ أثْقَلُ مِن هِلاَلِ ؟

واستأذن بعض الثقلاء على ابن المبارك، فلم يأذن له . فكتب إليه ذلك الثقيل :

هَلْ لِذي حاجَةٍ إليكَ سَبيلُ ؟ لا طويلٌ قُعُودُه بَل قَليلُ !

فأجابه ابن المبارك :

أنتَ يا صاحبَ الكتابِ ثقيلُ ! وقليلٌ من الثَّقيلِ طويلُ !

ووصف بعض الأذكياء ثقيلاً فقال : هو ثقيل السكون بغيض الحركة، كثير الشؤم قليل البركة، كأنّه ثقَلُ الدين، ووجع العين . وما أحقّه بقول القائل :

ثقيلٌ يُطالعُنا مِن أمَمْ إذا سرّه رَغْمُ أنفي ألَم
لنَظْرتِهِ وخْزَةٌ في القُلوب كَوخْزِ المَحَاجِمِ في المُلتَزَمْ
أقولُ لَهُ إذ أتَى : لاَ أتَى ولاَ حَمَلَتْهُ إلَينَا قَدَمْ
عَدمْتُ خَيَالَكَ لاَ مِن عَمًى وسَمْعَ كَلامِكَ لاَ مِنْ صَمَمْ !

---

4) سقط هذا البيت الثاني من ج.
5)
6) سقط هذا البيت الأول من ج .

ووصف آخر ثقيلاً فقال : هو بين الجفن والعين قذاة، وبين القدم والنعل حصاة . ما أَشْبَهُ طلعتَه إلاّ بِغَدَاةِ الفِراق، أو كتابِ الطّلاق، أو طلعةِ الرقيب، أو موتِ الحبيب!

مُشْتَمِلٌ[7] بالبُغْضِ لا تنثَني إلَيه طوعًا لحْظَةُ الرّامِقِ
يَظَلُّ في مَجْلِسِنَا مُبْرِمًا أثْقَلَ مِنْ واشٍ عَلى عاشِقِ

وذُكر عند العبّاس بن الحسن العلوي ثقيل يقال له أبو عمّار، [فقال][8] : ما الحمام على الاصرار، وحلول الدين على الاقتار، وشدةُ السّقم في الأسفار، بأثقل على النفس من طلعة أبي عمّار . وأنشد :

تَحْمِلُ مِنهُ الأرضُ أضْعَافَ ما يحْمِلُه الحُوتُ مِنَ الأرْضِ

وقال الآخــر :

إلْمامُ كُلِّ ثَقِيلٍ قَد أضرَّ بِنا نَرُوم نَقْصَهم والشَّيءُ يَزداد
ومَن يخفُّ عَلَينا لا يُلِمُّ بنا وللثَّقيل مَعَ السَّاعات تَرداد

وقال الآخر :

وثقيلٍ أشدَّ من ثِقَل المَوتِ ومِن شَدَّةِ العذاب الأليمِ
لَو عَصَتْ ربَّهَا الجحيمُ لما كان سِواهُ عُقُوبَةً للْجَحِيمِ

وقال جَحْظَة البرمكي في صفة ثقيل :

يا لَفْظَة النَّعي بموتِ الخليل يا وقْفَة التَّوديع بين الحُمول
يا شُربة اليارَج يا أجرَة المنزل يا وجْه العَدوِّ الثَّقِيلْ
يا طَلْعَة النَّعْشِ ويا مَنْزلاً أقْفَرَ من بَعدِ الأنِيسِ الحَلولْ
يا نَهْضَة المَحْبوبِ عنْ غَضْبَةٍ يا نِعْمَةً قَد آذنَتْ بالرَّحيلْ
ويا كتابًا جَاءَ مِنْ مُخْلِفٍ لِلوعْدِ مملوءًا بِعُذرٍ طَويلْ
يا بُكْرَة الثَّكْلى إلى حُفْرَةٍ مُستودَعٌ فيها عزيزُ الثَّكُولْ
يا وثْبَةَ الحافظِ مُستَعْجِلاً بصَرفِهِ القَيناتِ[9] عند الأصيلْ

7) في ج : مشتغل...، وهو تحريف.
8) سقطت هذه الكلمة من ب .
9) في ج : الغانيات بدل القينات، وهو لا يصح وزنًا.

ويا طبيبًا قَدْ أتَى بَاكِرًا عَلَى أخِي سُقْمٍ بماءِ البُقولْ
يا شَوْكَةً في قَدمٍ رَخْصَةٍ لَيْسَ إلى إخْراجِها مِنْ سَبيلْ
يا عِشْرَةَ المَجْذومِ في رَحْلِهِ ويا صُعُودَ السِّعْرِ عند المُعيلْ
يا ردَّةَ الحاجِب عَنْ قَسْوةٍ يا نَكْسَةً مِنْ بَعْدِ بُرْءِ العَليلْ !

وقال آخر في ثقيل :

لَيسَ مِنَ النَّاس ولَكِنَّهُ يَحْسِبُهُ النَّاسُ مِنَ النَّاسِ
أثْقَلُ في أنْفُسِ أصْحابِهِ مِنْ جَبَل راسي عَلَى رَاسِ[10]

وقال آخـر :

يامَن تَبرَّمَتِ الدُّنْيا بطَلعَته كَما تبرَّمَتِ الأجْفانُ بالسَّهَدِ
إنِّي لأذكُره حينًا فَأحْسِبُهُ مِنْ ثِقْلِهِ جالسًا منِّي عَلى كَبِدي

وقال آخـر :

نَظَرُ العَيْنِ نَحْوَهُ - عَلِمَ اللّهُ - يُمْرِضُ
فَإذَا مَا أرَدْتُمُ أنْ تَرَوْهُ فَغَمِّضُوا
لاَ تُصِبْكُمْ مُلِمَّةٌ والمُلِمَّاتُ تَعْرِضُ

وقال آخـر :

شَخْصُكَ في مُقْلَةِ النَّديمْ أوحَشُ مِن نَحْسَةِ النُّجومْ
يَا رَجُلاً وجْهُهُ عَلَيْنَا أثْقَلُ مِنْ مِنَّةِ اللَّئيمْ
إنِّي لأرْجُو بِمَا أُقَاسِي مِنْكَ خَلاَصِي مِنَ الجَحِيمْ

والشعر في هذا المعنى كثير . وقد قال المفسّرون نزلت آية في الثقلاء : **فَإذا طعمْتُمْ فَانْتَشِرُوا** . أدَّ بهم اللّه بذلك . وكان حمَّاد بن سَلَمة إذا رأى ثقيلاً قال : **ربَّنا اكشف عنَّا العَذَابَ إنَّا مؤمِنُونَ** . وذكر الأعمش ثقيلا كان يجلس إلى جانبه فقال : واللّه إنّي لأبغِضُ شِقِّي الذي يليه منِّي . وقال سهل بن هارون : مَن ثقُل عليك بنفسه، وأغمَّك بحديثه أو سؤاله، فأعرْه عينا عمياء، وأذنا صمَّاء . وأنشد أيضا في ذلك

هَذا فَتَى أثْقَلُ مِنْ أحُدِ يُصْبِحُ مَنْ يَلْقاهُ فِي جُهْدْ
عَلامَةُ البُغْضِ عَلَى وجْهِهِ بيِّنَةٌ مُذْ كَان فِي المَهْدِ

10) في جـ : نفوس بدل أنفس، وراس بدل راسي.

لَوْ دخلَ النَّارَ طَفَا حرُّهَا ومَاتَ مَنْ فيها مِنَ البَرْدِ !

وفي الاستبراد قال آخر في قينة :

ولَوْ مَازَجَ النَّارَ في حرِّهَا حَدِيثُكِ أخْمَدَ مِنْهَا التَّلهَبْ

وقال كشاجم[11] :

غِنَاءٌ بريحٍ بأرْضِ الحِجَازِ يَطِيبُ وأمَّا بِحِمْصٍ فَلاَ

لِبَرْدِ الغِنَاءِ وبَرْدِ الهَوَاءِ فَإنْ جُمِعَا خِفْتُ أنْ يَقْتُلاَ

ولقي برد الخيار المغنّي أبا العبّاس المبرّد على الجسر في يوم ثلج، فقال له : أنت المبرّد، وأنا برد الخيار، واليوم كما ترى، اعتزلنا لا يُهلك الناسَ الفالجُ بسببنا . وأذكرني هذا قول ابن الخطيب :

(بياض بمقدار نصف صفحة في النسخ كلها)

ثُكْلٌ أرْأمَهَا ولَدًا.

الثُّكْلُ، بضمّ الثاء : الهلاك والموت وفقد الأحبّة وفقد الأولاد، وهذا هو الكثير الاستعمال . يقال : ثَكِلَهُ، بكسر الكاف ثُكْلاً، فهو ثَكْلاَن، وهي ثَكْلَى، مثل سَكْرَى . قالت الحماسيّة :

سَيَتْرُكُها قَوْمٌ ويَصْلَى بحَرِّها بَنُو نِسْوَةٍ للثُّكلِ مُصطَبِراتِ

ويُحكى أنّ عُمير بن جُنْدُب مات قُبيل الاسلام . فجهّزوه، ثمّ كشف القناع عن رأسه فقال : أين القُصَل ؟ والقُصَل بالقاف على الصحيح، وبالصاد المهملة واللام ـ على مثال صُرَد ـ وهو أحد بني عمّه . فقالوا : سبحان اللّه ! مرّ آنفا فما حاجتك إليه ؟ فقال : أُتيتُ فقيل لي : لأمّك الهَبَل ! ألا ترى إلى حفرتك تُنْثَل، وقد كادت أمّك تَثْكَل؟ أرأيتَ إنْ حَوّلْناك إلى مُحَول، ثمّ غُيِّب في حفرتك القُصَل، الذي مشى فاحْزَأَلّ، ثمّ ملأناها من الجَنْدل ؟ أتعبُدُ ربّك وتُصَلّ، وتترك سبيل من أشْرَك وضَلّ ؟ فقلت : نعم ! فأفاق عمير وتزوّج ووُلد له الأولاد . ولبث القُصَل ثلاثًا ثمّ مات، ودفن في قبر عمير.

---

11) تحرف في ب إلى كجاشم.

وقالت أسماء المرية :

أيا جَبَلَيْ وادي عُرَيْعِرَة الَّتي نَأَتْ عَن ثَوى قَومي وحقَّ قُدومُها
ألا خلِّيا مجْرى الجَنوبِ لَعَلَّهُ يُداوي فُؤادي مِن جَواهُ نسيمُها !
وكَيف تُداوي الرِّيح شوقًا مُماطلاً وعينًا طويلاً بالدُّموع سجومُها ؟
وقُولا لركْبانٍ تميميَّة غَدَتْ إلى البَيتِ تَرجو أن تُحَطَّ جُرومُها
بأنَّ بأكنافِ الرَّغامِ غَريبةً مُولَّهةً ثكْلى طويلاً نَئيمُها
مُفجَّعةً أحْشاؤُها من جَوى الهَوى وتَبريحِ شَوقٍ عاكفٍ ما يَريمُها

والإرآمُ : التحبيب والتعطيف . يقال : رَئِمَ فلان كذا بالكسر، يَرْأمُه : أحبَّه وألِفَه ؛ ورَئِمَتِ الناقةُ ولدَها، رِئْمَانًا : عطفت عليه ؛ وأرْأمْتُها : عَطَفْتُها على غير ولدها أو على البَوّ، وهو الجلد يُحشى لها لِتَدِرَّ عليه . قال :

رئِمْتُ لِسَلْمَى بَوّضَيْمٍ وإنَّني قَديمًا لآبِي الضَّيْمِ وابنُ أبَاةِ

وقال الحماسي :

ومَولىً جَلتْ عَنهُ المَوالي كأنَّهُ مِن البُؤس مَطليٌّ به القارُ أجربُ
رئمتُ إذا لم تَرأمِ البازلُ ابْنَها ولَم يكُ فيها للمبسِّين مَحْلبُ

وقال الآخر :

أنَّى جَزَوْا عامرًا سُوءًا بفِعْلهِم أمْ كَيف يجزونَني السُّوأَى من الحَسن
أم كَيف يَنفَعُ ما تُعْطىَ العَلوقُ به رئْمان أنفٍ إذا ما ضنَّ بالَّلبَنِ

والولَدُ معروف . والمثل لبَيْهَس المعروف بنعامة . وكان من حديثه أنه خرج مع إخوة له سبعة، فلقيهم قوم في موضع يقال له الأثلاث، فقتلوهم إلاَّ بَيْهَسًا، وكان أصغرَهم . فاستحقروه واستبقوه، ثمَّ احتملوه معهم حتَّى إذا قام قائم الظهيرة نزلوا فنحروا ناقة من وسِيقَتِهم فأكلوا منها، ثمَّ قال قائلهم : ظلّلُوا لحمَ جَزُوركم ! فقال بيهس : لَكِنْ عَلَى الأثْلاثِ لَحْمٌ لا يُظَلَّلُ[12] - يعني لحوم إخوانِه المقتولين - فأرسلها مثلا . فقال أحدهم : إني لأسمع من هذا الأنَيْسِيان أمرًا يُوشِك أن يكون وراءه شرٌّ : فاقتلوه ! فقال زعيمهم : أيُعَدُّ علينا [هذا] بقتيل ؟ خَلُّوه لصغر سنه، فهو أحقر من ذلك ! فاحتملوه حتَّى إذا بلغوا به سَمْتَ الحيّ قالوا له : ائت أهلك وانْعَ إخوتك ! فانطلق

12) الرواية المشهورة لهذا المثل : « لكنّ بالأثاث لحمًا لا يُظلّل ».

حتَّى دخل على أمّه، فقالت له : أين إخوتك ؟ قال : قُتلوا . فقالت : وما الذي أتى بك دونهم ؟ فقال لها : لَوْ خَيَّرَكِ القَوْمُ لاخْتَرتِ ! فأرسلها مثلا . وكانت تبغضه لكثرة شرّه، وتحبّ إخوته . فلمَّا فقدتهم أحَبَّتْهُ ورَئِمَتْه . فقال حينئذ : ثُكْلٌ أرْأمَهَا ولَدًا، أي ما عطفها على هذا الولد - يعني نفسه - ولا رقّقها عليه ولا آلفها إيَّاه إلاَّ ثُكْلُها أولادها الباقين، وفقدها أولادها المحبوبين . ومضرب المثل من هذا المعنى ظاهر . ثمَّ جمعت له أمّه تُراثَ إخْوتِهِ وأعطته إيَّاه . فجعل يدير فيه وكان يقول : يَا حَبَّذَا التُّرَاثُ لَولاَ الذِّلَّةُ ! فسارت مثلا . وصنع بعض أهل الحِوَاء عرسًا وحضره صبيان الحيّ، فلمَّا رآهم بَيْهَس يلعبون، تجرَّد عن ثيابه وجعل يرقص معهم . فأتته أمّه فقالت له : ما هذا يا بيهس ؟ [فقال] :

الْبَسْ لِكُلِّ حَالَةٍ لَبُوسَهَا إمَّا نَعِيمَهَا وإمَّا بُوسَهَا !

فذهبت مثلا . فبينما هو ذات يوم يرعى غنما له إذ ألجأه الحرّ إلى غار يستظل فيه . فرأى قتلة إخوته، وهم عشرة، قد عقلوا إبلهم على طرف الغار وقالوا . فخلَّى غنمه وبادر إلى الحيّ، فأخذ سلاحه وأتى خالاً له يقال له أبو حَنَش[13] وكان جبانا . فقال له : أبا حنش هل لك في ظباء تصطادهنّ ألجأهنّ الحرّ إلى غار ؟ قال : نعم . قال : فتَنَكَّبْ قوسك وحَيَّهَلاً ورائي ! فأقبل به حتَّى هجم على فم الغار . وخاف بيهس أن يهرب خالُه، فصاح على القوم حتَّى ثاروا . فتقدَّم بيهس وتبعه خاله، علمًا منه أنَّه غير ناج إن فرّ، وقتلا القوم ورجعا بسلاحهم إلى الحيّ، وقد ثأر بيهس بإخوته . فكان من لقي خاله يقول له: ما أشجعك أبا حنش ! فيقول له : مُكْرهٌ أخَاكَ لاَ بَطَل ! فذهبت مثلا . ويقال إنَّ مُدْركِي الأوتار في الجاهليَّة ثلاثة : قَصِير بن سعد - وتقدَّم أمره - وسيف بن ذي يَزَن الحِمْيَرِي - وسنذكره - وبيهس هذا . قال الشاعر :

ومِنْ طَلَب الأوتَارِ مَا حَزَّ أنْفَه قَصير وخاضَ الموتَ بالسَّيف بيْهَسُ[14]

وإنَّما لُقّب بنعامة لطول رِجْلَيْه ، فرأته أمّه يومًا فقالت : نعامةٌ والله ! فقال : نعامة عرفتنِي، نَسَأها الله ! أي أخَّرها في أجلها . وقيل لصَمَمِه، وكان أصمَّ أصلع، والعرب

---

13) في مخطوطاتنا : أبوحش، وفي **مجمع الامثال** : أبو حنش، وقد اخترناه لأن « حش » اسم موضع لا اسم انسان فيما نعرف .

14) بعد هذا البيت :

نعَامةُ لمَّا صرّع القَومُ رهطَه تبيَّنَ في أثوابه كيف يَلْبَسُ

ويظهر أن هذا البيت سقط من النسخ، لأن اليوسي شرح عقبه سبب تلقيب بيهس بالنعامة .

تصف النعام بذلك، يزعمون أنه مُصَلَّمٌ لا أذن له ولا يسمع الأصوات، إمَّا حقيقة أو إنَّه لا يلتفت إليها . قال علقمة يصف الظَّلِيمَ :

فُوهٌ كَشَقٍّ العَصا لَأْيًا تبيِّنه   أسَكُّ ما يَسمَعُ الأصواتَ مَصلُومُ

وقال زهير :

كأنَّ الرَّحل منها فوقَ صَعْلٍ   مِن الظِّلمان جُؤجُؤُهُ هواءُ
أسَكُّ مَصَلَّمُ الأذُنَيْنِ أجْنَى   لَهُ بالسِّيِّ تَنُّومٌ وآءُ

وقال عنترة :

فكأنَّني أطِسُ الإكَامَ عَشِيَّةً   بَقريبِ بينَ المَنسِمَينِ مُصَلَّمِ[15]

الثَّورُ يحْمِي أنْفَهُ بِرَوْقِهِ.

الثَّوْرُ، بفتح الثاء وسكون الواو، معروف، يطلق على الانسي والوحشي . والحماية : المنع والحفظ، يقال : حَمَاهُ من كذا يَحْمِيه، منعه وحفظه . والرَّوْقُ، بالفتح، القَرْنُ . قال امرؤ القيس :[16]

والمعنى أنَّ الثور يدافع عن نفسه بقرنه، فيُضرب في الحثّ على حفظ الحريم، والذب بما أمكن . وتقدَّم في كلام عمرو بن أمامة حيث قال :

لَقَد عَرفْتُ الموت قَبل ذوقِهِ:   إنَّ الجَبان حَتْفُهُ من فوقه
كُلُّ امرىءٍ مُقاتلٌ عن طوقِهِ   كالثَّورِ يحْمي أنْفَهُ بروقه

وفي خبر ابن إسحاق عن عائشة أمّ المؤمنين، رضي الله عنها، قالت : لما قدم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المدينة قدمها وهي أوْبَأ أرض الله من الحمَّى . فأصاب أصحابه منها بلاء، وصرف الله ذلك عن نبيّه . قالت : فكان أبو بكر، وعامر بن فُهَيْرَة وبلال مَولَيَا أبي بكر في بيت واحد، فأصابتهم الحمَّى . فدخلتُ عليهم أعُودُهم، وذلك قبل أن يُضْرَبَ علينا الحجاب، وبهم مالا يعلمه إلاَّ الله من شدَّة الوعك . فدنوت من أبي بكر، فقلت له : كيف تجدك يا أبَتِ ؟ قال :

---

15) ورد صدر هذا البيت في **الشعر الجاهلي** كهذا : فكأنَّني أقِطُ الاكام... والوقط والوطس متقاربان في بعض معانيهما . لكنّ عنترة كثيرًا ما يستعمل الوطس في شعره، كقوله :
خطَّارة غِبَّ السُّرى موَّارة   تَطِسُ الاكامَ بذات خُفٍّ مِيثَم
16) بياض في ب و د. ولم يرد في ج اسم امرىء القيس.

كلُّ امرىءٍ مَصَبَّحٌ في أهْلِهِ والموتُ أدنَى من شِراكِ نَعْلِهِ
قالت : فقلت واللّه ما يدري أبي ما يقول ! قالت : ثمّ دنوت إلى عامر بن فُهَيْرة فقلت :
كيف تجدُك يا عامر ؟ فقال :
لقد وجدتُ الموتَ قبلَ ذوقِهِ إنّ الجَبانَ حتفُه من فوقِهِ
كلُّ امرىءٍ مُجاهدٌ بِطوقِهِ كالثّور يحْمِي جِلْدهُ بروقِهِ
قالت : فقلت واللّه ما يدري عامر ما يقول ! قالت : وكان بلال إذا تركته الحمّى اضطجع
بفناء البيت، ثمّ رفع عقيرته فقال :
ألا ليْتَ شِعْري هَل أبيتَنّ ليلةً بوادٍ وحولي إذْخِرٌ وجليلُ ؟
وهَل أردنْ يومًا مِياهَ مِجنّةٍ وهَل يبْدوَنْ لي شامةٌ وطفيلُ ؟
قالت : فذكرت لرسول اللّه، صلّى اللّه عليه وسلّم، ما سمعت منهم وقلت . إنّهم
لَيَهْذُون وما يَعْقِلون من شدّة الحمّى . فقال رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وسلّم :
اللّهمّ حبّب إلينا المدينة كما حبّبت إلينا مكّة أو أشَدّ، وبارك لنا في مُدّها وصاعِها، وانقُلْ وبَاءهَا إلى مَهْيَعَةَ . ومَهَيعَةُ الجُحْفَةُ.
والظاهر أنّ عامرا، رضي الله عنه، تمثّل بالشعر وإن كان فيه بعض مخالفة . وبعد كتبي
هذا رأيت السهيلي قال : يُذكر أن قول عامر : لَقَدْ وجَدتُ المَوتَ قَبْلَ ذَوقِهِ، أنّه
لعمرو بن أمامة . انتهى . وهو ما استظهرناه قبل . وقول بلال : بِوادٍ، يُروى بفخٍّ أيضا،
وفَخٌّ موضع بمكّة فيه ماء، وفيه اغتسل رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وسلم وهو مُحْرِمٌ
لدخول مكّة، وفيه قال الشاعر :
ماذا بفخٍّ مِنَ الاشْراقِ والطّيبِ ومِنْ جوارٍ نقيّاتٍ رعابيبِ !
ومجَنّة سوقٌ من اسواق العرب ؛ وشامَة وطَفيل عينان من ماء، وقيل جبلان . قال
السهيلي : وفي هذا الخبر وما ذُكر من حنينهم إلى مكّة، ما جُبلت عليه النفوس من حبّ
الوطن والحنين إليه، وما كانوا عليه من الحنين إلى الاوطان الذي هو جبلَة في البشر كما
رُوي في حديث أصَيْل الغِفاري ـ ويقال فيه الهُذلي ـ حين قَدم مكّة، فسألته عائشة :
كيف تركت مكّة يا أصَيْل ؟ فقال : تركتها قد ابيضّت أباطِحُها، وأحْجَر ثُمامُها،
وأعْذق إذْخِرُها، وأمشَرَ سَلَمُها، فاغْرَوْرَقَ عينا رسول اللّه، صلّى اللّه عليه

وسلَّم، وقال : **لا تُشَوِّقْنا يا أُصَيل ! ويُروى أيضا أنه قال له : دع القلوب تَقِرَّ !**

وفي هذا المعنى قول الآخر :

ألا لَيتَ شِعْري هل أبيتَنَّ ليلةً بوادي الخُزامي حيثُ ربَّتني أهْلي

بلادٌ بها نيطَتْ عليَّ تمائمي وقُطِّعْن عنِّي حين أدركني عقلي

انتهى كلا السهيلي . وهذا المعنى مستوفىً في هذا الكتاب في غير هذا الموضع.

ثَارَ حَابِلُهُم عَلى نَابِلِهِم

الثَّوْرُ : الهَيَجَانُ والوَثْبُ : ثَارَ، يَثُورُ، ثَوْرًا، فَهُوَ ثَائر . وأثَرْتُه، وثَوَّرْتُه، واسْتَثَرْتُه .

والحابِل يُطلق على من شَدَّ الشيء بحبل، ومنه المثل الآتي : يَا حَابِلُ اذكُر حَلاًّ !

وعلى من نَصَب الحِبالة للصيد أو أخذه فيها . يقال : حَبَلَ الصَّيْدَ واحْتَبَلَه : إذا أخذه أو نَصَبَ له . والنَّابِل والنَّبال : صاحب النَّبْل وصانعه . والنَّبْل : السهم قال امرؤ القيس :

نَطْعَنُهُم سُلْكَى ومَخْلُوجَةً كَرَّكَ لأمَيْنِ على نَابِلِ

أي نطعنهم طعنًا مستقيما وطعنًا مُعْوجًا من كل وجه . كَرَّكَ لأمَيْن، أي كردِّك لأمين، أي سهمَيْن، على نابل، أي على رامٍ بهما في السرعة . وقال أيضا :

وليس بذي رُمحٍ فيطعَنُني بِه وليس بذي سَيفٍ وليس بنبَّال

ويقال إنَّ الحابل في هذا المثل السَّدَى، والنابل الطُّعْمَة : فإذا قيل في القوم إنَّهم ثار حابلهم على نابلهم كان معناه أنَّهم اشْتجروا وأوقدوا الشرَّ فيما بينهم.

وممَّا يلتحق بهذا الباب قولك : أثْقَلُ مِنَ الحَديدِ، ومِنَ الرَّصاصِ، ومن حُلُول الدَّيْنِ مع الاقتار، ونحو ذلك، وهو مطرِّد . وقولهم :

ثُلَّ عَرشُ فُلانٍ إذا هَوى[17]أمْره وتضعضع عزّه وذهب ملكه. قال زهير :

تداركْتُما الأحلافَ قَد ثُلَّ عرشُهم وذبيانَ قَد زلَّتْ بأقدامِها النَّعلُ

وثَلَّ اللّهُ عَرشَهُ : فعل به ذلك . قال الآخر :

---

17) في ج : وهَى.

إن يَقْتلوكَ فقد ثلَلْتَ عُروشهم بعُتيبَةَ بن الحارثِ بن شِهَاب

والعَرشُ سرير الملك، وسقف البيت، والعزّ، وقوام الأمر. ومنه ما ذكر.

ولنذكر بعض ما تيسَّر من الشعر . قال ابن الرومي :

يا مادحَ الحِقدِ مُحتالاً له شُبَهًا لَقد سلكتَ إليه مسلكًا وعثًا

يا دافن الحِقد في ضعفي جوانحه ساءَ الدَّفين الذي أضحت له جَدثا

الحِقد داءٌ دويٌّ لا دواء له يُدوي الصُّدور إذا ما جمره حُرثا

فاستشفيَنْهُ بصفحٍ أو مُعاتَبةٍ فإنَّما يُبْرِىء المصدور ما نُفِثا

إنَّ القبيحَ وإن صيَّعتَ ظاهرهُ يعُود ما لمَّ منه مرَّةً شَعثا

كم زخْرفَ القول ذو زورٍ ولبَّسه على القلوب ولكن قلَّ ما لبثا

وإنَّما قال ذلك لأنَّه قال أيضا في مدح الحقد :

لئن كُنت في حفظي لما أنا مودعٌ من الخير والشَّر انتحيت على عرضي

لما عِبتني إلاَّ بفضل أمانةٍ وربَّ امرىءٍ يزرى على خُلقٍ محض

ولولا الحُقودُ المستكنَّاتُ لم يكن لينقُضَ وتْرًا آخر الدهر ذو نقض

وما الحقدُ إلا تَوأمُ الشكر في الفتى وبعض السَّجايا يَنْتسبْنَ إلى بعض

فَحيثُ ترى حقدا على ذي إساءة فثمَّ ترى شُكرا على حسن القرض

وأخذ ذلك من قول ابن صالح، حين أتِـيِ به الرشيدُ وهو في قيوده، فقال له يحيى بن خالد - وأراد أن يسكته -: بلغني أنَّك حقود ! فقال له : أيّها الوزير، إن كان الحقد هو بقاء الخير والشرّ، إنّهما لباقيان في قلبي ! ويُروى أنَّه قال له : إنَّما صدري خزانة لحفظ ما استودعت من خير وشرّ . فقال الرشيد : تاللَّه ما رأيت أحدا احتجَّ للحقد بمثل ما احتج به!

وقال الآخـــر :

ما طابَ فَرعٌ أصْلُهُ خبيثُ ولا زَكا مَن مَجْدُهُ حديثُ

وقال الآخـــر :

إنَّ قومًا يَلحون في حُبٍّ سُعْدى لا يَكادون يفْقَهون حَديثَا

سَمعُوا وصْفَها فَلامُوا عَلَيْها أخَذُوا طَيِّبًا وأعْطَوا خَبيثَا

وتقدَّم هذا المعنى قبل مستوفى.

وقال أبو دلامة[18] :

إنِ النَّاسُ غطَّوني تغطَّيت عنهم وإن بحثُوا عنِّي ففيهم مباحثُ

وكانت لرجل عنده شهادة في حقّ، فلمَّا طلبه بالأداء قال له : إنَّ شهادتي لا تنفعك عند القاضي . فقال له الرجل : لابدَّ من شهادتك ! فشهد أبو دلامة وانصرف وهو يقول الشعر المذكور . فحكم القاضي بشهادته، وغرَّمَ المشهود عليه المال حتَّى قبضه المشهود له، فغرمه القاضي للمشهود عليه خوفا من ظلمه ليجمع بين المصلحتين . وقيل إنَّ أبا دلامة استأجر طبيبا ليعالج ابنـًا له بمبلغ من الأجرة، فلمَّا داواه قال للطبيب : إنَّه ليس عندي ما أعطيك، ولكن اذهب وادَّع بهذا المبلغ على من شئت ! وقيل إنَّه قال له ادَّع على فلان اليهودي [به]، وأنا وابني نشهد لك ! فادَّعى الطبيب على اليهودي، فجاء أبو دلامة وابنه يشهدان له عند القاضي ابن أبي ليلى - أو ابن أبي شُبْرُمَة - فلمَّا علم أبو دلامة أنَّ القاضي لا يجيز شهادتهما أنشد بحيث يسمعه القاضي ما مرَّ . فلمَّا سمع القاضي ذلك حكم بشهادتهما خوفـًا من أذاه، وغرَّم ذلك المبلغ للمحكوم عليه، والـلَّه أعلم.

ومن هذا المعنى ما ذكر ابن رشيق عن العتبي من أنَّ رجلا من أهل المدينة ادَّعى حقـًّا على رجل، فدعاه إلى ابن حنطب، قاضي المدينة، فقال : من يشهد بما تقول ؟ فقال : زنقطة فلمَّا ولَّى قال القاضي : ما شهادته له إلاَّ كشهادته عليه . فلمَّا جاء زنقطة أقبل على القاضي وقال له : فداك أبي وأمِّي ! أحسن والـلَّه الشاعر حيث يقول :

مِن الحُنظُبيِّين الذين وجوهُهُم دنانيرُ ممَّا شِيفَ في أرض قيصرا

فأقبل القاضي على الكاتب وقال : كبير وربِّ السماء ! ما أحسبه شهد إلاَّ بالحقّ . أجِزْ شهادته !

وقال الصفدي :

صَبْري الذي اقتسمتْهُ غُربةٌ ونوًى كأنَّما لهُما في ذاك مِيراثُ

وكلُّ يومٍ على ما فيهِ من هرمٍ يلْقَى صُروفَ اللَّيالي وهْي أحداثُ

وقال ابن الحدَّاد يرثي :

---

18) سقط اسم أبي دلامة من ج.

شَمسَ الظَّهيرة هَل تدرينَ ما حدثا ؟ شَمسُ العشيرةِ حلّتْ مغربًا حدثا

انظُر ثَبيرًا هل انهدّت جوانبُه لحادثٍ في ثبير الحِلم قد حدثا

ومن المستحسن في باب الرثاء قول أبي الفرج الجوزي، وقد لِيمَ على اكتحاله يوم عاشوراء:

ولائـــمٍ لِي على اكْتحَـــالي يومَ أراقُـــوا دَمَ الحُسَيْـــنِ

فَقُلتُ : كفُّوا ! أحقُّ شيءٍ فيهِ بلُـبْس السَّوادِ عَـــيْنِـي

وقال الآخر يرثي بعض الأمراء :

كان الأميرُ نظامُ الدّين لُؤلُؤةً قَد صاغَها اللّهُ من مجدٍ ومن شَرف

عزّت فلم تقدر الأيّام قيمتَهَا فردَّها غيرةً منه إلى الصَّدفِ

وقول الآخر في غلام له يُلقّب بالسيف :

سَتَذرف أجفاني عليك دموعَهَا ولا غَرو أن تبكي على السَّيف أجفانُ

بَكتْكَ عيونُ الشُّهبِ إذ كنت بدرها وغالك من قبل التتمَّة نُقصانُ

وشقّت يمين الصُّبح فيك عن الدُّجا قميصًا فأضْحى وهْوَ للحُزن عُريانُ

وقال الزمخشري يرثي شيخه :

وقائلةٍ : ما هذه الدُّرَرُ الّتي تَناثَرُ من عينيكَ سِمْطَين سمطَين ؟

فقلت : هُو الدُّرُّ الذي قد حشا به أبو مُضرٍ أذني تساقَط من عينِـي

وقول ابن الحدّاد :

شَقيقُكَ غُـيِّبَ في لَحـدهِ وتُشرقُ يا بَدرُ من بَعدهِ!

فَهلاّ خَسفْتَ فكان الخُسوفُ حِدادًا لبِستَ على فَقْدهِ ؟

وقول ابن المعتزّ :

لم تمت أنتَ إنّما مات من لم يُبقِ للمجْد والسَّماحة[19] ذكـرا

لستُ مُستسقيًا لقَبْرك غَيْثًا كَيف يُسقَى وقَد تضمَّن بحْرا ؟[20]

وقول العطوي في رجل كان يعول أناسا كثيرين فمات :

ولَيسَ صريرَ النَّعش ما تَسمعونه ولـكنَّه أصْلابُ قومٍ تقصَّـفُ

ولَيس فَتيتَ المسْكِ ما تجِدونه ولـكنَّه ذاكَ الثَّناءُ المُخلَّـفُ

19) في الديوان : والمحامد بدل والسماحة.

20) « لقبرك » حرّف « لغيرك » في ب. وفي الديوان : « كيف يظما » بدل كيف يسقى.

وقال ابن عبدون الورّاق :

قَبْرٌ بسوسةَ قَد قبرتُ به الفتى ... أدرجْتُ قلبي في مَدارجِ لحدِهِ
أسْكنته سُكنَى ورحتُ كأنَّني ... في الأرض لا بشرًا أرى من بعده[21]
صَمَّتْ عليَّ مسامعي في وجْهِهِ ... وصُعِقتُ من صَعقِ الصُّراخ ورعده[22]
وجَهدت أن أبكي فلم أجد البُكا ... فسكتُّ سكْتَةَ صارمٍ في غِمدهِ
هبني بكيت له، وما يجدي البكا ؟ ... ماءٌ بخدِّي والتُّرابُ بخدِّه !

وهذا الباب كثير، لا يأتي عليه الحصر.

ومن أشهر المراثي وأحسنها مرثيَّة أبي الحسن الأنباري في ابن بقيَّة، حين قتله عضد الدولة وصلبه، وأوّلها :

عُلُوٌّ في الحَياةِ وفي المَمَاتِ : ... لحقٌّ أنتَ إحدى المُعجزاتِ !

وهي مشهورة معروفة . ولمَّا اشتهرت ووصلت الى عضد الدولة، وأُنشدت بين يديه، تمنَّى أن يكون هو المصلوب !

وقال ابن نباتة في النسيب :

يارُبَّ خالٍ على خدٍّ الحبيب له ... في العاشقين كما شاء الهوى عبثُ
أورثــته حبَّة القلب القتـيل به ... وكان عنديَ أنَّ الخالَ لا يَرِثُ !

وفي الخال قول الحاجري :

عجبتُ لخالٍ يعبُد النَّار دائمًا ... بخدِّك لم يُحرقْ بها وهْو كافِرُ
وأعجب من ذا أنَّ طرفَك منُذرٌ ... يُصدِّقُ في آياته وهْوَ ساحِرُ
وما أخضرَّ ذاك الخدُّ نبتًا وإنَّما ... لِكثْرة ما شُقَّت عليه المَرائِرُ
ومُذ أخْبروني أن قدَّك بانةٌ ... تيقَّنتُ أنَّ القلب منِّي طائِرُ

وفي القدّ قول الآخر :

بِروحِيَ معْشوقُ الجمال فما له ... شبيهٌ ولا في حُبِّه ليَ لائِمُ
تثنَّى فمات الغُصن من حسدٍ له ... ألم تَره ناحَت علَيه الحمائم ؟

وقول الآخـــر :

---

21) في ب و جـ : لا بشر وفي د : لا بشرى.

22) في ب و جـ : وضعفت بدل وصعقت.

قُلت للأهيَفِ الّذي فَضَحَ الغُصن كلامُ الـوُشاةِ ما ينبـغي لك[23]

قال : قَولُ الوشاةِ عنديَ ريحٌ قُلت : أخشى ا غصن أن يستميلكْ

ويشبه هذا ما حُكي أنّ رجلا دخل دارًا ينظرها ليشتريها، فسمع في بعض خشبها صوتا، فقال : ما هذا ؟ فقال صاحب الدار : أعزّك اللّه ! هذا السقف يسبّح اللّه عزّ وجلّ . فقال: أخشى أن يلحقه الخشوع فيسجد.

وقال ابن خفاجة :

وعشيٍّ أُنسٍ أضجَعْتنِي نَشْوةٌ فيه تُمَهِّدُ مضْجعي وتُدمِّثُ

خَلَعَتْعليَّ بها الأراكَةُ ظلَّها والغُصنُ يُصغي والحمامُ يحدِّثُ

والشَّمسُ تجنحُ للغروب مريضةً والرَّعـدُ يَرْقِي والغمـامةُ تنفُثُ

وممّا يستلذّ في هذا المعنى قول الآخر :

عرِّجْ بمنْعَرَجِ الكَثيبِ الأعفَـر بين الفُراتِ وبين شطِّ الكوثَـر

ولْتَغْتَبِقْهَـا قهـوةً ذهبـيّةً من راحتَيْ أحْوَى المدامِعِ أحْورِ

وعشيَّةٍ كم كُنتُ أرقُبُ وقْتَها سمحتْ بها الأيّام بعد تعذُّرِ

نِلنا بهـا آمالَنـا في روضَةٍ تُهْدي لِنَاشِقِها نسيمَ العَنْبَرِ

والوُرقُ تشْدو والأراكَةُ تَنْثنِي والشَّمس ترفُلُ في قميصٍ أصْفرِ[24]

والرَّوضُ بين مُفضَّضٍ ومُذهَّبٍ والزَّهرُ بيـن مُدرْهَـمٍ ومُدنـَّرِ

والنَّهرُ مصقولُ الأبـاطِحِ والرُّبا والشَّـطُّ بيـن مزعْفـرٍ ومُعصْفـر

وكـأنَّهُ وكـأنَّ خُضرةَ شطِّه سيـفٌ يُسلُّ على بساطٍ أخضر[25]

وكأنَّما ذاك الحبـابُ فِرنْـدُهُ مهما طَفا في صَحفَةٍ كالجَوهر[26]

وكـأنَّهُ وجِهَـاتُهُ مَحْفـوفَةٌ بالوردِ والرَّيْحانِ خَـدٌّ مُعذِّرِ

نهْرٌ يهيمُ بحُسنِهِ من لم يهِم ويُجيدُ فيه الشِّعْرَ من لم يشْعُرُ

ما اصفرَ وجهُ الشَّمس عند غروبها إلا لفرقةِ حُسنِ هذا المنظَـرِ

وقول مالك بن المرحّل :

---

23) في ج : لا ينبغي لك.

24) في ج : والشمس ترقص...

25) صُحّفت كلمة « خضرة » في ب، فكتبت خطرة.

26) صُحّفت كلمة « صحفة » في ج، فكتبت صفحة.

وعشيَّةٍ سبق الصَّباحُ عشاءها ... قصرًا فما أمْسيتُ حتَّى أسْفرا

مسكيَّةٍ لبسَت حُلَّى ذهبيَّةً ... وجلا تبسُّمُها نقابًا أحْمَرا

وكأنَّ شُهْب الرَّجْمِ بعضُ حُليِّها ... عَثَرَتْ به من سُرعةٍ فتكسَّرا[27]

وقال أبو النصر بن عبد الجبَّار :

عليك بإغْباب الوصالِ فضدُّه ... يُعيد حِبال الوصلِ منكَ رِثاثا[28]

فلو كلِّف الانسانُ رُؤْية وجهه ... لطلَّقَه بعْد الثَّلاثِ ثلاثَا

ومثله قول الآخر :

عليكَ بإغْبابِ الزِّيارةِ إنَّها ... تكونُ إذا دامَتْ إلى الهَجْرِ مسلكا

وسيأتي هذا المعنى إن شاء اللَّه تعالى .

وقال الحَمَوِيّ :

إنَّ قومًا يَلْحَونَ في حبٍّ سُعْدَى ... لا يَكَادُون يَفْقَهونَ حَديثَا

سمعُوا وصفَها ولاموا عليْها ... أخذوا طيِّبًا وأعْطوا خَبيثَا

وهذا من الاقتباس، وهو أن يؤتى في الكلام المنثور أو المنظوم بلفظ يشبه لفظ القرآن أو الحديث غير منويّ به أنَّه قرآن أو حديث . ولا بدَّ من هذا القيد الأخير، ولذلك ساغ سوق اللفظ مع تغيير فيه أو في معناه، ولا يلزم فيه كفر تبديل القرآن ولا خلاف نقل الحديث بالمعنى . ولنذكر طرفا من ذلك ها هنا :

فمن الاقتباس من القرآن في النثر قول الحريري : فلم يكن إلاَّ كلمح البصر أو هو أقْرَب، حتَّى أنشد فأغْرَب . وهو في الشعر أكثر . ثمَّ إنَّه قد يكون اللفظ المقتبس بيتا كاملا، كقول أبي محمَّد بن السِّيد البَطَلْيُوسي في بعض مواضعه :

خفِّفُوا ثِقْلَ الخَطَايَا ... أفْلَحَ القَوْمُ المُخِفُّونَ !

كيفَ تُعْطُونَ مِنَ البَاقِي ... وبالفَانِي تَضنُّونَ ؟

لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حتَّى ... تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ !

وقول ابن العفيف :

يا عاشِقِينَ حَاذِرُوا ... مُبْتَسَمًا مِنْ ثَغْرِهِ !

---

27) صُحِّفت « بعض حليها » في ج، فكتبت : بعد حليها.

28) في ب و د : « فهذه » بدل « فضده ».

فَطَرْفُهُ السَّاحِرُ قَدْ شَكَكْتُمْ فِي أَمْرِهِ
يَرِيدُ أن يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ

وقد يكون شطر بيت، كقول أبي فراس :

قَدْ كان بَدْرُ السَّماء حُسنًا والنَّاسُ في حُبِّهِ سَواءُ
لا تعْجَبوا ! ربُّنَا قَدير يَزيدُ فِي الخَلْقِ مَا يَشَاءُ

وقول محيي الدين البغدادي :

إن لا مني مَن لا رآهُ فقَد جار على الغائِبِ في الحُكْم
وإن لحاني من رآهُ فَقَد أضلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمِ

وقول ابن الدماميني، وقد رأى جرّة خمر كسرت فساخت الخمر على الأرض :

كَسَرُوا الجَرَّةَ عَمْداً مَلَؤُوا الأرضَ شَرَابَا
قُلْتُ، والاسْلَامُ دِيني : لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابَا !

وقد قلت أنا في نحوِ هذا، أخذاً منه :

عَثَرَتْ هَيْفَاءُ تَحْكِي بَدْرَ تَمٍّ [حِينَ غَابَا](28م)
قَبَّلَ التُّرْبُ لَمَاهَا ونَضَا عَنْهَا النِّقَابَا
وجَنَى ورْداً ونَدّاً وارتَوَى مِنْهَا رُضَابَا
قُلْتُ لَمَّا عَانَقَتْهُ : لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابَا !

وقد يكون أقلَّ من الشطر، كقول ابن النَّبيه :

قُل لِراسي الجُفونِ إنَّ لجفني في بحارِ الدُّموعِ سَبْحًا طويلا

وهي قصيدة على هذا النمط، أخذ قوافيها من سورة المزمّل .

ولابن سهل الاسرائيلي قصيدة أخرى مثلها، أخذ قوافيها من سورة مريم، وكلتاهما مشهورة .

ومن ذلك قول بعضهم :

إذا رُمْتُ عنها سلوةً قال شافعٌ من الحبِّ : ميعاد السُّلوِّ المقابرُ
سيبقى لها في مُضْمَرِ القلبِ والحشى سرائرُ ودٍّ يوم تُبْلَى السَّرائِرُ

وقولنا :

في ظبيةٍ هيفاءَ من أجْفانِها سحْر الجفون البابليُّ تواتَرا

فإذا انتضَت من جفْنِها عَضْبَينِ من جفْنين قُلنا : ساحران تظاهرا
وفيه التورية في الجفنين . وهذا الاقتباس هنا ممَّا اختلف فيه الأصل والفرع معنى من جهة الحقيقة والمجاز . ومثله قول ابن الرومي يخاطب رجلا مدحه ولم يُثبه :

لَئِن أخْطأتُ في مَدحِكَ ما أخْطأتَ في مَنْعِي :
لقَد أنزلْتُ حاجَاتي بِوادٍ غَيْرِ ذي زَرْعٍ

فإنَّه جعله مجازا عن الرجل الذي لا خير فيه، وهو في الآية حقيقة .
ومن الاقتباس في الحديث قول بعضهم :

قال لي إنَّ رقيـبِي سيِّيءُ الخُلقِ فَدَارِهْ[29]
قُلتُ : دعْني وجْهُكَ الجنَّةُ حُفَّتْ بالمَكَارِهْ

أخْذًا من حديث : **حُفَّتِ الجَنَّةُ بالمَكَارِهِ، وحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهَوَاتِ.**
وقول بعضهم في غلام اسمه بدر، وجعل فيه تورية :

يا بَدْرُ أهْلُكَ جَارُوا وعَلَّمُوكَ التَّجَرِّي
وقبَّحُوا لَكَ وصْلِي وحَسَّنُوا لَكَ هَجْرِي
فَلْيَفْعَلُوا مَا أرادُوا فَإنَّهُمْ أهْلُ بَدْرٍ !

أخْذًا من حديث : **لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى أهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ : افْعَلُوا مَا شِئْتُمْ !**
وقول بعضهم :

ومُهَفْهَفٍ يُزري على القَمَرِ وجناتُهُ رَوْضٌ من الزَّهَرِ
خَالسْتُهُ نُوَّارَ وجْنَتِهِ وأخَذْتُهُ منْهَا عَلَى حَذَرِ
فَأخافَني قومٌ فقُلتُ لهم : لا قَطْعَ في ثَمَرٍ ولاَ كَثَرِ

فقولُهُ : لا قَطْعَ في ثَمَرٍ ولا كَثَرٍ هو لفظ حديث . والكَثَرُ جُمَّارُ النخل .
وقد زاد بعضهم الاقتباس من الفقه، وزاد آخرون الاقتباس من سائر العلوم . فمن الاقتباس من علم الفقه قول أبي تمَّام :

إن حَرَامًا قبولُ مَدْحَتِنَا وتَركُ ما نرتَجي مِن الصَّفَدِ
مثلُ الدَّنانيرِ بالدَّرَاهِمِ في الصَّرفِ حرامٌ إلاَّ يَدًا بيَدِ

29) في د : « رقيمي » بدل رقيبي، وهو تحريف.

شَرَطْتُ عليهم عند تسليمِ مُهجتي وعند انعقادِ البيعِ قُربًا يُواصلُ
فلمَّا أردتُ الأخْذَ بالشَّرطِ عرَّضوا وقالوا يصحُّ البيعُ والشَّرطُ باطلُ

وقول مالك بن المرحَّل مُوَرِّيا :

مذهـبي تقبـيلُ خدٍّ مُـذهبٍ صاحبي ماذا ترى في مذهبي ؟
لا تُخالـفْ مالكًـا في رأْيِـهِ فبِـه يأخُـذُ أهلُ المَغْـربِ !

وقول ابن العفيف :

قُضاةَ الحُسنِ، ما صُنْعي بطرفٍ تمنَّى مثلَه الرَّشأُ الرَّبيبُ ؟
رمى فأصاب قلـبي باجتهـادٍ صَدقتُمْ : كلُّ مُجْتَهِدٍ مُصيبُ !

وقول أبي عبد اللَّه الشران، وقد كان عند ابن جماعة إعذار، فدعا أعيان البلد، ولم يدعُ الشران، فكتب إليه الشران :

ماذا أعدَّ المجْدُ من أعْـذَارهِ في تركِ دعْوتِنا إلَى إعْذَارِه ؟
إن كان رسمٌ دونَ محضرِنا اكتفى لا بُدَّ أن يبْقَى علَى إعْذارهِ

ومن الاقتباس من علم النحو قول أبي بكر بن حجة الحموي :

أيا عربَ الوادي المنيعِ حجابُهُ وأعني به قَلبي الّذي به خيَّموا
رفَعتُم قِبابًا نُصب عينيَّ نحوها تجرُّ ذُيول النُّوقِ والقلب يجزِم
مَنعتُم تحيَّاتِ السَّلامِ لموتِنـا غرامًا وقد متْنا فصلُّوا وسلِّموا !

وقول البوصيري :

خَفَضْتَ كلَّ مقامٍ بالاضافة إذ نوديتَ بالرَّفع [مِثْلَ] المُفردِ العَلَم

وقول بهاء الدين زهير :

يقولون لي أنت الّذي طار ذكْره فمِن صادرٍ يُثنى عليك ووارِدِ
هبُوني كما قَد تزعمون أنا الّذي، فأين صلاتي منكمُ وعوائـدي ؟

ومرض شرف الدين بن عنين، فكتب الى الملك المعظَّم بن الملك العادل :

انْظُرْ اليَّ بعين مولًى لم يزل يُولي النَّدى وتَلاف قبلَ تَلافِ
أنا كالّذي يحتاجُ ما يحتاجُهُ فاغْنَم دُعائي والثَّناءَ الوافِي

فلمَّا بلغه البيتان، نهض الى زيارته، واستصحب ألف دينار . فلمَّا دخل عليه وعاينه قال له : أنت كالذي هو موصول، يحتاج الى صلة وعائد، فهذه الصلة، وأنا العائد.

وقول السليماني :

وإنّي الّذي أقْصَيْتَهُ وهَجَرْتَهُ فَهلْ صِلَةٌ أو عائدٌ منك للّذي ؟

وقولنا من أبيات :

فإن لم يكُن عن ذاك فعلي مُعربًا تغنَّيتُ بالماضي من الحالِ والأمر[30]

وقولنا من أخرى :

قُصِرَ الهناءُ أسًى لغير ضرورةٍ لولا نواكُم، والهوى ممدُودُ

ومن أظرف ما وقع في ذلك قول ابن جابر يخاطب معزولا عن ولاية :

فَلا تغْضَبَنَّ إذا مَا صُرِفْتَ فَلا عَدلَ فيكَ ولا مَعْرِفَهْ ![31]

ومن الاقتباس من علم الحديث قول ابن جابر :

نَقَلَ المسواكُ فيما قَد رَوى أنَّ ذاك الرِّيقَ مسكٌ وعَسَلْ

قُلت : عَن من ؟ قال : عن مبسمِها قُلت : هذا خَبَرٌ صحَّ وجلّ

مُذْ تبدّى جوهَرُ الثَّغْر لَنا صحَّ في الحُسنِ لدينَا ما نَقَل

وقولنا في هذا المعنى :

نَقَلَ النَّسيمُ عن الأراكِ مُحدِّثًا عن ثَغْرِ سَلمى الأشْنَبِ الوضَّاح

وحديثُه المرويُّ أنَّ رضَابَهُ عَسَلٌ ومسكٌ شُوِّبا بالرَّاحِ

يفْترُّ عن عِقدَين من بَردٍ صَفَا ولآلىءٍ منضودةٍ وأقَاحِ

صدقا أحاديث الصَّحِيحَين اعتَلَت عَن ريبَةٍ تُعزَى لَها من لاَحِ

ومن الاقتباس من علم أصول الفقه قول ابن جابر :

جِئتُها طالبًا لسالِفِ وعْدٍ فأجابَت : لقد جَهِلتَ الطَّريقَهْ

إنَّما مَوعِدي مجازٌ فَقُلت : الأصلُ في سائِرِ الكَلاَمِ الحَقِيقَهْ

وقوله أيضا :

لا تَعجبُوا من عُمومِ الحُبِّ في رشإٍ كلُّ الجمالِ له في النَّاسِ مَخْصُوص

بَدرٌ ولكن الى الغزلانِ مُنتسبٌ قَد نصَّ ذلكَ جيدٌ منهُ منصُوصُ !

وقول آخر :

---

30) في ب : تغنيت بالماضي من الفعل والأمر.

31) اسقطت « ما » في بعض النسخ.

كيف لي بالسُّلوِّ عَنها وقَلبي قَد هَوى حلْمُه بمَهْوَى الخِرصِ ؟
ما تعاصيتُ ظاهر الصَّبر إلاَّ ردَّني جيدهــا بأوضَح نصٍّ

وقول أبي بكر بن حجة، رحمه اللَّه تعالى، وهو في الفنَّين معًا :

بوادي حَماةِ الشَّامِ عن أيمَنِ الشَّطّ وحقِّك تُطوى شقَّةُ الهمِّ بالبَسطِ
بلادٌ إذا ما ذُقتُ كَوثَرَ مائِهَا أهِيم كأنِّي قد ثَملْتُ بإسفَنْط
فَمن يجتهِد في أنَّ بالأرض بُقْعَةً تُماثِلُها قل : أنت مُجتهدٌ مُخطي
[وصوِّب حديثَيْ مائِها وهَوائِها فإنَّ أحاديث الصَّحيحَين ما تُخطي][32]

ومن الاقتباس من علم الكلام قول ابن جابر :

عَرَضُ الحُبِّ دونَ جَوهَرِ ذَاكَ الثَّغر من أكْبَر المُحال بجود :
أجْمَع النَّاظِرون في ذَاك أن لاَ عَرَضٌ دونَ جوهرٍ في الوجودِ

وقولنا من أبيات :

فالجِسْمُ بالٍ ذو وبالٍ بَعدكُم أبدًا به عَرَضُ الشُّحوبِ جديدُ

وفي هذا البيت الجناس بين بَالٍ وبَالٍ، والاقتباس في الجسم والعرض، ومراعاة النظير بذلك الاعتبار، والطِّباق بين البلى والجدَّة.

ومن الاقتباس من علم المنطق قول ابن جابر :

مقدِّماتُ الرَّقيبِ كيف غَدَتْ عند لِقاءِ الحَبيبِ مُتَّصِلَهْ
تَمنَعُنا الجَمعَ والخُلُوَّ معًا وإنَّما ذَاكَ حُكْمُ مُنفَصِلَهْ[33]

وقول ابن الخطيب :

حتَّى إذا فَرضَ الجِلادُ جدالَهُ ورأيتَ ريحَ النَّصر ذاتَ هبوب[34]
قدَّمتَ سالبةَ العدوِّ وبعدها أخرى بعزِّ النَّصر ذاتُ وجوب
وإذا توسَّط حدُّ سيفِك عندها جُزئيْ قياسك فُزتَ بالمطلوب[35]

وقول الآخــــر :

يا دَمعَ أجفاني اطَّرِدْ يا حرَّ أضلاعي اتَّقِد يا قَرحَ أكبادي انتك

---

32) سقط هذا البيت الأخير من ج.
33) صُحّفت كلمة « منفصلة » في ب، فكتبت « متصلة ».
34) في ج : حتى إذا فرض الجلاد جلاده.
35) صُحّفت كلمة « جزئي » في ب : « جزمي »، وفي ج : « جرمي ».

ويقل ائتلاف النفـــوس تَـلهُّفًـــا   لفواتِ حظٍّ منك لم يُستَدرَكِ
أمَلي يشُكُّ وعفوكُمْ مُتواطئٌ   فأصار من مُتَــواطئٍ لمشَــكِّكِ
مالي سواكَ لمَن أمُدُّ يَدَ الرَّجا   مُستمسكًا يا ملجَأَ المُستمسِكِ ![36]
ومن الاقتباس من علم العروض قول الآخر :
له جيشُ نصرٍ قد نَضَى السَّعد دونه   صوارمَ روعٍ لا تَقِيهَا القَوانِسُ
إذا ما قوافي الخَيلِ فيه تَداركَت   فأبْشِرِ بنَصرْ بحرُهُ مُتكاوسُ !
وقولنا من قصيدة :
سلامٌ طويلُ الحبِّ فيكُم مديده   فلَيس بذي نهكٍ وليس بذي شَطر
وقولنا أيضا في التغزّل :
يا شادنًــــا يصيـــد آساد غيلْ   بقَوسِ صُدغَينِ وسهْمٍ كَحِيلْ
بمَ استَبَحتَ دميَ الحِرمَ في   قَتلي وحرَّمتَ وصالي الحَليل ؟[37]
[واختَرتَ قَطعَ سَبَبي من ودًا   دِكَ وذا لا يَرتضِيهِ الخَليلْ]
وفي الخليل التورية، وفي الأبيات أنواع أخرى من البديع ظاهرة.
ومن الاقتباس من علم الهيئة قول الغزالي :
يا حُسن ليلتِنا الَّتي قَد زَارنا   فيها فأنجَزَ ما مَضَى من وعده !
قوَّمتُ شمسَ جماله فوجَدتُهــا   في عَقْربِ الصُّدغِ الَّذي في خدِّه
وقوله أيضا :
حلَّت عقارب صُدغِهِ من خَدِّه   قَمَرًا يجِلُّ به عن التَّشْبِيهِ
ولَقد عَهدنَاهُ يحُلُّ بِبرُجِها   ومن العجائِبِ كيفَ حلَّت فيه !
ومن الاقتباس من علم الهندسة قول ابن جابر :
مُحيطٌ بأشكال الملاحَةِ حُسْنُه   كأنَّ به أُقليدِسًـــا يتحـــدَّثُ[38]
فَعارِضُهُ خَطٌّ استِواءٍ وخَالُه   به نُقْطَةٌ والشَّكلُ شَكْلٌ مُثلَّثُ
ومن الاقتباس من علم الخطّ قول ابن جابر أيضا :

---

36) في ج : متمسكا يا ملجأ المتمسك.
37) في ج وحرمت وصال الخليل . وهي وإن صحت وزنًا ومعنى فإنها تفوّت على الناظم الطباق بين الحرام والحلال.
38) في ج : محيط بشكل...، وهو لا يستقيم وزنًا.

فوقَ خدَّيه للعــذَار طَريـــقٌ قد بَدا تحْتَه بَياضٌ وحُمْرَهْ
قِيل ماذا ؟ فقُلت : أشكالُ حسنٍ تقتضي أن أبيعَ قلبي بنَظْرَهْ

واعلم أنَّ معظم ما أنشدنا، لك أن تجعله من باب الايهام تورية أو توجيها لا من [باب] الاقتباس، والخطب سهل.

وممَّا جمع ثلاثة فنون ممَّا مرَّ قول بعضهم :

دارَستُ قلبي الصَّبْـرَ أعْتَـدُه عن عاصمٍ لي منكَ أو نافعِ
فلم يكُنْ يرفَعُ ما حلَّ بي وربَّ فِـعْلٍ ليسَ بالرَّافِـعِ
ضلَّ بيَ المَـذهَبُ يَامَالِـكِي فَهَل لذاكَ الوجْهِ من شَافِعِ ؟

ومثل هذا قول الآخـر :

مَنْ شَافعٌ لي عند مالِك مُهجتي ؟ مالي سِوى حُبِّي وليسَ بنافِعي
فَمن المُحقَّقِ أنَّ مَذهبَ مالكٍ لا تَستقيمُ لديْهِ حُجَّةُ شافِعي

وهذا الباب أكثر من أن يأتي عليه الحصر.

وقال ابن العربي، وقد وقف عليه مليح وهو في المجلس فهزَّ رمحا بيده، ارتجالا :

يهزُّ عليَّ الرُّمح ظبْيٌ مُهفهْفٌ لعُـوبٌ بألبـاب البـريَّةِ عابثُ
فلو كان رُمحًا واحدًا لاتَّقَيتُه ولكنَّه رُمحٌ وثـانٍ وثـالثُ !

وهذا غاية في قوَّة العارضة انسجاما وحسن سبك وصحَّة معنى، مع الارتجال وصعوبة القافية . وقد وقع إشكال لجماعة من الأدباء في الشعر وما أريد فيه، وذلك من حيث لم يعتد استعمال الرماح في العيون ؛ وإلاَّ فهو بيِّن واضح.

وقلت أنا :

لا يُلهينَّك من فتًى سِربَالُهُ وبَهاءُ مَنظره ورونَـقُ نفـثِه
أو تقتحِـمْهُ من رثَـاثَةِ زِيِّه فتجُولُ في إطرائه أو مَغْثِه
حتَّى تبيَّنَ قَدْرَهُ عن فَـرِّه ولُجيْنَهُ ولَجينَهُ عن بَحْثِه
وتَميزَ عن طول الزَّمان هشيمَهُ من غضِّه وسَمِـينَهُ من غثِّه
ونَفَاذَهُ غَرَضَ النَّوائِب إن دجَت من طَيشِه ووفاءه من مَلْثِه
ومقامَ ما استودعتَه من كامِـن الأسرارِ في كِتْمَانِهِ أو نثِّه

وتَـرى إذا ما شِمتَ بارقَ وعْـدِهِ ... أن قَـد مُطِرتَ بوبْلِـهِ أو دثِّـه
وتــرى جلـيَّة قوله إمَّــا روى ... نبأً لدى تهْذيـبه أو مقْـثِهِ
وتَـرى بمِرجاسِ البصيرةِ غَـورَهُ ... في ودِّهِ للأصْدقـاءِ ودِعْــثِـهِ
فهُنـاكَ إن أحْمَـدتَـهُ فلـتصفه ... وُدًّا وإلاَّ فَلْتَحِـد عَـن وعْثِـهِ[39]
فلربَّ ذي ورمٍ يَـروقُ رُوَاؤُهُ ... حُسنًـا وسوف تمُجُّه في دأثِـهِ
ولرُبَّ مرعًى مونِـقٍ في دمنةٍ ... وإذا شَمِمْتَ صَددتَ عنهُ لخُبثِـهِ
ولرُبَّ حِسْيٍ تَرتَوي من عَذْبِهِ ... عَفْوًا وتُكْدي أو تشُوبُ بنبثِـهِ
وُمهَنَّـدٍ ذكَـرٍ حُسامٍ باتِــرٍ ... خلق الجفير من الحَـوادِث رثِّـه
أزرَت به مَرآتُـه وإذا انـتُضِـي ... أرضاك مَشْهَـدهُ ومَـرأى جثِّـهِ
هَـذا وإنَّ المَرءَ لَـيسَ بحاصِدٍ ... أبدًا سِوى ما قَـد أتى من حَرْثِـهِ
ولَـسَوفَ يجْني كلَّ ما هُـو غارسٌ ... في دهرِهِ من كَرمِـهِ أو رمثِـهِ
ويَرى مَغبَّة سَعْيِـه مَذخُورةً ... لمآبِـه من رَمْـثِـه أو عَيـثِـهِ

النَّفْثُ : المراد به الكلام . والاطراءُ : المبالغة في المدح ؛ والمَغْثُ ضدّه ؛ والتُّلجَيْنُ ـ مصغَّرًا : الفضَّة ؛ والتَّلجِينُ ـ مثل أمِير ـ : زَبَدُ أفْواهِ الابِلِ، وما سقط من الورق عند الخبط . وأُطلق التُّلجَيْنُ والتَّلجِينُ على محمود الأخلاق ومذمومها، كما يقولون : إنَّ فلانا لا يفرّق بين لُجَيْنِ الكلام ولَجِينِـهِ، أي بين جَيِّده ورَدِيئه ؟ والنَّفَاذُ والطَّيْشُ أصلهما في السهام، وذكرهما مع ذكر الغرض في النوائب استعارة، وفي الغرض ـ مع ذلك ـ توجيه . والمَلْثُ : الوعد بلا نيَّة الوفاء . والدَّثُّ : المطر الضعيف . والمِرجَاسُ : حجر يُرمى في البئر ليعلم به عمقها، وفيه أقوال أخرى . وأحْمَدْتَ الرجل : وجَدْتَـه مَحْمُودًا ؛ وكذا أذمَمْتَـه : فان قلتَـه بلا همزة كان بمعنى الثَّناء، والمناسب هنا الأوَّل . والدَّأْثُ، بفتح الدال المهملة وسكون الهمزة : الأكل، والحِسْيُ : بئر غير غارقة يستنقع فيها الماء وينبع منها ؛ وأكْدَى الحافر : بلغ كُدْيَة في حفره . والرِّمْثُ، بكسر الراء : شجرة معروفة من أشجار البادية، وليس لها من الثمرة ما للكرم وهو شجر العنب، فكُنِّي بالكرم والرِّمْث عن السعي الذي يُجدى نفعًا والذي لا نَفْع فيه، كغارس

39) في هامش كل من ب و د : « وإن تذمم فحد » فيصير الشطر الثاني هكذا : « ودًا وإن تذمم فحد عن وعثه » . ويظهر أن هذا التعديل الممكن هو للمؤلف نفسه.

الرِّمْث المذكور . والرَّمْثُ، بفتح الراء : الاصلاح، وضدّه العَيْث وهو الافساد.

وقول الآخـــر :

لَيلُ البَراغيثِ داءٌ لا دَواءَ لَهُ — لا بَاركَ اللّهُ في لَيلِ البَراغيثِ !

كأنَّهنَّ بِجسمي إذ عَلَقْنَ بِهِ — أيدي الشُّهودِ على مال المَواريثِ

وقال ابن شرف في معناه :

لَكَ منـزلٌ كَمُلَت سِتَـارتُهُ — لِلّهْو لَكن تَحتَ ذَاكَ حديثُ

غنَّى الذُّبابُ وظلَّ يَزْهُو حَولَه — فيه البَعُوضُ ويرقُص البُرغُوثُ

ومثله قول الآخـــر :

ليلُ البَراغِـيثِ والبَعُـــوضِ — لَيْلٌ طَـويلٌ بلاَ غُمُـوضِ

فَذَاكَ يَنْـزُو بِغَيْـرِ رقْصٍ — وذَا يُـغَنِّي بِلاَ عَـرُوضِ

وقول أعرابيّ بات بمصر فآذاه البرغوث :

تَطاولَ بالفُسطَاطِ لَيلي ولَم يَكُن — بأرضِ الغَضَا لَيلِي علَيَّ يَطولُ

ألا ليتَ شعري هل أبيتنَّ ليلةً — وليسَ لبُرغوثٍ عليَّ سَبيلُ ؟

وقول الكتاني ملغزا فيه :

ومَعشرٍ يَستحلُّ النَّاس قَتلهُم — كما استحلُّوا دمَ الحجَّاجِ فيالحرم[40]

إذا سَفَكتُ دمًا منهم فما سَفَكَت — يَداي من دمِهِ المسْفوكِ غَير دمِي

وقول ابن سكرة في مليح يُعرف بابن بُرغوث :

بُليتُ ولا أقُولُ بِمن لأنِّي — متى [ما] قُلت مَن هُوَ يَعشَقُوهُ

حَبيبٌ قَد نَفَى عنِّي رُقَادِي — فإن غمَّضتُ أيْقظَني أبُـوهُ

وقال البستي :

لا درَّ درُّ نَـوَازِلِ الأحْـدَاثِ — نَقَلَتْ أحبَّتَنَا إلى الأجْدَاثِ

فَغَدَتْ مآنِسُنَا وهُنَّ مَقَابِرٌ — وغَدَتْ مَدَائِحُنَا وهُنَّ مَرَاثِ

وفي هذا القدر من الباب كفاية . واللّه يقول الحقَّ وهو يهدي السبيل.

---

40) في ج : «الحجّاج» بدل «الحمام»



بَــابُ الـجِـيــمِ

أَجْبَنُ مِنْ صَافِرٍ.

الجُبْنُ : الخَوَرُ وهَيْبَةُ الاقدام على الأمور . يقال : جَبُنَ، بالضمّ، يَجْبُنُ، جُبْنًا، بالضمّ [وبضمّتَين]، وجَبَانَةً، بالفتح، فهو جَبَان - بوزن سَحَاب - ، وجَبَّان كشَدَّاد، وجَبِين كأمير، والجمع جُبَنَاء . وهي جَبَان وجَبَانَة وجَبِين .

والصَّافِرُ : المصَوِّت، يقال : صَفَرَ، يَصْفِرُ، صَفِيرًا إذا صَوَّتَ، فهو صَافِر وصَفَّار . قال :

خَلاَلَكِ الجوُّ فَبيضي واصْفِري

ويقال الصَّافِر للخَشَاش والبُغاث من الطير، [وهو ما لا يصيد منها . واختُلف في المراد من الصَّافِر في هذا المثل، فقيل أُريد كلّ صَافِر من الطير][1] ولا يكون الصفير إلاّ في ضِعافها وخشاشها، ويوصف بالجُبن لكثرة ما يتَّقي من جوارح الجوّ ومصائد الأرض . وقيل : الصَّافِر طائر بعينه، إذ أمسى تعلّق بالشجرة برجليه، ونكس رأسه خوفا من أن ينام فيؤخذ، فيبيت منكوسا، ولا يزال يصيح حتّى يصبح . وقيل : الصَّافِر هنا بمعنى **المصفور به، وهو الذي يُنْذَرُ بالصفير فيفزَع ويهرب، كما قالوا : ما بالدّار صَافِرٌ - أي** مَصْفُورٌ بِهِ - قال الشاعر :

خَلَتِ الدِّيَــار فَمَــا بِهَــا مِمَّنْ عَهِدْتُ بِهِنَّ صَافِـر

وعليه يكون فاعلا بمعنى مفعول، كما في دَافِقٍ - أي مَدفُوقٍ -، ورَاحِلَةٍ - أي مَرحُولَةٍ -، وذلك في المثال المذكور. والبيت محتمل غير متعيّن . وقيل : الصَّافِر هو الذي يصفر للمرأة بالريبة، وهو موصوف بالجُبْن ساعتئذ لوجَله وحَذَره أن يُطَّلَع عليه. قال الكُمَيْت :

---

1) ما بين معقوفتين ساقط من ج .

أرجو لَكُم أن تَكونوا في مَودَّتِكُم كلبا كورهاء تقلى كلَّ صفَّار
لمَّا أجابتْ صَفيرًا كان آتِيَهَا من قَابسٍ شيَّط الوجْعاء بالنَّار

وهذه المرأة التي ذكرها الكميت وضرب بها المثل امرأة من العرب كان من حديثها أنَّ رجلا كان يعتادها، فكان يأتيها وهي جالسة مع زوجها وبنيها، فيصفر لها، فإذا سمعت صفيره أخرجت إليه عجيزتَها من وراء البيت، وهي تحدث ولدها، فيقضي منها وطَرَه ويرجع . ثمَّ إنَّ بعض بنيها فطِن للأمر، فلمَّا جاء صاحبها وصفر بها فأخرجت عجيزتها على العادة، فأخذ **مسمارًا مُحْمىً كان معه، فكوى به صدغها حتَّى أحسَّتْ بالموت وتجلَّدت . فلمَّا جاء** الخِدْنُ بعد ذلك وصفر بها قالت : لَقَدْ قلَيْنا صفيركم ! فضرب بها الكميت المثل.

أجْبَنُ مِنَ الكَرَوانِ.

الجُبْنُ تقدَّم . والكَرَوانُ، بفتحتَيْن، طائر يشبه البطَّ لا ينام الَّليل . وقيل هو الحجل . وأنشد الجوهري :

يَاكَرَوانًــا صُكَّ فَاكْبَأنَّــا فَشَنَّ بِالسَّلْحِ فَلَمَّا شَنَّا
بَلَّ الذُّنَابَى عَبَسًا مُبِنَّا[2]

وقال : أراد به الحُبَارى يصكُّه البازي فيتَّقيه بِسَلْحِه ؛ ويقال هو الكركي . ويقال للأنثى كَروانَة . ويقال للذكر الكَرا، ومنه المثل الآتي : أطْرِقْ كَرا . ويقال إنَّه سمِّي بالكرا ـ وهو النعاس ـ ضدّ ما كان عليه لِما مرَّ من أنَّه لا ينام، وهو أيضا موصوف بالجبن الكثير والفزع من سباع الطير، كما قال الشاعر في خالد بن صفوان :

تَرى خُطَبَاءَ النَّاسِ يَوْمَ ارتِجالِه كأنَّهُمُ الكِروانُ عَايَنَّ أجْدَلاَ

والكِرْوَان، بالكسر فالسكون، جمع الكَروان السابق . وقال الآخر :

أميرٌ أبُو مُوسَى تَرى النَّاسَ حولَه كأنَّهُمُ الكِروانُ أبْصَرْنَ بَازِيَا

وسيأتي الكلام على قولهم : أطْرِقْ كَرا، إن شاء الَّله تعالى.

أجْبَنُ مِنَ المَنْزُوفِ ضَرْطًا.

الجُبْن مرَّ ؛ والنَّزْفُ : النَّزحُ . يقال نَزَفْتُ ماءَ العين أنْزِفُهُ، أي نَزَحْتُهُ

2) صُحِّفت الكلمتان الأخيرتان في ب فكتبتا : عابسا مبلنا.

كُلَّه، ونَزِفَتِ البئرُ، فهي مَنْزُوفَة . ويقال : نَزِفَتْ عَبْرَةُ الرجل، بكسر الزاي، إذا فَنِيَتْ، وأنْزَفَها الشَّوْقُ . ويقال : نُزِفَ فلان دمه - بالبناء للمجهول - إذا سال عليه سَيَلانًا مُفْرطا، ونزفه الدم، فهو منزوف فيهما . والضَّرْطُ، بالفتح، والضُّرَاطُ، بالضمّ، صوت الريح . يقال : ضَرِطَ، بالكسر، ضُراطًا وضَرْطًا، فهو ضَرَّاط، كشدّاد، وضَرُوط، كصبور، وضِرِّوْط، كسِنَّوْر . واختُلف في المنْزُوفِ ضَرْطًا، فقيل إنَّ نسوة كُنَّ لم يكن لهنَّ أزواج، [فزوّجْنَ إحداهنَّ] رجلا، فكان ينام الصُّبْحَة، فإذا أتَيْنَه بالصَّبُوح ونبَّهْنَه قال : لو نبَّهْتُنَّني لِعادية - أي الخيل - فلمَّا أكثر من ذلك قُلْنَ بينهنَّ : إنَّ صاحبنا لَشُجاع، فتعالَيْن ! فأتَيْنَه بالصَّبُوح على العادة، فقال : لو لِعادية نبَّهْتُنَّنِي، كما كان يقول . فقلن له : هذه نواصي الخيل ! فجعل يقول : الخيل ! الخيل ! ويضرط حتَّى مات . وقيل إنَّ المَنْزُوفَ ضَرْطًا دابَّة بالبادية، إذا صِيحَ لها وقع عليها الضُّرَاط، فلا تزال تضرط حتَّى تموت . وقيل إنَّه رجل خرج مع رفيق له . فبينما هما في فلاة، إذ لاحت لهما شجرة، فقال : أرى قومًا رصدونا . فقال رفيقه : إنَّما هي عُشَرَة - أي شجرة -. والعُشَر، بضمّ العين وفتح الشين، شجر يُحشى في المخاد، وهو أجود ما يُقتدح به . فظنَّه يقول عَشَرَة، بالفتح . فجعل يقول : وما غناء اثنين عن عَشَرَةٍ، ويضرط حتَّى مات.

أجْبَنُ مِنْ نَعَامَةٍ.

الجُبْنُ مرَّ ؛ والنَّعَامَة : واحدة النَّعَام، وهو معروف، اسم جنس، مثل حَمَام وحَمَامَة، وجَرَاد وجَرادة ؛ والذَّكَر منه يقال له ظَلِيم" . والنَّعَام يوصف بالجُبْن كثيرا . ويقال إنَّ النَّعَامة، إذا خافت من موضع لا ترجع إليه أبدا . وقال الشاعر في الحَجَّاج :

أسد" عليَّ وفي الحُروبِ نَعَامَة" فَتْخاءُ تَنفرُ مِن صَفير الصَّافِرِ
هَلاَّ بَرزتَ الى غَزالَةَ في الوغَى ؟ بَل كان قَلبُك في جَناحَي طائر !

وللشعر قصَّة تذكر بعد، إن شاء الَّله تعالى.

الجَحْشَ لَمَّا بَذَّكَ الأعْيَارُ !

الجَحْشُ ولد الحمار، أهليًا كان أو وَحْشيًا، والأنثى جَحْشَة، والجمع جِحَاش . قال زهير يصف حمار وحش :

وقَد خرَّمَ الطُّرَّادُ عنه جِحاشَه فلم يبقَ إلاَّ نفْسُهُ وحَلائِلُهْ

والبَذُّ، بالذال المعجمة، : الغلَبة . يقال بَذَّكَ هذا الأمر، أي غَلَبَكَ . قال علقمة يصف بقرة وحشيَّة :

تَعَفَّقُ بالأرطَى لَها وأرَادَها رجالٌ فبذَّت نَبْلَهُم وكَلِيبُ

والأعيَارُ جمع عَيْر، بفتح العين، وهو الحمار، أهليًا كان أو وحشيًا . قال امرؤ القيس في الوحشيّ :

كأنِّي وردفي والقِرابَ ونُمْرُقي على ظَهر عيرٍ واردُ الخَبَراتِ

وقال الآخر في الأهليّ :

ولا يُقيمُ على ضيمٍ يراد به إلاَّ الأذلاَّنِ عيرُ الحيِّ والوتِدُ

ويجمع أيضا على مَعْيُوراَء .

ومعنى المثل أنَّه إذا غلبتك الأعيار ولم تدركها فعليك بالجِحَاش . وذلك أنَّ الصائد إذا أثار طريدة من الوحش، فإنَّ الكبار القويَّة منها تسبق، وتتأخَّر الصغار . فإذا أعجزته الكبار السوابق، فمن حقّه أن يظفر بالصغار ولا يفرّط فيها . فيُضرب في الرجل يطلب الأمر العظيم الخطير فيفوته، فيقال له : اطلب ما دون ذلك امالا، ولا ترجع خائبا، كما قيل :

إذا حَاجةٌ ولَّتْكَ لا تَسْتَطيعُها فخُذ طَرفًا من غيرها حِين تُسبَقَ

ولفظ الجَحْش في المثل يكون منصوبا على الاغراء، أي : عَلَيْكَ الجَحْشَ ! ويجوز أن يُرفع على الابتداء أو الخبر، أي : الجَحْشُ حَسْبُكَ، أو حَسْبُكَ الجَحْشُ.

جَدُّكَ كَدُّكَ .

الجَدُّ، بالفتح، : الرِّزقُ والحظّ . ورجل مَجْدُودٌ : ذُو حظّ . والكَدُّ، بالفتح، : الشّدَّة والالْحَاحُ . ومعنى المثل أنَّك إنَّما تعيش وتنال المنى بمالك من الحظوة والبخت، لا بتعبك وكدّك، فإنَّ الكدَّ لا ينفع مع الحرمان، كما قيل :

عِش بجَدٍّ ولا يَضُرَّنْك نَوكٌ   إنَّما عَيْشُ من تَرى بالجُدُودِ

وكما قلت أنا :

كَم لَبيبٍ ذِي نجدةٍ ماتَ هُزْلاً   وغبِيٍّ يحتفُّه ألْفُ هَانِ !

وتقدَّم هذا المعنى مستوفى، وسيأتي أيضا.

قيل : وأوَّل من قال هذا المثل حاتم بن عميرة الهمداني . وكان بعث ابنيه : الحِسْل وعاجِيَةَ في تجارة لوجهتَيْن مُختلفتَيْن . فذهب الحسل حتَّى لقيه قوم من بني أسد، فأسروه وأخذوا ماله . وسار أخوه أيَّاما حتَّى وقع على مال الحسل، فاتبعه حتَّى بلغ نجران، فنادى في قومه همدان، فأخذه من أيدي سالبيه قبل أن يبلغ الى موضغ متجره . وكانت الابل موسومة بسمة أبيهما، وعرفوا أنَّ ما كان عليها من المتاع له، فأخذه ورجع الى أهله . وقال في ذلك :

كفاني اللّهُ بُعدَ السَّير أنِّي   رأيتُ الخيرَ في السَّفر القريبِ

بهذا القُرب نلنا فيه خيراً   ولَم نَلقَ الخَسارةَ في الدُّؤوبِ

فلمَّا رجع، تباشر به أهله، وانتظروا الحسل . فلمَّا أبطأ عنهم بعث أبوه أخًا له يقال له شاكر في طلبه والبحث عنه . فلمَّا دنا شاكر من الأرض التي فيها الحسل ـ وكان الحِسْل عائفًا يزجر الطير ـ، فقال الحسل :

تُبشِّرني بِالنَّجاةِ القَطَاةُ   وقَولُ الغُرابِ لَهَا شاهِدُ

تَقُولُ : ألاَ قَد دَنَا نَارِحٌ   فِداءٌ له الطَّارِفُ التَّالِدُ

أخٌ لم تَكُن أمُّنَا أمَّهُ   ولَكِنْ أبُونَا أبٌ واحِدُ

تَداركَني زُلْفَةً حَاتِمٌ   فَنِعْمَ المُربِّبُ والوَالِدُ

تَدَارَكَنِي بِكَ يَا شَاكِرٌ   ومَنَّ بِكَ المَلِكُ المَاجِدُ

فسأل عنه شاكر حتى أعلم بمكانه، فاشتراه منهم بأربعين بازلاً . فلمَّا رجع به، وأخبر بما لقي من البلاء، قال أبوه : اسْعَ بِجَدِّكَ، لاَ بِكَدِّكَ ! وهذا مثل قولهم : عَارِكْ بِجَدٍّ أوْدَعْ ! وسيأتي :

جَدَعَ مَازِنٌ أنْفَهُ بِكَفِّهِ .

يأتي هذا في الكاف، وهو هناك أليق.

أجْرَأُ مِن خَاصِي خِصَافٍ .

الجُرأةُ ـ على وزن الجرعة ـ الشجاعة والاقدام . تقول : جَرُؤ، بالضمّ، جُرأةً وجَراءَةً، فهو جَرِيءٌ . وجرّأتُهُ على الأمر تَجْرِئَةً، فاجْتَرَأَ عليه . وتقول : خَصَيْتُ الفحل أخْصِيهِ خِصَاءً، بالكسر والمدّ، إذا سللت خُصيَيْهِ، فهو خَصِيٌّ . وخِصَاف ـ على وزن كِتَاب أو وزن قَطَام ـ: اسم فرس كان لِحَمَل بن بدربن عَوْف بن بكر بن وائل، طلبه منه المنذر بن امرىء القيس ليستفحله، فخصاه بين يديه لجرأته ومنعه منه، فسُمّي خاصي خصاف، وقيل : أجْرَأُ مِن خَاصِي خَصَافٍ .

أجْرَأُ من خَاصِي الأسَدِ .

الأسَدُ معروف . وخَاصِي الأسَد تزعم العرب أنّه رجل مرّ به الأسد، فوجده يحرث بثورَيْن بادنَيْن، فقال له : يا حرّاث، ما أسْمَنَ ثورَيْك ! فَبِمَ أسمنتَهما وما أطعمتهما؟ فقال له الحرّاث : إنّي خصيتهما فسمنا لأجل ذلك . قال الأسد : فهل لك أن تخصيني عسى أن أسمن سمنهما ؟ فقال له : نعم ! وأمكنه الأسد من نفسه، فخصاه الحرّاث. وزعموا أنّه مرّ عنه الأسد ودمه يسيل، حتّى رقى ربوة فأقْعى فيها حزينا ينظُرُ إلى الحرّاث . فبينما هو كذلك إذا بثعلب قد مرّ به، قال له : مالي أراك حزينا يا أبا الحارث؟ فذكر له ما فعل به الحرّاث، وما دهمه من ألم الخصاء . فقال له الثعلب : هل لك في أن آتي الحرّاث وأستدبره[3]، عسى أن تمكنني منه فرصة فَأثّئِر لك ؟ قال : نعم ! فداك أبي وأمّي . فمضى الثعلب وجعل يراوغ الحرّاث ويطيف به . فتناول الحرّاث حجرا وقذفه به فدقّ فخذه . فأتى الأسد وهو على ثلاث [قوائم، فأقْعى معه على الرابية يشكوان بَثَّهُمَا وما دهيا به من ذلك الحرّاث][4] حتّى مرّت بهما نُغَرَةٌ فقالت لهما : ما لكما على هذه الحال ؟ فأخبراها خبرهما، فقالت لهما : أنا آتيه، فأستدبره حتّى أدخل في أنفه . فجاءت إليه، وتغافل الحراث عنها حتى إذا دنت منه قبض عليها وأخذ عوداً فدسه في استها وأرسلها، فجاءت إلى الأسد والثعلب وهي في شرّ من حالهما، قد سدّ العود دبرها

3) في ب : وأستديره.
4) سقط ما بين معقوفتين من ج.

ومنعها وأثقلها عن الطيران . فبينما الثلاثة جلوس على الربوة يتشاكون، جاءت امرأة الحرّاث بغذائه . فتقدّم إليها، ورفع رجليها، وجعل يطؤها، وهي بمرأى من تلك الحيوانات . فقال الأسد : ما ترون هذا المشؤوم يفعل بهذه المرأة المسكينة ؟ والله إنّي لأظنّه يخصيها . فقال الثعلب : ما أظنه إلاّ يكسر فخذها . فقالت النغرة : لا والّله ! بل يدخل في استها عودا . فكانت النُّغَرة أقربهنّ إلى الصدق ظنّا . [وقيل إِنّ خاصي الأسد هو الأصبع التي يفرس بها من براثينه . حكاه البكري عن قاسم بن ثابت، والله أعلم.][5]

أجْرَأُ مِن فَارِسِ خَصَافِ.

خَصَاف، بفتح الخاء ـ على مثال قَطَام ـ، وهي فرس كانت لملك بن عمرو الغسّاني.

[وخِصَاف ـ بوزن كِتَاب : حصان كان لشهير بن ربيعة الباهلي][6]

جَرِّبْ، ثمّ بَاعِدْ أو قَرِّبْ .

هذا مثل مصنوع فيما أظنّ، وهو ظاهر المعنى . ومثله قول الشاعر :

ابْلُ الرّجالَ إذا أردتَ إخاءهُم وتَوسَّمَنّ فعالهُم وتَفَقَّدِ

فإذا ظَفرتَ بِذِي الّلبابةِ والعُلى فبِهِ اليدين قريرَ عينٍ فاشْددِ

يَجْرِي بُلَيْقٌ ويُذَمّ .

الجَريَان : العَدْوُ، وهو معروف ؛ وبُلَيْقُ مصغّر اسم فرس كان سبّاقا، وكان مع ذلك يُذمّ، فضرب به المثل في المُحسن يُذمّ.

جَرْيَ المُذكّي حَسَرَتْ عَنْهُ الحُمُرُ.

الجَرْيُ تقدّم ؛ والمُذَكّي من الخيل المُسِنّ . يقال : ذَكّى الفرسُ، تَذكِيَةً بذال معجمة ـ إذا أسَنّ . والمَذَاكِي من الخيل : التي أتى على قُروحها سنة أو سنتان . والحُمُر جمع حِمَار[7]. والمعنى أنّ الحمار لا يستطيع أن يسابق القَارِح من الخيل، [بل]

---

5 ـ 6) سقط ما بين معقوفتين أيضًا من ج .

7) نسي المؤلف شرح « حسرت » وهي بمعنى أعيت وعجزت.

والبِرذَوْن، كما قال زهير يمدح هرم بن سنان :

يَطعَنُهم ما ارتَمَوْا حتّى إذا اطّعنُوا ضَاربَ حتّى [إذا] ما ضاربوا اعتنقا
فضل الجياد على الخيل البطاء فلا يعطي بذلك ممنوقا ولا نزقا

يضرب هذا المثل في الرجل البارع المبرِّز على غيره في الفضل .

جَرْيُ المُذكّيَاتِ غِلاَبٌ .

المثل من معنى ما قبله . والجَرْيُ تقدّم ؛ وكذا المُذكّياتُ من الخيل . والغِلاَبُ : المُغَالَبَة، كأنّها تغالب الجري . ويروى غِلاَء، أي مُغَالاَة في السير . والغِلاَء، بكسر الغين أيضا، جمع غَلْوَة، وقد رُوِي المثل بذلك . والغَلْوَةُ من كلّ غاية مقدار رمية السهم . وهذا المثل قاله قيس بن زهير، وذلك أنّه لمّا تراهن ـ هو وحَمَل بن بدر ـ على ما مرّ في هذه القصّة، فأرسلا فرسَيْهما : فرس قيس وهو داحس، وفرس حَمَل وهو الغبراء، على ما في ذلك من الاضطراب، ظهرت الغبراء على داحس . فقال حمل بن بدر : سبقتك يا قيس ! فقال قيس : رُويْداً ! يَعْدُوَانِ الجَدَدَ، فأرسلها مثلا . فلمّا خرجا عن الجَدَد وصارا في الوعث، برز داحس على الغبراء . فقال قيس حينئذ : جَرْيُ المُذكّيَاتِ غِلابٌ ـ أو غِلاءٌ ـ كما مرّ، فذهبت مثلا .

جُرُّوا لَهُ الخَطِيرَ مَا انجَرَّ لَكُمْ !

الجَرُّ : السَّحْبُ على الأرض مثلا . وجَرَرْت الفرس بمقوده، والجمل بزمامه، فانْجَرَّ ؛ والخَطِيرُ، بالخاء المعجمة والطاء المهملة ـ على مثال أمير ـ زمام الناقة وجَدِيلها . يُسمّى بذلك لأنّه يَخْطِر أي يهتزّ عند مشيها . وبذلك سُميّ الرمح خَطّاراً . والجَديل ما كان من جلود، وقد يقال لغيره . والحَبْلُ إذا كان من خوص سُميّ شريطا، وإذا كان من كتان سُميّ مَرسًا، كما قال امرؤ القيس :

كأنّ الثُريّا عُلّقت في مَصامِها بأمْراسِ كتّانٍ الى صُمٍّ جَنْدلِ

وإذا كان من ليف فهو مَسَدٌ . وهذا المثل يُروى عن عمّار بن ياسر، رضي اللّهُ عنه، أنّه قاله في عثمان، رضي اللّه عنه، حين أنكر عليه الناس ما أنكروا، أي اتّبِعوه ما كان فيه

موضعُ متَّبع.

أجْرِ الأمُورَ عَلَى أذْلالِهَا !

الأمُورُ جمع أمْر ؛ والأذْلالَ، بالذال المعجمة، جمع ذِلٍّ، بالكسرز وذِلُّ الطَّريقِ : مَحَجَّتُه . والمعنى : أجْرِ الأمُور على مَجَاريها ومسالِكها . يُضرب في الأمر بحسن التدبير ويُقال أيضا : أمُورُ اللّهِ جَارِيةٌ أذْلالها، وعلى أذلالها، أي على مجاريها. ويُقال : دَعْهُ على أذْلالِه، أي حالِه ؛ وجاء على أذلالِه، أي على وجهه.

التَّجْريدُ لِغَيْرِ نِكَاحٍ مُثْلَةٌ .

التَّجْريدُ معروف . تقول : جَرَّدتُ زيداً من ثيابه، وتَجَرَّدَ هو من ثيابه ؛ وكذا النِّكَاح . والمُثْلَةُ : النَّقْصُ والعَيْبُ والشَّيْن . والمعنى أنَّ تجريد العَوْرة لغير النكاح عيب . يُضرب في وضع الأشياء في غير موضعها .

وذكروا أنَّ المثل لِرَقَاشِ بنت عمرو بن ثعلب بن وائل، وكانت شريفة عاقلة . فتزوَّجها كعب بن مالك بن تَيْم اللّه، فقال لها : اخلعي درعَك ! فقالت : خَلْعُ الدرع بيد الزوج . فقال : اخلعي درعك لأنظر إليك ! فقالت : يا ابن عمٍّ، إنَّ التَّجْريدَ لِغَيْرِ نِكَاحٍ مُثْلَةٌ ! فأرسلتها مثلا . فطلَّقها مكانها، فحُمِلت[8] إلى أهلها، فمرَّت بِذُهْل ابن شَيْبان[9] بن ثعلبة، فسلَّم عليها وخطبها الى نفسها، فقالت لخادمها : انظري أيبعثر أمْ يُقْعِر إذا بال ؟ فنظرت الأمة فقالت لمولاتها : يُقعر . فتزوَّجته .

ويُحكى أيضا أنَّ عثمان بن عفَّان، رضي اللّه عنه، لمَّا تزوَّج نَائِلَةَ بنتَ الفُرافِصَة بن الأحوص الكلبيَّة، وساقها إليه أخوها، فأُدخلت عليه، وخلابها قال لها : تقومين إليَّ أمْ أقوم إليك ؟ قالت : ما قطعت إليك عرض السَّماوة وأنا أحبّ أن تقطع إليَّ عرض البساط . فقامت إليه وجلست إليه، فقال لها : لا يسوءنَّك ما تَرَيْنَ من شيبي، فإنَّ وراءه ما تحبّين . قالت : إنِّي لمن نسوة أحَبُّ رجالِهِنَّ السيِّدُ الكهل . إلى أن قال لها : ضعي الخِمَار ! فوضعته . فقال لها : اخلعي الدرع ! فخلعته . فقال لها : اخلعي الازار !

8) في ب : فتحملت.
9) في ج : ذبيان بن شيبان، وهو تحريف.

قالت : ذلك إليك ! فلمَّا دُخل على عثمان، رضي الله عنه، يوم الدار، أكبَّت عليه وجعلت تنافح بيدها حتَّى أصيبت بجراحات . فلمَّا قُتل، رحمه الله، رثته فقالت :

ألا إنَّ خَير النَّاس بَعد ثلاثةٍ قتيلُ التُّجيبيِّ الذي جاء من مصرْ
وماليَ لا أبكي وتبكي قَرابتي وقد حُجِبت عنَّا فضولُ أبي عَمْرِ ؟

ويُروى هذا الشعر أيضا للوليد بن عقبة، وللكميت . والتُّجِيبي هو كنانة ابن بشر قاتل عثمان، رضي الله عنه . وهو منسوب الى تُجِيب، بضمّ التاء وفتحها، بطن من كندة . فمَّا انقضت عدَّتها خطبها معاوية، فقالت لنسائها : ما يعجب الرجال منّي ؟ قلن لها : ثناياك . فعمدت الى فِهْرٍ فدقَّت به ثنيَّتَيها وبعثت بهما الى معاوية، فكفَّ . ولم تزل مُحِدًّا بعد قتل عثمان حتَّى لحقت به .

أجْرَى مِنْ ذُبَابٍ .

الجَريانُ مرٌّ، والذُّبَابُ معروف، الواحدة ذُبَابَةٌ، وجمع القلَّة أذبَّةٌ . قال الشاعر :

ضَرَّابةٌ بالمِشفَرِ الأذِبَّة

وجمع الكثرة ذبَّانٌ، بالكسر - كغِرْبَان - قال امرؤ القيس :

عَصَافيرٌ وذبَّانٌ ودُودٌ وأجْرَأُ مِن مُجَلِّحَةِ الذِّئابِ

ولا يخفى ماله من الجريان، وسرعة الدوران، وخفَّة الطيَران.

جَزَاهُ جَزَاءَ سِنِمَّار.

الجَزَاءُ : المُكَافَأةُ . تقول : جَزَيْتُ فلانا، أجْزِيهِ، جَزَاءً ؛ وجَازَيْتُهُ مُجَازَاةً. وسِنِمَّارُ، بكسر السين المهملة والنون، وشدّ الميم بعدها ألف فراء : اسم رجل، وهو إسكاف كان النعمان الأكبر، لمَّا أراد أن يبني الخَوَرْنَق لِسَابُور، ليكون ولده فيها معه، اتخذ هذا الاسكاف، فبناها له وأحسن رصفها، وأبدع وصفها[10]، وأكملها في عشرين حولا . فلمَّا أتمَّ بناءها، وأعجب الناس بحسنها، قال الاسكاف : إنِّي لو شئت جعلت القصر يدور مع الشمس حيثما دارت . فقال الملك : إنَّك لتحسن أن تبني أجمل منه ؟ فطرحه من أعلاه . فضُرب به المثل لمَن يجزي الاحسان بالاساءة . قال الشاعر :

---

10) في ب حرف « وصفها » فكتب « وصفاها » . وفي جم كتب خطأ : « وأحسن وصفها » مكررا مع « وأبدع وصفها ».

جَـزانـِي جزَاه اللّـَه شرَّ جزائـِهِ جزاءَ سِنمَّارٍ وما كان ذا ذَنْبِ
سِوى رصْفِـهِ البُنيانَ عشرين حِجَّةً يُـعلُّ علـيه بالقرامـد والسَّـكبِ
فلمَّا انتهى البُنيان يومَ تمامِـه وآضَ كمثل الطَّود والباذخِ الصَّعب
رمى بسنمَّـارٍ على حقٍّ رأسِهِ وذاك لعَمرُ الـلّه من أعظَمِ الذَّنب ![11]

وقال الآخـــر :

جَزى بَنوه أبا الغيلان عن كبرٍ وحُسن فعلٍ كما يُجْزَى سنِـمَّارُ

وقيل إنَّ سنمَّار هو غلام لأحَـيحَة بـنَـى أُطُمًا فلمَّا فرغ قال : أحكمتـه ! فقال : إنـِّي لأعرف حجَرا لو نـُزع لتقوَّض من آخره . فسأله عن الحجر، فأراه إيـَّاه، فدفعه أُحَـيْحَـةُ من الأطُم فخرَّ ميتا . وفي **النوادر** أنـَّه إنسان عمل أُطـُما لبعض الملوك، فقال له : إن نـُزع هذا الحجر تـَداعى البناء كلـّه . فرُمي من فوقه لئلاَّ يعلم به أحد غيره وأنشد :

جَزاء سنمَّارٍ بما كان يَـفْعلُ

تـَجَشَّى لُقَيْمٌ من غَير شِبَعٍ .

التـَّجَشـِّي : تـَنـَفـُّسُ المَعِـدة، ويكون عند الشبع . ولقيم اسم رجل ؛ والشِّبَـعُ ـ بوزن عِـنَـب ـ معروف . والمثل ظاهر المعنى، يُضرب في التشبـّع بما لم يعط . وهو كقولهم : عَـاطٍ بِـغَـيْر نَـوْطٍ[11م]، وقولهم : **كالحَـادي ولَـيس لَـه بَـعِـير** ؛ وسيأتيان .

أجْلَـسْتـُهُ عِـنْـدِي فـأتـَّكـأ.

الجلوس معروف، وكذا الاتـِّكَـاء . وهذا المثل يـُضرب في عادة السوء يعتادها صاحبها . وهو كقولهم : **أعْـطَـى العَـبْـدَ كِـراعـًا فَـطَـلَـبَ ذِراعـًا.**

جَـلَّى مُحِـبًّا نـَظَـرُهُ .

التـَّجْلِـيَـةُ : الابْداءُ والاظْهارُ ؛ والمُحبُّ خلاف المُبغِـض ؛ والنَّظَـر البَـصَر . والمعنى أنَّ نظر الانسان يـُظهر ما انطوى عليه من محبـَّة أو بـُغْـض . ومثله قولهم : **شاهد**

11) في ج :وذاك لعمري...، وهو لا يستقيم وزنـًا.

البغض اللحظ ؛ وقولهم : رُبَّ لَحْظٍ أتَمُّ من لَفْظٍ . وقول الشاعر :

فإنْ تكُ في عدوٍّ أو صديقٍ تُخبِّرْك العيونُ عن القلوبِ

وقول الآخر :

خُذْ من العَيشِ ما كَفَى ومن الدَّهْرِ ما صَفَا
عينُ مَنْ لاَ يُريدُ وصْلَكَ تُبْدِي لَكَ الجَفَا

وقول الآخر :

تُخفي العَداوةَ وهْي غَيرُ خفيَّةٍ نظرُ العدوِّ بما أسرَّ يبوحُ

وقالوا : يُعبِّرُ عن الانسان اللّسان، وعَن المودَّة والبغْضِ العيَانُ[12]

جَمَعَ بَينَ الأرْوَى والنَّعَامِ .

الجمع ضدّ التفريق ؛ وتقدَّم تفسير كلّ من الأروى والنعام في هذا الكتاب . وهذا المثل يُضرب في الجمع بين أمرَيْنِ متنافيَيْن، والتأليف بين شيئَيْن متخالفَيْن . يقال : تَكَلَّمَ زَيْدٌ فَجَمَعَ بين الأروى والنَّعَام، وذلك لأن الأروَى مسكنُها قنن الجبال، كما قال امرؤ القيس :

تُلاعبُ أولادَ الوعُولِ رباعُها دُوينْ السَّماء في رؤوس المجادلِ

والنَّعَامُ مسكنها السهل من الأرض، فلا يجتمعان ؛ وكذا الأروَى والبقر.

وسئل أعرابيّ عن صفة مطر فقال : استقلَّ سُدٌّ مع انتشار الطَّفَل فشَصَا واحْزألّ ؛ ثمَّ اكفهرَّت أرجاؤه، واحْمَوْمَتْ أرحاؤُه، وابذعرت فوارقه، وتضاحكت بَوارقُه، واستطار وادِقُه، وارتَتَقَتْ حُؤَبُه، وارتَعَن هَيْدَبُه، وحَشَكَتْ أخْلافُه، واستقلَّت أردافُه، وانتشرت أكنافه ؛ فالرعد مُرْتَجِس، والبرق مُخْتَلِس، والماء مُنْبَجِس ؛ فأتْرَعَ الغُدُر، وانْتَبَث الوجُر، وخلط الأوعال بالآجَال، وقرن الصيران بالرئال : فالأوديةُ هدير، والشِّراجُ خرير، والتِّلاعُ زَفير ؛ وحط النَّبْعَ والعُتْم، من القُلل الشُّمّ، الى القِيعان الصُّحْم . فلم يبق في القُلل إلاّ مُعْصِمٌ مُجْرَنْثِم، أو داحص مُجَرجِم، وذلك من فضل ربّ العالمين، على عباده المذنبين !

---

12) حرف « البغض » في جم فكتب : « النقص ».

قوله استقل سُدّ : السُدّ، بضمّ السين : السَّحاب المظلم ؛ وكذا الجراد، لأنَّه يسدّ الأفق . واستقل : ارتَفَع ؛ والطَّفَل، بفتحتَيْن، العَشِيّ الى المغرب ؛ وشَصَا ارتفع، يقال : شصا الزقّ إذا امتلأ فارتفعت قوائمه ؛ واحْزَألّ : ارتفع أيضا، وهو بالحاء المهملة والزاي ؛ واكفهرَّت تراكمت ؛ أرجَاؤه : نَواحِيه، واحمومت : اسودَّتْ ؛ أرحاؤه : جمع رحَى، وهي الوسط. وابذعرت، بذال معجمة : تفرَّقت ؛ فوارقه : جمع فارق، وهي القطعة من السحاب الخارجة عن معظمه. والفارق في الأصل : الناقة تندّعن الابل عند نتاجها. واستطار : انتشر ؛ وادِقه : الوادق الذي كثر ماؤه، أو الذي دنا من الأرض. وارتتقت: التأمت ؛ حؤبه : فرجه. وارتعن : استرخى ؛ هيْدبُه : ما تدلَّى منه الى الأرض، كهُدب القطيفة . وحَشَكَت : امتلأت ؛ أخلافُه : ضروعه، جمع خلف، وهو ما يقبض عليه الحالب من ضرع الناقة والبقرة . واستقلت : ارتفعت ؛ أردافه : مآخره . وهذه كلّها استعارات. وأكنافه : نواحيه . ومُرتجِس : مُصَوِّت، ومُخْتلِس : كأنَّه لشدَّة لمعانه يختلس الأبصار، ومُنْبَجِس : مُنْفَجِر،وأترع : ملأ، والغُدرُ، بضمَّتَيْن، جمع غدير؛والوُجُر، بضمَّتَيْن، جمع وِجَار، وهو الجُحْرُ يلجه الثعلب والضبع، وانْتَبَثَها، بالثاء المثلثة، أخرج نباتها، وأصل النبيثة تراب البئر ؛ والأوعال جمع وعْل، وهو التيس الجبليّ، والآجَال جمع إجْـــلٍ، بكسر فسكون، وهو القطيع من بقر الوحش. يقول : إنَّ هذا المطر لشدَّته جمع بين الأوعال التي مساكنها قُنن الجبال، وبين البقر التي مساكنها القيعان . والصِّيرانُ جمع صِوار، وهو القطيع من بقر الوحش، والرِّئَال : فِراخ النعام، جمع رَأْل، بفتح فسكون، وهي تسكن الجلد من الأرض، والصيران تسكن الرمال والقيعان، فجمع بينهما أيضا لشدَّته، والهدير : الصوت ؛ والشِّراج مجاري الماء من الحِرار، واحدها شَرْج، والتلاع : الشعاب التي يجري بها الماء من الجبال، واحدها تَلْعة، بفتح فسكون، والنبع شجر تتَّخذ منه القِسِيّ ؛ والعُتْم، بعين مهملة وتاء مثناة ـ على مثال جُرْف : الزيتون الجبليّ ؛ والقلل أعالي الجبال ؛ والشمّ المرتفعة ؛ والقيعان جمع قاع، وهو الأرض المطمئنَّة ؛ والصُّحْم : التي تعلوها حمرة، جمع أصْحَم ؛ والمُعْصِم : الذي استمسك بالجبال وتمنَّع فيها من الأوعال . يقال : فارس مُعصِم إذا أخذ بعرف فرسه، والمُجرَنْثِم : المنقبِض، والداحصُ الذي يفحص برجلَيْه عند الموت . قال علقمة :

رَغا فَوقَهم سَقبُ السَّماء فداحصٌ بشِكَّتِه لم يُستَلَب وسَليبُ
والمجرجم المصدوع.

جَمَعَ بَينَ الضَّبِّ والنُّونِ.

الضَّبُّ حيوان معروف، جمعه ضِباب وأضُبّ، وكنيته أبو حِسْل، والحِسْل ولَدُه، كما سيأتي، والنُّونُ : الحوت، وجمعه نِينَان . وهذا المثل كالذي قبله في المعنى، لأنَّ الضبَّ حيوان بَرِّيّ، لا يرد الماء ويلازم الصحراء، وأكثر ما يكون في الكُدى، كما قال خالد ابن علقمة :

تَرَى الشَّرَّ قَد أفْنَى دوائِرِ وجهه كَضَبٍّ الكُدى أفْنى براثِينَه الحفْرْ

وقال الآخـــر :

فللَّه أرضٌ يعلَمُ الضبُّ أنَّها بعيدٌ من الآفاتِ طيِّبة البَقْل
بنى بيتَه فيها على رأس كُديةٍ وكلُّ امرىءٍ في حرفة العيش ذو عقل

ومن عجيب أمره أنَّه يعيش سبعمائة سنة ولا تسقط له سِنّ، وهو لا يشرب الماء . ويقال إنَّه يبول في كلّ أربعين يوما مرَّة . ومن كلام العرب : لا أفْعَل ذلكَ حتَّى يَردَ الضَّبُّ، كما يقولون : حتَّى يَشيبَ الغُرابُ . ومن الكلام الموضوع على ألسنة العجماوات، قالت السمكة : رِدْ ياضبّ ! فقال :

أصْبَحَ قَلْبِي صَرِدَا لاَ يَشْتَهِي أنْ يَرِدَا

والنُّونُ حيوان بحريّ لا يفارق الماء أبدا، فلا يجتمعان . قال الصابىء :

الضَّبُّ والنُّون قد يُرجى اجتماعهما وليس يُرجى اجتِماعُ المال والأدب[13]

وقال الآخـــر :

ولو أنَّهم جاؤوا بشيءٍ مُقاربٍ لقُلت : هو الشَّكل الموافق للشَّكل
ولكنَّهم جاؤوا بحيتان لُجَّةٍ تُقامس والمَدعوّ فينا أبا الحِسل[14]

ولِمَا بين الضبّ والنُّون من التنافي والتقابل، قال حاتم الأصمّ أو غيره :

---

13) في ج : « والولد » بدل «والأدب ».
14) في ج : أبو الحسل .

وكيف أخافُ الفَقـرَ واللّهُ رازقي ورَازق هذا الخَلقِ في العُسر واليُسر ؟
تكفَّل بالأرزاق للخلـقِ كُلّهِـم وللضَّبِّ في البيْدا وللحوتِ في البحر

ولوضوح ذلك يقال، عند التجهيل، : فُلانٌ لا يُفـرِّقُ بين الضّبِّ والنُّون.

أجْمَلُ مِنَ المُذهِبِ.

الجَمَالُ : الحُسْن ؛ جَمُلَ الشخص، بالضمّ، يجمُل، فهو جميل، والمُذهِبُ هو ابن عَدنَان، كان فائقًا في الجمال والبهاء . فضربت العربُ بجماله المثل.

الجَمَلُ مِنْ جَوفِهِ يَجْتَرُّ.

الجَمَل، بفتحتَيْن من الابل معروف، والجِرَّة، بكسر الجيم وتُفتح، ما يخرجه البعير من جوفه، فيأكله ثانية . ويقال : اجْتَرَّ الجمل فَعَل ذلك، يجترُّ اجترارا . وهذا المثل يُضرب لمن يأكل من كسبه، أو ينتفع بشيء يعود منه الضرر .

تَجَنَّبَ رَوْضَةً وأحَالَ يَعْدُو.

التّجنّبُ معروف، والاحَالَةُ هنا الاقْبَال . يقال : أحَالَ عليه بالسوط، أي أقبل عليه.
قال الشاعر :

وكُنتَ كذئْب السّوء لمّا رأى دمًا بصَاحبه يومًا أحَالَ على الدَّمِ

ومعناه : تجنّب الخصب واختار الضيق . يُضرب في الرجل تعرض عليه الكرامة فيختار الهوان.

أجَنُّ مِنْ دُقَّةَ .

الجُنُون معروف . يُقال : جُنَّ الرجل، بالبناء للمفعول، فهو مجنون، وأجَنُّ من كذا، بَنَوْه من فِعْل المفعول شذوذًا، كما قالوا : أشْغَلُ من ذات النحيين، وأزْهَى من ديك، وسيأتيان، ودُقَّة، بضمّ الدال المهملة وتشديد القاف، اسم [رجل]، وهو دُقَّة بن عباية، يُضرب بجنونه المثل.

أجْوَدُ مِنْ لاَفِظَةَ .

الجُودُ معروف، ضِدّ البُخْل . ويُقال أيضا : **أسْمَحُ مِنْ لاَفِظَةَ** ؛ والسَّمَاح هو الجود . واختُلف في اللاّفِظَة، فقيل : البَحْر لأنَّها تلفظ بالدُّرَّة الجليلة التي لا قيمة لها، والهاء للمبالغة . قال الشاعر :

يَدَاكَ يَدٌ خَيرهَا يُرْتَجَى وأُخْرى لأعْدَائِهَا غَائِظَهْ
فَأمَّا الَّتي خَيرُهَا يُرْتَجَى فَأجْوَدُ جُوداً من اللاّفِظَهْ
وأمَّا الَّتي شَرُّهَا يُتَّقَى فَنَفْسُ العَدوِّ بِهَا فَائِظَهْ

وقال الآخـــر :

تجودُ فتجْزلُ قَبل السُّؤالِ وكفُّكَ اسْمَحُ من لافِظَهْ

وقيل : اللاّفِظَةُ الرَّحَى، لأنَّها تلفِظ ما تطحنه ولا تبقي . وقيل إنَّها العَنْز، وجُودها **أنَّها تُدعى الى الحلب، وهي تعتلف، فتلقي ما في فيها . وتقبل إلى الحالب . وقيل إنَّها** الحمامة، لأنَّها تُخرج ما في بطنها لفرخها . وقيل هي الديك، لأنَّه يأخذ الحبَّة بمنقاره، فلا يأكلها، ولكن يلقيها الى الدجاجة، إلاّ المُسنّ منها، فإنَّه لاستغنائه عن الدَّجاج يأكل الحبّ دونها ويمنعها منه .

الجَوادُ يَكْبُو .

الجَوادُ هو الكريم من الخيل، يجود بما في طاقته من الجري . والكَبْوُ : العِثَار . يُقال : كَبَا، يَكْبُو، كَبْوًا وكُبُوًّا . ويُقال في هذا المثل أيضا : **لِكُلّ جَوادٍ كَبْوَة**، وهو أنّ الكامل لا ينبغي أن يُذمّ إذا وقعت منه هَفْوة، كقولهم في المثل الآخر: **لا تَعْدِمُ الحَسْنَاءُ ذَامًا** . وسيأتي جميع ذلك . وقال أبو بكر بن دُرَيْدٍ رحمه الله تعالى :

والطِّرف يجتازُ المَدَى وربَّمَا عنّ لمَعْدَاهُ عِثَارٌ فكَبَا

وقلت أنا :

وكريمُ الجيادِ يكْبو، ومَا في كبْوةٍ للجَوادِ من نُقْصانِ

أجْناؤُها أبْناؤُها .

الأجْناءُ جمع جَانٍ . يُقال : جَنَى فلانٌ على فلانٍ، يجْنِي عليه، فهو جَانٍ، وهُم جُنَّاء[15] وأجْناء . وهذا الثاني نادر، إذْ لا يُجمع فاعلٌ على أفْعال، والأبناء جمع بَانٍ، وهو نادر . والمعنى أنَّ الذين جنوا على هذه الدار ـ مثلاً بالهدم ـ هم الذين كانوا بنوها . ومضرب المثل من هذا واضح . قال الجوهري : وأنا أظنّ أنَّ أصل المثل : جُنَاتُهَا بُنَاتُهَا، لأنَّ فَاعِلا لا يجمع على أفْعَال ؛ أمَّا الأشْهاد والأصْحاب، فإنَّما هو جمع شَهْد وصَحْب، إلاَّ أن يكون هذا من النوادر، لأنَّه يجيء في الأمثال مالا يجيء في غيرها . انتهى . وهو ظاهر .

يُجْنَى مِنَ الشَّوكِ الثَّمَرُ.

تقدَّم تفسير هذه الألفاظ في الباب الأوَّل . والمعنى أنَّك إذا ظلمتَ فَاحْذر الانتصار والانتقام !

تَجُوعُ الحُرَّةُ ولا تَأْكُلُ بِثَدْيَيْهَا .

الجُوعُ ضدّ الشبَع . والحُرَّة ضدّ الأمَة، والأكل معروف ؛ وكذا الثدي وجمعه ثُدِيّ . قال الشاعر :

أبَتِ الرَّوادِفُ والثُّديُّ لقُمصها مسَّ البطونِ وأن تَمَسَّ ظُهورَها[16]

ويحكى أنَّ النبيَّ صلَّى اللّه عليه وسلَّم سئل : أيكون المؤمن كذَّابا ؟ فقال : تَجُوع الحُرَّة ولا تأكُل بثَدْيَيها . ومعناه أنَّ الحُرَّة قد يصيبها ألم الجوع وشدَّة الاضطرار، ولا تؤاجر نفسها على الارضاع [لتأكل أجرة رضاعها]، فتلزم نفسها الاصطبار صونًا لنفسها عن الهوان والابتذال . فيُضرب في الحرّ يصون نفسه عن قبيح المكاسب، ولا تمنعه شدَّة فقره وحاجته أن يلزم صيانته ويحفظ مروءته.

وأصل المثل للحارث الأزدي ـ أو الأسدي ـ وكان خطب الى علقمة بن حفص الطائي بنته

15) في بعض النسخ جُنَّاء، وفي بعضها جُنَاة، وكلاهما صحيح.
16) في ب : ظهورا.

ريًّا بنت علقمه، وكان الحارث شيخا . فقال علقمة لامرأته : اختبري ما عند ابنتك ! فقالت لابنتها : أي بنيَّة، أيّ الرجال أحبّ إليك : الكهل الجحجاح، الواصل المياح، أم الفتى الوضَّاح، الذهول الطمَّاح ؟ قالت : بل الفتى . قالت : إنَّ الفتى يغريك، وإنَّ الشيخ يمريك . قالت : يا أمَّتاه، إنَّ الفتاة تحب الفتى كحبّ الرعاء أآنف الكلا . قالت : يا بنيَّة، إنَّ الفتى شديد الحجاب، كثير العتاب . قالت : يا أمَّتاه، أخاف من الشيخ أن يدنس ثيابي، ويبلي شبابي، ويشمت بي أترابي ! فلم تزل بها أمّها حتى غلبتها على رأيها، فتزوَّجها الحارث وارتحل بها الى أهله . فبينما هو ذات يوم بفنائه، وهي الى جنبه، إذ أقبل شباب من بني أسد . فتنفَّست الصعداء ثمَّ بكت . فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت : مالي وللشيوخ، الناهضين كالفُروخ، من كلِّ حَوقَل فَنِيخ ؟ فقال : ثكلتك أمّك ! تَجُوعُ الحُرَّةُ ولا تأكُلُ بثَديَيْهَا . ثمَّ قال : وأبيك ! لربَّ غارة شهدتها، وسبيئة أرفدتها، وخمرة شربتها، فالحقي بأهلك، فلا حاجة لي فيك !

وقال أبو عبيد في هذا المثل إنَّه من أمثال أكثَمَ بن صَيْفِي . قال : وهو مثل قديم، لكن العامَّة ابتذلته وحوَّلته فقالت : ولا تأكُلُ ثَدْيَيْهَا، يعني بإسقاط حرف الجرّ . قال بعض العلماء : ليس هذا بشيء إنَّما بثَديَيْهَا، ومعناه عندهم الرضاع . يقول لا تكون ظِئْر القوم على جُعْلٍ تأخذه منهم . انتهى .

وقال بعض الأئمَّة : إنَّ العرب كانوا يعدّون أخذ الأجر على الرضاع سُبَّة، ولذلك قيل : تَجُوعُ الحَرَّةُ ولا تأكُلُ ثَديَيْهَا . وقال العلماء : بِثَدْيَيْهَا . والقولان صحيحان، لأنَّها إذا أكلت ثمن لبنها فكأنَّها قد أكلت ثدييها . قال الراجز :

إنَّ لنا أحْمِرَةً عِجافَا ... يأكُلْنَ كلَّ لَيلَةٍ أكَافَا

أي : نبيع كلَّ ليلة أكافًا من أكِفَتِها ونعلفها ثمنه . قال : وكذلك قول الآخر في وصف إبل : نُطْعِمُها إذا شَتَتْ أولادَهَا، أي أثمان أولادها . انتهى .

وقال السهيلي في **الروض** : والتماس الأجر على الرضاع لم يكن محمودًا عند أكثر نساء العرب، حتَّى جرى المثل : تَجُوعُ الحُرَّةُ ولا تَأكُلُ بِثَدْيَيْهَا . وكان عند بعضهم لا بأس به، فكانت حليمة وسيطة في بني سعد، كريمة من كرائم قومها، بدليل اختيار الَّله إيَّاها لرضاع نبيِّه صلَّى الَّله عليه وسلَّم، كما اختار له أشرف البطون والاصلاب . والرضاع كالنسب، لأنه يغيِّر الطباع.

وفي **المسند** عن عائشةَ ترفعه : **لا تَـسْتَـرْضِعُـوا الحَـمْـقَـى، فَـإنَّ اللَّـبَـنَ يُـورث !**
ويُـحتمل أن تكون حليمة وقومها طلبن الرضعاء للأزمة التي أصابتهم، والسنة الشهباء التي أقحمتهم اضطرارا . قال : وأمَّا دفع قريش وغيرهم من أشراف العرب أولادهم الى المراضع، فقد يكون ذلك لوجوه : أحدها تفريغ النساء الى الأزواج، كما قال عمَّار بن ياسر لأمّ سلمة ـ وكان أخاها من الرضاعة ـ حين انتزع من حجرها زينب بنت أبي سلمة، فقال : دعي هذه المقبوحة المشقوحة التي آذيت بها رسول اللّه صلَّى الله عليه وسلَّم ! وقد يكون ذلك منهم أيضا لينشأ الطفل في الأعراب، فيكون أفصح للسانه، وأجلد لجسمه، وأجدر أن لا يفارق الهيئة المَعَديّة، كما قال عمر : تَـمَعْدَدُوا وتَـمَعْزَزُوا واخْشَوْشِنُوا ! وقد قال عليه الصلاة والسلام لأبي بكر ـ حين قال له : ما رأيت أفصح منك، يا رسول اللّه ـ فقال : **ومَـا يَـمْـنَـعُـنِـي، وأنَـا مِـنْ قُـرَيْـشٍ، وأرضِعْـتُ في بَـنِـي سَـعْـدٍ ؟** فهذا ونحوه كان يحملهم على دفع الرضعاء الى الأعرابيات . وقد ذكر أنَّ عبد الملك بن مروان كان يقول: أضرَّ بنا حبّ الوليد ! لأنَّ الوليد كان لحَّانا، وكان سليمان فصيحا، لأنَّ الوليد أقام مع أمّه وسليمان وغيره من إخوته أسكنوا البادية فتعرَّبوا، ثمَّ أُدّبوا فتأدَّبوا . انتهى .
وقد قلت في نظم المثل المذكور، من قصيدة :

يَعْرى الفتى ويجوعُ وهْو يُرى مُتجمِّلاً بالصَّبرِ والبشْرِ
والحُرَّةُ الشَّمَّاءُ رُبَّتَما جاعَتْ ولَم تُرضِعْ على أجْرِ

جَوِّعْ كَلْبَكَ يَتْبَعْكَ !

الجُوعُ تقدَّم . وجَوَّعْتُ فلانا، وأجَعْتُه : تركته بلا طعام حتَّى جاع ؛ والكلب معروف ؛ وكذا الاتّبَاع . والمثل ظاهر المعنى . قيل : وأوَّل من قاله ملك من ملوك حِمْيَرَ كان جبَّارًا عنيفا على أهل مملكته، يغصبهم أموالهم وما في أيديهم . وكانت الكهنة تخبره أنَّهم سيقتلونه وهو لا يبالي بذلك . وسمعت امرأة له أصوات السُّؤَّال فقالت له : إنِّي لأرحم هؤلاء لِمَا يلقون من الجهد، ونحن في العيش الرغد . وإنِّي أخاف أن يكونوا عليك سباعًا، بعد أن كانوا لك أتباعا ! فردَّ عليها : جَوِّعْ كَلْبَكَ يَتْبَعْكَ ! فأرسلها مثلا. ثمَّ إنَّه لبث كذلك زمانا، ثمَّ أغزاهم مع أخيه، فغنموا ولم يقسم فيهم شيئا . فقالوا

لأخيه : قد ترى ما نحن فيه من الجهد، ونحن نكره خروج الملك منكم الى غيركم، فساعِدْنَا على قتل أخيك واجلس مكانه ! وعرف أخوه بغيه واعتداءه، فأجابهم الى ذلك، فوثبوا عليه فقتلوه . فيقال إنَّه مرَّ به رجل يقال له عامر بن جذيمة، وهو مقتول، وقد سمع قوله : جَوِّعْ كَلْبَكَ يَتْبَعْكَ ! فقال : ربَّما أكل الكلبُ مُجَوِّعَه، إذا لم ينل شبعَه ! وقال أبو جعفر المنصور يوما لقوّاده : صدق الأعرابي حيث يقول : أجِعْ كَلْبَكَ يَتْبَعْكَ ! فقال له أبو العبَّاس الطوسي منهم : يا أمير المؤمنين أخشى أن يلوّح له رجل برغيف فيتبعه ويدعك !

أجْوَعُ مِنْ ذِئْبٍ .

الذِّئْبُ معروف، يُهمز ويُخفّف، والأنثى ذِئْبَة . قال الشاعر :

فصيرت كَنعْجَةٍ تُضحِي وتُمْسي ... تَرَدَّد بَين أخْبَثِ ذئْبَتَين

والذئب يوصف بالجوع المفرط، ومن ثمّ يقال للجوع داء الذئب . يُقال : رَمَاهُ اللّهُ بِداء الذِّئبِ، أي الجوع . وهو - مع ذلك - شديد الصبر عليه، وربَّما اكتفى بالنسيم . ويقال إنَّه إذا ألحَّ عليه الجوع عوى، فتجتمع عليه الذئاب، فتحمل على الانسان حملة واحدة، وكلّ منها حريص عليه ؛ إلاّ أنَّه إذا أُدمِيَ منها واحدٌ وثبت عليه البواقي وتركت الانسان . ومن ثمَّ قال الشاعر يعاتب صديقًا له أعان عليه في أمر نزل به :

وكُنتَ كذئبِ السُّوء لمَّا رأى دمًا ... بصاحِبه يومًا أحال على الدَّم[17]

وقال العُجَيْر السَّلُولي :

تركْنا أبا الأضيافِ في ليلة الدُّجى ... بِمَرٍّ ومِرْدَى كلّ خصمٍ يُجادلُه[18]

تركنا فتًى قد أيْقن الجوع أنَّه ... إذا ما ثوى في أرحُل القوم قاتلُهْ

فتًى قُدَّ قَدَّ السيف لا متضائلٌ ... ولا رهِلٌ لمَّاتُهُ وبَآدلُه[19]

إذا القوم أمُّوا بيته فهو عامدٌ ... لأحسن ما ظنُّوا به فهو فاعلُهْ

جوادٌ بدنياه بخيلٌ بعِرضِه ... عطُوفٌ على المَولَى قليلٌ غوائلُهْ

---

17) هذا البيت مكرر، إذ أورده المؤلف في المثل السابق : تجنب روضة وأحال يعدو.
18) في **الحماسة** : « في ليلة الصَّبا » بدل «ليلة الدجى ».
19) في الحماسة : « لبَّاتُه وأبَاجلُه » بدل « لماتُهُ وبآدله ».

فتًى ليس لابن العمِّ كالذئب إن رأى بصاحبِهِ يومًا دمًا فهْو آكِلُهْ
إذا جدَّ عند الجِدِّ أرضاك جدُّه وذُو باطلٍ إن شِئت أرضاك باطلُهْ
يسرُّك مظلومًا ويُرضيكَ ظالمًا وكلُّ الّذي حمَّلْتَه فهو حامِلُهْ

أجْوَعُ مِنْ كَلْبَةِ حَوْمَلٍ .

الكلبة الأنثى من الكلاب معروفة؛ وحَومَل، بالحاء المهملة، ـ على مثال جَوْهَر ـ امرأة من العرب كانت لها كلبة تجوّعها بالنهار، وهي تحرسها بالليل . فكانت تربطها بالليل للحراسة وتطردها بالنهار، وتقول : التمسي لا ملتمس لك ! حتّى طال عليها الأمر فأكلت ذنبها جوعًا . قال الشاعر :

كما رضيتْ جوعًا وسوءَ ولايةٍ لكلبتِها في أوّل الدّهر حومَلُ

أجْوَعُ مِنْ لَقْوَةٍ .

اللّقْوَةُ، بفتح اللاّم : الكلبة . وفيها يقال : أجْوَعُ من لَقْوَةٍ، قاله بعض النّاس . والمعروف في كتب اللغة أن اللّقْوَة، باللفتح وتُكسر، المرأة السريعة اللّقاح كالناقة . ومنه المثل الآتي : لَقْوَةٌ صادَفَتْ قَبِيسًا ؛ وكذا العُقاب الأنثى . قال امرؤ القيس :

كأنّي بفَتْخاءِ الجناحيْنِ لقْوة صيودٍ من العقْبان طأطأتُ شملالي

وقال أبو عُبيدة : سمّيت العُقاب لَقْوَةً لسعة أشداقها . وكأنّه عنده مأخوذ من اللّقوة، وهو الداء المعروف الذي يصيب في الوجه . يقال لُقِيَ الرجل ـ بالبناء للمفعول ـ، فهو مَلْقُوٌّ.

أجْوَلُ مِنْ قُطْرُبٍ .

يقال : جالَ، جولانًا، فهو جائلٌ وجوّالٌ ؛ والقُطْرُب طائر يبيت سائرًا لا ينام اللّيل كلّه . ويقال دُويبة . ويقا إنه دُوَيْبة لا تستريح نهارها سعيًا . وكان محمد بن المستنير النحوي يبكّر الى مجلس سيبويه، فلا يفتح الباب إلاّ وجده، فقال له : ما أنت إلاّ قُطْرُب ليل ! فبقي عليه قطرب لقبًا . ويُطلق القطرب أيضا على الذئب الأمعط، وعلى الفأر، وعلى

الّلص، وعلى ذكَر الغيلان، وغير ذلك من المعاني .

وذكر ابن ظَفَر أنَّ القُطْرب حيوان يكون بالصعيد من أرض مصر، يظهر للمنفرد من الناس، فربَّما صدَّه عن نفسه إن كان شجاعا، وإلاَّ، لم يزل به حتَّى ينكحه، فإذا نكحه داد دبره فهلك . وهم إذا رأوا من ظهر له قطرب قالوا : امنكوح أم مروّع ؟ فإن قال : منكوح أيسوا منه، وإن قال : مروّع عالجوه، والّله أعلم . وسيأتي ذكر نحو هذا الحيوان في قولهم ألْوطُ من عُذَارٍ، في حرف اللاّم، إن شاء الّله تعالى .

الجَار، قَبْلَ الدّار .

رُوي هذا حديثا عن النبي صلَّى الّله عليه وسلَّم قال : **الجارُ قَبْلَ الدّارِ، والرَّفيقُ قَبْلَ الطَّريقِ** . ويُروى : الجارَ والرَّفِيقَ، مَرفُوعَيْنِ، والنصب فيهما حسن، أي : التَمِس الجار قبلَ الدّار، والتَمس الرفيقَ قبل الطريق . وقال أبو تمَّام في هذا المعنى :

مَن مُبلغٌ أبْنَاءَ يَعرُبَ كُلَّها ... أنِّي ابْتَنيتُ الجار قبل المنزلِ ؟

وقال الآخــر :

يقولون : قبل الدّار جارٌ مُوافقٌ ... وقبل الطَّريق النَّهْج أنسُ طريق

فقلتُ : ونَدمانُ الفتى قبلَ كأسِه ... فما حثَّ كأسَ الخَمرِ مثلُ صديقِ

وقال الآخر في المعنى :

يلومونني أن بِعتُ بالرُّخْصِ منزلي ... ولم يعلموا جاراً هُناكَ يُنغِّصُ

فقلت لهم : بعْضَ المَلامِ ! فإنَّما ... بجيرانها تغْلو الدّيارُ وتـرخُصُ

جـاء بالضِّـح والـرِّيــح

المجيء معروف، والضِّح بكسر الضاد المعجمة بعدها حاء مهملة مشدَّدة يطلق على الشمس وما طلعت عليه الشمس . وفي الحديث : لا يَقْعُدَنَّ أحَدُكُمْ بَيْنَ **الضِّحِّ والظِّلِّ، فإنَّهُ مَقْعَدُ الشَّيْطَانِ** . ذكره في الصحاح، وأنشد لذي الرمَّة :

غَدا أكْهَبَ الأعلى وراحَ كأنَّهُ ... من الضِّحِّ واستقباله الشَّمسَ أخْضرُ

أي استقباله عين الشمس . وقال علقمة : أبْيَضُ أبْرَزَهُ للضِّحِّ راقِبُه[20]

والريح معروفة . ومعنى جَاءَ بالضِّحِّ والرِّيحِ : جاء بما طلعت عليه الشمس وما جرت

20) هذا شطر بيت أنشده الأصمعي، وشطره الثاني :
مقلّدٌ قُضُبَ الريحان مفغومُ.

عليه الريح . يقال ذلك عندما يجيء بالشيء الكثير . قال في الصحاح : والعامَّة تقول : جَاءَ بِالضِّيحِ والرِّيحِ، يعني الضيح، بالياء المثناة من تحت . قال : وليس بشيء . انتهى . ومثله لصاحب **القاموس** .

جَاءَ بالحَظِرِ الرَّطْبِ .

الحَظِرُ، بالظاء المشالة ـ على مثال كَتِف ـ الشجر المحتظر به والشوك الرطب . والرَّطْبُ خلاف اليابس، فيقال : جاء فلان بالحَظِرِ الرَّطْبِ، أي بكثرة من المال والناس، وقيل بالكذب المُستَبْشَع . ويقال أيضا : **أوقد فلان في الحظِرِ الرطب**، إذا نَمَّ. ووقع **في الحظر الرطب** إذا وقع فيما لا طاقة له به . وذلك كلّه ظاهر .

جَاءَ بِالطِّمِّ والرِّمِّ .

الطِّمُّ، بكسر الطاء المهملة، قيل الماء، وقيل ما على وجه الماء، وقيل ما ساقه من الغُثاء [ويطلق أيضًا على البحر، وعلى العدد الكثير، وعلى العجب وغير ذلك من المعاني . والرِّم بكسر الراء : ما يحمله من الغُثاء]،[21] أو ما على وجه الأرض من فُتات الحشيش . ومعنى جَاءَ بِالطِّمِّ والرِّمِّ : جَاءَ بالمالِ الكَثير . وقيل : بالرَّطْبِ واليَابِسِ، أو بالتُّراب والماء، أو بالبحر والثرى . وقال بعض الناس : الطِّمُّ، بالكسر، إذا كان مع الرِّم ؛ فإذا أُفرد فُتح فقيل : جَاءَ بالطَّمّ مفتوحًا، كما قالوا : هَنَّانِي بالطعام ومَرَّانِي ؛ فإذا أفردوا لم يقولوا إلاّ أمْرأنِي .

جَاءَ بِمَا صَأَى وصَمَتَ .

يقال : صَأَى الفرخُ وغيره، يَصْأى ـ كسَعَى يَسْعَى ـ صَئِيًّا ـ على مثال فَعِيل ـ إذا صوَّتَ . قال :

مَالي إذا أنْزِعُها صَأَيْتُ ؟ أكِبَرٌ غيَّرني أمْ بَيْتُ ؟

وصَمَتَ، يَصْمُتُ، كَكَتَبَ، يَكْتُبُ، صَمْتًا وصُموتًا، إذا سَكَت . **فيقال** : جَاءَ بِما صَأى وصَمَتَ : إذا جاء بالمال الكثير، أي بالمال الناطق والصامت . والتقدير : جَاءَ بِمَا صَأى وبِمَا صَمَتَ، بحذف الموصول الثاني اختصارا، كقول حسَّان رضي الله عنه :

أمنْ يهْجو رسولَ اللّهِ منكُم ويَمدحُهُ وينْصُرُهُ سَواءُ ؟

أي : مَن يهجوه ومن يمدحه، لاستحالة اجتماع الوصفَيْن في موصوف واحد، وكذا الصَّئِيُّ والصَّمت لا يجتمعان . والصَّامِتُ من المال : الذهب والفضَّة، والنَّاطِقُ : الابل مثلا . ومنه قولهم : حَصَلَ النَّاطِقُ والصَّامِتُ، وهَلَكَ الحَاسِدُ والشَّامِتُ . وقد يقال : جَاءَ بِمَا صَاءَ وصَمَتَ . وصَاءَ مقلوب صَأى، كما قالوا : رَاءَ في رأى . ومنه قولهم في المثل الآخر في العقرب : تَلْدَغُ وتَصِيءُ .

جَاءَ صَرِيمَ سَحْرٍ .

أي خائبا آيسا.[22]

جَاءَ يَضْرِبُ أسْدَرَيْهِ .

ويقال أيضا : جَاءَ يَضْرِبُ أصْدَرَيْهِ - بالصَّاد - وأزْدَرَيْهِ - بالزاي -، والمعنى في الجميع واحد . والأصْدَرَانِ عِرْقَانِ تحت الصُّدْغَيْنِ، وقيل المَنْكِبَانِ، وقيل العِطْفَانِ، يقال : جَاءَ يَضْرِبُ أصْدَرَيْه، أو أسْدَرَيْهِ، أي يَضْرِبُ عِطْفَيْهِ ومَنْكِبَيْهِ . ومعناه : جاء فارغًا ليس بيدَيْه شيء ولم يقض حاجة . فإذا قضاها قيل: جَاءَ ثَانِيًا من عِنَانِهِ .

ويروى أنّ الحسن البصري، رضي اللّه عنه، رأى الناس يوم عيد يضحكون فقال : تلقى أحدكم أبيض بضا، يَمْلَخُ في الباطل مَلْخًا، يَنفضُ مِذْرَوَيْه، ويَضرب أصْدَرَيْه، يقول : ها أناذا فاعرفوني ! قد عرفناك، فمقتك اللّه ومقتك الصالحون ! ومعنى يَمْلَخُ في الباطل يَلِجُ فيه ؛ وقيل يَتَثَنَّى .

جَاءَ يَفْرِي ويَقُدُّ .

الفَرْيُ : القَطْعُ . تقول : فَرَيْتُ الشيءَ، أفْرِيهِ، فَرِيًا، إذا قَطَعْتَهُ على

---

21) سقط ما بين معقوفتين من ب.

22) الصَّرِيمُ : الصبح والليل أو القطعة منه . والسَّحْرُ : الرِّئة . وأنشدوا في هذا المعنى :

أيَذهبُ ما جَمَعْتُ صَرِيمَ سحْرٍ طليقًا ؟ إنّ ذا لهُو العجيب !

ومعنى الطّلِيف : المَجَّان .

وجه الاصلاح . وأفْرَيْتُه إذا قطعتَه على وجه الافساد . قال زهير :

ولأنْتَ تفْري ما خَلَقْتَ، وبعضُ القَومِ يَخْلُقُ ثمَّ لا يَفْري

أصله أنَّ الرجل يخلق الأديم أي يتهيَّأ لاصلاحه ويقدّره، ثمَّ يفريه أي يقطعه . لذلك يقول : إنَّك إذا تهيَّأت لأمر أنفذتَه وأمْضَيْته، وكثير من الناس يَهُمّ ولا يفعل . وقيل : إنَّ فَرَى، وأفْرَى، وفَرَّى، بمعنى واحد، كلّ ذلك يكون في القطع للاصلاح والافساد وتقول : فريتُ المزادة إذا خلقتَها وصنعتَها . قال الراجز :

شَلَّتْ يَدا فَارِيَةٍ فَرَتْهَا مَسْكَ شَبُوبٍ ثمَّ وفَرَّتْهَا

لَوْ كَانَتِ السَّاقِيَ صَغَّرَتْهَا

والقد : القطع طولاً . يقال : قَدَّ الأديمَ إذا شَقَّهُ طولاً . ومعنى : جاء يفري ويَقُدّ : جاء يعمل عملا مُحْكما . ويقال أيضا : **هو يَفْري ويَقُدُّ** . ويقال : **يَفْري الفَرِيَّ**، بمعناه.

جَاءَ بِأُمِّ الرُّبَيْق، عَلَى أرَيْق .

أمُّ الربيق : الدَّاهِيَةُ ؛ والأرَيْقُ أصله وُرَيْق - بالواو - فقُلبت همزة . والوُرَيْق تصغير أوْرَق، تصغير الترخيم، كما يقال في أسْوَد سُوَيْد، وفي أحْمَر حُمَيْر، وفي أدْرَد دُرَيْد . والأوْرَقُ من الابل ما في لونه بياض الى سواد . وقيل : كان أصله أن يقول أُوَيْرِق على أصله، فحُذفت الواو ليزدوج الكلام . ويقال إنَّه من أطيب الابل لحمًا لا حملاً وسيرًا . وقيل لابنة الخس : أي الجمال شرّ ؟ فقالت : الأورق . وزعموا أنَّ رجلا رأى غولاً على جمل أوْرَق فقال : جَاءَ بِأُمِّ الرُّبَيْقِ عَلى أُرَيْقٍ، أي الغول على جمل أورق، فضرب مثلا في جناية عظيم الدواهي[23].

جَاؤُوا مُخِلّينَ فَلاقَوْا حَمْضًا .

يقال : أخَلَّ الرجل إذا رَعَى إبله في الخُلَّة - والخُلَّة، بضمّ الخاء المعجمة : كلّ ما فيه حلاوة من النبات . مقابله الحَمْض، بفتح الحاء المهملة . ويقال : الخُلَّة خبز الابل، والحَمْض فاكهتها أو لحمها . وجَاؤُوا مُخِلّينَ : جاؤوا وقد أكلت إبلهم الخُلَّة .

23) في ذ : عظام الدواهى.

وهذا المثل يُضرب لكلّ من جاء متهدّدا فصادف ما يقمع تهدّده . وسنزيده بيانا بعد في محلّه من الشعر، إن شاء اللّه تعالى .

جَاؤُوا عَلَى بَكْرَةِ أَبِيهِمْ .

البَكْرَة، بالفتح فالسكون : الفَتِيَّة من الابل، والفَتَى منها بَكْر . وكان يقال البَكْر من الابل بمنزلة الفتى من الناس ؛ والبَكْرة بمنزلة الفتاة ؛ والقَلُوص بمنزلة الجارية الشابة ؛ والبعير بمنزلة الانسان ؛ والجمل بمنزلة الرجل ؛ والناقة بمنزلة المرأة . والبَكْرَةُ أيضا بَكْرَة الدّلْو التي يُستقى عليها . واختلف في معنى هذا المثل فقيل : معنى جَاؤُوا عَلَى بَكْرَة أبِيهِمْ : جَاؤُوا مُجْتَمِعِينَ، لم يتخلّف منهم أحد . وليس هناك بَكْرةٌ على الحقيقة . وفي الحديث **جَاءَتْ هَوَازِنُ عَلَى بَكْرَةِ أبِيهَا** . وقيل هو وصف بالقلّة والذلّة، أي جاؤوا بحيث تكفيهم بَكْرة واحدة يركبون عليها، وذكر الأب احتقار .

وقيل إنّ أصل هذا المثل أنّ قوما قُتلوا فحُملوا على بَكْرة أبيهم، فقيل فيهم ذلك، ثمّ صار مثلا للقوم يجيئون معًا. وقيل إنّ البَكرة هاهنا هي بَكرةُ الدّلو، والمعنى : جاؤوا بعضهم في إثر بعض، كَدَوران البَكْرة على نسق واحد . وقيل : أُريد بالبكرة الطريقة، أي : جَاؤُوا على طريقة أبِيهم يقتفون أثره.

جَاءَ يَنْفُضُ مِذْرَوَيْهِ .

النَّفْضُ معروف ؛ والمِذْرَى الخشبة التي يُنقَّى بها الزرع ؛ والمذْرَوَانِ جَانِبَا الرّأس، وما يقع عليه الوَتَرُ في القَوْس من أعْلى وأسْفَل . قال بعض هُذَيْل :

على كلّ هَتَّافةِ المِذْرَوَيْنِ   صَفْرَاءَ مُضْجَعَةٍ فِي الشِّمَالِ

والمِذْرَوَان أيضا طَرَفَا الألْيتَيْن . قال عنترة لعمارة بن زياد :

أحَولِي تَنفُضُ استُكَ مذرويْها ؟   لتقتُلني فَهَا أنَذا عُمارا !

أي : يا عمارة ! ولا واحد للمذْرَوَيْن في شيء من هذه المعانى . وقيل إنّ واحده مِذْرًى . ورُدّ بأنّه لو كان كذلك لقيل في التثنية مِذْرِيَان، بالياء لا بالواو . وهذا بحسب الظهور

والرجحان ؛ وإلاّ فلا مانع من أن يكون هذا من الشَّوَاذّ .

ومعنى جَاءَ يَنْفُضُ مِذْرَوَيْهِ : جاءَ يَنْفُضُ طَرَفَيْهِ . ويقال ذلك إذا وُصف بالخُيَلاء . وأكثر أهل اللغة يقولون : معناه أنَّه جاء متهدّداً، وهذا المفهوم من قول عنترة السابق ؛ والخُيَلاء هو المفهوم من كلام البصري السابق .

جَاءَ عَلَى غُبَيْراءِ الظَّهْرِ .

الغُبَيْراءُ تصغير الغَبْرَاء، مؤنَّثَ الأغْبَر . والمراد هنا الأرض ذات الغُبْرَة . والظَّهْرُ خلاف البَطْن . ويقال أيضا : **تَرَكَ فُلانٌ أباهُ على غُبَيْراءِ الظَّهْرِ** . ومعناه أنَّه لم ينجح سعيه، ولا ظفر بحاجته، بمنزلة الرجل الطالب المرعى، فصادف أرضا مُغْبَرَّةَ الظهر مُجْدِبَة، لا كلأ فيها ولا ماء . والتصغير في المثل للتعظيم، كقوله :

وكُلُّ أُناسٍ سوف تدخُلُ بينهُم دُوَيْهِيَةٌ تَصفرُّ منها الأنامِلُ

جَاءَ وقَدْ لَفَظَ لِجَامَهُ .

اللَّفْظُ الرَّمْيُ ؛ واللِّجَامُ معروف . فيقال : جَاءَ فُلانٌ من حَاجَتِهِ وقَد لَفَظَ لجَامَهُ، إذا رجع منها وهو مجهود من الأعياء والعطش . ويقال أيضا : جاءَ **وقَدْ دَلَقَ لِجَامهُ** .

جَاءَ وقَدْ قَرضَ رِبَاطَهُ .

هذا كالذي قبله، قاله أبو عُبَيد . وقال غيره : أكثر ما يقال ذلك في الموت . يقال : فُلانٌ **قَدْ قَرَضَ رباطَهُ، ولَعَقَ أصْبُعَهُ، وعَطَسَتْ بِهِ اللُّجَمُ، وضَحَا ظِلُّهُ** . كلّ ذلك يقال إذا مات .

جَاؤُوا قَضَّهُمْ بِقَضِيهِمْ .

معناه جَاؤوا جميعًا . يقال بنصب قَضّهُم على نيَّة المصدر أو الحال ؛ وبرفعه .

ويقال أيضا بفتح القاف وكسرها . قال حصين بن الحمام المرّيّ :

وجَاءتْ جِحاشٌ قَضّها بقَضيضِها   وجمــعُ عُوَالٍ ما أدقَّ والأمـــا[24]

وجِحَاش - على مثل كِتَاب - أبو حيّ من غَطَفان، وهو جِحَاش بن ثعلبة بن سعد بن ذُبيان بن بغيض بن ريث بن غَطَفان، رهط الشمَّاخ . وقال الآخر :

أتَتْني سُليمٌ قضَّها بقَضيضِها   تُمسِّحُ حولي بالبَقيع سبَالَهَا[25]

ويقال أيضا جَاؤُوا قَضَّهُمْ وقَضِيضَهُمْ - بالواو - وقد قيل : القَضُّ : هو الصغير من الحصان، والقضيض : الكبير منه . والمعنى : جَاؤُوا صَغيرُهُم وكَبِيرهُم . وقيل القَضُّ بمعنى القَاضّ، والقَضِيض بمعنى المَقْضُوض .

وممَّا يلتحق بهذا الباب قولهم في الرجل :

جُحَيْشُ وحْدِهْ، وهو ذمّ ؛ والجُحَيْش تصغير جَحْش، وقد تقدَّم . وقولهم : أجَدّ فُلانٌ بِهَا أمْرًا ! أي أجَدَّ أمْرهُ بِهَا، بنصب أمر على التمييز، كما قالوا : قَرِرْتُ بِها عَيْنًا، أي قَرَّتْ بِهَا عَيْني . وقولهم :

أجِدَّكَ تَقُولُ هَذَا ؟

بنصب جِدّ، أي أبِجِدٍّ مِنْكَ ؟ فانتصب على طرح الباء ؛ أو : أتَجِدُّ جِدَّكَ ؟ فانتصب على المصدر . قال الشاعر :

أجِدَّكَ ما لعَينِكَ لا تَنامُ ؟   كأنَّ جُفونَهَا فيها كِلاَمُ !

وقولهم :

أجَدْتُ مِنْ هَذَا الأمْرِ قُرُوني،

أي تركته . وقولهم :

جَعَلُوا الأرضَ علَيْه حَيْصَ بَيْصَ، وحَيْصًا بَيْصًا.

أي ضيَّقوا عليه ومنعوه من التصرّف . وقولهم للرجل :

---

24) ينسب البيت أيضاً لأوس بن حجر، ويروى هكذا :
وجَاءت جِحَاشٌ قَضّهَا بقَضيضها   بأكْثَرَ ماكانوا عَديدًا وأو كَعُوا

25) هذا البيت أنشده سيبويه للشماخ.

جَعْدُ القَفَا،

أي لئيم الحسَب .

وجَعْدُ البَنَانِ،

أي بخيل، وقولهم :

جَاءَ بالأمْرِ عَلَى قَنَادِيدِهِ،

أي من وجْهِهِ . وقولهم :

جَاءَ بِذَاتِ الرَّعْدِ والصَّلِيلِ،

أي جاء بالحرب، لأنَّ هديرها يشبه الرَّعْد، وفيها صليل السلاح، كما قال مُهَلْهِل" :

فَلَو لا الرِّيحُ أُسمِعَ مَن بنجْدٍ   صَلِيلَ البيضِ تُقرعُ بالذُّكورِ

وقولهم :

جَاءَ بالصُّقَرِ والبُقَرِ

ـ على مثال زُفَر فيهما ـ، وبالصُّقَارَى والبُقَارَى، بفتح الرَّاء فيهما مع ضمّ الأوّل، أي بالكَذب الصُّراح، وهو اسم لما لا يُعرف . وقولهم :

جَاءَ بِهِ من حَسِّهِ وبَسِّهِ،

مثلَّثي الأوّل، أي من جهده وطاقته . وقولهم :

جَاءَ مُضْطَرِبَ العِنَانِ،

أي منهزمًا منفردًا . وقولهم :

جَاءَ ولَكِنْ لَمْ يَجِيءْ لِعُصْرٍ

ـ بضمّ العين ـ، أي لم يَجِيءْ حِينَ المَجيء.

ومن الأمثال المُحْدثة :

الجَوَابُ مَا تَرَى لاَ مَا تَسْمَعُ !

وأصله أنّ أبا يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، أحد الملوك الموحّدين بمراكش، كان بينه وبين الأدفونش النصراني صاحب طليطلة ـ لعنه الله ـ مكاتبات . فكان منها رسالة كتب بها الأدفونش الى الأمير يعقوب يتوعّده ويتهدّده، ويطلب منه بعض الحصون من إنشاء وزيره ابن النجار، وهي :

« باسمك اللّهمّ فاطر السماوات والأرض، وصلّى اللّه على السيّد المسيح، روح اللّه وكلمته الفصيح . أمّا بعد، فإنّه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب، وعقل لازب، أنّك أمير الملّة الحنيفيّة، كما أنا أمير الملّة النصرانيّة . وقد علمتَ ما عليه رؤساء الأندلس من التخاذل والتواكل والتكاسل، وإهمالهم أمر الرعيّة، وإخلادهم الى [ ][26] الامنية . وأنا أسومهم بحكم القهر إخلاء الديار وإسباء الذراري وأمثل بالرجال، وأذيقهم عذاب الهون وشديد النكال . ولا عذر لك في التخلّف عن نُصرتهم إذا أمْكَنَتْكَ يدُ القدرة، وساعدك وعسا كرك وجنودك رأيٌ وخِبرة . وأنتم تزعمون أنّ اللّه تعالى قد فرض عليكم [قتال][27] عشرة منا بواحد منكم، **الآن خفّف اللّه عنكم وعلمَ أنّ فيكُم ضُعْفًا** رحمةً منه ومَنًّا، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منّا، إذ لا تستطيعون دفاعًا، ولا تملكون امْتِناعًا . وقد حُكي عنك أنّك أخذت في الاحتفال، وأشرفت على ربوة القتال، وتماطل نفسك سنة بعد أخرى، وتقدِّم رجلا وتؤخّر أخرى . فلا أدري أكان الجبن أبطأ بك، أم التكذيب بما وعدك به ربّك الى آخر الرسالة، وفيها طول . فلمّا وصل الكتاب الى أمير المسلمين مزّقه وكتب على قطعة منه : **ارْجِعْ إلَيهِمْ فَلَنَأتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُم بِهَا ولَنُخْرِجَنَّهُمْ أذلّةً وهُمْ صَاغِرُونَ** . الجَوَابُ مَا تَرَى لاَ مَا تَسْمَعُ ! وتمثّل ببيت أبي الطيّب في مدح سيف الدولة :

---

26) بياض بالأصل

27) سقطت كلمة « قتال » من ب.

ولا كُتْبَ إلاّ المَشْرفِيَّةُ عِنْدهُ   ولا رسُلٌ إلاّ الخَمِيسُ العَرَمْرَمُ

ثمَّ ضرب السرادقات من يومه بظاهر البلد، وأمر باستنفار الجيوش من الأمصار، وعبر من زقاق سبتة، ودخل بلاد الافرنج، فكسرهم كسرة شنيعة، وعاد بغنائمهم، رحمه اللّه تعالى . ثمَّ رأيت الحصري ذكر هذا الكلام عن المعتصم العبَّاسي قال : كتب إليه ملك الرُّوم كتابا يتهدَّده فيه، فأمر بجوابه . فلمَّا قرىء عليه لم يرض بما فيه، فقال لبعض الكتَّاب : اكتب : أمَّا بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت ما تضمَّنه خطابك، والجواب ما ترى لا ما تسمع . **وسَيَعْلَمُ الكَافِرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ** . قال : وهذا نظير قول قَطَرِيّ بن الفُجاءة الى الحجَّاج، وقد كتب إليه كتابا يتهدَّده فيه، فأجاب : أمَّا بعد، فالحمد للّه الذي لو شاء لجمع بين شخصَيْنا، فعلمت أين مثاقفة الرجال، من تسطير المقال، والسَّلام. انتهى .

ومن معنى هذا المثل قول عنترة :

ومَكْروبٍ كشَفْتُ الكَربَ عنه   بِطَعنَةِ فيْصَلٍ لمَّا دعَاني[28]

دعَاني دعْوةً والخَيلُ تردي   فما أدري أباسْمِي أمْ كَنَاني ؟

فَلم أمسِكْ بسَمعي إذ دعاني   ولكن قَد أبَانَ لَه لِسَاني

فكَان إجابَتي إيَّاهُ أنّي   عَطَفتُ عليه خوَّارَ العِنَانِ

بِأسْمَرَ مِن رِمَاحِ الخَطِّ لَدنٍ   وأبْيَضَ صَارِمٍ ذَكَرٍ يَمَان

أي : كان جوابي له، حين دعاني واستغاث بي، أن عطفت عليه فرسا خوار العنان[29]، أي سهل العنان، يعني مرتاضا قد اعتاد الدخول في الحروب والولوج في المضائق، وذلك بأسمر إلخ....، أي برمح وسيف صفتهما ما ذكر . ومنه قول الحماسي :

وتَجهَلُ أيْدينا ويَحلُمُ رأيُنا   ونَشْتِمُ بالأفْعالِ لا بالتَّكَلُّم

وقول الآخـر :

كُنَّا إذا ما أتانا صارخٌ فزِعٌ   كان الصُّراخَ لَهُ قَرعُ الظَّنَابيبِ

أي الاجتهاد في نصرته . وقَرْعُ الظُّنْبُوب كناية عن ذلك، وقد تقد م .

ومن **أمثال العامَّة** قولهم :

---

28) في **مختار الشعر الجاهلي** : بضربة فيصل..

29) حرف « العنان » في ب فكتب فيها « النعاس ».

جَزَاؤُهُ عَلَى حِمَارِهِ .

وقولهم :

جَاءَ يُعينُهُ في قَبْرِ أُمِّهِ فَهَرَبَ بالفَأسِ .

ومعناهما ظاهر .

ولنذكر في هذا الباب ما تيسَّر من الشعر . قال الحماسي محمَّد بن بشير :

كَم من فتًى قصُرت في الزرق خطوته ... ألفيته بسهامِ الرِّزق قَد فَلَجا !

إنَّ الأمور إذا انسدَّت مسالكُها ... فالصَّبر يفتَح منها كلَّ ما ارتتجا[30]

لا تيأسنَّ وإن طالت مُطالبةٌ ... إذا استعنْتَ بصبرٍ أن تَرى فرجا !

أخْلِق بِذي الصَّبر أن يحظَى بحاجته ... ومُدْمِنِ القَرع للأبواب أن يَلِجا !

قدِّر لرجلِك قَبل الخَطْو موضعَها : ... فمن علا زَلَقًا عن غِرَّةٍ زلِجا ![31]

وقال عبد اللّه بن الزَّبِير الأسدي :

لا أحسِبُ الشَّرَّ جارًا لا يفارقني ... ولا أحُزُّ على ما فاتني الودَجا

ولا نَزلتْ من المكروهِ منزلَةٌ ... إلاّ وثقْتُ بأنْ ألقى لها فرجَا

وحزَّ الودَجَ : قَطَعَهُ . وضربه مثلا للغمّ على ما فات من عرض الدنيا .

وقال أبو تمَّام الطَّائي :

اصْبِري أيَّتُهَا النَّفْسُ : ... فَإنَّ الصَّبْرَ أحْجَى

نَهْنِهِي الحُزْنَ فَإنَّ ... الحُزْنَ إن لم يُنْهَ لَجَّا

والبَسي اليَأْسَ مِن النَّاسِ ... فَإنَّ اليَأْسَ مَلْجَا

رُبَّمَا خَابَ رَجَاءٌ ... وأتَى ما لَيْسَ يُرجَى

وقال أيضا يهجو يوسف السَّرَّاج :

ووجْهُ البَحرِ يُعرفُ من بعيدٍ ... إذا يسْجو، فكيفَ إذا يمُوجُ ؟

وقال الآخر :

---

30) في الحماسة : فالصبر يفتق...

31) في الحماسة : أبْصِر لرجلك...

وإنّي لأغْضي مُقلتيَّ على الأذى وألبَس ثوبَ الصَّبر أبْيضَ أبْلجَا
وإنّي لأدعو اللّهَ والأمْرُ ضَيِّقٌ عليَّ فما ينْفكُّ أن يتفرَّجا
وكَم من فتًى ضاقَت عليه وجوهُهُ أصابَ لها في دَعوةِ اللّه مخرجا !

وقال الآخر :

إذا تضايَقَ أمرٌ فانتَظرْ فرجا : فأضْيقُ الأمر أدناهُ إلى الفَرجِ !

وقال الآخر :

رُبَّ أمرٍ عزَّ مَطلبُهُ قرَّبَتْهُ سَاعَةُ الفَرَجِ

وقال الآخر :

ديارٌ عليها من بَشَاشَةِ أهْلِها جمالٌ تسرُّ النَّاظرين وتُبهِجُ

وقال الآخر :

رأى البَيتَ يُدعَى بالحَرامِ فحجَّه ولو كان يُدعَى بالحَلالِ لما حجَّا

وقال الآخر :

عَلَى أنّي وإن لاقَيتُ شَرًّا لِخَيْرِكَ بَعد ذاكَ الشَّرِّ راجِ[32]

وقال الآخر :

كَم عالمٍ لم يلِج بالعِلم باب غنًى وجاهِلٍ قبل طَرقِ الباب قَد ولجا !

وقال الآخر :

من راقبَ النَّاس لم يظفر بحاجتِه وفازَ بالطَّيِّبات الفاتِك اللهجُ

ومثله قول الآخر :

من راقَبَ النَّاسَ ماتَ غَمًّا وفَازَ باللَّذَّةِ الجَسُورُ[33]

وقال الآخر :

يا نَفسُ صَبرًا فعُقبى الصَّبر صالحةٌ لابُدَّ أن يأتيَ الرَّحمان بالفرجِ !

وقال الآخر :

ولي فرسٌ بالحِلم للحِلم مُلجَمٌ ولي فرسٌ بالجَهلِ للجَهْلِ مُسرجُ
فَمن رامَ تقويمي فإنّي مُقوَّمٌ ومن رَام تَعْويجي فإنّي مُعوَّجُ

32) في ج بدل « لاقيت » كتب : « رأيت » ؛ وفي د : « لقيت »، وكلاهما غير مستقيم وزنًا.
33) في ب و ج : وفاز باللذات...

وينسب هذا لصالح بن جناح . وقبله :

لَئن كُنت مُحتاجًا الى الحلم إنَّني ... الى الجَهل في بَعض الأحايين أحوجُ

وما كُنت أرضى الجهل خِدنًا وصاحبًا ... ولكنَّني أرضَى به حين أُحرجُ

ولي فرسٌ بالخير للخَير مَلْجمٌ ... ولي فرسٌ بالشَّرِّ للشَّرِّ مُسرجُ

فَمن رَامَ تَقْويمِي... (البيت)

وبعده :

فإن قال بَعض النَّاس فيَ سماجةٌ ... فقَد صدقوا، والذُّلُّ بالحرِّ أسمجُ

ونحوه قول النَّابغة الجعدي :

ولا خَير في حلمٍ إذا لم تَكُن لَه ... بَوادرُ تحْمي صَفوهُ أن يُكدَّرا

ولا خير في جَهلٍ إذا لم يَكُن له ... أريبٌ إذا ما أوْردَ الأمْر أصدَرا

وقول الآخــــر :

إذا أغْضَبتَ ذا كَرمٍ تَخَطَّى ... إليكَ ببَعضِ أفْعالِ اللَّئيم(34)

وقول الآخــر :

ألا لا يَجهَلَنْ أحَدٌ عَلَينَا ... فَنَجْهَلَ فوقَ جهلِ الجاهِلينَا

وقول الآخــــر :

ولا خَيرَ في حِلْمٍ إذا ذلَّ جانبه

وقول الآخــر :

والعاقِل النَّحرير مُحتاجٌ إلىـ ... أن يستعين بجاهلٍ مُعْتُوهِ

وقول الآخــــر :

ولَربَّما اعْتَضَد الحَليمُ بجاهلٍ : ... لا خَير في يُمنى بغَير يَسَار !

وقال الامام أبو الفضل يوسف بن النحوي، قدَّس الَّله سرَّه !:

والرِّفْــقُ يَــدُومُ لِصَاحِـــبِهِ ... والخُـرْقُ يَصِيرُ الى الهَــرجِ

وقــال :

وخيَــارُ الخَلْـــقِ هُداَتُهُــمُ ... وسِواَهُمُ مِنْ هَمَجِ الهَمَجِ

---

34) سقطت الباء من : اليک ببعض ... في ب.

ومن أظرف ما يحكى فيما يناسب هذا المعنى ما حُدِّثَ به عن الزهري قال : دخلت على عبد الملك بن مروان، فقال : من أين أقبلت يا زهري ؟ قال قلت : من مكّة . قال : فمَن خلّفت بها يسود أهلها ؟ قلت ؟ عطاء بن أبي رباح . قال : فَمِن العرب أم من الموالي ؟ [قلت: من الموالي][35] قال : وبِمَ سادهم ؟ قلت : بالديانة والرواية . فقال إنّ أهل الديانة والرواية ينبغي أن يسودوا النّاس . قال : فمَن يسود أهل اليمن ؟ قلت : طاوس بن كيسان

قال : فمن العرب أم من الموالي ؟ قلت : من الموالي . قال : فبمَ سادهم ؟ قلت : بما ساد به عطاء. قال : مَن كان كذلك ينبغي أن يسود النّاس . قال : فمَن يسود أهل مصر ؟ قلت : يزيد بن أبي حبيب . قال : فمن العرب أم الموالي ؟ قلت : من الموالي . فقال كما قال في الأوّلين . قال فمَن يسود أهل الشام ؟ قلت : مكحول الدمشقي . قال : فمن العرب أم الموالي ؟ قلت : من الموالي، عبد نوبيّ أعتقته امرأة من هُذَيْل . فقال كما قال . ثمّ قال: فمَن يسود أهل الجزيرة ؟ قلت ميمون بن مهران . قال : من العرب أم من الموالي ؟ قلت من الموالي. فقال كما قال . ثمّ قال : فمَن يسود أهل البصرة ؟ قلت : الحسن بن أبي الحسن البصري . قال : فمن العرب أم من الموالي ؟ قلت من الموالي . قال : ويْلَك ! فمَن يسود أهل الكوفة ؟ قلت : إبراهيم النخعي . قال : فمن العرب أم من الموالي ؟ قلت : من العرب . فقال : ويْلَك يا زهري ! فرّجت عنّي والله ! : تسودون الموالي على العرب حتّى يخطب بها على المنابر وإنّ العرب تحتها ! قال قلت : يا أمير المؤمنين، أمر الله ودينه . فمَن حفظه ساد، ومَن ضيّعه سقط !

وقالت جارية من العرب ماتت أمّها وأضرّت بها زوجة أبيها :

ولَو يأتي رسُولي أمَّ سَعدٍ أتَى أمِّي ومَن يَعْنِيه حَاجِ
ولَكن قَد أتَى مَن بَيْنَ ودّي وبَينَ وِدَادِهِ غَلْقُ الرِّتَاجِ
ومَن لا يُؤذِهِ ألمٌ بِرأسِي وما الرِّئْمَان إلاّ بالنِّتَاجِ

وقالت أمّ الضّحّاك المحاربيّة :

حديثٌ لَو أنّ اللحْمَ يَصْلَى بِحرِّه طَرِيًّا، إذاً أضْحى به وهْو مُنضَجُ

وكانت تحت رجل من الضباب وهي تحبّه حبًّا شديدا، ثمّ طلّقها فقالت :

---

35) سقط ما بين معقوفتين من ب.

هَلِ القَلبُ إن لاقى الضِّبابيَّ خاليًا لَدى الرُّكن أو عند الصَّفا مُتحرِّج ؟
وأعجَلَنا قُربُ المَزارِ وبَيْنَنَا حديثٌ كَتَشْنِيجِ المريض مُزعَّجُ
حَديثٌ لَو أنَّ اللَّحْمَ (البيت)

وقال الآخـــر :

لَقَد عَلمَت أمُّ الصَّبيَّين أنَّني الى الضَّيفِ قوَّامُ السِّنانِ خَرُوجُ
إذا المُرغِثُ العَوجاءُ باتَ يعُزُّها على ضَرعها ذو تَوءمين لهوج[36]
وإنِّي لأغلي اللَّحم نيًّا وإنَّني لممَّن يُهين اللَّحم وهْو نضيجُ

يريد : إنِّي آخذها جيِّدة غالية الثَّمن، فأنحرها وأخلي بينها وبين النَّاس تهاونًا بها، كما قال الآخر :

وإنِّي لأغلي لحمَها وهي نيَّةٌ ويَرخُص عندي لحمُها حين تُذبَح

وقال الحارث اليشكري :

قُلت لِعَمْرٍو حينَ أرْسَلْتُه وقَد حَبَا من دونِها عالجُ :
لا تَكْسَعِ الشَّوْلَ بِأغْبَارِهَا : إنَّكَ لا تَدْري مَنِ النَّاتِجُ
واصْبُب لأضْيَافِكَ ألْبَانَها فإنَّ شَرَّ اللَّبَنِ الوالِجُ !

يقول : لا يُبق اللبن في ضروع هذه النوق ! والأغْبَار جمع غُبْر وهو بقيَّة اللبن في الضرع، كانت العرب تفعل ذلك لسمن الأولاد التي في بطونها . واصْبُبْهُ للنَّاس، فإنَّك لا تدري مَن ينتجعها، ولعلَّك تموت فيبقى ذلك للوارث ! ومثله قول الآخــر :

وإن درَّتْ نِيَاقُكَ فَاحْتَلِبْهَا فَما تَدْري الفَصِيلُ لِمَنْ يَكونُ

وهذا كما في الحديث : **يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي مَالِي، ومَالكَ مِن مَالِكَ إلاَّ ما أكَلْتَ فأفْنَيتَ، أو لَبِسْتَ فأبْلَيْتَ، أو أعْطَيْتَ فَأمْضَيْتَ**. ومنه قول النَّمر ابْنِ تَوْلَب :

أعاذلُ إن يُصْبِح صَدَايَ بقَفْرَةٍ بعيدًا نآني صَاحِبي وقَريبِي
تَرَيْ أنَّ ما أبْقَيْتُ لَم أكُ ربَّه وأنَّ الَّذي أنفَقتُ كان نَصيبِي
وذِي إبِلٍ يَسعَى ويحسبُها لَه أخِي نَصَبٍ في رَعْيِها ودُؤُوبِ
غَدت وغَدا ربٌّ سِوَاه يقُودُها وبُدِّل أحْجارًا وجَالَ قَليبِ

36) حرفت كلمة « المرغث » فكتبت في ج : « المرعب » وفي د : « الرغث ».

قوله : جال قليب، الجالُ : النّاحيـةُ، كما قال مُهَلْهِل :

كأنَّ رماحَهُم أشْطَانُ بِئْرٍ بعيدٌ بَينَ جَالَيْهَا جَرُورُ

ومنه قول الآخر أيضا :

فأثْنُوا عَلَينا لا أبًا لأبِيكُمُ بِأفْعالِنا إنَّ الثَّناءَ هُو الخُلدُ !

وقول حاتم :

أماوِيّ إن يُصْبِح صَدَايَ بقَفرةٍ من الأرضِ لا ماءٌ لَديَّ ولا خَمرُ

تَرى أنَّ ما أبْقَيتُ لم أكُ ربَّه وأنَّ يَدي ممّا بَخِلتُ به صفرُ

وقال ابن فارس اللّغوي :

وقالوا : كيف أنت ؟ فقلت خيرٌ : تُقَضَّى حاجَةٌ وتفُوتُ حَاجُ

إذا ازدحمَت هُموم الصَّدر قُلنا : عَسى يومًا يكونُ لَها انفِراجُ

نديمي هِرَّتي وسُروورُ قَلْبي دفاتِيري ومَعْشُوقي السِّراجُ

وقال ابو محمَّد الحريري :

تَعارجْتُ لا رَغْبَةً في العَرجْ ولَكن لأقْرعَ بَابَ الفَرجْ

وألقيَ حَبْلي عَلَى غَاربِي وأسْلُكَ مَسْلَكَ مَنْ قَد مَرجْ

فإنَّ لامَني القَومُ قُلتُ : اعذروا فَليسَ عَلَى أعرجٍ من حَرجْ !

وقال أيضا :

ما الحجُّ سَيرُكَ تأويبًا وإدلاجا ولا اعتيامُكَ اجمالاً واحْداجَا

الحجُّ أن تَقْصِد البَيتَ الحَرامَ على تجريدِك الحجَّ لا تَقضي به حاجا[37]

وتمتطِي كاهِلَ الانصافِ متَّخذًا رَدعَ الهَوى هاديًا والحقَّ منهاجا[38]

وأن تُواسيَ مَا أوتيتَ مَقدرةً مَنْ مدَّ كفًّا الى جَدواك مُحتاجا

فهذه إن حوتْها حَجَّةٌ كَمُلَت وإن خَلا الحجُّ منها كان إخْدَاجَا

حسْبُ المُرائِين غبنًا أنَّهم غرسوا وما جَنوا ولَقُوا كدًّا وإزعاجا[39]

وأنَّهم حُرموا أجرا ومَحْمِدةً وألحَموا عِرضَهُم من عَاب أو هاجى

أخيَّ فابْغِ بما تُبديهِ من قُربٍ وجْهَ المُهَيمِن ولاَّجًا وخرَّاجا[40]

37) زيدت الواو في أول البيت في ب و د، فكتب فيهما : والحج..

38) في ب و د : ..والحج منهاجًا، وهو تحريف.

39) حرف الشطر الأخير فكتب في ج : « وما جنوا وأتوا كربًا وإزعاجا » وفي د : « وما جنوا وأتوا كذبًا وإزعاجا ».

40) حرفت كلمة « أخيّ » المصغرة فكتبت في د : « أخا ».

فَلَيس تخْفى على الرّحمانِ خافيةٌ | إن أخْلصَ العبد في الطّاعات أو داجى
وبادرِ الموتَ بالحُسنى تُقدّمها : | فما يُنَهنهُ داعي الموت إن فاجا
واقْنَ التّواضُعَ خُلْقًا لا تُزايلُه | عَنك اللّيالي ولو ألبَسنَك التّاجا(41)
ولا تَشِم كُلّ خالٍ لاحَ بارقُه | ولو تَراءى هَتونَ السَّكْب ثجّاجا !
ما كلُّ داعٍ بأهلٍ أن يُصاخَ له | كم قد أصمّ بنعيٍ بعضُ من ناجى !
وما اللّبيب سوى من بَات مُقتنعًا | ببُلغةٍ تُدرجُ الأيّام إدراجا
فكُلُّ كُثرٍ الى قُلٍّ مَغبّتُه | وكلّ نازٍ الى لينٍ وإن هاجا(42)

وقال أيضا في وصف سَرُوجٍ :

بَلْدَةٌ يُوجَدُ فيهَا | كُلُّ شَيءٍ ويَرُوجُ
ورْدُهَا مِنْ سَلْسَبِيلٍ | وصَحَاريهَا مُرُوجُ
وبَنُوهَا ومَغَانِيهِمْ | نُجُومٌ وبُرُوجُ
حَبّذا نَفْحَةُ رَيّا | هَا ومَرْآهَا البَهِيجُ
وأزَاهِيرُ رُبَاهَا | حِينَ تَنْجَابُ الثُلُوجُ(43)

وقال الآخر :

لَو ركِبتُ البحورَ صارتْ فجاجا | لا تَرى في مُتونِهَا أمْوَاجَا
ولَو أنّي وضَعْتُ يا قوتَةً حَمراء | في راحَتَيّ صَارت زُجَاجَا
ولو أنّي ورَدتُ عَذبًا فُراتًا | عَاد لا شَكّ فيه مِلحًا أُجَاجَا

ومثله قول الآخر :

لَو ورَدتُ البِحَار أطْلُبُ مَاءً | جفّ قَبلَ الورودِ ماءُ البحَارِ
أو لمَست العُود النّضِيرَ بكفّي | لَذوَى بَعد نَضْرةٍ واخْضِرار(44)
أو رَمى باسْمِيَ النّجومَ الدّرَاري | لانْزَوى ضَوؤُهَا عن الأبصار
ولو انّي بِعت القناديلَ يومًا | لَبَدا اللّيل في ضياء النّهار(45)

---

41) حرفت كلمة « عنك » فكتبت في ب و د : « عند ».
42) حرفت كلمة « ناز » في ب و د، فكتبت فيهما « نار ». وسقط البيت الأخير من ج.
43) حرفت كلمة « رباها » في د، فكتبت فيها « ربها ».
44) في د : « نظرة » وهو تصحيف.
45) في ب : « لعدى الليل... » وفي د : « لددى الليل...! »

وقول الآخـــر :

ولمَّا التمَست الرِّزق فانجذَّ حبلُه ... ولم يَصفُ لي من بحرْه العذبِ مشرَبُ

خَطبت الى الاعدام إحدى بَنَاتِه ... فزوَّجنِيها الفَقر إذ جِئت أخطُبُ

فَلو تِهت في البَيداءِ والليل مسبلٌ ... عليَّ جَنا حيهِ لما لاحَ كوكبُ

ولو خِفتُ شرًّا فاستَتَرت بظُلمةٍ ... لأقبل ضوءُ الشَّمس من حيث يغربُ

ولو جاد إنسانٌ عليَّ بدرهمٍ ... لعُدتُ الى رحْلي وفي الكفِّ عقربُ

ولو يُمطَرُ النَّاسُ الدَّنانيرَ لم يكن ... بشيءٍ سوى الحَصْبَاء رأسي يُحصَّب

وإن يقترفْ ذنبًا ببِرقةَ مُذنبٌ ... فإن برأسي ذَلكَ الذَّنب يُعصبُ

وإن أر خيرًا في المَنام فَنازحٌ ... وإن أر شرًّا فَهْوَ مِنِّي مُقَرَّبُ

أمامي من الحِرمانِ جيشٌ عرَمرمٌ ... ومنه ورَائي جَحْفَلٌ حينَ أركَبُ

وقول الآخـــر :

أحْمد اللّه لم أقُل قطٌّ يابدر ... ويا مُوسَى ويَا كَافُورُ !

لا ولا قيل قَد أتاكَ مِنَ ... الضَّيعَةِ بُرٌّ مُوفَّرٌ وشَعِيرُ

أنا خِلوٌ من المَمالكِ والأملاكِ ... جَلدٌ عَلى البَلاَيَا صَبُورُ

لَيسَ إلاّ كُسَيْرَةٌ وقُدَيْح ... وقَمِيصٌ أتَتْ عَلَيهِ الدُّهُورُ !

وقول الآخـــر :

سَل عن الرِّزقِ يا أبا العبَّاس ... وجِمَاحُ الزَّمَانِ بالأكْيَاسِ

لَو مِن النَّاسِ ساعدني الدَّهْر ... ولكنَّني من النَّسْنَاسِ

لَو هوتْ صخرةٌ من الجوِّ جاءتْ ... تتخطَّى الانَامَ تَطلُب رَاسي

لا وحقِّ الالَه ما أبْصِر الشَّمس ... بِعيني من شِدَّةِ الافْلاَسِ !

وقول الآخـــر :

بَرزتُ من المَنَازلِ والقِبَابِ ... فَلم يَعسرُ عَلى أحَدٍ طِلابِي

فمنزليَ الفضَاءُ وسقفُ بَيتي ... سمَاءُ اللّهِ أو قِطَعُ السَّحَابِ

فأنت إذا أردتَ دخَلتَ بيتي ... عليَّ مُسلِّمًا مِن غَير بَابِ

لأنِّي لم أجِد مِصراعَ بَابٍ ... يَكُونُ مِنَ السَّماءِ إلى التُّرابِ

ولا انشَقَّ الثَّرى عَن عُودِ تختٍ ... أؤمِّلُ أن أشُدَّ بِه ثِيَابي

ولا خِفتُ الإِبَاقَ علَى عَبيدِي ... ولا خِفتُ الهَلاكَ على دَوابِي
وفي ذَا رَاحَةٌ وفَرَاغُ بَالٍ ... فَدأبُ الدَّهر ذَا أبداً ودابي

وقول الآخر :

قَد أراحَ اللّهُ من همٍّ ... طَويلٍ وعَذابٍ
فاسْتَرحْنا مِنْ عِيَالٍ ... وعَبِيدٍ ودَوَابٍ !
وغُدوٍّ ورَوَاحٍ ... وهِجَاءٍ وعِتَابٍ

وقول الآخر :

كَسَدتْ شَواشِينا وقلَّ معاشُنا ... فسُعودنا مقرونةٌ بنُحوس
فكأنّما قُطعت رؤُوسُ النّاس أو ... خُلقوا لشقوتنا بغير رؤوس !

وقول الآخر :

أنا في حالٍ تعالى اللّهُ ... ربِّي أيِّ حَالِ :
لَيس لي شَيءٌ إذا قيل ... لمن ذَا قُلتُ : ذَالِي
فأراضي اللّه فُرشي ... والسَّماواتُ ظِلالي
ولَقد أهزلتُ حتّى(45م) ... مَحَتِ الشَّمسُ خَيَالي
ولقَد أفْلَستُ حتّى ... حَلَّ أكْلِي بِعِيَالي :
مَن رأى شَيْئًا مُحَالاً ... فَأنَا نَفْسُ المُحَالِ !
لَو بَقِي في النَّاسِ حُرٌّ ... لَم أكُنْ في مِثْلِ حَالِي

وقول الآخر :

لَيسَ إغْلاقِي لبابي أنَّ لِي ... فيهِ ما أخشَى عَلَيهِ السَّرَقَا
إنّما أُغلقُهُ كَيْ لاَ يَرَى ... سُوءَ حَالي مَن يَمُرُّ الطُّرُقَا
مَنزلٌ أوطَنَهُ الفَقْرُ فَلَوْ ... يَدْخُلُ السَّارقُ فِيهِ سُرِقَا !

وقيل لبعض أجلاف المشائيم : كيف المعاش ؟ فقال : يوما يُرزَق ويوما لا يُرْزَق . وليته هو مضروبٌ ألف سوط وأنَّ اللّه لم يخلقه ! وقيل له : فلعلَّ اللّه قد ذَخَر لك بهذا أجراً في الآخرة . فقال : أيّهما أكرم على اللّه، الدنيا أم الآخرة ؟ فقيل له : الآخرة . فقال : هو لم يعطني الهيّنة عليه، فيعطيني تلك الكريمة عليه !

45م) في المخطوطات : «ولقد أمرست حتى...» وهو خطأ. والتصويب عن ديوان أبي الشمقمق.

وقيل لآخر : أتعرف ربّك ؟ فقال . وكيف لا أعرف من أجاعني وأعراني ؟ وقيل لآخر، وقد رُئِـيِ مغتمًّا : ما غمّك ؟ فقال : سوء الحال، وكثرة العيال . فقيل له : لا تغتمّ، فإنّهم عيال الّله . فقال : صدقتم، ولكن كنت أحب أن يكون الوكيل عليهم غيري !

وقال بعضهم : كان لآدم عليه السلام غلام يخدمه، فنحن معاشر المحارفين من نسل ذلك الغلام، ولا نسب بيننا وبين آدم : فإنّ الّله يقول : **ولَـقَـد كَـرَّمْـنَـا بَـنِـي آدمَ وحَـمَـلْـنَـاهُـمْ فِـي البـَرِّ والبَـحْـرِ ورَزَقْـنَـاهُـمْ مِـنَ الطَّـيِّـبَـاتِ** (الآية) . وليس فينا ولا عندنا شيء من هذه الخصال، فلو كنّا بني آدم لكان لنا حظّ من هذه الأشياء !

واستقى قوم يوم خميس فمطروا . فنظر إليهم بعض المشائيم، وهم منصرفون فرحين بالسقيا، فقال : والّله ما بي إلاّ أنّهم يظنّون أنّ الّلة استجاب لهم . والّله ما مطروا إلاّ أنّي غسلت ثيابي اليوم، والّله ما غسلتها قطّ إلاّ تغيّمت السماء ومطرت ! ولا بأس، فليرجعوا الى خميس آخر : فإن مُطروا فَـلْـيَـحْـلِـقُـوا لِـحْـيَـتِـي !»

وقال أبو العبّاس أحمد المقريّ الفاسي يخاطب التاج التونسي :

والّله مَـا أنـْصَـفْـتَـنَـا يـَا تاج : فَـسَـقَـامُـنَـا لدوائِـكُـم محتاجُ !
فَـقَـضيـّة" قَـد رُكـِّبت بشروطها أفـمُـمكِـن" أن يُـخْـلِـفَ الانتاجُ ؟

وقال الآخــر :

ولم أرَ شَـيئا بعد لَـيلَـى ألذّه ولا منهـلاً أرْوى به فـأعِـيجُ

يقال : مَـا عـِجْـتُ بالدّواء، أي لم انتفع به . ويزعم كثير من اللغويّين والنحويّين أنّه لا يستعمل إلاّ في النفي، كما مثّلنا، وكما في قول كثيّـر :

فما نُـفِـعَـت نَـفسِي بما أمرُوا به ولا عـِجْـتُ من أقـْوالِـهِـم بِـفَـتيلِ

والبيت المذكور يـَرُدّه، إلا أن يُـتَـأوّل أنّه لمّا كان الموصوف منفيًّا كانت الصفة وما عُطف عليها أيضا في معنى النفي، والله أعلم.

وقال الآخر في الأوصاف :

في لَـيلَـةٍ أكَـلَ المَـحاقُ هلالَـها حتّى تبدّى مثل وقْـفِ العَـاجِ
والصُّبحُ يَـتلو المُـشتري فكأنّهُ عُـريانُ يمشي في الدُّجا بِـسراجِ

ومثله قول الآخـــر :

يارُبّ ليلٍ رقَـبناهُ وقد طلعت بقيّةُ البَـدر في أُولى بَـشَـائره
كأنّما أدهَـمُ الاظلامِ حِـينَ نَـجَـا بن أشهب الصُّبحِ خلّى نعْـل حافره

وقول الآخـــــر :

فكأنَّ التَّليل حِينَ لَـوَى هَارِبًا والصُّبحُ قَد لاَحَـا
كِلَّةٌ سَـوْداَءُ أحْرَقَهَـا عَامِدٌ أوْقَدَ مِصْبَاحَـا

وقول الآخـــر :

سَرى والصُّبحُ تحتَ التَّليل بَاد كَطِرفٍ أبْلَقٍ تَحتَ الجِلاَلِ
بكأسٍ من زُجَاجٍ فيه أُسْدٌ فَرائِسُهُنَّ ألبَابُ الرِّجَالِ

وقول الآخــــر :

وفِتيانٍ سَرَوا والتَّـيْلُ داجٍ وضَوءُ الصُّبْحِ مُهتمٌّ الطُّلُوعِ
كأنَّ بُزَاتَهُمْ أمَراءُ جَيشٍ على أكْتافِهِم صَدأُ الدُّروعِ

وقال الآخــــر :

لَفَتَاةٌ تسرُّنَا في المَثَانِي وعَجوزٌ تَسرُّنَا في المِزَاجِ
أخَذَتْ مِن رؤُوس قَومٍ كِرامٍ ثَأرَهَا بَيْنَ أرجُلِ الأعْلاجِ

ومثله قول أبي بكر بن زُهْـــر :

ومُوسَّدِينَ عَلى الأكُفِّ خُدودَهُم قَد غالهُم ضَوءُ الصَّباح وغالنِي
ما زلتُ أسقيهِم وأشْربُ فَضلَهُم حتَّى سَكرتُ ونالَهم ما نالَنِي
والخَمر تُحسنُ كَيفَ تأخُذُ ثَأرَها : إنِّي أمَلْتُ إناءَهَا فأمَالَني

وقال الآخــــر :

ولَرُبَّ حانٍ قد أدرتُ بديرهِ خَمر الصِّبا مُزِجَت بصفْوِ خُموره
في فتيَةٍ جَعلوا الزِّقاق وكاءَهُم مُتضارعيـن تخشُّعًـا لكثيرهِ
يُهدي إلينا الرَّاحَ كلُّ مُصَفَّقٍ كالخشْفِ خفَّرَهُ التماحُ خَفيرهِ
والى عليَّ بطَرفِهِ وبِكَفِّهِ فَأمالَ من رأسي لعَبٌ كَبيرهِ
وتَرنَّمَ النَّاقُوسُ عِند صَلاتِهِم فَفَتَحتُ من عَينِي لِرجْعِ هديرهِ

والشعر في أوصاف الخمر كثير، وأكثره يتنزَّه عن ذكره، وسيأتي كثير منه.

وقال أبو الفرج جعفر اليماني[46]

46) في ج و د : وقال أبو جعفر اليماني

عارضٌ أقبلَ في ليْلِ الدُّجَى يتهادَى كتَهادِي ذِي الوجَا[47]
بَدَّدَتْ ريحُ الصَّبَا لُؤْلُؤَهُ فانْبَرَى يوقِدُ عنهُ سُرُجَا

ومثله قول ابن الخطيب :

أخفَى مَسالكَها الظَّلامُ فأوْقدت من بَرْقِها كَيْ تَهْتَدي مِصباحا
وكأنَّ صَوتَ الرَّعْد خَلفَ سَحابِها حادٍ إذا وَنَتِ الرَّكائِبُ صاحَا

وتقدّم استيفاء هذا المعنى في الباب الأوّل . وقال الآخـــر :

قَالوا : تَبدَّى شَعْرُهُ، فَأجَبتُهُم : لاَبُدَّ من عَلَمٍ علَى الدِّيبَاجِ !
والبَدْرُ أبهَرُ ما يكونُ ضِيَاؤُهُ إن كان مُلتحفًا بلَيلٍ داجِ

ومن هذا المعنى قول الآخـــر :

ومُهَفهَفٍ علقَ السَّقامُ بطَرفهِ وسَرى فَعرَّسَ في مَعاقِد خَصرهِ
مزَّقَتْ أسْتارَ الظَّلامِ بثَغْرهِ ثمَّ انثَنَيْتُ أحُوكُهَا من شَعرهِ

وقال ابن صارة :

ومُهَفْهَفٍ أبْصَرتُ في أطواقِه قمرًا بآفاقِ المَلاحَةِ يُشرِقُ
يَقضي على المُهْجاتِ منه صَعدةٌ مُتألِّقٌ فيها سنانٌ أزْرَقُ

وقول الآخـــر :

ومُعذَّرٍ عَبَثَ العِذارُ بخدِّه ظُلمًا فَشانَ ضِياءَهُ بِظَلامِهِ
كُسِفَتْ مَحاسِنُهُ لأربَعَ عَشْرَة وكَذا كُسوفُ البَدر عند تَمامِهِ

وقال ابن رشيق :

همَّت عذارَاهُ بِتَقْبِيلِهِ فَاسْتَلَّ من عَيْنَيْهِ سَيْفَيْنِ
وقامَتِ الحَربُ على سَاقِهَا بَيْنَ أميرَيْنِ قَتُولَيْنِ :
فَذَلِكَ المُحْمَرُّ مِنْ خَدِّهِ دِمَاءُ مَا بَيْنَ الفَرِيقَيْنِ

وقول الآخـــر :

وأغْيَدَ من أبْنَاءِ لَمْطَةَ شَادِنٍ يَنُوءُ كَما يَعطُو بخُوطَتِه البَانُ
ذُؤَابَتُهُ مُهْرَاقَةٌ خَلْفَ ظَهْرِهِ كَما التَفَّ بالغُصنِ المُنعَّمِ ثُعبانُ

---

47) سقطت كلمة : ليل من ب و د. وكتب في هامش د : « لعله : جنح الدجا ».

وقول الآخـــر :

ومُهفْهَـفٍ كالغُصْـنِ إلاّ أنّهُ   سَلَبَ التّثَنّي النّومُ عَن أثْنائه
أضْحَى يَنامُ وقَد تَورَّدَ خَدُّهُ   عَرقًا فَقُلتُ : الوَرْدُ رُشَّ بمائِه !

وقول الآخـــر :

غَزالُ إنْسٍ كم اسْتَدْنَيْتُهُ فنأى   عنّي وأعرضَ مُزورًا بجَانِبِه !
طَالَتْ عَليَّ لَيَالٍ من هَواهُ كما   طالتْ عَلَيهِ لَيَالٍ من ذَوائِبِه

وقول الصَّنَوْبري :

ما أخْطأتْ نوناتُهُ من صُدغِه   شَيئًا ولا ألِفاتُهُ مِن قَدِّهِ
فكأنّمَا أنْقاسُه من شَعْرِهِ   وكأنّما قِرطاسُهُ من خَدِّهِ

وهذا المعنى كثير . وقال الآخـر :

كأنَّ الثُّريّا هَوْدَجٌ فَوقَ ناقَةٍ   يخُبُّ بها حادٍ الى الغَربِ مُزعجُ
وقَد لَمَعتْ حتّى كأنَّ بَريقَها   قواريرُ فيها زِئْبِقٌ مُتَدرِّجُ

ومثله قول الآخـر :

كأنَّ الثُّريّا راحةٌ تَشْبُرُ الدُّجى   لتخبُرَ طال اللّيلُ أمْ قدْ تَعرَّضا
عجبتُ لليلٍ بين شَرقٍ ومَغْربٍ   يُقاس بشِبرٍ كيف يُرجى له انقِضَا

وقول الآخـــر :

كأنَّ بَهْرامَ وقَد عَارَضَتْ   مِنهُ الثُّريّا نَظَرَ المُشْتَري
يا قُوتَةٌ يَعرضُهَا بَائِعٌ   في كَفِّهِ والمُشْتَرِي مُشْتَري

وقول الآخـر :

وقَد لاحَ في الصُّبحِ الثُّريّا كما ترى   كَعُنْقودِ مُلاّحيّةٍ حينَ نوّرَا

وقال الآخـر :

وغَريبةِ الانشَاءِ صِرنَا فَوقَها   والبَحر يسكُنُ تارةً ويموجُ
عجبًا تؤُمُّ بها مَعاهِدُنا الّتي   كَرُمَت فعاجَ الأُنسُ حيث نعوجُ !
وقَد استطَال النُّور فوقَ المَاءِ من   شَمس الأصِيلِ فَلاحَ وهو بهيجُ
فكأنَّ مَتْنَ البَحر ذائِبُ فضّةٍ   قَد سال فيه من النُّضَار خليجُ

ومثله قول الآخـــر :

لو أبْصَرتْ عيناكَ زَوْرَقَ فتْيةٍ   يُبدي لَهُم لمْحُ السُّرورِ مِراحَه
وقَد اسْتَداروُا تحت ظلٍّ شُعاعه   كلٌّ يَمُدُّ بكأسٍ راحٍ راحَهُ
لحسبتَه خوفَ العَواصِفِ طائراً   مدَّ الحَنانُ على بَنيهِ جَناحَهُ

وقال ابن الخطيب :

إنَّ الهَوى لشِكايَةٌ مَعْروفَةٌ   صِبْرُ التَّصبُّرِ من أجلٌ عِلاجِها
والنَّفس إن ألِفَت مَرارةَ طَعمِه   يومًا ضَمِنْتَ لها صَلاحَ خَراجِها

وقال البستي :

يَا سائلاً عن مَذهَبي عامداً   ليقْتَــــــدي فيه بمنْهَـــــاجي
منهاجِيَ العَدلُ وقَمعُ الهَوى :   فَهلْ لمِنْهاجِيَ مِنْ هَاجٍ ؟

وقال أبو الحسن بن رشيق :

ولَقد ذكرتُكَ في السَّفينةِ والرَّدى   مُتوقَّـــعٌ بتَلاطُــمِ الأمْــواَجِ
والجَوُّ يَهطِلُ والرِّياحُ عَواصفٌ   والَّليلُ مُسودُّ الذَّوائِبِ داجِ
وعلى السَّواحِلِ للأعَادِي غَـارةٌ   يَتوقَّفُــــون لغَــــارةٍ وهيَــــاجِ
وعَلَتْ لأصحابِ السَّفينةِ ضجَّةٌ   وأنا وذكرُكَ في ألَـذٌ تَنـاجِ

ومثله، وهو أصله، قول عنترة :

ولَقد ذكَرتُكِ والرِّماحُ نواهلٌ   منِّي وبيضُ الهِندِ تَقْطُرُ بالدَّمِ

وقول الأرَّجاني :

وإنِّي لأرعاكُمْ على القُرب والنَّوى   وأذكُركُم بين القَنـا والقَنـابِلِ

وقول الآخـــر :

ألا من مُبلغُ المَحْبُوبِ أنِّي   وقَفتُ وللظُّبـا حولِي صَلـيلُ
وأنِّي جُلتُ في جَيشِ الأعادِي   بِرُمحٍ وهْوَ في ذِكْري يجولُ ؟

وقول الآخــــر :

أرسَلتُها والعَوالي في الطُّلا تَردُ   في موقفٍ فيه يَنسى الوالِدَ الولَدُ
ومــا نَسيــتُكَ والأرواحُ سائلةٌ   على السُّيوفِ ونارُ الحربِ تتَّقِدُ

وقولـــه :

ولـَقد ذكـَرتـُكِ والصوارمُ لـُمَّعٌ ... من حولِنـا والسَّمهـريَّةُ شـُـرَّعُ
وعلى مُكافحـَة العـَدُوِّ ففي الحـَشـَا ... شـَوقٌ إليكِ تضيقُ عَـنه الأضْلـُعُ
ومِـن الصـّبا وهلـُمَّ جرًّا شِـيمتي ... حِـفـْظُ الودَادِ فكـَيفَ عَـنهُ أرجِـعُ ؟

وقول الصفِـيّ الحِـلـّيّ :

ولـَقـَد ذكرتـُكِ والعـَجاجُ كأنـَّهُ ... مَطـْلُ الغـَنيِّ وسوءُ عيش المُعسِرِ
والشمس بين مُجدَّلٍ في جَنـْدَلٍ ... منـَّا وبين مُعـَفـَّرٍ في مِغـْفـَرِ[48]
فـَظـَنـنتُ أنـِّيَ في صباحٍ مُسفرٍ ... بضياءِ وجهكَ أو مساءٍ مُقمِرِ
وتـَعطـَّرتْ أرضُ الكفـاحِ كأنـَّمـا ... فـُتقتْ لنا ريحُ الجِلادِ بعـَنـْبـَرِ

وقوله أيضـــا :

ولـَقد ذكرتـُكِ والسُّيوفُ مَـواطِرٌ ... كالسُّحبِ من وبلِ النـَّجيعِ وطلـِّهِ
فـَوجَـدتُ أنسًا عِـند ذكركَ كاملاً ... في موقفٍ يخشى الفـَتى من ظلـِّه

وقوله أيضـــا :

ولـَقد ذكرتـُكِ والجـَماجِـمُ وقـَّعٌ ... تحت السـَّنابِـكِ والأكـُفُّ تـَطِـيـرُ
والهام في أفـُقِ العـَجاجةِ حـُوَّمٌ ... فكأنـَّهـــا فوق النـُّسور نـُسُــورُ
فاعتادني من طِـيبِ ذكركَ نشوةٌ ... وبـَــدت عليَّ بشاشةٌ وسُـــرورُ
فـَظـَنـنتُ أنـِّي في مجالسِ لذَّتي ... والرَّاحُ تـُجلى والكـُؤوسُ تـَـدورُ

وقول أثير الدين بن حيَّان :

لـَقد ذكرتـُكَ والبحر الخضمُّ طـَغت ... أمْواجـُه والورَى منه على سَفـَرِ
في ليلةٍ أسْدلـَت جِلبَابَ ظـُلمتِـها ... وغار كوكبُها عن أعيـُنِ البـَشـَرِ
والماء تحت وفوقَ المُزنِ واكفهُ ... والبرقُ يستلُّ أسيافـًا من الشـَّررِ
والفـُلكُ في وسَط المائـَين تحسبُها ... عينـًا وقد أطبقت شعرًا على شـُفـُرِ
والرُّوح من حـَزنٍ راحـَت وقـَد ورَدت ... صَدري فيـَالـَكَ من وردٍ بـِلا صَدر !
هـَذا وشـَخصُكَ لا يـَنفكُّ في خـَلـَدي ... وفي فـُؤادي وفي سَمعي وفي بـَصَري

48) في ب « والسوس » بدل « والشمس » . وفي د : « والسوم »، ولا يظهر معنى لأي منها.

ويقرب من هذا قولي :

ألا ليت شعري هَل أرى من ثنيَّةٍ عضاها كمصفوفِ الكَتائِبِ تُشرفُ ؟
وهَل أردَنْ من سَلسَبيلِ مَواردٍ هناكَ كمعسول المباسِمِ تُرشَفُ ؟
وهل أرَيَنْ مَغْنى الدّلاءِ عشيَّةً كأنَّ بناياه بجادٌ مُفوَّفُ ؟[49]
ذكرتُكُمُ وهنًا وإنّي لَمُدْلِجٌ بأجْوازِ أقْطَارِ الصَّحاري أُطوّفُ
فقلتُ وقلبي ضمن شجْوٍ ولوعةٍ وجفْني بمنثور الجُمانِ يُكَفْكِفُ :
أدارًا سُقِيتِ الوبلَ غير مبرحٍ ولا بَرحَت عَنكِ الحَوادِثُ تُصرفُ،
لَقد هِجتِ للقَلبِ العَميدِ صبابةً تكادُ لها صُمُّ الجِبال تقصَّفُ !

وقول الصَّفَدِيّ :

ولَقَد ذكرتُكُمُ بحربٍ ينثَني عن بأسِها اللّيثُ الهِزَبْرُ الأغْلَبُ
والصّافناتُ بركْضِها قَد أنشأتْ ليلاً، وكلُّ سَناسِنانٍ كوكَبُ
والبيضُ تنثُر كلَّ ما نَظَم القَنا والنَّبلُ يُتْرِبُ والعَجاج يُترِّب[50]
وحُشاشةُ الأبطال قد تَلِفَتْ ظَما ودمُ الفوارسِ مُستهلٌّ صيِّبُ
والنَّفسُ قَد سالت على حدِّ الظُّبا وأنا بذِكركُمْ أميلُ وأطْرَبُ

وقول الآخر يصف الشمس في الغيم :

وتنقَّبتْ بخفيفِ غَيْمٍ أبْيَضٍ هي فيه بين تخفُّرٍ وتغَنُّجِ
كتنفُّس الحسناءِ في المرْآةِ إذ كَمُلَت محاسنُها ولَم تتزوَّجِ

ومن هذا المعنى قول ابن طَباطَبا العلوي :

متى أبْصَرتَ شمسًا تحتَ غيمٍ تَرى المرآةَ في كفٍّ الحَسُودِ
تُقَابلُها فتُلبِسُها غشاءً بأنْفاسٍ تَزايَدُ في الصُّعُودِ

وقال الوزير المهلبّي :

أما تَرى الشَّمس وهْي طالعَةٌ تمنعُ منّا إدامَةَ النَّظَرِ ؟
حَمْراءَ صفراءَ في تلوُّنِها كأنَّها تشْتَكي مِن السَّهَرِ
مِثْلَ عَرُوسٍ غَداةَ لَيْلَتِها تُمسكُ مرْآتَها مِنَ القَمَرِ

---

49) صحفت كلمة الدلاء في ج، فكتبت : الادلة.
50) في ب و د كتب « النيل » بدل « النبل ».

وقولـــه :

والشَّمس خيرٌ خَلفَ غيمٍ عارضٍ ... فكأنَّها في ضَوءِ ليلٍ مُقمِرِ

وقولـــه :

الشَّمسُ من مَشْرقِها قَد بَدتْ ... نيِّــرةً لَــيس لَهَــا حَــاجِبُ

كأنَّهـــا فَوهِـــيَّةٌ أُحْمِـــيَتْ ... يـجُـــولُ فِيهَـــا ذهَبٌ ذائِبُ

وقول ابن المعتزّ :

والشَّمسُ كالمِرآةِ في كفٍّ الأشَلّْ

وقول أبي حفص بن برد، ومنه أخذ :

كأنَّ شُعاعَ الشَّمس في كُلِّ غُدوةٍ ... على ورقِ الأشْجار أوَّلَ طالِعِ

دنانيرُ في كفٍّ الأشَلِّ يَضُمُّها ... لقَبْضٍ فتَهوِي من فُروج الأصابِعِ

ونحو هذا قول الآخر في الخمر :

كانت سِراجَ أُناسٍ يهتدونَ بِها ... في سالِفِ الدَّهر قبل النَّار والنُّور

تهتزُّ في الكأس من ضُعفٍ ومن هرمٍ ... كأنَّها قبسٌ في كفٍّ مَقْرُورِ

وقول ابن الرومي في الشمس :

كأنَّ جنوحَ الشَّمسِ عندَ غُروبها ... وقد جَنحت في مجنحِ الليل تمر ضُ(51)

محاجرُ عينٍ مسَّ أجفانها الكرى ... ترنَّق فيها النَّومُ وهْي تغمّضُ

وقال ابن خفاجة :

والنَّقعُ يكسر من سنى شمس الضُّحى: ... فكأنَّهُ صَــدأٌ عَلَى دينَــارِ

وقال إبراهيم بن العباس الصولي :

ولَرُبَّ نازلةٍ يضيقُ بها الفتى ... ذَرعًا وعند الّلهِ منْها المخْرجُ

كمُلتْ فلمَّا استُكمِلتْ حَلَقَاتُها ... فُرجَت وكان يَظُنُّها لا تُفرجُ

وكان يقال : ما رَدَّدَهُما مَن نَزَلَتْ به نازلةٌ إلاَّ فرَّج الّله عنه.

وقال الآخـــر :

رُويْدَكَ ! فالهُمومُ لَها رتاجُ ... وعَن كَثَبٍ يَكونُ لها انفرَاجُ

ألم تَرَ أنَّ طولَ الّليلِ لمَّـا ... تناهَى حانَ للصُّبحِ انبِلاجُ ؟

51) في ب صحفت « محاجر » فكتبت « مجارس ».

وقال أبو فراس :

ألاَ، ربَّما ضاقَ الفَضاءُ بأهلِهِ   وأمكن من بين الأسنَّةِ مخْرجُ

ومثله قوله أيضا :

خفِّض عليكَ ولا تكُن قَلِق الحَشا   ممَّا يكُونُ وعلّهُ وعَسَاهُ !
فالدَّهرُ أقصَرُ مُدَّةً ممَّا ترى   وعَساك أن تُكفى الّذي تخشَاهُ

وقول الآخـــــر :

تربَّص بيومِكَ ما في غَدٍ :   فإنَّ العَواقِبَ قَد تُعقَبُ
لعلَّ غَداً من أخِيهِ حِمًى   يلُمُّ لَكَ الصَّدعَ أو يَرأَبُ

وقال ابن الحجّاج :

دعْها سماويَّةً تجري على قَدرٍ   لا تُفسِدنْها برأيٍ منك أرضيٍّ

وقول ابن حمديس :

ما أغفَلَ الفَيلَسوفَ عَن طُرقٍ   لَيستْ لأهلِ العُقُولِ مُنسلكَه !
مَن سلَّم الأمْر للالَهِ نَجَا   ومَن عَدا القَصدَ واقَعَ الهَلَكَهْ

وقول الآخـــــر :

لا تَضقْ في الأمورِ ذرعًا فقَد   يُكشَفُ عنها الرَّدى بغير احتيالِ
ربَّما تجْزعُ النُّفوسُ من الأمْرِ   لَه فُرجةٌ كَحلِّ العِقَالِ

وقصَّة أبي عمرو بن العلاء في هذا الشعر، حيث ألزمه الحجَّاج أن يأتي بشاهد على قراءته غَرفَة فسمع هذا الشعر مقرونا بنعي الحجَّاج، معروفة .

وقال الآخـــــر :

إذا دجـا خطبٌ وأيقنتَ من   صَعْبٍ بأنَّ الأمْرَ يأتي عَسِيرْ
ينْعكسُ الأمرُ ويأْتِي كَمَا   شِئتَ : فسُبحانَ الّلطيفِ الخبير ![52]

وقول الآخـــــر :

لا تشْكُ ! فالأيَّامُ حُبلى رُبَّما   جاءتْكَ من أعجوبةٍ بجَنينِ
فكَذا تصاريفُ الزّمان : مشَقَّةٌ   في راحةٍ وخُشُونةٌ في لِينِ !
ما ضاعَ يُونُسُ بالعَراءِ مُجرَّداً   في ظلٍّ نابتَةٍ من اليَقْطِينِ

52) في ب : زيدت خطأ كلمة « على » في آخر الشطر الأول : كما على

وقول الآخـــر :

والّليـالي كما عَلـمتَ حبـالَى مُقربَاتٌ يَلِدْنَ كُلَّ عَجِيبِ

وقول الآخـــر :

الدّهر لا يَنفكُّ عَن حَدثَانِهِ والمَرءُ مُنقَادٌ لحُكمِ زَمَانِهِ

فَدعِ الزّمانَ فإنّهُ لم يَعتَمد لجَلالةِ أحدٍ ولا لِهَوانِهِ !

كالمُزن لم يخْصُص بنافِعِ صَوبِهِ أُفْقًا ولم يُخش أذَى طُوفانه

لكن لِبَاريهِ بواطِنُ حِكْمَةٍ في ظاهِرِ الأضْدَادِ من أكْوانِهِ

وقول الآخـــر :

دعِ المُنى ! ربّما نيلَتْ بلا طَلبِ وربّما وقَعَ الحِرمانُ في المِهَنِ !

وقول الآخـــر :

الدّهر كالطّيف بُؤساهُ وأنعُمُه من غير قَصدٍ : فلا تمدَحْ ولا تذمِ

لا تَسألِ الدّهْر في غمَّاءَ يكشفُها: فلو سألْتَ داومَ البؤسِ لم يَدُم !

وقوله : ولاَ تَذمِ، إن كان بكسر الذّال من قولك ذَامَهُ يَذيمُهُ ذيْمًا وذَامًا - أي عَابَهُ - فهو صحيح ؛ وإن كان بضمّها من قولك ذَمّهُ يَذُمُّهُ، فهو مذموم فلحن أو ضرورة بشيعة.

وقول أبي بكر الخوارزمي :

ما أثقَلَ الدّهرَ على مَن ركِبَهْ حدّثني عَنهُ لسان التّجربَهْ !

لا تَحمَدِ الدّهر لشَيءٍ سبّبَهْ فإنّه لم يتعَمّد بالهِبَهْ

وإنّمـا أخْطَأَ فيكَ مَذْهَبهْ كالسّيلِ إذ يَسقي مكانًا أخْرَبَه !

والسّمُّ يَستَشْفي به مَن شَرِبَهْ

قلت : وشعر هذَيْن الشاعريْن ينحو منحى زُهَيْر إذ يقول :

رأيت المنايا خَبْطَ عشواءَ من تُصِبْ تُمتْهُ ومن تُخطِئْ يُعمَّر فيهرمِ

لا سيّما الشاعر الأوّل . ولا شكّ أنّ ما ذكره زهير خطأ وجهل بالتدبير الربانـيّ، والتصريف الاختياريّ، وأنّ كل ذلك واقع عن علم وسبق مشيئة . وإن كان يمكن أن يُتأوّل الكلام لو صدر من موحّدٍ بأن ذلك بحسب الصورة الظاهرة . ومثل المنايا صروف الدهر وحوادثه سواء.

ويشبه قول الخوارزميّ :

لا تَمدحنَّ ابن عبَّادٍ وإن هطلتْ كفَّاهُ بالجودِ حتَّى أخْجَلَ الدِّيَما !
فإنَّهـا خطـراتٌ من وساوسِهِ يُعطي ويَمنَعُ لا بُخلاً ولا كَرَمَا

[وكتب البيتَيْن فوضعهما حيث يجلس الصاحب ثمَّ ارتحل من وقته][52م] . فلمَّا وقف الصاحب عليهما قال :

أقولُ لِركبٍ من خُراسانَ أقْبَلـوا (×) أماتَ خُوارزْمِيُّكُمْ ؟ قيل لي نَعَم !
فَقلت : اكتبوا بالجصِّ من فوق قبره: ألا لَعَنَ الرَّحمانُ من يَكفُرُ النِّعَم !

ومثل ما تقدَّم قول الآخر :

من يصْحَبِ الدَّهر لا يَعدَمْ تقلُّبَهُ والشَّوكُ ينبُتُ فيه الوردُ والآسُ
تَمرُّ حيناً وتحلُو لي حَوادِثُه فقلَّما جَرحَت إلاَّ انثَنَت تاسُو

وقول الآخـر :

لا تجزعنَّ لعُسرةٍ من بَعدِها يُسرانِ وعْدٌ لَيسَ فيه خِلافُ !
كم عُسرةٍ ضاقَ الفتى لِنُزولِها للّهِ في أعطافِها ألْطَافُ !

وقول الآخـر :

تصبَّـرْ للعـواقِبِ واحْتَسِبْهـا فأنتَ من العواقبِ في اثنَتَينِ
تُريحُك بالمُنى أو بالمَنَايـا فإنَّ الموتَ إحدى الرَّاحَتَين !

وقول الأبيَورْدي :

تنكَّرلِي دهْري ولم يَدر أنَّني أعـزُّ وأنَّ الحادثـاتِ تَهُـونُ
فَباتَ يُريني الخَطبَ كيفَ اعتِداؤهُ وبتُّ أُريهِ الصَّبر كيف يكونُ

وقولنا من قصيدة :

فإذا عَرتْكَ الحادثـاتُ فثِـقْ بمليكِها ذِي الخَلـقِ والأمْـرِ
واصْبِـر لِـرَوْحِ اللّه مُرتجيـاً فَلَتَحْمَـدَنَّ عواقبَ الصَّبْـرِ
إنَّ اصْطِبارَ المَرءِ مُفْتَتِحٌ مُتغلَّـقَ البَأسَـاءِ والعُسْـرِ
ومُنفِّسٌ عَنهُ الكُـرُوبَ إذَا ضَاقَتْ بهِنَّ جَوانِحُ الصَّدْرِ
كَمْ مِن حَزينٍ بَاتَ مُكتئبًا مُتعسِّـرَ الأحْشَـاءِ ذا زَفْـرِ

52م) سقط ما بين معقوفتين من د.
×)في المخطوطات : «لقبوا» بدل «أقبلوا». وفيه رواية أخرى : «أقول لركب من خراسان قافلٍ».

مَا يَرتجِي جِلْبَابَ لَيلَتِه / أن يَنزَوي طَرفَاهُ بالسّفْرِ

فأتَتْه ألْطَافٌ مُنفّسَةٌ / لفُؤادِهِ مِن حَيثُ لا يَدرِي

ولَكَم بُعَيْدَ الضّيقِ من سَعةٍ / ولَكم بُعَيدَ العُسر من يُسر !

هَل بَعد مُعْتكَرِ الظّلامِ سوَى / بَلَجِ الصَّباحِ وطَلعَةِ الفَجْرِ

أو بَعد ظَمْأةِ هَجْمَةٍ وردَت / إلاّ ارتِواءُ جانِبِ الغُدْرِ

أو بَعد خانِقَةِ التّلاعِ سوَى / فيحِ الفِجَاجِ وفُسحةِ البُهرِ ؟

وقول الآخر :

أمَقْتولَةَ الأجْفَانِ مَالَكِ والهًا / ألم تُركِ الأيَّامُ نجمًا هَوى قَبلي ؟

أقَلّي بُكاءً : لَستِ أوَّل حُرَّةٍ / طَوت بالأسى كشحًا على مضضِ الثكلِ

وفي أمٍّ موسى عِبرةٌ إذ رمَت به / الى اليمِّ في التَّابوت فاعتبري واسلي

ولِلّه فينا عِلمُ غَيبٍ وحَسبُنا / به عند جَورِ الدَّهْرِ مِن حَكَمٍ عَدلِ

والشعر في هذا المعنى أكثر من أن يحصى.

وقال الغزي :

قالوا : بَعُدتَ ولم تَقرُب فقلت لهم: / بُعدِي عن النَّاس في هذا الزَّمان حِجا

لولا التَّباعُد بين الحاجبَين بِه / بانَ افتراقُهُما لم نَعرفِ البلَجا

ومثله قول الارجاني :

أسفْتُ على عُمْرٍ تصرَّم ضائعًا / وجُدْتُ بدمعٍ يَستهلُّ هَتونِ

وآنسني بُعدي من النَّاس جانبًا / وإن هُمْ على أحداقِهم حملوني

ولمَّا غدا عنَّا على جَفن ناظري / لقاءُ الورَى من صاحبٍ وخَدينِ

ألِفتُ الفضا مستوطنًا ظهر ناقةٍ / تلفُّ سهولاً دائمًا بحزُونِ

وما سرت إلاّ في الهواجِرِ وحدها / كراهةَ ظلٍّ أن يكون قريني

وقول أبي العلاء المعري :

فظُنَّ بسائر الاخوان شرًّا / ولا تأمَن على سرٍّ فُؤَادَا :

فَلو خبرَتْهُمُ الجَوزَاءُ خُبْرِي / لما طلعتْ مخافةَ أن تُكادا !

وقوله أيضا :

جرَّبتُ دهري وأهلِيه فما تَركتْ / ليَ التَّجاريبُ في ودٍّ امرىءٍ غرضَا

وقول ابن قلاقس :

إعلَـقْ بأطـواقِ الـودادِ فَـإنَّهُ ... مَن دافَعَ الأمْواجَ مَاتَ غَرِيقَا

وإذا انتَهَـى الاخْلاصُ أوجَبَ ضِدَّه: ... إنَّ التَّجمُّعَ يُنتِجُ التَّفريقَا !

وقول ابن الرومي، وهو المثل المشهور في هذا :

عَدُوُّكَ من صَديقِكَ مُستفَادٌ: ... فَلا تَستَكثِرنَّ مِنَ الصِّحابِ

فإنَّ الدَّاءَ أكْثَرَ مَا تَرَاهُ ... يَكُونُ مِنَ الطَّعامِ أو الشَّرابِ !

وقول الآخــر :

جَزَى اللّهُ خيرًا كلَّ من ليس بيننا ... ولا بينَه ودٌّ ولا مُتَعارِفُ :

فَما نالَني ضَيمٌ ولا مسَّني أذًى ... من النَّاسِ إلاّ مِن فتًى كنتُ آلَفُ !

وقول الآخــر :

احْـذَرْ عَـدُوَّكَ مَـرَّةً ... واحْذَرْ صَديقَكَ ألْفَ مرَّهْ :

فلرُبَّمـا انقَلَبَ الزَّمَـانُ ... فَكَـانَ أعْـرَفَ بالمَضَـرَّهْ !

وقول ابن سناء المُلك :

أبَى الدَّهر إلاّ ضدَّما أنا طالبٌ: ... فيا لَيتَ منِّي مكَّنَ اللّه ضدَّهُ !

يُعدُّ الفَتى إخْوانَهُ لزَمَانِه ... وأعْدى لَه من خوفِه من أعدَّهُ

وقولي من قصيدة :

وبَنُو دهْرِكَ العُضَالُ مِن الدَّاء ... العَديمُ الأسَاةِ ذُو الازْمَانِ

وأضرُّ الأدواءِ مَـن تتـولاَّهُ ... وتَحجُـوهُ أقْـرَبَ الاخْـوَانِ

إنَّما الأقْرِبَاءُ فِي النَّاسِ جُسَّاسٌ ... عَلَـيكَ فِي السِّـرِّ والاعْلاَنِ

يَخْبُرُونَ العَوْرَاتِ حِفْظًا وإعدادًا ... ليَـومِ البَأسَـاءِ والشَّنَـآنِ

وقول الأنصاري الأوَّل :

ألا رُبَّ من تحجو صديقًا ولو ترى ... مقالتَه بالغَيبِ ساءكَ ما يفْرِي:

لسانٌ له كالشَّهد ما دُمت حاضرًا ... وبالغَيب مَطرورٌ على ثُغرةِ النَّحر

وقولي من قصيدة :

فتوخَّ في النَّـاسِ الوفيَّ إذا ... عَاشَرتَهُم وحَذارِ ذَا الغَدْرِ !

واسْبُرهُـمُ قَبل الاخَـاءِ ولاَ ... تَغْتَرَّ في الاخْوانِ بالسَّبْرِ !

كَـم من أخٍ مَذقَ الودَادَ عَلى   ما فيه من إحَنٍ ومِن سِبْرِ
إن تَـلْـقَـهُ فالشّهـدُ مِقْــوَلُـهُ   وإذا تَـغِيبُ يَـكُـونُ كالصِّبْـرِ
سِيمَـى بوجْهِـكَ تستمِيلُ وإنْ   أدبَـرتَ عَـنْـهُ فكـيّةُ الظّهْــرِ
وإذا الزّمَـانُ دعــاكَ نائِــبُـه   العَــازِي إلَــيهِ ترجِّيَ البِــرِّ
فسيحْتبِــيكَ بوعْــدِ غانــيةٍ   أو وعدِ عُرقوبٍ جَنى التّمْــرِ
واذا تعُودُ يَـظَلُّ مُكْتَلِحـًا   مُـتَـغَـيِّظًا يَـنْـزُو وَيَـسْـتَـشْـرِى
وإذا تُـصَادِفْ ذَا الصَّفَاءِ فكُن   منه، ولَـو صَافَاكَ، ذَا حِـذْرِ
وأسِمْ سَوائِمَ سَمْعِهِ طُرقًـا   مَطْـروقَـةً مِــنْ مَسرحِ السِّــرِّ[53]
وصُــنِ السَّــارَةَ والّلبَــابَ ولاَ   تَـبذُلْ لَـه منْـهُ سِوَى القَشْرِ
فلرُبَّمَــا يَلْــوِي الزّمَــانُ بهِ   فَـيكـونُ أبْـصَــرَ فيكَ بالضُّــرِّ

وقول الآخــر :

فَـاقت بيوسُفها الدُّنيا وفاحَ لها   طِيبٌ طَوى المسكَ في نشرٍ لها أرِجِ
فإن يُـشاركْـه في اسم المُلك طائفةٌ   فإنَّ شمس الضُّحى من جُملة السُّرجِ

ويتمثّل بالبيت الثاني . ومثله في المعنى قول الآخـــر :

وفي البَسَاتيـن أفنـانٌ مُـنـوَّعَـةٌ   وليس يُـقطَـفُ إلاّ الوردُ والزّهَرُ
وفي السَّماء نجومٌ ما لها عَدَدٌ   وليس يَـخْسفُ إلاّ الشّمسُ والقمَرُ

وقول أبي الطّيب :

فإن تفُقِ الانَـامَ وأنتَ مِنْهُـم   فإنّ المسكَ بَعْضُ دَمِ الغَزَالِ

وقول الآخــر :

وقَـد يُـسمَّى سماءً كُلُّ مُرتفِعٍ   وإنّما الفَضْلُ حَيثُ الشّمسُ والقَمرُ

وقول الآخـــر :

النّاس كالنّاسِ إلاّ أن تُـجرِّبَـهُـم   وللبصيرةِ حُكـمٌ ليس للبَـصَـرِ
والأيْـكُ مُشتَـبهاتٌ في مَـنَـابِـتِـها   وإنّما يَـقعُ التّفضيلُ في الثّمر

وقول الآخـــر :

وقَـد يتقـارَب الوصْفَـانِ جِـدًا   ومَـوْصُـوفَـاهُـمَــا مُـتَـبَـاعِــدَانِ

53) في ب : « طررًا » بدل « طرقا » . وترك بيتض مكان القاف في جـ.

وقول الآخــــر :

قَد يَبعُدُ الشَّيءُ من شيءٍ يُناسبُه: إنَّ السَّماءَ نَظِيرُ الماءِ في الزَّرقِ

وقول الآخــر:

دعْ ما تناسَبَ في الأبْصار ظاهرُه ولا تقُل بقياسٍ غَيرِ مُطَّردِ !

فصدمةُ المُتنافي لا اعتِدادَ بها: شتَّانَ ما بين مُهتزٍّ ومرتَعِدِ ![54]

وقول الآخــــر :

قَد تُشبهُ الحَالَةُ الأخْرى وبينهُما إذا تأمَّلتَ فرقٌ عن سِواك خَفي

فربَّما صفَّقَ المسْرورُ مِن طَربٍ وربَّما صفَّق المحزونُ من أسَفِ

وقول الآخــــر :

لَقد عَرضَ الحَمامُ لنا بِسَجْعٍ إذا أصغَى لَهُ رَكْبٌ تَلاحَى

شَجَا قَلب الخَليٍّ فَقالَ غنَّي وبرَّحَ بالشَّجيٌّ فقال نَاحا[55]

وقال الشيخ عمر بن الفارض :

لا كَان وجدٌ به الآماقُ جَامِدَةٌ ولا غَرامٌ بِهِ الأشْوَاقُ لم تَهِجِ

وقال الراعــي :

ومُرسلٍ ورسُولٍ غَيْرِ مُتَّهَمٍ وحاجَةٍ غَيرِ مُزجَاةٍ مِن الحاجِ

طاوعْتُهُ بَعدما طَالَ النَّجيُّ بنا وظَنَّ أنَّي عليه غيرُ مُنعاجِ[56]

ما زَال يفْتَحُ أبوابًا ويُغْلقُهَا دونِي وأفْتَحُ بابًا بَعدَ إرتاجِ

حتَّى أضَاءَ سِراجٌ دُونَهُ بَقرٌ حُمرُ الأناملِ عينُ طَرفِها ساجِ

يا نِعْمَها ليلةً حتَّى تخوَّنَهَا داعٍ دعا في فروعِ الصُّبحِ سحَّاجِ

لمَّا دعا الدَّعوةَ الأولَى فأسمَعَني أخَذْتُ بُردَيَّ واستَمرَتُ أدراجي

وقال الآخــــر :

ما زلتُ أبغي الحيَّ أتبَعُ ظِلَّهم حتَّى دفَعتُ إلى ربيبَة هوْدَجِ

قالت : وعَيشِ أبي وحُرمةِ إخوتي لأنبِّهنَّ الحيَّ إن لم تَخْرُجِ !

فخرجتُ خيفَةَ قولِهَا فَتبسَّمَت فعلِمتُ أنَّ يمينَهَا لم تُحرجِ

54) في جـ : « فهزمة » بدل « فصدمة »، وفي د : « فهدمة ».
55) صحف الشطر الثاني في د، فكتب فيه : وبرَّح بالشجا...
56) صحفت كلمة « النجي » في جـ، فكتبت « النجا ».

فلثَمتُ فَاها آخِذًا بقُرونِها   شُربَ النَّزيفِ بِبَرْدِ ماء الحَشرجِ

قوله ماء الحَشْرَج أي الماء الجاري على الحجارة.

وقالَ عمر بن أبي ربيعة :

قَد كُنتَ حمَّلتَني عيظًا أُعالجُه   فإن تُقِدني فَقد عنَّيتني حِجَجا

حتَّى لَوَ اسْطِيعُ ممَّا قَد فعلتَ بنا   أكَلتُ لحمَك من غيظٍ وما نضِجا !

وقبل هذَيْن البيتَيْن :

ياربَّةَ البَغْلةِ الشَّهباءِ هَل لكُمُ   أن ترحَمي عُمرًا لا تُرهِقي حَرَجا ؟

قالت : بدائِكَ مُتْ أو عِشْ تعالجُهُ   فما نَرى لك فيما عندنا فَرَجا !

وبعدهمـــا :

فقلت : لا والَّذي حجَّ الحَجيجُ له   ما مُجَّ قَلبُكِ من قَلبي وما نَهَجَا

ولا رَأى القَلبُ من شيءٍ يُسرُّ به   مُذبانَ منزلُكُم منَّا وما ثَلجَا

كالشَّمس صورتُها غرَّاءُ واضِحةٌ   تُعشي إذا برزَت من حُسنِها السُّرُجا

ضَنَّت بنائِلِها عنه فقد تَركَت   من غَير جُرمٍ أبا الخطَّابِ مُختلجا

وقال بعض المجَّان :

إذا مررتَ بوادٍ لا أنيسَ به   فاضرِبْ عُمَيرَةَ لا عارٌ ولا حَرَجُ

ضَرْبُ العُمَيْرَةِ هي الخَضْخَضَةُ، وهي الاستمناء باليد وشبهه . وكذب هذا القائل : فإن في الخضخضة لحرجًا وعارًا، وإنَّها محرَّمة عند جماهير الناس، وفيها قول بعض الأعراب :

إن تبخَلِي بالرَّكَبِ المَحْلُوقِ   فإنَّ عِندِي رَاحَتِي وريقِي

والرَّكَبُ بفتحتَيْن، وتقدَّم تفسيره.

وقول الآخـــر :

كفِّي ورجلِي لا عَدِمتُ كليهِما   أصبحتُ أغْنى مَن يَروحُ ويغْتَدي

أمشِي على هَذِي وأنْكِحُ هَذِهِ   فَمطِيَّتي رجْلي وجاريتي يَدِي !

وقول الآخـــر :

خَطبتُ إلى ساعِدي رَاحَــتي   وما كُنت من شرِّ خُطَّابِهَـا

وما إن تَكلَّفْتُ من مَهْرِهَـا   سِوَى رِيقَةٍ أتَجَزَّى بِهَـا

فإن شِئْتُ أُوتَى بِهَا ثَيِّبًا وبِكْرًا إذا شِئْتُ أُوتَى بِهَا

وقال بعضهم : مررت على برذعة الموسوس، وقد أدخل رأسه في جيبه يتخضخض . فضربته برجلي، فانكشف فإذا هو مُنعظ، فقلت : ما هذا ؟ فقال : أما ترى في ذلك الرَّوْشَنِ ؟ وأشار إلى باب في عليَّة، فإذا جارية جميلة تتطلّع . فقال : إني دعوتها، فلمّا لم تجبني أجبتها . فقلت : قبّحك اللّه ! وولّيت عنه . فلم ألبث أن لحق فقال : قضيت الحاجة على رغم أنفك، وأنشد :

أأنْكَرتَ ما عايَنْتَ من كفٍّ دالِكٍ وهَل يُنكَر التَّدليكُ في قولِ مالكٍ ؟

لَقَد أمِنَ الدُّلاَّكُ مِنْ أن تنالَهُمْ حُدودُ الزّنى في واضحات المسالِكِ

وإنِّيَ قد سَكَّنتُ غُربَةَ غُلمَتي بحُسن العُيونِ والثُّدِيِّ الفَوالِكِ

وكذب هذا الأحمق على مالك، رضي اللّه عنه : فإنّ حرمة الاستمناء هي مذهبه، وكذا مذهب الشافعي وغيره . وإنّما رُويت فيه رخصة عن عمرو بن دينار، إن صحّت الحكاية عنه. وروي عن ابن عبّاس أنّه قال في الخضخضة : هي خير من الزنى.

قلت : وليس في هذا الكلام ما يقتضي حليتها، إذ ليست المحرّمات كلّها في درجة واحدة، بل مقطوع بتفاوت ما بينها : فإن الزنى نفسه ـ وهو محرّم إجماعًا ـ على درجات بعضها أشدّ من بعض . ألا ترى أن الزنى بحرّة مطاوعة لا زوج لها ولا أهل يسبون بفعلها، ولا ترجو ولدا أخفُّ من الزنى بغيرها وإن كان الكلّ حراما، لأنّ الحقّ إذا انفرد وتمحّض للّه تعالى أخفّ ممّا إذا انضمّ إليه حقُّ المَزْنِيّ بها المُكرهة أو حقُّ الزوج، أو حقُّ الأهل، أو حقّ السيّد في الاضرار بهم، ونحو ذلك من الحقوق . وهو أيضا في الآيسة أخفّ منه في الولود، لِمَا في الثانية من مزيد المفسدة باختلاط الانساب، وهو الحكمة الأصلية في التحريم . ومعلوم أنّ الخضخضة ليست بمحلّ لهذه المفسدة، لا تحقيقا ولا مظنّة ؛ ولكن فيها تضييع البَذْر، وهو ماء النسل في غير وجهه، فلتكن هي أخفّ . ولهذا المبحث محلّ يليق به، وليس من غرضنا الآن التعرض له.

وقلت أنـــا :

إذا لَحظَتكَ عَينُ المَرءِ يومًا بَدا منه صِفَاءٌ أو ضِجَاجُ

وأنْبَتْ فيه عن حُبٍّ وبُغْضٍ كَمَا يُنْبِي عَنِ المَاءِ الزُّجَاجُ

الصِّفَاءُ بالكسر : المُصَافَاة ؛ والضِّجَاجُ بالكسر : المضاجّة، وهي المُشَاوَرَة.

وقلت أيضـــا :

لكُلٌ أخي داءٍ دواءٌ يُعِدُّهُ وأعْيَى دَواءُ الضِّغْنِ كُلَّ مُعَالِجِ
إذا آنَسَ النُّعمَى تَضَاعَفَ داؤُه وآضَ بغيظٍ للْجَوَانِحِ زَامِجِ
وإن آنَسَ البَأسَاءَ أصْبَحَ شامتًا بقَلبٍ من الشَّحْنَاءِ والهَزْءِ رامِجِ

تقول : زَمَجْت القِربَة إذا مَلأتها، وزَمْجُ الغَيْظ لِلجَوَانح مجاز . والرَّامِجُ : الممتلىء الريَّان، وهو هنا مجاز أيضا.

وقلت أيضـــا :

أرَى الورَى وصُروفُ الدَّهر تخْضِمها مثلَ السَّفينِ تَداعَت فوقها اللُّججُ
وهم رَمايا مَناياهـا فَلا وزَرٌ عَنها ولا ملْجأٌ منها ولاَ وحَجُ
كأنَّما هيَ حوضٌ والوَرَى وردٌ عَطشَى أناخوا عَليه دائمًا وحَجُوا
أو مِثلُ هيمٍ لِخِمْسٍ تغتَشيهِ فلم يُغنِ الذِّيادُ لها عنهَ ولا العَنَجُ

الخَضْم : الأكْل، ويستعمل في ملء الفم بالمأكول، وهو مجاز هنا عن الاستئصال والوحَج: الملْجَأ، وهو عطف تفسير . والوُرُد بضمَّتَيْن جمع وَرُود ؛ وحجُوا : أقاموا . يقال : حجيَ به أي أُولِعَ به ولزمه . وبينه وبين الوَحَج الأول جناس تامّ بين الاسم والفعل . والهِيمُ : الابل يصيبها الهُيام . والخِمس بالكسر : زمان ورودها . والذّياد : الطَّرْد ؛ والعَنَج بالتحريك : اسم من العَنْج بالسكون، وهو أن يشدَّ الراكب خطام البعير فيردّه على رجلَيْه.

بَـــابُ الـحَـــاءِ المُـهمَـلة

أحَـبُّ الحَـدِيثِ أصْدَقـُهُ.

الحُبُّ معروف . تقول : أحْبَبْتُ الرَّجُلَ، فهو مَحْبُوبٌ ـ على غير قياس ـ. وقد يقال مُحَبٌّ، وهو قليل . قال عنترة :

ولَقد نَزلت فَلا تَظُنّي غَيرَهُ   منّي بمنزلَةِ المُحَبِّ المُكرمِ

وقد يقال حَبَبْتُه ثلاثيا أَحِبُّه بالكسر، فهو محبوب . أنشد الجوهري في الصحاح :

أَحِبُّ أبا مَروانَ من أجْلِ تَمْرِهِ   وأعْلمُ أنَّ الرِّفقَ بالمرءِ أرفَقُ

ووالّلهِ لولاَ تَمرُهُ ما حَبَبْتُهُ   ولَو كانَ أدنى من عُبَيدٍ ومُشْرقِ[1]

وليس عندهم مضعّف متعدّ يتمحّض فيه الكسر غير هذا . والحديث معروف أيضا . والصدق ضدّ الكذب . وهذا كلام يُروى عن النبيّ صلى الّله عليه وسلّم لمّا جاءته هوزان تطلب منه أن يردّ إليها ما أخذ منها من السبايا والأموال يوم حُنَيْن . فقال : **أحَبُّ الحَدِيثِ إلى الّلهِ أصْدَقُهُ، أو : خَيْرُ الحَدِيثِ، إنَّ مَعِي مَنْ تَرَوْنَ، فاخْتَارُوا إحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ : إمَّا السَّبْي وإمَّا الأمْوال . فاختاروا السبي وقالوا : لا نعدل بالأحساب شيئًا** . والقصَّة مشهورة في المغازي.

وقال كعب بن مالك رضي الّله عنه :

أبْلِغ قُريشًا وخير القولِ أصْدقه   والصِّدقُ عند ذَوي الالبابِ مَقْبولُ

حُبُّكَ الشَّيءَ يُعْمِي ويُصِمُّ.

الحُبُّ مرَّ ؛ والعَمَى معروف، وأعْمَيْته : فعلت به ذلك . وكذا الصَّمَم وأصممته .

---

1) فيه إقواء . ويرويه المبرد بدون اقواء هكذا :
وكان عياضٌ أدنى منْهُ ومُشْرقُ

وهذا أيضا يُروى عن النبي صَّلى الـَّله عليه وسلـَّم . والعـَمـَى هنا يـَحتمل أن يكون عـَمـَى البصر - وهو أظهر - أو عـَمى البصيرة - وهو أدقّ وأليق - .

والمعنى أنّ المرء إذا أحبّ شيئا غلبت محبـَّته على قلبه، فلا يرى رشده، ولا ينظر عاقبته، ولا يسمع عاذله . والصـَّمـَم هنا مجاز أيضا عن عدم الاصغاء الى المسموع، وعدم الاهتبال به والانتفاع به . فكأنـَّه أصمّ لا يسمعه، كما قال تعالى : **صـُمٌّ بـُكـْمٌ عـُمـْيٌ**.وقال الشاعر :

صـُمٌّ إذا سمعوا خيرًا ذ ُكـِرتُ به وإن ذ ُكرتُ بشرٍّ عندهـُمْ أذِنوا

وقال الآخــــر :

فأصـْمـَــمتُ عمـْـــرًا وأعـْمَيـــتـُهُ عَنِ الجـُودِ والفـَخـْرِ يـَومَ الفـَخـَارِ

وفي معنى المثل قال الامام البوصيري رحمه الـَّله :

محضتـَني النـُّصحَ لكـِن لـَستُ أسمـَعـُه إنّ المـُحبّ عـَن العـُذ ّال في صـَمـَمِ

وهذا المثل يضرب في الحذ َر من اتباع الهوى وما يـؤمر به من اجتنابه.

وفي حديث آخر عن النبيّ صلـَّى الـَّله عليه وسلـَّم : **جـَاهـِدُوا أهـْواءَكـُمْ كما تـُجـَاهـِدُونَ أعـْداءكـُمْ !**

وقال الشاعر :

إذا طالبـَتكَ النـَّفسُ يومًا بشهوةٍ وكـان عـَليهـا للـخلافِ طـَريـقُ
فخالف هوَاها ما اسـْتطـَعتَ فإنـَّما هـَوَاها عـَدُوٌّ والخـِلاَفُ صـَديقُ

وقال الآخــــر :

وفي الحـِلمِ والاسـْلامِ للمَرءِ وازعٌ وفي تـَركِ طاعاتِ الفـُؤادِ المتيـَّمِ
بـَصائـِرُ رُشـْدٍ للفـَتى مـُستـَبـِينـَةٌ وأخـْلاقُ صدقٍ عـِلمـُها في التـَّعلـُّمِ

وفي هذا المعنى ما لا يـُحصى من الشعر والنثر يأتي في الحكم، إن شاء الـَّله تعالى.

حـَبـْلُ فـُلاَنٍ يـُفـْتـَلُ.

الحـَبـْل، بالفتح فالسكون : الرباط، وهو معروف . وجمعه حـِبـَال وأحـْبـُل . قال الشاعر:

أمِن أجْلِ حبلٍ لا أباكَ ضرَبته بِمنسأةٍ ؟ قد جرَّ حبلُك أحْبُلا[2]
وفَتْل الحَبْل معروف . قال امرؤ القيس :
فَيالَكَ من لَيلٍ كأنَّ نجومَهُ بكُلِّ مُغارِ الفتْل شُدَّت بيذْبُل !
أي بكل حبل أُحْكم فَتْلُه . ويقال : حَبْلُهُ يُفْتَلُ إذا كان مقبلاً على الأمر.

حَتْفَهَا تَحْمِلُ ضَأْنٌ بِأظْلافِهَا.

الحَتْفُ : الموت . والأظْلافُ جمع ظِلْف بالكسر، وتقدَّم تفسيره . وهذا المثل يضرب في الهلاك يجتلبه القدَر على الانسان، أو يجرّه على نفسه . وأصله أنَّ النعمان بن المنذر عمد الى كبش، فعلَّق في عنقه مُدْية، وأرسله يرعى، ونذر أن يقتل من تعرَّض له. فكان الكبش يخرج ولا يُمسّ . ثمَّ مرَّ على أرقم بن علباء اليشكري ـ وقيل على علباء بن أرقم اليشكري ـ فقال : كبش يحمل حتفه بأظلافه ! ووثب عليه فذبحه واشتواه . فقال في ذلك شعرا طويلا، منه :

أُخوَّفُ بالنُّعمانِ حتَّى كأنَّني ذبَحتُ له خالاً كريمًا أو ابنَ عمْ

وقال أبو عُبَيْد إنَّ هذا المثل تمثَّل به حُرَيْثُ بنُ حَسَّانَ الشَّيْباني بين يدي النبيّ صلَّى الَّله عليه وسلَّم لقَيْلَةَ التميميَّة، وكان قدم بها الى النبيّ صلَّى الَّله عليه وسلَّم، وذلك في قصَّة طويلة، حتَّى قالت قيلة : فقدمنا ـ تعني مع حُريث ـ على رسول الَّله صلَّى الَّله عليه وسلَّم، فصلَّيت معه الغداة، حتَّى إذا طلعت الشمس دنوت. فقال رجل : السلام عليك يا رسول الَّله ! فقال رسول الَّله : **وعليْكَ السَّلامُ ! وهو قاعِدٌ القُرْفُصَاء** . فقالت : فتقدَّم صاحبي، فبايعه على الاسلام، فقال : يا رسول الَّله اكْتُبْ لي بِالدَّهْنَاء[3]. فقال : **يا غلامُ اكْتُبْ لَه** . قالت : فشخص بي، وكانت وطني وداري . فقلت : **يارسولَ الَّله، الدهناء مُقَيَّدُ الجَمَلِ ومَرْعَى الغَنَم، وهَذِهِ نِسَاءُ بَنِي تميمٍ وراءَ ذلِك . قال : صَدَقَتِ المِسْكِينةُ ! المسلمُ أخو المُسلم، يَسَعُهُمَا الماءُ والشَّجَرُ، ويتَعَاونَان علَى الفُتَّان** . وقال رسول الَّله صلَّى

---

2) قال ابن بري : صوابه « قد جرَّ حبلَك أحْبُلُ » . قال : وبعده
هلمَّ إلى حُكْم ابن صخْرةَ، إنَّه سيحكُم فيما بيننا ثم يَعْدِلُ
(انظر **لسان العرب**، مادة حبل)
3) يريد أن يُقطعه إياها.

الّله عليه وسلّم : أيُلامُ ابنُ هَذِهِ أن يَفْصِلَ الخُطّةَ ويَنْتَصِرَ مِن وراءِ الحُجْرَة ؟ انتهى.

وهذا المثل هو مثل قولهم : بَحَثَ عَنْ حَتْفِهِ بِظِلْفِهِ، وتقدّم.

حَتّامَ تَكْرَعُ ولاَ تَنْقَعُ ؟

حَتّى هنا حرف جرّ، دخلت على ما الاستفهاميّة . ويُقال كَرَعَ في الماء وفي الانـاء، بفتح الراء وكسرها، كُرُوعًا وكَرْعًا إذا تناوله بفيه من غير أن يشرب بكفَّيْه ولا بإناء . والكَرَع بفتحتَيْن : الماء يُكرع فيه يجتمع من ماء السماء في غدير أو نحوه . قال عدي ابن الرّقاع يصف راعي الابل :

يَسُنُّها آبلٌ ما إن يُجزّئُها جَزْءًا شَديدًا وما إن تَرتَوي كَرَعَا

ويقال : نَقَع الرجل بالشراب وبالخبر، بفتح القاف إذا استشفى به من غليله . قال كثيّر :

فما نقَعَت نفسي بما أمَرُوا بِه ولا عُجْتُ من أقْوالِهمُ بفَتيلِ

والمثل ظاهر معنًى ومضربًا.

المُحَاجَزَة، قَبْلَ المُنَاجَزَةِ.

ويقال أيضا : إن أرَدْتَ المُحَاجَزَةَ فَقَبْلَ المُنَاجَزَةِ. يقال حَجَزَه عن الأمر إذا كفّه عنه وصرَفه، فانْحَجَز هو . وحَجَزَ بين الناس فَصَل بينهم . وتَحَاجَزَ القومُ كَفَّ بعضُهم بعضا . والحَجَزَةُ ـ بفتحتَيْن ـ الذين ينمنعون بعض الناس من بعض ويفصلون بينهم، جمع حَاجِز . ويقال : نَجَزَ حاجته وأنْجَزَها : قَضَاها . والمُنَاجَزَة المُقابلة . وتَنَاجَزَ القوم تلاحموا وتقاتلوا . والمعنى أنّ المُحاجزة والمُسالمة إنّما تكون قبل المناجزة والوقوع . فيُضرب عند الحزم والفرار ممّن لا يُطاق، أو عند طلب الصلح بعد القتال.

حِدَأْ حِدَأْ وراءَكِ بُنْدُقَة.

الحِدَأة، بكسر الحاء وفتح الدال المهملة بعدها همزة : الطائر المعروف، جمعه حِدَأٌ على مثال عِنَبَة وعِنَب . قال الراجز[4]: كما تَدانَى الحِدَأُ الأُوِيُّ

وقال الآخــــر :

وتُبلِي الألى يستلئِمونَ على الألى تَراهنَّ يومَ الرَّوعِ كالحِدَإِ القُبْلِ

وضمير تُبْلِي للمَنُون في البيت قبله . يقول : إنَّ المنيَّة تُبْلِي الذين يَسْتَلْئِمُون - أي يَلْبَسون اللَّأْمَات للقتال - على الألى - أي على النساء - اللائي تَراهُنَّ يومَ الرَّوْعَ - أي يوم الفَزَع - كالحِدَإِ القُبْل جمع قَبْلاء، وهي الناظرة بمقدَّم العين . يصفهنَّ بالاشفاق على أزواجهنَّ، فهنَّ ينظرن إليهم هل سلموا . والبُنْدُقَة - بالضمّ - هي التي يُرمى بها . وحِدَأَ في المثل أصله : يا حِدَأَةُ بالهاء [منادى، فرخَّمه بحذفه الهاء][5] وأسقط حرف النداء . والمعنى : يا حِدَأة، وراءَكِ بُنْدُقَة ! أي احذرِي بندقة الرامي تُصبك ! وقيل إنَّ حِدَأ هي حِدَأُ بنُ نَمِرَة، وبُنْدُقَة هي بَنْدُقَةُ بنُ مظَّة، وهما قبيلتان من سَعْدِ العَشيرة . وكانت حِدَأُ تنزل الكوفة، فأغاروا على بُنْدقة، وكانوا ينزلون باليمن، فنالوا منهم . ثمَّ كرَّت بندقة على حدأة فانحوا عليهم، فصار يُضرب لمن يُفْزِع بعدُوّه أو يُبْلَى بنظيره . ومن الناس من يرويه : حَدَا حَدَا، بفتح الحاء غير مهموز على مثال عَصَا - ويقول هو اسم القبيلة.

ويُروى : حَدِّثْ حَديثَيْنِ المَرْأة، فَإنْ أبَتْ فَعَشَرَة . والحديثان والأربعة والعشرة أعداد معروفة . والمرأة فيها أربع لغات . يقال امْرَأةٌ ومَرْأةٌ ومَرَةٌ ومَرَاةٌ . ويُروى : حَدِّثِ المَرْأةَ حَديثَيْنِ، فَإنْ لَم تَفْهَمْ فَاربَعْ. يقال : يَربَعُ إذا وقف وحبس . والمعنى : حَدِّثْ حتَّى إذا كرَّرت الحديث فلم يفهم عنك، فأمْسِك ولا تُتعِبْ نفسك !

---

4) هو العجاج يصف الأثافي.
5) سقط ما بين معقوفتين من د.

يُضرب في سوء السمع والاجابة . وهذا المعنى ظاهر في الرواية الأخيرة . وأمّا الروايتان الأوليان فأولهما رواية أبي عُبَيْد . قال البكري : وتصحّ على حذف، يريد حدث حديثين المرأة، فإن لم تفهم فأربعة لا تفهمها . وعلى الرواية الأخرى : فعشرة لا تفهمها . انتهى .

قلت : وهذا المثل من الأمثال الموضوعة على ألسنة العجماوات . زعموا أنّ الأرنب التقطت ثمرة، فاختلسها الثعلب فأكلها، فانطلقا الى الضبّ يختصمان . فقالت الأرنب : يا أبا الحِسْل ! فقال : سميعًا دعوت . قالت : أتيناك لنختصم إليك، فاخرج إلينا . قال : في بيته يُؤْتَى الحَكَم . قالت : إني وجدت ثمرة . قال : حُلْوَةٌ فكُلِيها. فقالت : فاختلسها مني الثعلب . قال : لنفسه سَعَى . قالت : فلَطَمْتُه . قال : حقّك أخَذْتِ . قالت فَلَطَمَني . قال : حرٌّ انْتَصَر . قالت : فاقضِ بيننا ! قال : حَدِّثْ امرأةً حديثين، فإن لم تفهم فأربعة ! وهذه المَقالة[6] المنسوبة الى الضَّبّ كلّها أمثال سائرة.

حَدِيثُ خُرَافَةَ يَا أُمَّ عَمْرٍو !

الحَدِيثُ معروف . وخُرَافَة - على مثال أُسَامَة - رجل من عذرة استوهته الجنّ ثمّ نجا . فكان يخبر بأمور غريبة، فكذّبوه وقالوا : حَدِيثُ خُرَافَةَ، ثمّ ضربوا به المثل وجعلوه لكلّ حديث مستملح، أو لكلّ حديث لا حقيقة له . وهو مثل سائر قديمًا وحديثًا . وقيل إنّ خرافة كان له تابع من الجنّ فكان يخبره بأشياء عجيبة، فيتحدّث بها، فتكون كما ذكر، فنسبوا إليه الأحاديث الصادقة المعجبة الصادقة . قال الجوهري : ويُروى عنه صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال : **وخُرَافَةُ حَقٌّ**. انتهى.

وذكر بعض الأدباء أنّه رُوي بسند متّصل الى عائشة رضي الله عنها قالت للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم : حَدِّثْنِي بحَدِيثِ خُرَافَةَ ! فقال : **رَحِمَ اللهُ خُرَافَةَ ! كَانَ رَجُلاً صَالِحًا**، فَأَخْبَرَني أنَّهُ خَرَجَ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَلَقِيَ ثَلاَثَةَ نَفرٍ مِنَ الجِنّ، فَأسروهُ، فَقَالَ أحَدُهُمْ : نَعْفُو عَنْهُ . وقَالَ آخَرُ : نَقْتُلُهُ . وقَالَ آخَرُ : نَسْتَعْبِدُهُ . فَبَيْنَمَا هُمْ يَتَشَاوَرُونَ في أمْرِهِ، وَرَدَ عَلَيْهِم رجُلٌ فَقَالَ : السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ ! فَقَالُوا : وعَلَيْكُمُ السَّلاَمُ ! قَالَ: ومَا أنْتُمْ عَلَيْهِ ؟ قَالُوا : نَفَرٌ مِنَ الجِنّ أسَرْنَا هَذَا، فَنَحْنُ نَتَآمَرُ في

6) في ب و د : المقاولة.

أمْرِهِ . قَالَ : إن حَدَّثْتُكُمْ حَدِيثًا عَجَبًا أتُشْرِكُونِي فيهِ ؟ قَالُوا : نَعَمْ! قَالَ : إنّي كُنتُ ذَا نِعْمَةٍ فزَالَتْ، وَرَكِبَنِي دَيْنٌ، فَخَرَجْتُ هَارِبًا . فأصَابَنِي عَطَشٌ شَدِيدٌ، فَصِرْتُ إلَى بِئْرٍ فَسَبَرْتُ لأشْرَبَ، فَصَاحَ بِي صَائِحٌ مِنْهَا ولَم أشْرَبْ . فَغَلَبَنِي العَطَشُ، فَعُدْتُ، فَصَاحَ بِي، ثُمَّ عُدْتُ الثَّالِثَةَ فَصَاحَ بِي، فَشَرِبْتُ ولَمْ ألْتَفِتْهُ . فقال : اللَّهُمَّ إن كَانَ رَجُلاً فَحَوِّلْهُ امْرَأةً، وإن كَانَ امْرَأةً فُحَوِّلْهُ رَجُلاً . فَإذَا أنَا امْرَأةٌ، فَأتَيْتُ مدينة فَتَزَوَّجَنِي رَجُلٌ، فَولَدْتُ مِنْهُ ولَدَيْنِ . ثُمَّ تُقْتُ الى بَلَدِي، فَمَرَرْتُ بالبِئْرِ التِّي شَرِبْتُ مِنْهَا، فَصَاحَ بِي كَمَا صَاحَ أوَّلاً . فَشَرِبْتُ ولَمْ ألْتَفِتْ . فَدَعَا كالأوَّلِ، فَعُدْتُ رجُلاً كَمَا كُنْتُ . فأتَيْتُ بَلَدِي، فَتَزوَّجْتُ امْرَأةً، فَوُلِدَ لِي مِنْهَا ولَدَانِ : فَلِي اثْنَانِ مِنْ ظَهْرِي واثْنَان مِنْ بَطْنِي . فَقَالوا : إنَّ هَذَا لَعَجَبٌ ! أنْتَ شَرِيكُنَا فيهِ . فَبَيْنَمَا هُمْ يَتَشَاوَرُونَ، وَرَدَ عَلَيْهِمْ ثَوْرٌ يَطِيرُ . فَلَمَّا جَاوَزَهُمْ إذا بِرَجُلٍ بِيَدِهِ خَشَبَةٌ يُحْضِرُ فِي أثَرِهِ . فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ، فَسَألَهُمْ، فَرَدُّوا علَيْهِ مِثْلَ مَرَدِّهِمْ عَلَى صَاحِبِهِمْ، فَقَالَ : إن حَدَّثْتُكُمْ بِحَدِيثٍ أعْجَبَ مِن هَذَا، أتُشْرِكُونِي فِيهِ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ! قَالَ : كَانَ لِي عَمٌّ، وكَانَ لِعَمِّي عِجْلٌ يُرَبِّيه، فَأفْلَتَ، فَقَالَ : أيُّكُمْ رَدَّهُ فَابْنَتِي لَهُ . فَأخَذْتُ خَشَبَتِي هَذِهِ وائْتَزَرْتُ، ثُمَّ أحْضَرْتُ فِي أثَرِهِ وأنَا غُلاَمٌ. وقَدْ شِبْتُ، فَلاَ أنَا ألْحَقُهُ ولاَ هُوَ يَنْكَلُ . فَقَالُوا : إنَّ هَذا لَعَجَبٌ ! أنْتَ شَرِيكُنَا فِيهِ . فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، ورَدَ عَلَيْهِم رجُلٌ عَلَى فَرَسٍ لَهُ أنْثَى، وغُلاَمٌ لَهُ عَلَى فَرَسٍ . فَسَلَّمَ كَمَا سَلَّمَ صَاحِبَاهُ فرَدُّوا عَلَيْهِ كردِّهِم عَلَى صَاحِبَيْهِ . فَسَألَهُمر فَأخْبَروهُ فَقَال : إن حَدَّثْتُكُم بحَدِيثٍ أعْجَبَ من هَذَا أتُشْرِكُونِي فِيهِ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ! قَالَ : كَانت لي أمٌّ خَبِيثَةٌ . ثمَّ قَال ـ للفَرسِ الأنْثَى التِّي تَحْتَهُ : أكَذَالِكَ ؟ فَقَالَتْ : نَعَمْ ! وكُنَّا نَتَّهِمُهَا بهَذَا العَبْدِ، وأشَارَ إلى الفَرسِ تَحْتَ غُلاَمِهِ : أهَكَذَا ؟ فَقَالَ بِرَأسِهِ نَعَمْ ! فَوجَّهْتُ غُلاَمِي هَذا الرَّاكِبَ عَلَى هَذَا الفَرَسِ في بَعْضِ حَاجَاتِي، فَحَبَسَهُ عِنْدَهَا، فَأغْفَى . فرَأى في مَنَامِهِ

كَأنَّهَا صَاحَتْ صَائِحَةٌ، فَإذا هُوَ[7] بِجُرذٍ قَدْ خَرَجَ، فَقَالَت : اسْجُد ! فَسَجَدَ . ثُمَّ قَالَت : اكْرُب ! فَكَرَبَ . ثمَّ قَالَتِ : ازْرَعْ ! فَزَرَعَ . ثمَّ قَالَت: ادْرُسْ ! فَدَرَسَ . ثُمَّ دَعَتْ بِرَحًى فَطَحَنَتْ قَدَحَ سَوِيقٍ فَأتَتْ بِهِ الغُلَامَ وقَالَت لَهُ : ائْتِ بِهِ مَوْلَاكَ ! فَأتاني بِهِ . فَاحتَلْتُ عَلَيهَا حَتَّى سَقَيْتُهَا القَدَحَ فإذا هِيَ فَرسٌ أُنثَى، وإذا هُوَ فَرسٌ ذَكَرٌ . أكذَلِكَ ؟ فَقَالت الفَرسُ الأُنْثَى برأسِهَا : نَعَمْ ! وقَالَ الفَرَسُ بِرَأسِهِ : نَعَمْ ! فَقَالُوا : إنَّ هَذَا أعْجَبُ شَيْءٍ سَمِعْنَاهُ، أنتَ شَرِيكُنَا ! فاجْتَمَعَ رأيُهُمْ، فَأعْتَقُوا خُرَافَةَ . فأتَى النَّبيَّ صلَّى الَّله عليه وسلَّم، فأخْبَرَهُ بِهَذَا الحَدِيثِ. فما جَاءَ مِنَ الأحاديثِ المُحاليَّةِ نُسبَ الى خُرَافَةَ صَاحِبِ الحَدِيثِ . انتهى.

وقال في **الصحاح** : الراء في خرافة خفيفة، ولا يدخله الألف واللاّم لأنَّه معرفة عَلم ؛ إلاّ أن تريد به الخرافات الموضوعة من حديث اللّيل . انتهى.

وقد استعمل اليوم في عرفنا اسما للحديث المستملح . يقول الرجل لصاحبه : اذكر لي خرافة، أي حديثا من ذلك النوع، ويُحلَّى بالألف واللاّم لذلك.

الحَدِيثُ شُجُونٌ.

ويُقال أيضا ذُو شُجُونٍ . والشُّجُونُ، بضمّ الشين، جمع شَجْنٍ، بفتح فسكون، وهو الطريق في الوادي . والشَّوَاجِنُ والشُّجُونُ أيضا : الأوْدِيَةَ الكثيرة الشجر . قال :

لَمَّا رأيْتُ عَدِيَّ القَوْمِ يَسْلُبُهُمْ طَلْحُ الشَّوَاجِنِ والطَّرْفَاءُ والسَّلَمُ

أو جمع شِجْنَةَ، بكسر الشين، وهي الصدع في الجبل . والشَّجَنُ - بفتحتين - غُصْنُ الشجرة المشتبك، والشُّعْبَةَ من كل شيء، والحاجَةَ حيثما كانت . يقال لي بموضع كذا شَجَنَ . قال الراجز :

إنِّي سَأبْدِي لَكَ فيمَا أبْدي لِي شَجَنَانِ : شَجَنٌ بِنَجْدِ
وشَجَنٌ لِي في بِلَادِ السِّنْدِ

---

7) في ب : فإذا هي بجُرذ.

والجمع أيضا شُجُون . والشَّجْنَة أيضا، مثلَّثة الشين، العُرُوق المشتبكة . يُقال : بيني وبين فلان شَجْنَة رَحِمٍ، أي قرابة مشتبكة.

وفي الحديث : الرَّحِمُ شَجْنَةٌ مِنَ اللهِ، أي مشتبكة اشتباك العُرُوق.

ومعنى المثل أنّ الحديث ذو فنون وأغراض وطرق يدخل بعضها في بعض، ويتشعَّب بعضها من بعض، كالطرق المشتبكة المتقاطعة، أو الأغصان والعروق . يُضرب في الحديث يستذكر به حديث غيره . ومن ثمّ يضربه القصَّاص والأئمَّة عند استطراد المسائل والخروج من غرض الى آخـر . وقال الفرزدق :

وإن كُنتَ قد ساءلتَ دوني فَلا تُقِم بأرضٍ بها بنتُ الهَوانِ تكونُ
فلا تأمننّ الحربَ إنّ استِعارها كضبّة إذ قال : الحديثُ شُجونُ !

والاسْتِعارُ - بالسين والعين المهملتَيْن - من اسْتِعار النار . ورُوي اشْتِغَار - بالشين والغين المعجمتَيْن - أي هَيَجَانُها وثَوَرَانُها وانتشارها، من قولك : شغر برجله . يقول : إنّ الحرب سَبَبها الكلام، كما قال الآخـر :

فإنّ النّارَ بِالزَّنْدَيْنِ تُورَى وإنّ الحَـربَ أولُهَـا كَلاَمُ

ويُقال : الحرب أوّلها نَجْوَى، وأوسطها شَكْوَى، وآخِرها بَلْوَى.

وقلت، مضمّنا لهذا المثل في غرض :

تمنَّى بأوباشٍ فُتوحَ مَدائِنٍ وذاكَ لعَمْري ضِلَّةٌ وجُنونُ
فَأضْحَى كَعَمْرٍ إذ ترجَّى مُرادَهُ بجَيشِ مُرادٍ والحديثُ شجونُ

وتقدّم خبر عمرو بن أمامة مع مراد في الباب الأوّل.

حَدِّثْ عَنِ البَحْرِ ولا حَرَجَ !

البَحْر معروف، والحَرَج - بفتحتَيْن - الضّيق والاثْم . وهذا يُروى في الحديث عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وأنّه قال : حَدِّثُوا عَـنِ البَحْرِ ولا حَرَجَ ! أي حيث لا حَرَجَ عليكم في التحديث عنه، فتكون الجملة حالية . وقد جعل هذا مثلا في الشيء الكثير الذي لا ينحصر أو لا يكاد، بمعنى أنّ المحدّث عنه لا يضيق عليه المجال، ولا يُعوزُه مقال.

وورد من هذا النحو أيضا حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إسْرائِيلَ ولاَ حَرَجَ ! وفي ذلك تأويلات ذكرها المحدّثون، ولا حاجة الى التعرّض لها . والمقصود من التمثيل واضح.

وقال ابن اللّبانة :

وألْغَوا حديثَ البَحرِ عندَ حديثِهِ فَكم بينَ ذي مدٍّ وكم بين ذي جَزْر !

حَدِّثْ عَنْ مَعْنٍ ولاَ حَرَجَ !

هو معن بن زائدة الشيباني، الجوادُ المعروف.

الحَدِيدُ بالحَدِيدِ يُفَلُّ.

الحديد معروف، وكذا الفلّ . وهذا المثل يُضرب في الرجل القويّ يلقى قرينه في البسالة والنجدة . وكان الوليد بن طَريفٍ الشيبانيُّ، لمّا خرج على الرشيد، اشتدّت شوكته، فبعث إليه الرشيد يَزيدَ بْنَ مَزْيَدَ الشَّيبانيَّ، فقتله . فقال بكر بن النطّاح :

وائلٌ بَعْضُها يُقتِّلُ بَعضًا لا يَفُلُّ الحديدَ إلاّ الحديدُ !

لَو تلقَّى الوليدَ غيرُ يَزيدٍ لَغَدَا ظاهرًا عَلَيهِ الوليدُ

ولمّا قُتل الوليد رثَتْه أخته الفَارِعةُ بنتُ طَريف بشعرها المعروف، منه :

أيا شَجَرَ الخَابُورِ مالكَ مورقًا كأنَّكَ لم تجْزَع على ابن طَريفِ ؟

فَتًى لا يُعِدُّ الزّادَ إلاّ من التُّقى ولا المالَ إلاّ من قَنًى وسُيوفِ

وهي قصيدة معروفة .

الحَذَرُ قَبْلَ إرْسَالِ السَّهْمِ.

الحَذَرُ - بفتحتَيْن - والحِذْر - بكسر فسكون - الاحتراز . يُقال حَذِرَ، بالكسر، يَحْذَرُ، فهو حَذِرٌ ؛ والارسالُ : الاطْلاق، والمراد هنا الرَّميُ ؛ والسَّهْمُ معروف . وهذا من الأمثال العجماويَّة أيضا .

زعموا أنَّ غرابا رأى رجلا فَوَّقَ سهما ليضرب به . فأراد ابنه أن يطير، فقال له : يا بنيَّ ! اثبت حتَّى تعلم ما يريد الرجل . فقال له ابنه : يا أبتِ، الحَذَرُ قَبْلَ إرسَالِ السَّهْمِ!

فذهبت مثلا . وهو يحسن أن يُضرب عند الأمر بالاحتراز والاستعداد للمحذور قبل وقوعه وقبل فوات محل الحذر . وذلك ظاهر.

أحْذَرُ مِنْ ضَبٍّ حَرَشْتَهُ.

الحَذَرُ مَرَّ ؛ والضَّبُّ الحيوان المعروف ؛ والحَرْشُ صيَادَتُه . يُقال : حَرَشَ الضَّبَ، يَحْرِشُه، حَرشًا، فهو حَارِش، وذلك أن يحرّك يده في فم جحره ليظنّه حيّة، فيخرج ذنَبه ليضرب بها، فيقبض على ذنَبه ويمتلخه من الجحر[8] قال الشاعر :

وأخْدَعُ من ضبٍّ إذا جاء حارشٌ أعدَّ لَه عند الذُّنابةِ عَقربَا

ومن هذا المثلُ الآتي : هَذَا أجَلُّ مِنَ الحَرْشِ.

أَحْذَرُ مِنْ غُرَابٍ.

الحَذَرُ تقدَّم ؛ والغُرَابُ معروف وتقدَّم أيضا، ويُضرب به المثل في شدَّة الحَذَر، وذلك معروف مشهور.

وقد قال بعض الحكماء : أخذت من كلّ شيء أحسنه، حتّى انتهى بي الأمر الى الكلب والهرّة والخنزير والغراب . فقيل له : ما أخذت من الكلب ؟ قال : إلفُه لأهله وذبُّه عن صاحبه. فقيل له : ما أخذت [من] الهرّة ؟ قال : حسنُ تأنّيها وتملقُها عند المسألة . فقيل: ما أخذت من الخنزير ؟ قال : بكوره في حوائجه . فقيل : ما أخذت من الغراب ؟ قال : شدّة حذَره.

حَذْوَ النَّعْلِ بالنَّعْلِ.

تقول : حَذَوْتُ النَّعْلَ أحْذُوهَا حَذْوًا إذا قطعتَها وقدَّرتَها ؛ وحَذَوْتُ النَّعْلَ بالنَّعْل إذا قدَّرتها بها وقطعتها عليها . والنعل معروفة . والمثل يُضرب في التساوي والتشابه . تقول في الشيئيْن يستويان : هما حذو النعل، وذلك لأنّ كلاًّ من النعلَيْن تُقدَّر بالأخرى وتُقاس بقالبها . ومن ذلك قول الهُذَلي :

---

8) يمتلخُه : يقتلعه ويجتذبه . وفي لسان العرب : أخبثُ من ضبٍّ حَرَشْتَه.

وتأمَّلِ السَّبتَ الَّذي أحْـذُولَـه فانْظُر بمِثْلِ حِذَائِـه أحْذُولي

ويُقال أيضا : احتذَيْت حَذْوَ فلان، أي فعلت فعلَـه.

الحرْبُ خُدْعَةٌ.

الحربُ معروف، مؤنَّث وقد يُذكَّر . ويُقال : رجل حَرْبٌ ومِحْرَبٌ، أي شديد الحرب شجاع ؛ ورجل حَرْبٌ، أي عدوٌّ، للواحد والجميع، وللأنثى أيضا . قال نصيب :

وقولا لها : يا أمَّ عُثمانَ خُلَّتي أسِلمٌ لنا في حُبِّنا أنتِ أم حربُ ؟

والخَدْعُ الخَتْلُ . يُقال : خَدَعَه، يَخْدَعُه، أي خَتَلَه وأراد به المكروه من حيث لا يعلم . ولفظ خِدْعَة هاهنا رُوي مُثلَّثا، والذي في **الصحاح** الفتح والضمّ مع سكون الدَّال . قال : والفتح أفصح . ورُوي أيضا خُدَعَة ـ على مثال هُمَزَة ـ . والمعنى أنَّها تنقضي بخدعة . والذي يقتضيه الاشتقاق لغة في هذا الضبط أنَّ الخُدعة ـ بضمّ الخاء ـ وصف . فإن كان بفتح الدال ـ كهُمَزَة ـ فهو وصف للرجل يكون كثير الخدع للنَّاس . وإن كان بسكونها فهو وصف للذي يخدع . والخَدْعَة ـ بفتح فسكون ـ مصدر وهو المرَّة من الخدع، وبالكسر للهيئة من ذلك . وهذا الكلام يروى حديثا.

الحَرْبُ سِجَالٌ.

الحَرْبُ مرٌّ ؛ والسِّجَالُ يكون جمع سَجْل ـ بفتح السين وسكون المعجمة ـ وهو الدلو فيها الماء . ولا يقال لها سَجْل إلاَّ وفيها الماء ؛ والمُسَاجَلة : المُفَاخَرة والمباراة في السقي بالسجال . قال الفضل بن عبَّاس بن عتبة بن أبي لهب، وقد وقف على زمزم :

مَن يُساجلْني يُسَاجِلْ ماجِدًا يَملأُ الدَّلْوَ إلى عَقْدِ الكَرَبْ

ثمَّ استعملت المساجلة في المعارضة والمباراة في كلّ شيء، من سبق، أو رمي، أو غير ذلك. وتَسَاجَلاَ : تَبَارَيَا.

ومعنى المثل أنَّ الحروب دُوَلٌ بين الناس : سَجْلٌ منها على هؤلاء، وسَجْل على هؤلاء، كما قال أبو سفيان لهرقل لمَّا قال له : كيف الحرب بينكم وبينه ؟ ـ يعني النبي صلَّى الله عليه وسلَّم ـ فقال أبو سفيان : الحرب بيننا وبينه سِجَال : يدال علينا مرَّة وندال عليهم أخرى . وقال زهير :

تَهامونَ نَجْديُّونَ كَيْداً ونُجْعَةً لكُلِّ أُناسٍ من وقائعِهِم سَجْلُ

وقد يُضرب في غير الحروب من كلّ ما يشبهها من نزاع وجدال مثلا . ولفظُ السجال في المثل جمع، كما فسَّرنا أوّلا . ولا يصحّ أن يكون مصدرا، أي الحرب هو مساجلة . وحاصل الأمر واحد.

حَرْبٌ عَوَان .

اعلم أنّ العرب ضربوا للحرب المثل بأوصاف شتّى : فمن السائر من ذلك العَوَان، واللاّقح، والزَّبَاعِيَةُ . يقولون : حَرْبٌ عَوَانٌ، وحَرْبٌ لاَقِحٌ، وحَرْبٌ زَبَاعِيَةٌ . أمّا العَوَان فأصلها في النساء، وهي النَّصَفُ في سنّها، وكذا في سائر الحيوانات . قال تعالى : **لا فَارِضٌ ولا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ** . ويقال العوان التي لها زوج . قال النابغة :

ومَن يَتَرَبَّصِ الحَدَثَانَ تَنْزِلْ بِمَوْلاَهُ عَوَانٌ غَيْرُ بِكْرِ

وهذا أيضا محتمل . والجمع عُونٌ بالضمّ . واشتقاق العوان من العَوْن وهو القوّة، لأنّها عُرضة للاعانة إن استعينت . وأمّا العَوَان من الحروب فهي التي كانت قوتل فيها، مأخوذ من عوان النساء، كأنّهم جعلوها في المرّة الأولى بِكراً ثمّ تصير ثيّبا . قال أبو جهل يرتجز يوم بدر :

ما تَنْقِمُ الحَرْبُ العَوَانُ مِنِّي بَازِلُ عامَيْنِ حَدِيثٌ سِنّ[9]

لِمِثْلِ هَذا ولَدَتْنِي أُمِّي

وقال زهير :

إذا لَقِحَتْ حَربٌ عَوانٌ مضرّةٌ ضَروسٌ تهرُّ النّاس أنْيابُها عُصْلُ

وقال الحماسي موسى بن جابر :

وإن رفَعوا الحَربَ العَوانَ الّتي تَرى فَعُرضَةُ نار الحَربِ مِثْلُكَ أو مثلي

ومعلوم أنّهم ما وصفوها بالعَوان إلاّ للمبالغة وإرادة أنّها شديدة، لا مجرّد أنّها قوتل فيها مرّة . وكان ذلك لأجل أنّ المبتكرة يخفّ أمرها لعدم استحكام الضغائن فيها بعد، بخلاف التي تقدمها قتال غرس في القلوب الضغائن وأحفظها وأكثر الأوتار . فذلك مظنّة

9) في لسان العرب : بازلُ عامين حديثٌ سِنّي

الاشتداد مع عظم العود إلى الحروب على النفس، ونفور النفوس منه، وكراهيتها له، كما قال الآخر :

الحَربُ أوّل ما تَكونُ فَتيّةً تَسعى بزِينَتِها لكُلّ جهُولِ
حتّى إذا اشْتَعَلَتْ وشبّ ضِرامُها عادَت عجوزاً غير ذاتِ حَليلِ
شَمْطاءَ يُنكَرُ لَونُها وتغيّرتْ مَكروهةً للشّمّ والتّقْبيلِ

وأمّا تشبيه الأولى بالبكر والثانية بالعوان فذلك يكون لثلاثة أوجه :

الوجه الأوّل أنّ البكر من النساء هي التي لم تتقدّم مماسّتها ومخالطتها، بخلاف العوان . وهذا بيّن، وإليه أشار حبيب في التعبير عنها بالثيّب حيث قال :

ولا اجْتُلبَت بكْرٌ مِن الحَربِ ناهدٌ ولا ثيّبٌ إلاّ ومنهُم لها خِطْبُ

الثاني أنّ البكر، لصغر سنّها وجسمها، في الجملة تشبه المرّة الأولى لخفّتها ؛ والعوان، لعظم جسمها في الجملة وسنّها، تشبه الثانية لقوّتها واشتدادها . وهذا من التوهّم الخيالي.

الثالث أنّ البكر أسهل لغرّتها وقناعتها بما تجد، ولا كذلك العوان : فإنّها، لاحتكاكها وتجربتها وطموح عينها، أصعب محاورة وأشدّ معاشرة وأدهى نكرا وأعظم مكرا، وهذا واضح. وقد يوصف بالعوان الأرض التي أصيبت بالمطر مرّة بعد أخرى، تشبيها كالذي مرّ. قال حُمَيْد بنُ ثَوْرٍ الهِلاليّ :

ولَقَد نَظَرتُ إلى أغَرّ مُشهّرٍ بكرٍ توسّنَ بالخَميلةِ عُونَا
مُتَسنّمٍ سَنِماتها مُتَفَجّسٍ بالهَدْرِ يَملأُ أنْفُسًا وعُيونا[10]
لَقِحَ العِجافُ لَه لخَامِسِ خَمسةٍ وشَرِبْنَ بعد تَحلّىءٍ فَرَوِينا

أراد بالأغَرّ سحابا أبيض وبكونه بكرا أنّه لم يمطر قبل ذلك ؛ وأراد بالخَميلة الرمل ذات الشجر ؛ والعُون جمع عَوَان، وهي الأرض التي أصابها المطر مرّة . ومعنى تَوَسّنَها طرقها هذا السحاب ليلاً عند الوَسَن، أي النوم، تقول : توسّنت الرجل إذا أتيته وهو وسنان. والسّنِمَات العظام الأسْنِمَة من الابل، وأطلقها هنا على التلال والأكم . وقوله مُتَسَنّم يريد يتسنّمها، أي يعلوها كالفحل الذي يتسنّم الايْنُقَ . وقوله :

10) في لسان العرب :
مُتَسَنّمًا سَنِماتها مُتَفجّسًا بالهَدْرِ يملأ أنْفُسًا وعيونًا

مُتَفَجِّس أي متكبّر بالهدر، أي رعده، تشبيها بهدر البعير ؛ والعِجَاف أراد بها الأرضين المجدبة مجازًا ؛ ومعنى لقحت حملت، أي أنبتت عشبها . وقوله بعد تحلىء أي شربت بعد امتناع من الماء زمانا، من قولك : حَلَّأْتُه، أي دفعتُه وطردتُه . وأمّا اللاّقح فأصلها في الحيوان أيضا . يقال : لقِحت الناقة ـ بالكسر ـ إذا حملت، وألْقَحَها الفحل، فهي لاقِح ولَقُوح ولِقْحَة ـ بالكسر ويُفتح ـ. وجمع اللاّقح لَوَاقِح، وجمع اللّقوح لُقُح، وجمع اللِّقْحة لِقَح، كقِرْبَة وقِرَب، ولِقَاح . ثمّ ضربوها مثلا للحرب إذا عظمت واشتدّت، تشبيها لها بالناقة إذا حملت فعظم بطنها . قالت الفَارِعَةُ بنتُ طريف :

ولَم تَسعَ يومَ الحربِ والحَربُ لاقحٌ ... وسُمرُ القَنا يَنْكُزْنَها بأَنُوفِ

ومنه قول زهير السابق : إذا لقِحَتْ حَربٌ عَوَانٌ مضرّة.

ومن أبلغ ما ورد في هذا المعنى قوله أيضا في ميميّته، حيث وصف الحرب فقال :

وما الحربُ إلاّ ما علمتُمْ وذُقتُمْ ... وما هو عَنها بالحَديثِ المُرجَّمِ

مَتى تبعثُوها تبعَثوها ذميمةً ... وتضرْ إذا ضرَّيْتُموهَا فتَضرَمِ

فَتعرُكُكم عَرْكَ الرَّحا بثفَالهَا ... وتَلقَحْ كشافًا ثمّ تحمِلْ فتُتْئمِ

فتُنتِجْ لكم غِلمانَ أشْأمَ كُلُّهُم ... كأحْمر عادٍ ثمّ تُرضِعْ فَتَفْطِمِ

فَتغْلِلْ لكمْ مالاَ تُغِلُّ لأهْلِهَا ... قُرًى بالعِراقِ من قَفِيزٍ ودِرهَمِ

قوله تَبْعَثُوهَا ذَمِيمَةً أي مَذْمُومَةً، وكان الأفصح أن يقول ذَمِيمًا، بغير هاء . ويُروى بالدال المهملة، أي حَقِيرَةً، إشارة الى معنى ما تقدّم في قول الآخر : الحَربُ أوّلَ مَا تَكونُ فَتيَّةٌ . وقوله عَرْكَ الرَّحَا بِثِفَالِهَا، أي وهي على ثفالها . والثِّفَال ـ بالثاء المثلّثة مكسورة ـ ما يُجعل تحت الرحا حال الطحن، يريد : تعرككم عرک الرحا إذا كانت طاحنة . وقوله تَلْقَحْ كِشَافًا : الكِشَافُ أن يحمل الفحل على الناقة سنتين ولاء أو كلّ سنة، أو أن تلقح حين تُنتج، أو أن يضربها وهي حامل . وهي ناقة كَشُوفٌ، وقد كشفت تكشف، كشافا . وأراد أنّ هذه الحرب كلّما خمدت هاجت . وقوله فَتُتْئِمِ، أي تاتي من حملها بتوءمَيْن، وهذا تهويل وتعظيم لأمر الحرب، وإيهام أنّ شرّها متكرّر وهولها متضاعف . وشبّهها بالناقة لِمَا تقدّم، ولأنّها أيضا يطول أمرها فتكون بمنزلة الناقة التي تضرب، ثمّ تحمل، ثمّ تنتج، ثمّ تفطم . وقيل لأنّها يتحلّب [منها] من الدماء مثل ما يتحلّب من الناقة من اللّبن . وقوله فَتُنْتِجْ لَكُمْ غِلْمَان أشْأَم، فوضع أشْأَم

موضع المصدر، أو غِلْمَانَ شُؤْمٍ أشأم على المبالغة، نحو شغل شَاغِل، وليل ألْيَل ؛ أو غِلْمَانَ امرىءٍ أشْأمَ . وقوله كُلُّهُم كَأحْمر عاد يعني عَاقِر النَّاقة، وهو يُضرب به المثل في الشؤم، وأراد أحْمَر ثَمُود، فأضافه إلى عاد غلطًا، كما قال الآخر :

مِثْلَ النَّصَارَى قَتَلُوا المَسِيحَا

وقيل ليس بغلط، لانَّ ثمود يقال لها عادٌ الآخرةُ، وهو دهم عاد الأولى . قال تعالى : **وأنَّهُ أهْلَكَ عادًا الأولَى** . وأمَّا الرباعيَة - بياء مخفَّفة - فهي أيضا في الابل، وهي في السنّ التي بين الناب والثنيَّة . ويقال للذي ألقى رباعيَته رَبَاعٍ، وجمعه رُبُع، كقذال وقذل . ويقال للغنم في السنة الرابعة أرْبَعت، وللبقر وذات الحافر في الخامسة، ولذات الخفّ في السابعة . وتقدَّم ذكر أسنان الابل أنَّ الرباعيَ منها والرَّبَاعيَة بين الثني والسدس . ويقال : جَمَل وفرس رَبَاعٍ ورَبَاعٌ، ونظيره ثمانٍ وثَمَانٌ، ونَشَاحٍ ونشاحٌ، وجوارٍ وجوارٌ ؛ والأنثى رَبَاعِيَة، وتوصف الحرب بالرباعيَة لشدَّتها وقوَّتها .

قال الشاعر:

إنَّهَا حَرْبٌ رباعِيَةٌ مِثْلُهَا آتِي الفَتَى عِبْرَه

وقيل لامرأة من العرب

[بياض بالأصل]

الحُرُّ إذا خُودِعَ تَخَادَع، وإذا عُظِّمَ تَوَاضَع.

هذا مثل مصنوع، فيما أظنّ، وهو ظاهر المعنى . ومثله قول الشاعر :

إذا مُدِحَ الكَرِيمُ يَزِيدُ خَيْرًا وإن مُدِحَ اللَّئِيمُ فلا يَزِيدُ

حِرَّة تَحْتَ قِرَّة .

يقال : حَرَّ الرجل يَحَرُّ، كَظَلَّ يَظَلُّ، حرارًا وحَرَّةً، فهو حَرَّان وهي حَرَّى، إذا عطش . والحِرَّة في المثل مكسورة للازدواج . والقُرّ - بضمّ القاف - البَرْد، أو بَرْد الشتاء خاصَّة ؛ والقِرَّة - بالكسر - ما أصابك منه . وهذا المثل يُضرب للأمر يظهر وبعده أمر خفيّ . وأصل الحِرَّة تَحْتَ القِرَّة أنَّها العطش مع البرد، وهو إذ ذاك ينحاز الى الجوف فيكون سعيرا، ومع ذلك لا يظهر من حال صاحبه - لِمَا هو فيه من البرد - أنَّه عطشان .

ويقال : أشَدُّ العَطَشِ حِرَّةٌ تَحْتَب قِرَّةٍ، [ويُقال : أجدُ حِرَّةً تحت قِرَّةً][11] ورَمَاهُ اللّهُ بالحِرَّةِ تَحْتَ القِرَّةِ .

وفي أمثال العامَّة قولهم : الشِّتَاءُ عَلَى قَرْنِي، والعَطَشُ قَتَلَنِي . وهذا يُضرب لأمرٍ آخر.

أحَـرُّ مِـنْ دَمْـعِ المِقْـلاَت .

الحَرَارة ضدّ البَرْد، كالحرّ والحرور . يقال : حَرَّ اليومُ يَحَرُّ ـ كَمَلَّ يَمَلُّ ـ وحَرَّ يَحِرُّ ـ كَفَرَّ يَفِرُّ ـ حرارةً فهو حارٌّ ؛ والدمع معروف ؛ والمِقْلاتُ من النساء التي لا يعيش لها ولد، ومن النوق التي تضع ولدا تمَّ لا تحمل، مشتقّ من القَلَتِ ـ بفتحتَين ـ وهو الهلاك . يقال قَلِتَ يَقْلَتُ ـ كَفَرِحَ يَفْرَحُ ـ قَلَتًا، إذا هلك . وفي الخبر : المُسَافِرُ ومَتَاعُهُ عَلَى قَلَتٍ، إلاّ مَا وقَى اللّهُ تَعَالَى . والمَقْلَتَة : المَهْلَكَة ؛ والمِقْلاَت على وزن مِفْعَال، والجمع مَقَالِيت ـ كمِقْيَاس ومَقَايِيس، ومِصْبَاح ومَصَابِيح ـ قال طرفة :

لا تَلُمني إنَّها مِنْ نِسْوَةٍ رُقُدِ الصَّيفِ مَقَالِيتَ نُزُرْ

الرُّقُدُ جمع رَقُود، يعني أنَّهنَّ مكفيات، فهنَّ يرقدن ولا يخدمن ولا يسعين ؛ وهنَّ مَقَالِيت لا تعيش أولادُهنَّ، فيتحمَّلن مؤنتهم ؛ وهنَّ نُزُر، أي قلائل الأولاد بالأصالة، جمع نَزُور : فهنَّ بذلك نعمات الأجسام، نظائف الأذيال، فائقات الكمال . وقال جرير في المفرد :

خِشَاشُ الطَّيْرِ اكثرُها فِراخًا وأُمُّ الصَّقْرِ مِقْلاتٌ نَزُورُ

ووصف دمع المقلاتِ بالحرارة لأنَّها تبكي حزَنًا على أولادها، وهم يصفون دمعة الحزن بالحرارة، ومن ثمَّ يقولون، في الدعاء على الرجل، : أسْخَنَ اللّهُ عَيْنَه ! ويصفون دمعة الفرح بالبرد، ومن ثَمَّ يقولون : قَرَّتْ عَيْنُ فُلاَنٍ !، في السرور والفرح، وأقَرَّ اللّهُ عَيْنَهُ !

---

11) سقط ما بين معقوفتين من ب.

أحَرُّ مِنَ القَرَعِ .

الحَرَارَةُ تقدَّمت . والقَرَعُ - بفتحتيْن - بثر أبيض يخرج فى أعناق الفصلان وقوائمها، ودواؤه الملح وحباب ألبان الابل . فإذا لم يجدوا ملحا نتفوا أوبارها ونضحوا جلودها بالماء، ومنه المثل . قال في **الصحاح** : وربَّما قالوا أحَرُّ مِنَ القَرْعِ - بالتسكين - يعنون به قرع الميسم، وهو المكواة . قال :

كَأنَّ عَلَى كَبِدِي قَـرْعَةً ... حِذَاراً مِنَ البَيْنِ مَا تَبْرُدُ !

قال : والعامَّة تريد به هذا القرع الذي يؤكل . انتهى .

قلت : وإنَّما توَّهموا المأكول لأنَّه تشتدّ حرارته إذا طبخ وتطول ولا يبرد إلاَّ بعد زمان، حتَّى قالوا في زعماتهم وأمثالهم : قال الذئب . لاَ آمَنُكَ يَا قَرْعُ ولَوْ كُنْتَ فِي المَاءِ !.

حُرٌّ انْتَصَرَ .

الحُرُّ - بالضمّ - خلاف العَبْد ؛ وحُرُّ كلّ شيء خِيَارُه ؛ والحُرُّ الجَيِّدُ . يقال : مَا هَذا مِنْ فُلاَنٍ بِحُرٍّ - أي جَيِّدٍ - . قال طرفة بن العبد :

لا يَكُنْ حُبُّكَ حُبًّا قَاتِلاً : ... لَيْسَ هَذَا مِنْكَ، مَاوِيَّ، بِحُرْ !

وقال امرؤ القيس :

لعَمْرُك مَا قَلْبِي إلى أهْلِهِ بحُر ... ولا مُقصِرٍ يومًا فيأتيَنِي بِقُرْ

والنَّصر الاعانة، نَصَرَهُ على عدوّه، يَنْصُرُهُ نَصْرًا : أعَانَهُ ؛ واسْتَنْصَرَ : طَلَبَ النَّصْرَ ؛ وانْتَصَرَ مِنْهُ : انْتَقَمَ . وتقدَّم هذا المثل، وأنَّه من الأمثال التي نُسبت إلى الضبّ في تحاكم الثعلب والأرنب إليه . يُضرب للرجل يُظلم فينتقم .

أحْرَسُ مِنَ الكُرْكِيّ .

يقال : حَرَسَ الشيءَ - بالفتح - يَحْرُسُه حِرَاسَةً حَفِظَه ؛ والكُرْكِيُّ - على مثال جُنْديّ - طائر معروف، جمعه كَرَاكِيّ، يوصف بالحَذَرِ والحراسة.

ويزعمون أنَّ الكراكيَّ تحرس مداولة، فيبقى الذي يحرس منها لا ينام . ويهتف بصوت

خفيّ ينذر أنّه حارس، حتّى إذا قضى نوبته قام الذي كان نائما . ويقال إنّه لا يطأ الأرض أبداً إلاّ بإحدى رجليْه ويعلق الأخرى ولا يضعها [على الأرض][12] وإن وضعها وضعها وضعًا خفيفًا مخافة أن تخسف به.

مُحْتَرَسٌ مِن مِثْلِهِ وهْوَ حَارِس.

الحَرْسُ والحِراسَة تقدّم . وتقول : احْتَرَسْت منه وتَحَرَّسْت إذا تَحَفَّظت . وهذا المثل يُضرب لمَنْ يعيب الخبيث وهو أخبث منه.

وأصلُه شعر لعبْد اللّه بن همام يقوله لرجل كان على شرط الكوفة للحارث بن عبد اللّه بن أبي ربيعة المخزوميّ يقال [له الحمارس]، وهو :

أقِلِّي عليَّ اللّومَ يابنةَ مالكٍ وذمّي زمانًا سادَ فيه الحمارسُ !

فساعٍ من السُّلطان يسعى عليهِمُ ومُحترسٌ من مثلِه وهْو حارسُ

وكم قائلٍ : ما بالُ مثلِك راجلاً ؟ فَقلت له : من أجل أنّك فارسُ

إذا لم يكُن صدرَ المجالسِ سيِّدٌ فلا خير فيمَن صدَّرتْه المجالسُ !

ويُروى : وَذمّي زَمَانًا سادَ فِيهِ الفَلاَقِسُ، وهو جمع فَلَنْقَس . والفَلَنْقَس مَنْ أمّه عربيّة وأبوه مَوْلى . وقيل مَنْ أبَواه عربيّان وجدّتاه أمَتان . وقيل مَنْ أبواه مَوْلَيَان معًا.

أحْرَصُ مِنْ نَمْلَةٍ .

الحِرْصُ : الجَشَع، يقال حَرَصَ يَحْرِصُ ـ كضَرَب يَضْرِبُ ـ، وحَرِص يَحْرَصُ ـ كسَمِعَ يَسْمَعُ ـ حِرْصًا . والنَّمْلَة واحدة النَّمْل، وهو معروف، وحِرْصُه على جمعه القوت معروف . يقال إنّه ليس في الحيوانات من يحتكر إلاّ الانسانُ والعَقْعَقُ والنمل والفأر . والنمل عظيم الاحتيال في الاحتكار . يقال إنّه إذا احتكر ما يخاف عليه أن ينبت قسمه نصفيْن ؛ وإذا خاف العفن على الحبّ أخرجه الى ظاهر الأرض فنشره . وأكثر ما يفعل ذلك ليلا بضوء القمر.

12) ناقص من د.

حَرَقَ عَلَيْهِ الأُرَّمَ .

الحَرْقُ : البَرد . يقال : حَرَقَ الشيء يَحْرُقُه ـ كَقَتَلَهُ يَقْتُلُه ـ إذا برده وحكّ بعضه ببعض، وحرَق نابه يَحْرُقُه : حكّه بأسنانه حتى سُمع له صَريفٌ ؛ والأُرَّمُ ـ بضمّ الهمزة وفتح الراء المشدّدة، على مثال رُكَّع ـ الأسنان أو أطراف الأصابع . والأُرَّم أيضا الحصا، فيقال : فلان يَحْرُقُ عليك الأُرَّمَ، أي تغيَّظ واشتدّ غيظه . قال الراجز :

نُبِّئْتُ أحْمَاءَ سُلَيْمَى إنَّمَا   بَاتُوا غِضَابًا يَحرُقُونَ الأُرَّمَا[13]

وقال زهير في معناه :

أبى الضَّيْمَ والنُّعْمانُ يحْرُقُ نابُه   عَلَيه فأفضَى والسُّيوفُ معاقِلُهْ

وقال الآخــر :

يَلُوكُ مِن حَرِدٍ عَليكَ الأُرَّما

أي يعلك أسنانه أو أصابعه . وقد قيل : الأُرَّمُ هنا الشِّفَاه، ويحتمل الحَصَا، وكلّ ذلك صحيح، لأنَّه يكون من شأن المتغيّظ ؛ كما كان عدّ الحَصَا شأن المهموم في قول امرىء القيس :

ظَلِلت ردائي فوق رأسي قاعدًا   أعُدُّ الحَصا ما تنقَضِي عَبَراتي

وسمّيت الأسنان أُرَّمًا من الأرمِ وهو الأكل، إذ بها يكون . يقال : أرَمَ ما على المائدة إذا أكله فلم يُبقِ منه شيئا . وهذا المثل هو مثل المثل الآتي : **فُلانٌ يَكْسِرُ عَلَيكَ الفُوقَ والأَرْعَاظَ.**

حَرَّكَ خِشَاشَهُ .

التَّحريك معروف ؛ والخِشَاش ـ بكسر الخاء المعجمة ـ ما يدخل في عظم أنف البعير من خشب، وهو إذا حُرِّك تضرَّر البعير بذلك، فيقال : حرَّكْتُ خِشَاشَ فُلانٍ، أي

---

13) يروى هذا البيت أيضا هكذا :
أُنْبِئْتُ أحْمَاءَ سُلَيْمَى إنَّمَا   أضْحَوا غِضَابًا يَحْرُقون الأُرَّمَا
وبعده :ان قلتُ أسقي الحرَّتَيْنِ الدَّيَما .

فَعَلْتُ به فعلا يؤذيه ويُغضبه . ويُطلق الخِشَاشُ أيضا على الغضب نفسه، وعلى معانٍ أخرى لا تناسب المحلّ.

وأمّا الخَشَاشُ، بمعنى الحشرات، فمُثَلَّث الأوّل.

حَرِّكْ لَهَا حُوارَهَا تَحِنّ.

الحُوَار ـ بضمّ الحاء، على وزن أُوار ـ ولد الناقة قبل أن يُفصل، وتقدّم ؛ والحَنِينُ الشَّوقُ . يقال : حَنَّ إليه يَحِنُّ ـ بالكسر ـ فهو حَانٌّ وحَنّان، إذا تاقت إليه نفسه. وهذا المثل قاله عمرو بن العاصي لمعاوية، رحمهما اللّه، حين أراد أن يستنصر بأهل الشام . وهو مِثْل المثل السَّابق : الايناسُ قَبْلَ الابْسَاسِ . وفي كلام أبي الوليد بن زيدون يخاطب ابن جهور : فَمَا أبْسَسْتُ بِكَ إلاّ لِتَدِرَّ، وحَرَّكْتُ لَكَ الحُوارَ إلاّ لِتَحِنَّ.

حَزَّتْ حَازَّةٌ مِن كُوعِهَا .

يُضرب في اشتغال القوم بأمرهم عن غيره . ولم أقف له على أصل.

أحْزَمُ مِنَ الحِرْبَاءِ .

الحَزْمُ ضَبْطُ الأمْرِ والأخذ فيه بالثقة . حَزُمَ الرجل ـ بالضمّ ـ يَحْزُمُ حَزَامَةً، فهو حَازِمٌ وهم حَزَمَة وحُزَمَاء ؛ والحِرْبَاء ـ على مثال عِلْبَاء ـ والأنثى حِرْبَاءَة، والألف للالحاق بالقرطاس : دُوَيْبَّة بَرّية لها سنام يشبه سنام البعير، وهي تستقبل الشمس أبدًا بعينها وتدور معها كيف ما دارت قال كعب بن زهير، رضي اللّه عنه :

يومًا يَظَلُّ به الحِرباءُ مُصطَخدًا كأنّ ضاحيَهُ بالشَّمسِ مملُولُ

وقال ابن الروميّ :

ما ذَاكَ إلاّ أنّها شَمسُ الضُّحى **أبَدًا يَكُونُ رَقيبَها الحِربَاءُ**

قيل : ويتلوّن بألوان من صفرة وحمرة وخضرة، كما قال الشاعر :

وقَد جَعَلَ الحِربَاءُ يَصفَرُّ لونُه ويخْضَرُّ من لَفْحِ الهَجيرِ غباغِبه

ويوصف بالحزم والتحفّظ، وذلك أنّه لا يزال مستمسكا بأصل الشجرة، فلا يرسله حتّى يستمسك بآخر.

قال الشاعر :

أنّى أُتِيحَ لَه حِرباءُ تنضُبَةٍ لا يُرسِلِ السّاقَ إلاّ مُمسكًا ساقا

أي لا يرسل ساقا من الشجرة إلا في حالة إمساكه ساقا آخر . والتّنْضُبة شجر يتعلّق به الحرباء . فهو مضاف اليه، كما تقول ذئْبُ غَضًا.

ويُروى أنّ رجلا خاصم ابن عمّه الى معاوية، رضي اللّه عنه، فلمّا سمع حججه قال له : أنت كما قال الشاعر، وأنشد البيت المذكور، وضربه مثلا لِمَا هو فيه من اللدد والاحتجاج، بحيث لا يرسل حجّة إلاّ مستمسكا بأخرى .

أحْزَمُ مِن عُقَابٍ .

الحَزْمُ مَرّ ؛ والعُقَابُ تقدّم في حرب الباء أيضا، وهو يوصف بالحزم . قالوا : من حزمه أنّه يخرج من بيضته على جبل عال، ولا يتحرّك من مكانه ذلك حتّى ينبت ريشه جميعا ويتكامل ولو تحرّك قبل ذلك سقط.

أذكر في هذا المعنى ما أخبر صاحب **التشوّف** في ترجمة الشيخ أبي مهدي الدغوغي، رحمهما اللّه ونفعنا بهما، قال : حدّثني داوود بن عبد الخالق حدثني وينُ الخير قال : كنت بمسجد أبي مهدي أدرّس القرآن . فكان يقعد عندي ويدلّني على طريق الآخرة . فجاءه ليلة بعض إخوانه . فلمّا صلّينا العتمة تأخّرا في المسجد الى أن انصرف النّاس . فخرجنا من أحد أبواب المسجد، فشدّا على أنفسهما أثوابهما وتلثّما . فرايتهما وثبا من الأرض كهيئة الغرانيق الثقيلة تطير على وجه الأرض . ومازالا يعلوان في الهواء الى أن غابا عنّي . فانكسرت انكسارا عظيما ونالتني حسرة القصور عن أحوال الرجال، وتكاسلت عن القرآن، وبقيت مفكّرا طول ليلتي . فلمّا كان وقت صلاة الصبح صلّى معنا أبو مهدي مع صاحبه صلاة الصبح . ثمّ جاء وقعد عندي على عادته، فرآني منكسرا متكاسلاً عن القرآن، فقال : مالك لا تقرأ ؟ فسكتّ . فقال لي : لعلّك رأيتنا البارحة ؟ فهملت عيناي بالدموع، فقلت له : رأيتكما وأريد أن أصحبكما إذا ذهبتما . فقال لي : يابنيّ، إنّ الفرخ إذا نبت زغبه لم يطر مع الطير حتّى يكمل نبات ريشه ! قال . فلمّا كان ذاتَ ليلة قال لي :

اذهب الى فلان في بلد تانوريت ـ وهو بلد بني سمائل ـ وقل له يأتيني لأصلّي معه الصبح الآن، وبينهما مسيرة يومَيْن، وقد قرب طلوع الفجر ! قال . فقلت في نفسي : كيف يمكن هذا ؟ ثمّ تذكّرت أحواله، فمشيت وتبعني وودعني ورجع . فمشيت قليلا وأدركني شبه السِّنة، فما شعرت إلاّ وأنا أعاين مسجد تانوريت . فخرج إليّ منه رجل فقال : بعثك إليّ الشيخ أبو مهدي ؟ فقلت له : نعم ! وأمرني أن أعلمك أن تصلّي معه بمسجده الآن صلاة الصبح . فقال لي : تقدّم ! ودار حول المسجد، وغاب عنّي، وانقلبت راجعا . فأصابني أيضا شبه السِّنة، فإذا أنا على قرب من مسجد أبي مهدي . فدخلت المسجد، فوجدت أبا مهدي وصاحبه يتحدّثان وقد صلّيا صلاة الصبح . فصلّيت وظننت أنّي قد لحقت بالشيخ فأتيته . فقال لي : يا بنيّ ! أرأيت بعض ما يرى الرجال ؟ فقلت له : يا سيدي، عسى أن أصحبك في مسيرك إذا سرت الى مكان ! فقال يا بنيّ، إذا طار الطائر الصغير قبل استكمال نبات ريشه مع الطائر الوافر الريش، فإنّما يسير ميلَيْن ويسقط في القفر، فيلتقطه الرعيان . وإن كان الرجال ليصلون الى موضع لو طار الطائر الى أن يسقط ريشه وينبت آخر فطار حتّى يسقط فينبت آخر، فطار حتّى يسقط فينبت آخر، ما وصل موصل عباد اللّه الصالحين في طرفة عين.

أحْزَمُ مِن قِرِلّى.

ويقال أيضا : أحْذَرُ من قِرِلّى ؛ ويقال أيضا : أحْزَمُ أو أحْذَرُ من قِرِلّى، إن رأى خَيْرًا تَدلّى، وإنْ رأى شَرًّا تولّى ـ أو تَعَلّى ـ[14]

الحَزْمُ تقدّم، وكذا الحَذَر . والقِرِلّى ـ بكسر القاف والرّاء، وبعد اللاّم ألف مقصورة ـ، ويُحكى أيضا في القاف التثليث، طائرشديد الحذر، لا يُرى إلاّ على وجه الماء على جانب يهوي بإحدى عينيْه الى الماء طمعًا، ويرفع الأخرى حذرًا . فإن رأى في الماء ما يُصاد من السمك، انقضّ عليه انقضاض السهم ؛ وإن رأى جارحا ذهب . ومن ثمّ يقال : إنْ رأى خَيْرًا تَدلّى ـ أي الى الماء ـ، وإنْ رأى شَرًّا ـ أي ما يخافه ـ تولّى فرارًا منه. وقيل: إنّ قِرِلّى في هذا المثل رجل من العرب كان لا يفوته طعام أحد، فحيثما كان الطعام

14) ذكر في لسان العرب : « وروي في أسجاع ابنة الخُسّ : كُنْ حَذِرًا كالقِرِلّى، إنْ رأى خَيْرًا... الخ ».

في ناحية توجَّه إليه؛ غير أنَّه إن صادف في طريقه خصومة مثلا ترك ذلك الطريق ولم يمرَّ به . ومن ثمَّ قالوا : أطْمَعُ من قِرِلَّى، والمراد به هذا الرجل . قيل : ويمكن أن يكون هذا الرجل شُبِّه بهذا الطائر، وسُمِّيَ باسمه .

حَسْبُكَ مِن شَرٍّ سَمَاعُهُ.

يقال : أحْسَبَنِي الشيءُ يُحْسِبُنِي إحْسَابًا، فهو مُحْسِبٌ، أي كفاني . قال الشاعر :

إذا ما رَأى في النَّاس حُسنًا يفوقها وفيهنَّ حُسنٌ لو تأمَّلت مُحسبُ

وقال الآخـــر :

وتُقفي وليدَ الحَيِّ إن كان جائعًا وتُحسبُه إن كان لَيس بجائعِ[15]

وقالت الخنساء :

يكُبُّون العِشَارَ لمَن أتاهُم إذا لم تُحسِبِ المائَةُ الوليدا[16]

وهذا الشيء حِسَابٌ، أي كافٍ . قال تعالى : « عَطَاءً حِسَابًا . » وحَسْبُكَ دِرْهَمٌ، أي يكفيك . قال تعالى : حَسْبُكَ اللّهُ .وقال الشاعر :

إذا كَانَت الهَيجَاءُ واشتقَّت العصا[17] فَحسبُكَ والضَّحَّاك سيفٌ مُهنَّد !

أي يكفيك ويكفي الضحَّاك.

وقال امرؤ القيس :

فتملأ بيتَنا أقْطًا وسمْنًا وحَسبُكَ من غنًى شِبَعٌ ورِيٌّ

وهذا الشعر ينسبه الناس لامرىء القيس، وهو في ديوانه . وقبله :

ألا إلاَّ تكن إبلٌ فَمِعْزَى كأنَّ قُرُونَ جِلَّتِها العِصِيُّ

وجَادَ لَهَا الرَّبيعُ بِواقِصَاتٍ فَآرَامٍ وجَاد لَهَا الوليُّ

إذا مُشَّتْ حَوالبُهَا أرنَّتْ كأنَّ القَومَ صبَّحَهُم نَعِيُّ

فَتُوسِعُ أهْلَهَا أقْطًا وسَمْنًا وحَسبُكَ من غِنًى شِبَعٌ وريُّ

15) ورد هذا البيت في لسان العرب بالنون بذل التاء في كل من « ونُقفي » و « نُحسبه » ونسبه لامرأة من بني قشير، وشرح الشطر الأول منه بقوله : « أي نعطيه حتى يقول حسبي » .

16) يروى الشطر الثاني من هذا البيت أيضا هكذا : « إذا لم تُسْكِتِ المائةُ الوليدا » .

17) المشهور : وانشقَّت العصا .

وسبب قوله ذلك أنّ بني نـَبهان، لمّا لم يقدروا أن يفتكُّوا له إبله التي أخذتها جَذِيلة وأخذت منهم رواحله التي ركبوها في ردّ الابل، استحيوا من ذلك فوهبوا له المعزى التي وصفها. وكان الأصمعيّ ينكر نسبة هذا الشعر لامرىء القيس ويقول : امرؤ القيس لا يقول مثل هذا، وأحسبه للحطيئة . وسبب إنكاره قوله : وحَسْبُكَ من غِنًى شِبعٌ وَرِيٌّ، فإنّ هذا منافٍ لحال امرىء القيس ولِما كان يقول في شعره من أنّ مطلوبه الملك، لا ما دونه، كقوله :

ولو أنـّما أسْعى لأدنـَى معيشةٍ   كـَفـَاني، ولم أطلـُب، قليلٌ من المال

ولكنـّما أسْعَى لمجْـدٍ مـُؤثـّلٍ   وقـَد يـُدركُ المجدَ المؤَثـّلَ أمثالي

قلت : وأنت خبير بأنـّه، مع حالته هذه، لا بعد في أن يقوله لوجهَيـْن :

أحدهما أن يقوله استهزاء ببني نبهان، حيث أغير عليه في جوارهم، ثمّ ركبوا رواحله في ردّ إبله، فانتـُزعت منهم زيادة على ما ذهب من الابل، فوقعوا في هوان عظيم وذلـّة وصغار . ثمّ لم ينتصروا وجعلوا يعطونه معزى عن الابل العكر والرواحل النجب، فعظـّم أمر المعزى ضحكًا منهم، ولذلك هجاهم حيث يقول :

فـَدَعْ عَنكَ نهبًا صيحَ في حُجراتـِه   ولكن حَديثا ما حَديث الرّواحِلِ !

كأنّ دِثـارًا حلـّقـَت بِلـَبـونـِه   عُقابُ تـَنوفـَى لا عُقـَابُ القـَواعِلِ

وأعْجبـَني مَشيُ الحـُزُقـّةِ خالدٍ   كـَمَشيِ أتانٍ حـُلـّئت في المناهِلِ

خالد هذا هو الذي مشى في ردّها فانتـُزعت منه الرواحل.

الثاني أن يريد ظاهره، وهو أنـّها كافية، قائمة مقام الابل الذاهبة شبعًا وريًّا . ولا يعني أنّ ذلك منيته وبغيته من الدنيا، وأنّ ذلك كاف من يطلب العيش، ولا يعني نفسه.

وقال نـُصَيْبٌ:

وقال رجالٌ : حَسبُه من طِلابـِها   فـَقلت:كـَذبتـُم ليس لي دونها حَسبُ!

وقبل هذا البيت قوله :

بزينـَبَ ألمِمْ قبل أن يرحَلَ الرّكبُ   وقـُل إن تملـّينا فما ملـّكِ القلب

وقـُل : ان نـَنل بالودّ منك محبـّةً   فلا مثل ما لاقيتُ في حبـّكم حبُّ

وقل في تجنـّيها : لك الذّنب إنـّما   عتابـُك من عاتـَبتِ فيما له عَتبُ

فمن شاء رامَ الصـّرمَ أو قال ظالمًا   لذي ودّه ذنبٌ وليس له ذنبُ

خليلَــيَّ مـن كعب ألِمَّـا هُدِيتُمَـا   بزينَـبَ لا تَـفقدكمـا أبَـدًا كَـعْــبُ
من اليومِ زُورَاها فإنَّ ركَابَنـا   غَـداةَ غَـدٍ عَنها وعن أهلِها نُكبُ
وقُـولا لها : يا أمَّ عُثمان خلَّتي   أسِلمٌ لنا في حُبِّنا أنت أم حَربُ ؟
وقال رجالٌ : حسبُه من طِلاَبِها   (البيت)

وكان جرير يقول : «وددت أنـّي سبقت ابن السوداء الى هذه الأبيات !» يعني نُصَيْبًا.
وقال الأعرابيّ :

وحَسبُكَ من خَمرٍ يفوتُك ريقُها   ووالّله ما من ريقِها حسبُك الخَمرُ !

ولهذا الشعر حكاية ظريفة[18] عن بعض أصحاب الأصمعيّ قال : ما رأيت كأعرابيّ وقف علينا وسلَّم وقال : أيُّكُم الأصمعيّ ؟ فقال له : ها أنا ذا ! قال : أنت الذي يزعم هؤلاء أنـَّك أعرفهم بالشعر ؟ قال : فمن هو أعلم منِّي ؟ قال : أنشدوني من شعر أهل الحضر حتـَّى أريه من شعرنا، فأنشدناه شعرًا قيل في مسلمة بن عبد الملك :

أمَسلَمَ أنتَ البحرُ إن جاء واردٌ   وليثٌ إذا ما الحربُ طارَ عُقابُها
وأنت كسيفِ الهِنْدُوانِيِّ ان غَدَت   حوادثُ من حربٍ يُعبُّ عُبابُها
ولا خُلقَت أكرومَةٌ في امرىءٍ له   ولا غايةٌ إلاَّ إلَيكَ مآبُهَا
كأنـَّك دَيَّانٌ عليهَا مُوكَّلٌ   بِها وعَلى كفَّيْكَ يَجْري حِسابُها
إليكَ رحلْنا العِيسَ إذ لم نَجِدْ لَها   أخَاثقةٍ يُرجى لديْه ثَوابُهَا

فتبسَّم الأعرابيّ وهزَّ رأسه، فظننا أنـَّه استحسن الشعر، ثمَّ قال : هذا شعر مهلهل النسج، خطؤه أكثر من صوابه : تشبـّهون الملك بالأسد، والأسد أبخر قبيح المنظر، وبالبحر، والبحر مر صعب، وبالسيف، وربـَّما خان ونبا . هلاَّ أنشد تموني كما قال صبيّ منـَّا؟ فقال له الأصمعيّ : ما قال ؟ فأنشد :

إذا سَألتَ الورَى عَن كُلِّ مَكرُمةٍ   لم يُعزَ أكرمُها إلاَّ إلى الهَوْلِ
فتـَى جوادٌ أذابَ المال نائِلُه   فالنـَّيلُ يَشكو لَديهِ كثرة النَّيْلِ[19]
والموتُ يكرَه أن يلقَى منيَّتَهُ   في كَرِّه عند لفِّ الخَيلِ بالخَيلِ
لو زاحَم الشَّمسَ أبقَى الشَّمسَ كاسفةً   أوْ زاحَمَ الصُّمَّ ألجاها الى المَيلِ

18) اختصر اليوسي هذه الحكاية الادبية من زهر الاداب . انظرها تامة هناك، الجزء الأول، ص. 400ـ402 .
19) في زهر الاداب : فالنـَّيلُ يشكُرُ مِنْهُ ...

أمضَى من النَّجمِ إن نابتْهُ نائبةٌ   وعند أعْدائِه أجْرى من السَّيلِ
لا يستريحُ الى الدُّنيا وزينتِها   ولا تراهُ إليها ساحبَ الذَّيلِ
يُقصرُ المجْدُ عَنْهُ في مكارمِه   كما يُقصرُ عن أفعالِه قَوْلِي

قال الراوي : فبُهتنا والله بما رأينا . فتأنّى قليلا ثمّ قال : ألا تنشدني يا أصمعيّ شعرا ترتاح إليه النفس ؟ فأنسدتُه قول عَديٍّ بن الرِّقَاع :

وناعِمةٍ تجلُو بعُودِ أراكَةٍ   مُؤشَّرةٍ يسبي المُعانقَ طيبُها
كأنَّ بها خَمرًا بماءِ غَمَامَةٍ   إذا ارتُشِفَتْ بَعْدَ المنامِ غُروبُها
أراكَ إلى نَجدٍ تحِنُّ وإنَّمَا   هَوى كُلّ نفسٍ حيثُ كان حبيبُها[20]

فتبسَّم الأعرابيّ وقال : هذا قريب من الأوَّل . ألا أنشدتني كما قلت :

تعَلَّقتُها بِكرًا وعُلِّقتُ حُبَّها   وقَلبيَ مِن كلّ الورَى فارغٌ بِكرُ
إذا احتجَبتْ لم يكفِك البَدرُ فقدها   وتكفيك فَقدَ البَدر إن حُجب البدر[21]
وما الصَّبر عنها إن صَبرتَ وجدتَه   جميلاً ولا في مثلِها يحسُنُ الصَّبرُ
وحسبُك من خَمرٍ يفوتُك ريقُها   ووالّلهِ ما من ريقِها حسبكَ الخمرُ
ولو أنَّ جِلد الذَّرِّ لامَس جِلدَها   لكان للَمسِ الذَّرِّ في جِلدها أثْرُ
ولو لم يكُن للبَدر ضدًا جمالُها   وتفضُلُه في حُسنِها لَصَفا البَدرُ

قال الراوي : فقال لنا الأصمعي : أكتبوا ما سمعتم، ولو بأطراف المُدا في رقاق الأكباد ! انتهى.

ويقال أيضا : حَسبُكَ بِكَذَا . قال أبو تمَّام :

نامَت همومِيَ عنِّي حينَ قُلت لها :   حسبِي أبو دُلفٍ حسبي به وكَفى !

وقال العبّاس بن الأحنف :

إن كان يُرضيكم عَذابي وأن   أمُوتَ بالهِجرانِ والكَربِ
فالسَّمْعُ والطَّاعَةُ مَنِّي لَكُمْ   حَسْبِي بِمَا ترضَوْنَ لي حَسبِي

والشَّرُّ ضدّ الخير ؛ والسَّمَاعُ مصدر، يقال : سَمِعَ كَذَا سَمْعًا وسَمَاعًا.

ومعنى المثل أنَّ الشَّرَّ يكفيك منه سماعه، وإن لم تُعاينْهُ، إمَّا على معنى أنَّ الشرَّ من

20) في زهر الآداب أراكَ إلى نجْد ...
21) في زهر الآداب : « ضوء » بدل « فقد » في الشطرين معًا.

شناعته وقبحه يتبيَّن بسماعه [وإن لم تعانيه ؛ أو أنَّه يحصل لك اتهام ما به من مجرَّد سماعه،][22] وإن لم تقدم عليه ولا انتسبت إليه ؛ أو يكفي ـ فيما انتسب إليك من الشرّ ـ سماع النَّاس له، وإن لم يعاينوه . وهذا ما ذكر أبو عبيد أنَّ هذا المثل يُضرب فيما يحذَّر من العار والعيب والمقالة السوء وإن كانت باطلا، كقول الآخر :

قد قِيل ما قيل إن صِدقًا وإن كذبًا   فما اعتِذاركَ من قولٍ إذا قيلا ؟

وإمَّا على معنى الأمر، أي : اكتفِ من الشرّ بسماعه ولا تُعايِنْهُ، والَّله أعلم.

والمثل لأمّ الربيع بن زياد العبسي، وكان ابنها الربيع أخذ من قيس بن زهير درعا، فعرض قيس لأمّ الربيع، وهي على راحلتها في طريق، فأراد أن يقبضها في الدرع فقالت : أين عَزَبَ عنك عقلُك ياقيس ؟ أترى بني زياد مصالحيك، وقد ذهبْت بأمّهم يمينا وشمالا، وقال الناس ما قالوا ؟ إنَّ حَسْبَكَ مِن شَرٍّ سَمَاعُهُ . فذهبت كلمتها مثلا.

وقالت عاتكة بنت عبد المطَّلب، من شعراء الحماسة :

سائِل بِنَا في قَوْمِنَا   ولْيَكْفِ من شَرٍّ سَمَاعُهْ

قَيْسًا ومَا جَمَعُوا لَنَا   فِي مَجْمَعٍ بَاقٍ شنَاعُهْ

وبعده :

فِيهِ السَّنَوَّرُ والقَنَا   والكَبْشُ مَلْتَمِعٌ قِنَاعُهْ

بِعُكَاظَ يُعْشِي النَّاظِرِ   ينَ إذا هُمُ لَمَحُوا شُعَاعُهْ

فِيهِ قَتَلْنَا مَالِكًا   قَسْرًا وأسْلَمَهُ رَعَاعُهْ

ومُجَدَّلاً غَادَرْنَهُ   بِالقَاعِ تَنْهَشُهُ ضِبَاعُهْ

تصف بهذا الكلام حرب الفجار بين قريش وقيس بعكاظ . وأرادت بقولها : ولْيَكْفِ مِنْ شَرٍّ سَمَاعُهْ : انَّا أوقعنا بهم من الشرّ ما هو ظاهر غنيّ عن السؤال عنه والاخبار به.

تَحْسِبُهَا حَمْقَاءَ وهِيَ بَاخِسٌ.

تقول : حَسِبْتُ زيدًا عالمًا ـ بالكسر ـ أحسَبه وأحسِبُه مَحْسبة ومحسِبه وحِسْبانًا ـ بالكسر ـ إذا ظننته ؛ والحَمْقَاءُ مؤنَّث الأحْمَق ؛ والبَاخِسُ من البَخْس، وهو النقص والظلم . يقال : بَخَسَه حقَّه يَبْخَسُه بَخْسًا فهو باخِس

22) ما بين معقوفتين ساقط من ب.

وهي باخِسة وباخِس أيضا . وورد به المثل وهو جائز، كما قالوا : ناقة بَازِل، ومُغِذٌ في السير، وحَائِل . ومَن شاء أن يُؤنّث في المثل أنَّث وهو الأصل .

وأصل هذا المثل أنَّ رجلا خلط بماله مال امرأة يظنّها حمقاء، فطمع فيها . فلمَّا تقاسما أخذت جميع حقّها، ثمَّ لم ترض بذلك فشكته حتَّى افتدى منها من المال بما أحبَّت . ثمَّ إنَّ النَّاس ظنّوا أنَّه يغبنها فلاموه وقالوا له : كيف تخدع امرأة ؟ فقال عند ذلك : تَحْسِبُها حَمْقَاءَ وهِيَ بَاخِس"، أي ظالمة، فذهبت مثلا يُضرب في الرجل يَتَبَالَهُ أو يطيل الصمت حتَّى يُظنَّ به التغفيل وهو ذو دهاء ومكر . ونحوه قولهم : مُخْرَنْبِق" لِيَنْبَاعَ، كما ياتي :

احْسُ وذُقْ !

الحَسْوُ الشُّرْبُ . تقول : حَسَا الرجل المرق يَحْسُوه إذا شربه شيئا بعد شيء . وكذا تَحسَّاه . وحَسَا الطائر الماء يَحْسُوه . قيل : ولا يقال شربه ؛ والذَّوقُ معروف . والمثل يقال لمَنْ تعرَّض للمكروه فوقع فيه، ومعناه ظاهر.

الحُسْنُ أحْمَرُ.

الحُسْنُ : الجَمَالُ، وهو معروف ؛ والحُمْرَة معروفة . ويريد بهذا المثل أنَّ من أراد الحُسْن صبر على أشياء يكرهها.

مُحْسِنَة" فَهِيلِي !

الاحْسَانُ في الفعل ونحوه ضدّ الاساءة ؛ والهَيْلُ التَّفْرِيغُ والصَّبُّ . يقال : هَالَ عليه التراب يَهِيلُه هَيْلاً، وأهَالَه إهَالَةً إذا صبَّه . وكلُّ شيء صبَّه من غير كيل فقد هَالَه.

قيل : وأصل المثل أنَّ الهائلة بنت منقذ ـ من بني عمرو بن سعد بن زيد مناة أمّ جساس بن مرة، وهي أخت البسوس بنت منقذ التي كانت الحرب عليها بين وائل أربعين سنة ـ ورد عليها ضيف ومعه جراب فيه دقيق . فقامت الهائلة وأخذت وعاء عندها كان فيه دقيق لتأخذ

من وعاء الضيف [دقيقا . فجاء الضيف][23] فلمّا بصرت به جعلت تأخذ من وعائها فتهيل في وعاء الضيف . فقال : ما تصنعين ؟ فقالت : أهيل من هذا في هذا . فقال : مُحْسِنَةٌ فَهِيلِي ! فسُمّيت الهائلة بذلك، وذهب قوله مثلا يُضرب في استقامة الأمر، قاله أبو عبيد . وقال غيره : يُضرب للرجل يسيء في فعل فعله فيُؤمر بذلك على سبيل الهزء به، وهذا أظهر وأنسب بالأصل المذكور . نعم ! يمكن أن يُنقل الى الجدّ، حتّى يقال للرجل يُحسن حقيقةً على وجه الاستزادة من فعله .

أحْسَنُ مِن طَاوُوسٍ .

الحُسْنُ مرٌّ ؛ والطّاوُوسُ - على وزن قَابُوس - طائر معروف بديع الشكل رائق الحسن، وفي طبعه، مع ذلك، الزهو والخيلاء والاعجاب بريشه . وكان يقال : إنّ الطاووس في الطير كالفرس في الدوابّ عزّا وحسنًا . وقال بعض الدجّاز في وصفه :

سُبحان من مِن خَلقِهِ الطّاووسُ طيرٌ على أشكالِهِ رَئِيسُ !
كأنّه في نفسِهِ عَرُوسُ فِي الرِّيشِ منْهُ رُكِّبَتْ فُلُوسُ
تُشرِقُ في دَارَاتِها شُمُوسُ في الرَّأسِ منْهُ شجرٌ مَغْرُوسُ
كأنّه بَنَفسَجٌ يَمِيسُ أوْ هُوَ زَهْرٌ خُرَّمٍ يَنُوسُ

أحُشُّكَ وتَرُوثُنِي !

الحَشِيشُ ما يبس من الكلإ ؛ وحَشَشْتُهُ أنا : قطعتُه ؛ وحَشَشْتُ الفرسَ : ألقيتُ إليه الحشيش ؛ والرَّوثُ معروف . يقال : رَاثَتِ الدّابَّة تَرُوثُ رَوْثًا . وهذا المثل يُضرب لمَن أحسنتَ إليه فأساء إليك . فإنّه قد صار بمنزلة الفرس إذا ألقيت إليه الحشيش فلطّخك برَوثِهِ . وهذا ظاهر.

أحَشَفًا وسُوءَ كِيلَةٍ ؟

الحَشَفُ - بفتحتَيْن - أرْدَأ التّمر . قال امرؤ القيس :

كأنّ قلوبَ الطّير رطبًا ويابسًا لَدى وكْرها العُنّاب والحَشفُ البالي

23) ناقص من د.

والكِيلَةُ ـ بكسر الكاف ـ الهيئة من الكَيْل . يقال : كَالَ لَه الطعام، وكَالَهُ إيَّاه كَيْلاً؛ وكَالَ كَيْلَةً واحدةً ـ بالفتح ـ وكِيلَةً حسنةً أو قبيحةً ـ بالكسر ـ

ومعنى المثل : أتَجمع على أن تعطيني حَشَفًا وتكيل لي كيلةً سيّئة ؟ يُضرب للأمر يُكره من جهتَيْن . وكان أصله أنَّ رجلا اشترى تمرا من عند آخر فأتاه بتمر رديء، ثمَّ أساء له في الكيل مع ذلك، فقال له ذلك.

أُحْطُطْ عَنْ رَاحِلَتِكَ فَقَدْ بَلَغْتَ ! (بيـــــاض)

الحَفَائِظُ تحلل الأحْقَادَ .

الحَفَائِظُ جمع حَفِيظَة، وهو الغَضَب والحميَّة ؛ والأحْقَادُ جمع حَقُود[24] والمعنى أنَّك إذا رأيت حميَّك وقريبك يُظلم، وفي قلبك عليه ضِغْنٌ، دعتك الحميَّةُ الى نصره وزال عن قلبك ما فيه من بغضه، كما قال الشاعر[25] :

أخُوكَ الَّذي لا تملِك الحِسَّ نفسه   وترفَضُّ عندَ المُحفظَاتِ الكتائفُ

وسيأتي زيادة في هذا المعنى .

الحَقُّ أبْلَج، والبَاطِلُ لَجْلَج .

الحَقُّ خلاف الباطل ؛ والأبْلَجُ الواضِحُ، يقال : بَلَجَ الصبح ـ بالفتح ـ يَبْلُجُ ـ بالضمّ ـ بُلُوجًا، وبَلَجْت الشيء فَتَحْته وأوضَحْته ؛ وصُبْح أبْلَجُ : مُشْرِقٌ ومُضِيء . قال الراجز :

حتَّى بَدتْ أعناقُ صُبحٍ أبْلَجا

وكذا الحقُّ أبْلَجُ أي واضح ظاهر لا التباس به ؛ والَّلجْلَجَةُ والتَّلْجِيجُ : التردّد في الكلام . ويقال : تَلَجْلَجَتِ الُّلقْمَةُ في حلقه، أي تردَّدت ولم تَنْسَغ . قال زهير :

تُلَجْلِجُ مُضْغَةً فِيهَا أنِيضٌ   أصَلَّتْ فَهْي تحتَ الكَشْحِ داءُ

---

24) يظهر أن هنا بترًا . فالأحقاد كالحُقود جمع لحِقد، وهو الضّغْنُ .
25) هو القطامي .

والمعنى أنَّ الباطل يردد من غير أن ينفذ، وهو ظاهر.

تَحْقِرُهُ ويَنْتَأُ !

الحَقْرُ : الاذلال، تقول : حَقَرْتُ الرجل حَقْرًا - كضَرَبْتُه ضَرْبًا - وحَقَّرته تَحقِيرًا، واحْتَقَرته، واستَحقَرته ؛ وتقول : حَقَرَ الرجل - كَجَلَسَ - وحَقُرَ يَحْقُرُ - كَكَرُمَ يَكْرُمُ - إذا ذلَّ . والنُّتُوءُ : الارتِفَاعُ، تقول : نَتَأَ الشيءُ يَنْتَأُ نَتْأً ونُتُوءًا، إذا انتفخ وارتفع، وقد تقول : نَتَا يَنْتُو، بغير همز.

ومعنى المثل أنَّك تحقره وتزدريه لسكونه، وهو يرتفع ويخادعك . وهذا مِثل المثل السَّابق : تَحْسِبُهَا حَمْقَاءَ وهِيَ بَاخِسٌ.

حَقَّكَ أخَذْتَ .

تقدَّم في كلام الضبّ مع الأرنب والثعلب، وهو ظاهر المعنى.

تَحَكَّكتِ العقْربُ بالأفْعَى .

الحَكُّ معروف، حَكَكْتُ الشيءَ، وحَكَكْتُ الشيءَ بالشيءِ، وتَحَاكَّ الشيئان : حَكَّ كلٌّ منهما صاحبَه، واحْتَكَكْتُ بهذا الشيء : حَكَكْتُ نفسي عليه، وفلان حِكُّ شرّ وحِكَاكُ شرّ - بكسر الحاء فيهما - : يُحَاكُّه كثيرًا ؛ وفلان يتَحَكَّكُ بي : يتعرَّض لشرّي ؛ والعقرب معروف، يُذكَّر ويُؤنَّث، والأنثى منه عَقْرباءُ - بالمدّ غير مصروف - وعَقْرَبَةٌ، والذكر عُقْرُبَانٌ . قال الشاعر :

كأنَّ مَرعَى أمِّكُم إذْ غَدَت عَقْرَبَةٌ يَكُومُهَا عُقْرُبَان

ومَرعَى اسم الأمّ، ويَكُومُها يَنْزُو عليها . والأفعى حيَّة خبيثة . قال الراجز :

كأنَّ صَوتَ شَخْبِهَا المُرْفَضِّ كَشِيشُ أفْعَى أجمعَت لعضِّ[26]

والذكر أُفْعُوانٌ - بضمّ الهمزة والعين - قال الراجز :

قَد سالَم الحيَّاتُ منْه القَدمَا الأُفْعُوانَ والشُّجاعَ الشَّجْعَمَا

---

26) بعده : فهْيَ تحُكُّ بعضَها ببعض .

ومعنى تحكّكت العقربُ بالأفعى لصِقَتْ بها وحلّقت حواليها، أو تعرّضت لشرّها . يَضرب لمَنْ يصارع أو ينازع أو يخاصم مَنْ هو أقوى منه أو يتشبّه بغيره ويَحْكي فعلَه ولا يقوى قوّته.

اِحْتَكِمْ حُكْمَ الصَّبِيِّ عَلَى أهْلِهِ !

الحُكْمُ : القَضَاءُ، يقال : حَكَمْتُ عليه بكذا حُكْمًا . وتقول : حَكَّمْتُه تَحْكيمًا إذا أذِنتَ له أن يَحْكُمَ، فتَحَكَّمَ هو واحْتَكَم . ولمّا كان الصبيّ مقبولاً ما حَكَم به على أهله، ومسموعًا ما طلبه منهم، ومغتفرا ما تحامل به عليهم، ضرب النّاس بحكمه المثل في كل مَن تُسمع مقالتُه، ويُتحمَّل انبساطُه عليك، وتغتفر دَالّتُه. كان أبو سفيان إذا نزل به جار قال له : يا هذا، إنّك قد اخترتَني جارًا، واخترت داري دارًا، فجناية يدك على دونك، فإن جنت عليك يدٌ فاحْتَكِمْ عَليَّ حُكْم الصَّبيِّ على أهْلِهِ ! وقال الشاعر :

ولا تَحْكُما حُكْم الصَّبيِّ فإنَّهُ كثيرٌ على ظَهْر الطَّريقِ مجاهِلُهْ

ومن كلام أبي بكر بن القَبطُرْنَة[27] يحقّ لي أن أذهب شططا، وأتكلّم منبسطا، وأبيّن غرضي كلّه ومذهبي، وأتحكّم على مكارمك تحكُّم الصبي، وأبلغ بك كُلَّ أمل وأرَب، وأملأ دلوي في رجائك الى عقد الكَرَب . وأشار بهذا الأخير الى قول القائل :

من يُساجلْني يُساجِلْ ماجدًا يملأ الدَّلوَ إلى عَقْدِ الكَرَبِ

أحْكَى مِن قِرْدٍ.

يقال : حَكَيتُ الحديث وحَكَوتُه ـ بالياء والواو ـ ذكرته، وحَكَيْتُه عن فلان : نَقَلْتُهُ عنه، وحاكَيْتُ فلانًا : شَابَهْتُه وفعلت مِثل فعله ؛ والقِرد ـ بكسر القاف وسكون الراء ـ معروف، جمعه أقْراد وقُرود وقِردة وقُرُد . وهذا الحيوان ـ مع قبحه ـ في الغاية من الالهام والحذق بمُحاكاة غيره وبالحِرَف وغيرها : فهو يعلم الخياطة والصياغة

27) حرّف هذا الاسم في المخطوطات بإسقاط النون منه فكتب « ابن القبطرة » . ويكتب أيضًا القَبْطُورْنَة، وهو أديب أندلسي أحد ثلاثة إخوة يعرفون ببني القبطورنة . ترجم له الدكتور احسان عباس وأورد مراجع ترجمته في هامش رقم 2، ص 155ـ156 من الجزء الاول من نفح الطيب .

وغيرك ذلك ؛ ويعلم حفظ الأمتعة وحراسة الحوانيت ونحوها ؛ ويحاكي الانسان في جميع أفعاله، ما خلا النطق، كما قال أبو الطيّب :

يُريدون شَأوي في الكلامِ وإنّما يُحاكي الفتى في ما خلا المنطِقَ القِردُ

حَلأَتْ حَالِئَةٌ عَنْ كُوعِهَا .

يقال : حَلأَ الجلد . بالفتح - يَحْلَؤُهُ إذا قشره وبشره، أو إذا نزع تَحْلِيئَهُ، والتَّحْلِيءُ ما أفسده السكّين من الجلد، أو ما يبقى من الصفاق على باطنه عند السلخ؛ والكُوعُ : رأس الزَّنْد الذي يلي الابْهَام ؛ والكُرْسُوع : رأسُ الزَّنْد الذي يلي الخِنْصِر.

ومعنى المثل أنَّ المرأة إذا حَلأَتِ الأديم، فإن رفقت سلمت وإن خرقت قطعت بالشفرة كوعها. فيُضرب في حذر الانسان على نفسه.

أحْلَبْتَ أمْ أجْلَبْتَ ؟

يقال : أحْلَبَ الرَّجلُ - بالحاء المهملة - إذا ولدت إبلُه إناثا لأنَّها تُحلب، وأجْلَبَ - بالجيم - إذا ولدت إبله ذكورا لأنَّ أولادها تُجلب الى السوق فتُباع.

حُلِبَتْ صُرَامُ .

الحَلْبُ - بالتسكين - استخراج ما في الضرع من اللّبن، حَلَبَ الشاة - بالفتح - يَحْلُبُها حَلْبًا ؛ وصُرَام - على مثال غُرَاب - آخر اللّبن بعد التَّغْرِيزِ، يحتاج إليه الرجل فيحلبه ضرورة . فضُرب ذلك مثلا لاستخراج آخر ما في النفس، فإذا قيل : حُلِبَتْ صُرَامٌ، فكأنَّه قيل : بَلَغَ العُذْرُ آخِرَهُ . قال الشاعر :

ألا أبْلِغْ بني سَعْدٍ رَسُولاً ومَولاهُم، فَقَد حُلبَت صُرامُ

والصُّرامُ أيضا اسم من أسماء الحرب، والداهية.

لَتَحْلُبَنَّها مَصْراً !

الحَلْبُ تقدَّم ؛ والمَصْرُ - بالفتح والسكون - حَلْبُ جميع ما في الضرع حتَّى لا يبقى شيء . والتَّمَصُّر حلب بقايا الَّلبن . وشاة أو ناقة مَصُور" بَطِيئَة خروج الَّلبن. وهذا المثل يُضرب في توعّد العدوّ، وكأنَّك تقول له : إنَّك لا تنال منّي شيئا، وإنَّما أنت بمنزلة من يحلب الشاة الممصورة، فوضعت المصدر موضع المفعول، أي : **لَتَحْلُبَنَّهَا مَمْصُورَةً لا لَبَنَ فيها، كما يقال : ضَرْبُ الأمِيرِ** [28] .

حَلَفَ لَهُ بالمُحْرِجَاتِ.

الحلف معروف، يقال : حَلَفَ - بالفتح - يَحْلِفُ حَلِفًا - بالكسر كَكَذِبِ - ؛ والمُحْرِجَاتُ : الأيْمَانُ المُوقِعَةُ في الحَرَج وهو الاثم والضيق . ويقال : المحرجات الثلاث وهي الطلاق، والعتاق، والمشيُ الى مكَّة . وقيل : هي الطلاق ثلاثا.

حَلِمَ الأدِيمُ

الأدِيمُ الجِلْدُ . ويقال : حَلِمَ الأديمُ - بالكسر - يَحْلَمُ إذا فسد ووقع فيه دود. ثمَّ يُضرب مثلا للأمر يتناهى فساده . قال الوليد بن عقبة يخاطب معاوية رحمه الَّله تعالى :

فإنَّكَ والكِتَابَ إلى عَلِيٍّ كَدابِغَةٍ وقَد حَلِمَ الأدِيمُ

وسيأتي تتمة هذا الشعر.

وأوَّل من قال هذا المثل خالد بن معاوية بن سنان السَّعدي، وذلك أنَّه اسْتَبَّ، هو وبنو تميم، عند النعمان بن المنذر، فقال خالد يرتجز فيهم :

دوموا بَني غُنْمٍ ولن تَدومُوا لَنَا ولا سيِّدكُم مرحُومُ

إنَّا سَراةٌ وسْطَنَا قُرومُ قَد حَمَلَت أحْسَابَنَا تَدُومُ

في الحَرْبِ حتَّى حَلِمَ الأديمُ

فذهب قولُه حَلِمَ الأديمُ مثلاً . وقال لهم أيضا :

---

28) أي هو درهمٌ ضَرْبُ الأمير أي مضروبه، بمعنى أنه أمر بضربه سكة . جُعل فيه المصدر مكان اسم المفعول .

إنَّ لَنا يا أهْلَ غُنْمٍ عِلما: أفْواهُ أفْراسٍ أكَلْنَ هَشْمَا
استاه أم يَغْتَدينَ لَحْمَا تَركْتُمُ خَيرَ قُوَيْسٍ سَهْمَا
فذهب هذا أيضا مثلا، وسيأتي.
ثمَّ إنَّ شاعر غنم رجز بخالد أيضا، ومع خالد أخ له . فاستعدوا عليه النعمان، فقال خالد:
أبيت اللّعن ! إذًا أركب أنا وأخي ناقة ثمَّ نتعرَّض لهم، فإن استطاعوا فليعقروا بنا !
فأعجب النعمان ذلك وقال : قد أعطوكم بحقّكم . قالوا : قد رضينا . فقال النعمان : أما
والّله لَتَجِدُنَّهُ ألْوَى بَعِيدَ المُسْتَمرّ ! . فأرسلها مثلا، وسيأتي.
ثمَّ إنَّ خالدًا وأخاه اكتفلا ناقتهما بكفل، وتأخَّر أحدهما الى العجز وجعل وجهه ممَّا يلي
الذنب ؛ وتقدَّم الآخر الى الكتف، وجعل كلّ واحد منهما يذبّب بسيفه، فلم يخلصوا الى
أن يعقروا بهما.

أحْلَمُ مِن فَرخِ الطّائِرِ .

الحِلْمُ - بالكسر - الانَاةُ والعقل . يقال : حَلُمَ - بالضمّ - يَحْلُمُ حِلْمًا، فهو
حَلِيمٌ، وهم حُلَماءُ وأحْلامٌ ؛ وجمع الحِلْم حُلُوم وأحْلاَم ؛ والفَرخُ معروف جمعه
أفْراخٌ وفِراخٌ.. ونُسب الحِلْمُ الى فرخ الطائر لأنَّه يخرج من البيضة على قنَّة الجيل،
ثمَّ لا يتحرَّك حتَّى يتمَّ نبات ريشه ؛ ولو تحرَّك سقط . وتقدَّم في قولهم : أحْزَمُ من
عُقَابٍ، ومِن فَرْخ العُقَابِ، وهو المقصود هنا.

الحَمْدُ مَغْنَم، والمَذَمَّةُ مَغْرَم .

هذا المثل ظاهر المعنى، إفرادًا وتركيبًا، يُضرب عند اكتساب المحامد واجتناب
المذامّ. ومثله قول مالك بن جرير :
وإنَّ قليلَ الذَّمِّ غَيْرُ قَليلِ
وقبله :
أجُودُ على العَافي وأحْذر ذمَّه إذا ضنَّ بالمعروف كُلُّ بخِيلِ
ومثله قول عبيد :
الخَيرُ يبقَى وإن طال الزّمان به والشَّرُّ أخْبَثُ ما أوعَيْتَ في زادِ

وقول الحماسي :

أيا ابْنَـةَ عَبدِ الّلهِ وابنَـةَ مالكٍ ... ويا ابنَـةَ ذي البُـرديْن والفرس الورد !

إذا ما صَنعتِ الزّاد فالتمسي له ... أكـيلا فإنّـي لست آكلَـه وحـدي

أخـًا طارقًا أو جارَ بيتٍ فإنـّني ... أخافُ مَذمّاتِ الأحاديثِ من بَعدِي

وكيف يُسيغُ المرءُ زادًا وجارُهُ ... خفيفُ المِعى بادي الخَصاصة والجُهد ؟

ولَلموتُ خيرٌ من زيـارَةِ باخلٍ ... يُلاحظُ أطرافَ الأكيلِ على عَمْد

وإنّـي لعَبد الضَّيف ما دام ثاويـًا ... وما فِـيَ إلاّ تلْكَ من شِيمَة العَبدِ

وقول حاتم :

أكُفُّ يدي عن أن ينال التماسُها ... أكُفَّ صِحابي حينَ حاجاتُنا مَعًا

أبِيتُ هضيمَ الكَشح مُضطمر الحَشَا ... من الجوعِ أخْشى الذّمَّ ان أتضلّعا

وإنّـي لأستحْيي رفيقيَ أنْ يـرَى ... مكانَ يَـدي من جانِـب الزّاد أقْرعَا

وإنّـَك إن أعطَيتَ بطنَكَ سؤْلَـه ... وفَرجَك نالا مُنتَهى الذّمِّ أجْمَعَا

وقول عمرو بن الأهتم :

وكُلُّ كريمٍ يَـتّقي الذّمَّ بالقِرى ... وللخَير بيـن الصّالحيـنَ طَريـقُ

لَعَمرُك ما ضاقَت بلادٌ بأهلِـها ... ولكـنَّ أخْلاقَ الرّجال تَضيـقُ

وقول الآخـر :

إلاّ يكُن عَظمي طويلاً فإنّني ... له بالخِصال الصّالحاتِ وصُولُ

ولا خَير في حُسنِ الجُسومِ وطولها ... إذا لم تَزِنْ حُسنَ الجُسومِ عُقولُ

إذا كنت في القوم الطّوال فَضَلتُهم ... بعَـارفةٍ حتّى يُقـال طويلُ

وكم قَد رأينا من فُروعٍ طويلةٍ ... تموتُ إذا لم يُحيهنَّ أُصُولُ !

ولم أر كالمَعروفِ أمّا مَذاقُه ... فَحُلـوٌ وأمّـا وجْهُـه فجَمِـيلُ

والشعر في هذا المعنى لا يُحصر .

أحْمَقُ مَا يَتَوجَّهُ.

الحُمْقُ قلّة العقل . حَمُقَ الرجلُ - بالضمّ - حُمْقًا - بالضمّ - وحَمَاقَةً، وانْحَمَقَ واسْتَحْمَقَ، فهو أحْمَقُ وهم حُمّاقٌ وحُمُقٌ - بضمّتَين - وحَمْقَى

وحُمَاقَى ؛ وتَوجَّهَ : أقْبَلَ وولَّى وكَبُرَ . ويقال : أحْمَقُ ما يَتَوَجَّهُ، أي ما يحسن أن يأتي الغائط لِحُمْقِه.

أحْمَقُ مِنْ جَهْبَر .

الحُمْقُ مرٌّ ؛ والجَهْبَرُ أنثى الدبّ، وهو دويبّة معروفة يُصطاد بها، يزعمون أنّها تترك ولدها وترضع ولد الضبع، فوصفت بالحُمق.

واعلم أنّهم بنوا صيغة التفضيل من حَمُقَ، وهو من الخارج عن القياس : فإنّ نحو هذه المادّة لا يُبنى منها قياسا كما قُرِّر في محلّه.

أحْمَقُ مِنْ جَهِيزَة .

جَهِيزَةٌ - بالجيم أوّله والزاي آخره، على وزن صَحِيفَة - هي أمّ شبيب بن زيد الشّيباني الخارجي . كان أبوه يزيد اشتراها من السبي، فقال لها : أسلمي ! فأبت، فضربها فلم تسلم، فواقعها فحملت . فلمّا أحسّت بالولد تحرّك في بطنها قالت : إنّ في بطني شيئا ينفر . فقال النّاس حينئذ : أحْمَقُ مِن جَهِيزَة، وضُرِب بها المثل في الحمق . وقيل إنّ جهيزة هي عرس الذئب، تدع ولدها وترضع ولد الضبع . وفيها أو في مثلها ورد قول الشاعر :

كَمُرضِعَةٍ أولاَدَ أُخْرى وضيَّعَتَ بني بَطنِها هذا الضّلال على قَصد !

وجهيزة أيضا امرأة حمقاء ، واجتمع قوم يخطبون في الصُّلح بين حيَّيْن في دم لكي يرضوا بالدية . فبينما هم كذلك قالت جهيزة : ظفر بالقاتل وليُّ المقتول فقتله، فقالوا :

قَطَعَتْ جَهِيزَةُ قَولَ كُلِّ خَطِيب !

أحْمَقُ مِنْ أبِي غَبْشَانَ .

أبُو غَبْشَانَ - بفتح الغين المعجمة، وتُضمّ أيضا، وبسكون الباء الموحَّدة - رجل من خزاعة كان يلي سدانة الكعبة قبل قريش . فاجتمع هو وقصيّ في شرب بالطائف، فأسكره قصيّ ثمّ اشترى منه المفاتيح بزقّ خمر، وأشهد عليه . ودفعها قصيّ لابنه عبد

الدار، وأرسله في الحين الى مكّة . ثمّ أفاق أبو غبشان من سكره وهو أندم من الكُسَعِيّ، فضُرب به المثل في الحمق وفي الندم وخسارة الصفقة، كما يأتي.

أحْمَقُ مِنْ حُبَارَى .

الحُبَارَى - بضمّ الحاء وبألف مقصورة للتّأنيث - طائر معروف يقع على الذكر والأنثى، ويوصف بالحمق.

وفي كلام عثمان رضي اللّه عنه : **كلُّ شيءٍ يحفَظُ ولدَه حتّى الحُبَارَى** ! وإنّما خصّها بالذكر لأنّها مشهورة بالحمق، ومع ذلك تحبّ ولدها وتطعمه وتعلّمه الطيران، كسائر الحيوان.

أحْمَقُ مِنْ دُغَةَ .

الحُمْقُ مرٌّ ؛ ودُغَة - بدال مهملة وغين معجمة مخفّفة، على مثال ثُبَة وكُرَة - والأصل دَغَيَ أو دَغَوَ . وهي امرأة من بني عجل، وهي مارية بنت مغنج، ومغنج هو ربيعة بن عجل . ودُغَة حمقاء مشتهرة بذلك، ولذلك ضُرب بها المثل.

وكان من حمقها أنّها تزوّجت في بني العنبر بن عمرو بن تميم . فلمّا أخذها الطلق ظنّت أنّها تريد الخلاء، فانطلقت الى بعض الغيطان تتبرّز، فولدت واستهل الولد ورجعت الى بيتها تقدّر أنّها أحدثت . فقالت لضرّتها : « يا هَنَتَاه، هَل يَفْتَحُ الجَعْرُ فَاهُ ؟ قالت : نعم، ويَدعُو أبَاه ! فمضت ضرّتُها وأخذت الولد . فبنو العنبر يدعون بذلك بني الجَعْرَاء، وصار ذلك لقبًا لهم.

ونظرت يوما الى زوجها يقبّل بنته ويقول : بأبي دَرَادِرُك ! والدّرَادِر مغارز الأسنان . فذهبت هي ودقّت أسنانها بِفِهْر حتّى بدت دَرَادِرُها، فجاءت زوجها وقالت له : « كيف ترى دُرْدُري ؟ » فقال لها **أعْيَيْتِنِي بِأشُر، فكيف بِدُرْدُر ؟**، وهو مثل سيأتي.

وقال أبو نواس :

ومَا لِبَكْرِ بْنِ وائِلٍ عِصَمٌ   إلاّ بِحَمْقَائِهَا وكَاذِبِهَا

وقد خطّأ أبو العبّاس المبرّد أبا نواس في هذا وقال إنّه أراد بالحمقاء هَبَنَّقَةَ القيسي، ولا يقال للرجل حمقاء . ورُدّ عليه بأنّه أراد دُغَةَ العجليّة، وعجل في بكر بن وائل.

قال شمس الدين بن خَلّكان رحمه اللّه تعالى : وقد رأيت المبرّد في المنام وأنا بالاسكندريّة، في سنة ستّ وثلاثين وستمائة، وعندي إذ ذاك **الكامل** للمبرّد وكتاب **العقد** لابن عبد ربّه . فرأيت في العقد في ترجمة ما غلط فيه على الشعراء، وذكر أبياتا نسبوا أصحابها الى الغلط ولم يغلطوا وإنّما وقع الغلط ممن غلّطهم، منها ما ذكر المبرّد في **الروضة** من تغليط أبي نواس في البيت السّابق ـ والغلط إنّما هو من المبرّد، كما قرّرنا ـ . قال : فلمّا كان بعد ليال قلائل من وقوفي على هذه الفائدة، رأيت كأنّي بمدينة حلب في مدرسة القاضي بهاء الدين، وكأنّنا صلّينا الظهر جماعة . فلمّا فرغنا أردت الخروج، فرأيت في أخريات الموضع رجلا واقفا يصلّي، فقال لي بعض الحاضرين : هذا أبو العبّاس المبرّد . فجئت إليه وقعدت الى جانبه أنتظر فراغه . فلمّا فرغ سلّمت عليه فقلت له : أنا في هذا الزمان أطالع كتابك **الكامل** . فقال لي : رأيت كتابي **الروضة** ؟ فقلت : لا . وما كنت رأيتها قبل ذلك . فقال لي : قم حتّى أريك إياه ! فقمت معه وصعد بي الى بيته . فدخلنا ورأيت فيه كتبا كثيرة . فقعد يفتّش عليه وقعدت أنا ناحية . فأخرج مجلّدا ودفعه لي، ففتحته وتركته في حجري، فقلت له : قد أخذوا عليك . فقال : أي شيء أخذوا؟ فقلت له : إنّك نسبت أبا نواس الى الغلط في بيت كذا، وأنشدته إيّاه .فقال : نعم، غلط في هذا . فقلت : إنّه لم يغلط بل هو على صواب، ونسبوك أنت الى الغلط في تغليطه . فقال : وكيف هذا ؟ فعرّفته ما قاله صاحب **العقد** . فعضّ على رأس سبّابته وبقي ساعة ينظر إليّ، وهو في صورة خجلان، حتّى استيقظت من منامي وهو على تلك الحال . انتهى ملخّصا.

أحْمَقُ مِنْ رِجْلَةٍ .

الرِّجْلَة ـ بكسر الراء وسكون الجيم ـ : ضَرْبٌ من النبات معروف ينبت في حميل السيل، فيقتلعه، فيوصف لذلك بالحمق . ويقال له بَقْلَة الحمقاء، والبقلة الليّنة، والبقلة المباركة . وقيل إنّ البقلة المباركة هي الهندباء . وقولهم بقلة الحمقاء أضيف فيه الموصوف الى الصفة في الظاهر، كقولهم : مسجد الجامع، وصلاة الأولى.

أحْمَقُ مِنْ رَخَمَةٍ .

الرَّخَمَةُ ـ بفتح الراء والخاء المعجمة ـ طائر معروف، جمعه رَخَم"، ويقال له الأنُوقُ، كما مرَّ . ومن ثمَّ يقال لها ذات الاسمَيْن . وهي تتمنَّع في قلل الجبال، كما تقدَّم، وتتحرَّز، ومع ذلك تحمق . قال الكُمَيْت :

وذاتِ اسْمَيْنِ والألْوانُ شَتى تُحمَّقُ وهي كَيِّسَةُ الحَوِيلِ

وذُكر الروافض عند الشعبيّ فقال : لو كانوا من الدوابّ لكانوا حمرًا، ومن الطير لكانوا رخمًا. والرَّخَمَة من لئام الطير، ولئام الطير ـ فيما يزعمون ـ ثلاثة : الرَّخَمَةُ والغراب والبُومة.

أحْمَقُ مِنْ صَاحِبِ ضَأْنٍ ثَمَانِينَ .

الضَّأنُ ـ بسكون الهمزة وفتحها ـ جمع ضَائِن، مثل رَكْب لرَاكِب، وحَرَس لِحَارِس. والضَّائِنُ خلاف المَاعِز من الغنم ؛ والأنثى ضَائِنَة . ويقال : أضأن الرجل كثُرت عنده الضَّأن ؛ وثَمانُونَ عقد معلوم من العدد ؛ وصاحب ضأن ثمانين قالوا هو رجل بشَّر كِسْرى فقال له كسرى : « سَلْ منِّي ما شئت ! » فقال « أسألك ضأناثمانين »، فقال : « أحْمَقُ من صَاحِبِ ضَأنٍ ثَمانِينَ. » وقيل إنَّه رجل حكَّمه النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم فقال له : **أيُّمَا أحَبُّ إلَيْكَ : ثَمَانُونَ مِنَ الضَّأنِ، أو أدعُو اللهَ تَعَالَى أن يجْمَعَكَ مَعِي في الجَنَّةِ ؟ فقال : بَلْ ثَمَانُونَ مِنَ الضَّأْنِ . فقال صلَّى الله عليه وسلَّم : أعْطُوهُ إيَّاهَا ! ثمَّ قال صلَّى الله عليه وسلَّم : إنَّ صَاحِبَةَ مُوسَى كَانَتْ أعْقَلَ مِنْكَ . وذَلِكَ أنَّ عَجُوزًا** دلَّتْهُ علَى عِظَامِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلامُ، فَقَالَ لَهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ: أيُّمَا أحَبُّ إلَيْكِ : أسْألُ اللهَ أنْ تَكُونِي مَعِي في الجَنَّةِ، أوْ مِائَة" مِنَ الغَنَمِ ؟ قَالَتِ : الجَنَّةُ.

ويُروى أيضا أنَّ رجلا وقف على النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وهو يقسم غنائم حُنَيْن، فقال : إنَّ لِي عِنْدَكَ مَوعِدًا، يَا رَسُولَ اللهِ ! قَالَ : صَدَقْتَ، فاحْتَكِمْ مَا شِئْتَ ! قَالَ : إنِّي أحْتَكِمُ ثَمانِينَ ضَائِنَةً وراعِيَهَا .

فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ : هي لَكِ، وقَدِ احْتَكَمْتَ يَسِيراً .
ولِصَاحِبَةُ مُوسَى عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، الَّتِي دلَّتْهُ على عِظَامِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلامُ، كَانَتْ أحْزَمَ مِنْكَ حِينَ حَكَّمَهَا مُوسَى فَقَالَتْ : حُكْمِي أن تَرُدَّنِي شَابَّةً وأدخُلَ مَعَكَ الجَنَّةَ.
وفي هذا الرجل يقال : أقْنَعُ مِنْ صَاحِبِ الثَّمانِينَ ورَاعِيهَا، كما سيأتي.

أحْمَقُ مِنْ ضَبُعٍ .

الضَّبُعُ ـ على مثال سَبُع ـ معروف، يقع على الذكر والأنثى، وهو مؤنَّث اللفظ . والذَّكَر بخصوصه ضِبْعَانٌ ـ بالكسر ـ والأنثى ضِبْعَانَة، ولا يقال ضَبُعَة . وقيل يقال . ويقال للذَّكَر منه أيضا ذِيخٌ ـ بكسر الذَّال المعجمة ـ.
والضَّبُع توصف بالحمق . ومن حمقها ـ فيما يزعمون ـ أنَّ الصائد إذا أراد أن يصيدها رمى بحجر في وجارها فتحسبه شيئا فتخرج إليه . وأنَّها [أيضا] يقال لها، وهي في الوجار : خامري، أمَّ عامر ! أي استرى ! كما سيأتي . فتبقى حتَّى يدخل إليها ويقيِّدها برجلها ويخرجها . ويقال لها أيضا، وهي في الوجار : اطرحي، أمَّ طريف ! خامري، أمَّ عامر ! أبشري: بجراد عظلى وشاة هزلى ! فتبقى حتَّى تقبض . ومن النَّاس من يرى أنَّ هذه من خرافات العرب فقط . وأهل زماننا أيضا يزعمون أنَّ الصيَّادين إذا اجتمعوا حول وجارها جعل بعضهم يقول : ما هي هنا، وما هنا شيء ! فتتلبَّث هي حتَّى تقبض ؛ وأنَّهم أيضا قد يرونها فيعظّمونها ويهوّلون أمرها ويقولون : ما هذا السبع ؟ وما هذه الدَّاهية ؟ ونحو ذلك. فتبقى تنتفخ وتتعظَّم في نفسها ولا تفرّ حتَّى يقبضوها.
ومن شهرة حمقها على سائر الدوابّ يقول العرب في المثل الآخر في الشيء يدعى وضوحه جداً : ما يَخْفَى هَذَا الأمْرُ عَلَى الضَّبُعِ.

أحْمَقُ مِنْ نَاطِحِ الصَّخْرَةِ .

النَّطْحُ دفْعُ الشيء بالقرون ؛ والصَّخْرَةُ واحدة الصُّخُور المعروفة ؛ ونَاطِحُ الصَّخرة هو الوَعْل، والوَعْل هو التّيس الجَبَلِيّ، كما مرَّ، جمعه أوْعَال ووُعُول . قال

امرؤ القيس :

تلاعب أولاَدَ الوُعُولِ رِبَاعهَا دُوَينَ السَّماءِ في رُؤُوسِ المَجادِلِ

وقال أميَّة بن أبي الصَّلْت :

كُلُّ حيٍّ وإن تَطاولَ دَهْرًا آئِلٌ أمْرُهُ الى أن يَزُولاَ

لَيْتَني كُنتُ قَبلَ ما قَد بَدا لي في رؤُوسِ الجبالِ أرعى الوعولاَ !

يُحكى أنَّ أميَّة هذا لمَّا احتُضر غُشي عليه ثمَّ أفاق فقال : لبَّيْكما ! لبَّيْكما ! أنا إذا لدَيْكما : لا عشيرتي تحميني، ولا مالي يفديني ! ثمَّ غُشي عليه . فلمَّا أفاق قال : كُلُّ حَيٍّ... (البيتَيْن)، ففاظت نفسه . وهما من شعره الحكيم.

ويُروى أنَّ عمرو بن العاصي تمثَّل بهما . وكان لمَّا حضرته الوفاة قال له ابنه : يا أبتاه ! إنَّك كنت تقول : يا ليتني ألقى رجلا عاقلا لبيبا عند نزول الموت به، حتَّى يصف لي ما يجد، وأنت ذلك الرجل : فصِفْ لي الموت ! فقال : يا بنيَّ ! كأنَّ السماء قد انطبقت على الأرض، وكأنِّي بينهما أتنفَّس من سمّ إبرة، وكأنَّ غصن شوك يجذب من قدمي الى هامتي . ثمَّ أنشأ يقول لَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ مَا قَدْ بَدَالِي (البيت) . ومثل هذا عن عبد الملك بن مروان لمَّا احتُضر، وكان في قصره مشرفا على النَّاس . فنظر فرأى بعض الغسَّالين يغسل الثياب، فقال : ليتني كنت مثل هذا الغسَّال، [أكتسب] قوتي يوما بيوم، ولم أكن وُلِّيت الخلافة ! ثمَّ تمثَّل بالبيتَيْن السَّابقَيْن فمات.

ويُحكى أنَّه لمَّا بلغت قصَّته هذه بعض أهل زمانه قال : الحمد لِلّه الذي جعلهم عند الموت [يعني الرؤساء][14] يتمنَّون ما نحن فيه، ولم يجعلنا نتمنَّى ما هم فيه !

وقالوا في الوعل نَاطِح الصَّخْرَة، لقول الأعشى :

كَناطِحِ صخْرَةً يومًا ليقلَعَها فَلم يَضِرْها وأوهَى قَرْنَهُ الوعِلُ

وقول الآخر :

فرشْني بخَيرٍ لا أكونَنْ ومَدحَتي كناطحٍ يومًا صخرةً بِعَسيلِ

أحْمَقُ مِنْ نَعَامَةٍ .

النَّعَامُ معروف وتقدَّم ما فيه . والنَّعَامَةُ توصف بالحمق، وذلك أنَّها تخرج طلبًا

14) ناقص من ب.

للطعم وتدع بيضها . فمتى وجدت بيض نعامة أخرى حضنتها ونسيت بيضها . وفي ذلك يقول ابن هرمة :

وإنِّي وتَركِي نَـدَى الأكْرمِيـن وقَدْحي بكفَّيَّ زنْدًا شَحاحَا
كَتاركةٍ بَيْضَهَا بالعَـراء ومُلحِفَةٍ بَيضَ أخْرَى جَنَاحا

ومن حمقها أنَّ الصائد إذا أدركها أدخلت رأسها في كثيب رمل تقدّر أنَّها اختفت عنه بذلك وهي بادية له . ومع ذلك فكان لها في بيضها أمرعجيب، وذلك أنَّها تبيضها زوجًا وتضعها فتقسمها قسمَيْن : فقسمًا تحضنه وقسمًا تتركه يكون غذاء لِمَا يكون من الأفراخ، على ترتيب في ذلك ووضع عجيب . فسبحان القادر على ما يشاء والملهم كلَّ حيّ منافعه.

وأمَّا قول علقمة :

حتَّى تَلافى وقَرنُ الشَّمس مُرتفعٌ أُدحيَّ عِرسيْنِ فيه البَيضُ مركومُ

فقد قيل إنَّه غلط، لأنَّ بيض النَّعام لا يكون مركوما، أي بعضه على بعض، كما قلنا.

أحْمَقُ مِنْ هَبَنَّقَةَ .

ويقال أيضا أحْمَقُ مِنْ ذِي الوَدَعَاتِ ؛ وهَبَنَّقَةُ-بالفتحات مع تشديد النُّون . هو يزيد بن ثَرْوان القيسي . ويقال له ذُو الوَدَعَاتِ ولُقِّب بذلك لأنَّه كان يتقلَّد الوَدَعَ، والوَدَعُ - بفتحتَيْن - خرزأبيض يُستخرج من البحر، الواحد ودَعَةٌ والجمع ودَعٌ - وتَسكَّن الدَّال أيضا - ووَدَعَاتٌ.

وقال الشاعر في المفرد :

أسَنُّ مِن جَلْفزيزٍ عَوزمٍ خَلَقٍ والحِلم حِلْمُ صبيٍّ يمرُسُ الودعَهْ

والجَلْفَزِيزي العجوز والنَّاقة الهرمة ؛ والعَوْزَمُ العجوز والنَّاقة المُسنَّة فيها بقيَّة .
ومعنى يَمْرُسُ الوَدَعَةَ : يمصّها . يقول : إنَّه كبير في الجسم، صغير العقل.

وقال الآخر في الجمع، مسكَّنا ومحرَّكًا :

إنَّ الرُّواةَ بلا فهمٍ لما حفظُوا مثلُ الجمالِ عليها يُحمَلُ الودعُ :
لا الودْعُ ينفَعُه حَملُ الجِمال له ولا الجِمالُ بحَملِ الودْعِ تنتفعُ !

قيل : والودع اشتقَّ له من الوَدْع وهو التَّرك، لِمَا قالوا من أنَّ البحر يتركه، وذلك أنَّه يقذفه حيوانًا فيموت ويصلب صلابة الحجر، ويعلَّق للعين . فكان هَبَنَّقَةُ اتَّخذ قلادة من ودع وعظام وخزف يجعلها في عنقه، وكان طويل اللحية . فقيل له : لِمَ تعلّق هذا ؟ فقال : لئلاَّ أضِلَّ . ثمَّ إنَّ أخًا له سرقها ذات ليلة وتقلَّدها . فلمَّا أصبح هَبَنَّقَةُ ورآها في عنق أخيه فقال له : يا أخي، أنت أنا، فمَن أنا ؟ فضُرب به المثل في الحمق . وقد حُكيت عنه أخبار كثيرة في الحمق : منها أنَّه اشترى له أخوه بقرة بأربع أعْنُز . فلمَّا ركبها وأعجبه عَدْوُها، التفت الى أخيه فقال له : زِدْهم عنزًا ! فضُرب مثلا للمعطي بعد وجوب البيع . ثمَّ إنَّه سار بالبقرة حتَّى مرَّ بأرنب تحت شجرة، ففزع منها، وركض البقرة حتَّى تجاوزها فقال :

اللَّهُ نجَّاني ونجَّى البَقَرَهْ   مِن جاحِظِ العَينَين تحتَ الشَّجرهْ

ومنها أنَّه كان إذا رعى الابل ردَّ السِّمان منها الى المرعى، ونحَّى المهازيل وقال : لا أُصلح ما أفسد الَّله !

ومنها أنَّه اختصم إليه بنو راسب والطفاوة في غلام تنازعه الفريقان، فقال : اذهبوا فاطرحوه في النَّهر : فإن طَفَا فوق الماء فهو للطفاوة، وإن رسب فيه فهو لبني راسب . وهذه أيضا تُحكى عن غير هَبَنَّقَةَ، كما سيأتي، والَّله أعلم.

ومنها أنَّه ضلَّ له بعير فقال : من جاء به فله بعيران . فقيل له : أتجعل في بعير بعيرَيْن؟ فقال إنَّكم لا تعرفون حلاوة الوجدان !

وقال اليزيدي :

عِش بجدٍّ ولا يضُرَّنْك نوكٌ   :   إنَّما عيشُ من تَرى بالجُدود
رُبَّ ذي إربةٍ مُقلٍّ من المال   وذي عُنْجُهِيَّةٍ مَجْدُودِ
عِش بجَدٍّ وكُن هَبَنَّقةَ القَيسيَّ   أو مِثلَ شيبَةَ بْنِ الوليدِ !

وسبب قول اليزيدي هذا الشعر أنَّه تناظر، هو والكسائي، في مجلس المهدي، وكان شيبة ابن الوليد حاضرا فتعصَّب للكسائي وتحامل على اليزيدي فهجاه.

يَحْمِلُ شَنٌّ ويُفْدَى لُكَيْزٌ .

الحَمْلُ معروف . تقول : حَمَلْتُ الشيء أحْمِلُهُ حَمْلاً ـ كَضَرَبْتُهُ أضْرِبُهُ

ضَرْبًا ؛ وشَنٌّ اسم رجل، وهو شن بن أفصى بن عبد القيس بن جديلة ؛ وتقول : فَدَّيْتَ الرَّجُلَ تُفَدِّيهِ إذا قلتَ له : جُعِلْتُ فِداءَكَ . قال امرؤ القيس :

فَيارُبَّ مَكروبٍ كَرَرْتُ وراءه   وعانٍ فككتُ الغلَّ عنهُ ففدّاني

والعرب تقول في التفدية : فدتك نفسي، وأبي، وأمّي، وطارفي، وتالدي . وتقول : فديت الرجل ثلاثيًّا، وفاديته إذا فككته ؛ ولُكَيْزُ - بالزاي، على مثل زُبَيْر - هو ابن أفصى، أخو شِنّ المذكور . وكان شن وأخوه لُكَيْز مع أمّهما ليلى بنت قران في سفر، فنزلا بموضع يقال له ذو طُوَى . فلمّا أرادت الرحيل فدت لُكَيْزًا، ثمَّ دعت شنًّا ليحملها . فحملها وهو غضبان حتّى إذا كانا بالثّنيّة رمى بها عن بعيرها وقال : **يَحْمِلُ شَنٌّ ويُفَدّى لُكَيْزٌ** ! فذهبت مثلا يُضرب في وضع الشيء غير موضعه . ثمَّ قال : عليك بجعرات أمّك يا لُكَيْزُ !

ومِثْل هذا المثَل الآتي : **هيك خير حالبيك تنطحين**، وقول الشاعر :

وإذا تكونُ كريهةٌ أُدعَى لها   وإذا يُحاسُ الحيسُ يُدعى جُنُدُبُ !

كما مرَّ . وكلّ ذلك يُضرب في الخطإ في مكافأة المُحسن بالاساءة، والمُسيء بالاحسان .

الحُمَّى أضْرَعَتْنِي إلَيْكَ !

الحُمَّي مرض معروف . يقال : حُمَّ الرَّجُلُ - بضمّ الأوّل - وأحَمَّهُ اللّهُ، فهو مَحْمُومٌ ؛ والاضْراعَ : الاذْلالُ . يقال : ضَرَعَ إليه - بالفتح - يَضْرَعُ ضَرَاعَةً : ذَلَّ وخَضَعَ، وأضْرَعَهُ الغَيْرُ . وهذا المثل يُضرب عند الذّلّ للحاجة.

قال أبو علي القالي : إنّما قيل هذا لأنّ صاحب الحاجة تأخذه رعشة، من الحرص على حاجته . يقول : فهذا الذي في من القِلّ هو الذي أضْرعني ؛ والقِلّ الرِّعْدَة . انتهى . وقوله : القِلُّ الرِّعْدَةُ، يعني بكسر القاف . وحاصل ما ذكره أن ما بالطالب من الحرص المزعج له إزعاج الحمّى هو الذي أضرعه وأذلّه، كما قال الآخر :

أذَلَّ الحِرصُ أعْنَاقَ الرِّجالِ

وهو ظاهـــر.

الحُمَّى أضْرَعَتْنِي للنَّوْمِ .

هذا المثل كالذي قبله في المعنى، وهو هو بعينه . وأوّل من قاله قَرين بن مصاد الكلبي . وكان لصًّا مُبيرًا حتَّى إنَّه كان يقال له الذئب لشدَّة لصوصيَّته . وكان له أخوان : مَرارة ومرَّة ؛ وإنَّ مرارة خرج يتصيَّد الأرْوَى في جبل يقال له أبلق، فاختطفته الجنّ . فانطلق مرَّة أخوه بأثره حتَّى إذا كان بذلك المكان اختُطف أيضا . وكان قرين غائبا. فلمَّا قدم وعلم بأمر أخويه أقسم لا يشرب خمرا ولا يمسّ رأسه غسل حتَّى يطلب أخويه . فتنكَّب قوسه وانطلق الى ذلك المكان . فمكث فيه سبعة أيَّام لا ينام ولا يرى شيئا حتَّى كان اليوم الثامن، فإذا هو بظليم فرماه وأصابه، واستقبل الظليم حتَّى صار في أسفل الجبل. فلمَّا وجبت الشمس بصُر بشخص قائم على صخرة ينادي :

يأيُّها الرَّامي الظَّليم الأسْود   ثبِّتْ مراميكَ ولما ترشد !

فأجابه قرين :

يَـأيـَّها الهاتِفُ فَوْقَ الصَّخْرَهْ   كَمْ عَبْرَةٍ هَيَّجْتَها وعِبْرَهْ

بِقتلِكُمْ مَرارةَ ومُرَّهْ   فرَّقْتَ جمْعًا وتركتَ صخْرَهْ !

فذهب الجنِّيّ وتوارى عنه هونًا من اللّيل . فأصابت قرينًا حمَّى فغلبته عينه فنام . فأتاه الجنِّيّ فاحتمله وقال : ما أنامك، وقد كنت حذرا ؟ فقال قرين : الحمَّى أضرعتني للنوم . ثمَّ انطلق به حتَّى أتى حاضر الجنّ . فلمَّا كان في وجه الصبح، خلَّى سبيله، فقال قرين عند ذلك :

ألا مَن مُبلغٌ فِتيانَ قَومِي   بما لاقَيتُ بعدهُمُ جَميعًا ؟

غَزوتُ الجِنَّ أطلُبُهم بثأري   لأسْقيَهُم به سُمًّا نقيعًا

فيَعرِضُ لي ظليمٌ بَعدَ سبْعٍ   فأرمِيهِ فأترُكُهُ صَريعًا

وكُنت إذا القُرومُ تَعاورَتْني   جَريءَ الصَّدر مُعتزًا منيعًا

بَنى لي مَعْشَري وجدودُ صِدقٍ   بذروةِ شامخٍ بيتًا منيعًا

وعزًا سامعًا ثَبتَ الرَّواسي   تَرى شُمَّ الجبالِ لَه خُضُوعًا

حَمِيَ الوَطِيسُ .

تقدّم في باب الهمزة من كلام النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم، وسيأتي في الأمثال الحديثيّة .

أحْمَى مِنْ مُجِيرِ الجَرَادِ .

الحِمَايَةُ : المَنْعُ . تقول : حَمَيْتُ الشّيء أحْمِيهِ حِمَايَةً إذا حَفِظتَه ومنَعْتَه .

قال جرير :

حَمَيتَ حِمى تِهامَةَ بعد نجْدٍ   وما شَيءٌ حَمَيْتَ بِمُسْتَبَاحِ

وتقول : أجَرْتُ الرّجُل أُجِيرُهُ إذا مَنَعتَهُ من أن يُظلم، فهو جَارٌ . قال الشاعر :

وكُنت إذا جاري دعا لمَضُوفةٍ   أُشمِّر حتّى ينصفَ السّاقَ مِئْزَرِي

وجارَ الرّجلُ واستجارَ : طلب أن يُجار ؛ والجَرَادُ معروف، واحده جَرَادَة، للذكر والأنثى، ومُجِيرُ الجَرَادِ هو مُدْلِج بن سُوَيْد الطّائيّ . ذكروا [أنّه] بينما هو ذات يوم في ظلّ خيمة إذ رأى قوما من طيّء قد أقبلوا ومعهم الأوعية، فقال : ما شأنكم ؟ فقالوا : جراد بات بفنائك، فجئنا نأخذه . فلما سمع ذلك، قام إلى فرسه فركبه وتسلّح وقال لهم : أيكون الجراد بفنائي وتريدون أخذه ؟ واللّه لا يعرض له أحد منكم إلا قتلته ! فلم يزل يحرسه حتى طلعت عليه الشمس وطار، فقال : شأنكم الآن به، فقد تحوّل الآن عن جواري ! فضرب به المثل .

حَنَّ حَنِينَ الثّكْلَى

تقدم معنى الحنين ؛ والثكلى : التي فقدت ولدها، وتقدم أيضا . وحَنِينُ الثّكْلى شديد، كما تقدّم في قولهم : أحَرُّ مِنْ دَمْعِ المِقْلاتِ . وقالت أسماء المرية :

فَإنّ بأكْنافِ الرّغام غريبَةً   مُولّهةً ثكلَى طويلاً نَئِيمُها

وقالت الخنساء في الثكلى من الابل وحنينها :

فما عجولٌ على بَوٍّ تحنُّ لَه   لها حنينانِ : إعلانٌ وإسْرارُ

ترتعُ ما غَفلَت حتَّى إذا اذكَّرت فإنَّمــا هي إقْبــالٌ وإدبَــارُ
يومًا بأوْجعَ منِّي يوم فارقني صخــرٌ وللدَّهــر إحلاءٌ وإمْــرارُ

ونحوه قول عبد الَّله بن الزبير الأسدي :

رمَى الحدثان نِسوةَ آلِ زيـدٍ بمِقدارٍ سَمَـدنَ لَهُ سُمُـودًا
فردَّ شعورَهُـنَّ السُّودَ بيضًـا وردَّ وجوهَهـنَّ البيضَ سُـودًا
فإنَّك لو سَمِعتَ دُعاءَ هِندٍ ورَمْلَة إذ تصُكَّـان الخُـدُودا
سَمِعتَ دُعَـاءَ باكيةٍ حزينٍ أبـانَ الدَّهرُ واحدَها الفَقيـدًا

حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا .

هذا المثل يُضرب للرجل يُدخل نفسه في القوم وليس منهم، أو يتمدَّح بالشيء ليس من أهله . يُروى أنَّ عقبة بن أبي مُعَيْط،[14م] لمَّا أمَرَ رسول الَّله صلَّى الَّله عليه وسلَّم بقتله، قال : أأُقتل من بين قريش ؟ فقال عمر بن الخطَّاب رضي الَّله عنه : **حن قدح ليس منها !** فقال رسول الَّله صلَّى الَّله عليه وسلَّم : **وهَلْ أنْتَ إلاَّ يَهُودِيٌّ** مِنْ صَفُّورِيَةَ ؟ وذلك أنَّهم ذكروا أنَّ أميَّة بن عبد شمس خرج الى الشَّام وأقام بها عشر سنين . فوقع على أمَة يهوديَّة لِلَخْمٍ من صَفُّورِيَة يقال لها ترنى، فولدت له ذكرا، فاستلحقه أميَّة وكنَّاه أبا عمرو، وهو أبو أبي معيط .

حَنَّتْ ولا تَهَنَّتْ .

هذا المثل لمازن بن مالك بن عمرو بن تميم، وذلك أنَّ الهيجمانة بنت العنبر بن عمرو بن تميم بن مرّ كان عبد شمس بن سعد بن زيد مناة بن تميم كان يزورها . فنهاه قومها عن ذلك فأبى، حتَّى وقعت الحرب بين قومه وقومها . فأغار عليهم عبد شمس في جيشه، فعلمت به الهيجمانة فأخبرت أباها . وكانوا يعرفون إعجاب الهيجمانة به كإعجابه بها . فلمَّا قالت هذه المقالة لأبيها قال مازن بن مالك : حَنَّتْ ولا تَهَنَّتْ ! وأنَّى لَها مَقْروعُ ؟[15] ومَقْروع عبد شمس كان يُلقَّب به، لأنَّ القَرِيع والمَقْرُوع في كلام العرب هو المُخْتَار

14م) في **النهاية** لابن الأثير (مادّة حَنَّ) : الوليد بن عقبة بن أبي معيط . وشرح القِدْح بأنه « أحد سهام الميسر، فإذا كان من غير جوهر أخواته ثم حرّكها المفيض بها خرج له صوت يُخالف أصواتها فعُرف به ».

15) في **لسان العرب** : وأنَّى لَكَ صَقْرُوع.

. فقال لها أبوها عند ذلك : أي بُنَيَّة، أصدقيني ! أكذلك هو ؟ فإنَّه لا رأي لمكذوب .
فقالت : ثكلتك إن لم أكن صدقتك، فانجُ لا أخالك ناجيا ! فذهبت كلمة مازن وكلمته
وكلمتها أمثالا . فقول مازن : حَنَّتْ ولاَ تَهَنَّتْ،أراد أنَّها إنَّما كان غرضها أن تذكر عبد
شمس ليجري اسمه على لسانها حنينًا إليه وشوقًا لا شفقة على قومها، ولا نصحًا لأبيها ولا
تحذيرا . وقوله : ولاَ تَهَنَّتْ دعاء عليها، أي : لاَ هَنَّاهَا الَّلهُ بِذَلِكَ ! وأراد : لاَ
تَهَنَّأتْ - بالهمز - من الهناء، ثمَّ خفَّف الهمزة وقلبها ألفا، ثمَّ حذف[16] الألف لملاقاة التاء
السَّاكنة، كما في نَظَائِرِهِ .
قيل : ويُحتمل أن يريد : ولاَتَ هَنَّا، أي ليس هذا الوقت، أو : ان ذلك ولا حينه، كما قال
الأعشى :

لاتَ هنَّا ذكْرى جُبيرَةَ أم مَّن   جاء منْها بطائف الأهْوال !

أي ليس هذا حينُ ذكرها، يأسًا منها . وكما قال الراعي :

أفي أثَر الأظْعانِ عينُك تَطمحُ ؟   نَعم ! لاتَ هنَّا إنَّ قلبَك مِتْيَحُ ![17]

وكما قال جَحْل بن نَضْلَةَ البَاهِلِيُّ :

حنَّت نَوارُ ولاتَ هنَّا حنَّتِ   وبَدا الَّذي كانت نوارُ أجَنَّتِ
لمَّا رأتْ ماء السَّلَى شربًا لها[17م]   والفَرْثَ يُعْصَر في الاناءِ أرنَّتِ

وفي إعرابه كلام مبين في علم النحو . والتَّاء في لاَتَ لتأنيث الكلمة، كما قيل في رُبَّ
وثَمَّ رُبَّتْ وثَمَّتْ . وقيل إنَّها بدل من الألف، لأنَّ التَّاء تبدل من الألف عند الوقف
وعند السجع، كما قيل :

مِن بَعدما وبَعْدمَا وبَعْدِمَتْ   صَارت نفوسُ القَومِ عِند الغَلصَمَتْ

حُورٌ في مَحَارَةٍ .

الحُورُ - بضمّ الحاء وفتحها - وهو مضموما : الهَلاَك والنقصان، ومفتوحًا النقصان
أيضا والرجوع . يقال : حار إليه يَحُورُ حُوراً : رَجَعَ . قال مهلهل بن ربيعة التغلبي :

---
16) في د : حذفت
17) نسبه في لسان العرب الى الراعي وأورده هكذا :
أفي أثَــر الأظعــانِ عينكَ تلــمحُ   نَعَمْ لاتَ هَنَّا، إنَّ قلْبكَ مِتْيَحُ

أَلَيلَتَنَا بِذِي حُسَمٍ أنِيرِي إذا أنْتِ انقَضَيْتِ فَلاَ تَحُورِي !

أي : لا تَرجِعِي ! والمَحَارة النقصان أيضا.

ومعنى المثل : نقصان في نقصان . يقال للرجل يكون أمره في إدبار، أو للرجل ينقص بعد الزيادة، ويكون صالحا فيفسد، ولمن لا يصلح . ومن ورود الحور بمعنى النقصان قول الشاعر:

واستَعْجلوا عن خَفيف المضغِ فازدردوا والذَّمُّ يبقى وزادُ القومِ في حورِ

حِيلَ بَينَ العَيْرِ والنَّزَوانِ .

تقول : حَالَ الشيءُ بيني وبين كذا يَحُولُ حَيْلُولَةً : مَنَعَنِي منه ؛ وحِيلَ بين زيد وبين كذا . قال تعالى **وحِيلَ بَيْنَهُم وبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ** ؛ والعَيْرُ - بالفتح - الحِمَارُ، وسَيِّدُ القَومِ أيضا ؛ والنَّزَوَانُ مصدر قولك : نَزَا الفحلُ على الأنثى، يَنْزُو عليها نَزْواً ونَزَواناً.

والمثل يُضرب للرَّجل يعوقه عن مطلبه عائق . وهو من قول صخر بن عمرو بن الشَّريد :

أهُمُّ بفعْل الحزمِ لَو أستَطيعهُ وقَد حيلَ بَينَ العَير والنَّزوانِ

وسنذكره وما يتعلَّق به في الأمثال الشعريَّة، إن شاء اللّه تعالى.

حَالَ الجَريض، دُونَ القريض .

الجرض الريق يُغصّ به . يقال: جَرِضَ الرجل بريقه يَجْرَضُ - كَفَرِحَ يَفْرَحُ - إذا ابتلعه بجهد على همّ وحزن ؛ والجَريضُ الاخْتِنَاقُ بالريق على الموت . قال امرؤ القيس :

كأنَّ الفتى لَم يَغْنَ في النَّاس ساعةً إذا اخْتَلَف الَّلحْيانِ عند الجَريضِ

ويقال : هو يَجْرَضُ على نفسه، أي يكاد يَقْضِي، ومن ذلك قول امرئ القيس أيضا :

وأفْلَتهُنَّ عِلْبَاءٌ جَريضًا ولَو أدركْنَهُ صَفِرَ الوطَابُ

والقَريضُ : الشِّعْرُ .

ومعنى المثل أنَّ الاختناق بالريق منع من قول الشعر، فيُضرب في كلّ أمر يعوق عنه عائق .

وأوّل من قاله جوشن الكلابي . وكان أبوه منعه من قول الشعر، فمرض حزنًا، فرقّ له أبوه وقد أشرف، فقال له يا بنيّ، انطق بما أحببت ! فقال : هيهات ! **حَالَ الجَريض دُونَ القَريض** . قيل : وأنشد :

عَذيرُك من أبيكَ بضيقِ صَدري   فما تُغني بُيوت الشّعر عنّي !

وقيل أوّل من قاله عَبِيد بن الأبرص، حين وفَد على النعمان في يوم بؤسه وأيقن بالموت، وقال له النعمان : أنشدني ! فقد كان يعجبني شعرك، فقال عَبِيد : حَالَ الجَريض دُونَ القَريض ! وقد تقدّمت قصّته في حرف الهمزة مستوفاة.

وقال أبو محمّد الحريري رحمه اللّه تعالى :

مابـاتَ جارٌ لهُـمُ ساغبـًا   ولا لرَوعٍ قال : حالَ الجَريضْ

حَوّلَ حَابِلَهُ عَلَى نَابِلِهِ .

الحَابِلُ هنا السَّدَى ؛ والنَّابِلُ اللُّحْمَةُ، وقد تقدّما . ومعنى حَوّلَ حَابِلَهُ عَلَى نَابِلِهِ جعل أعْلاه أسْفلَه، وهو ظاهر .

حَوالَيْنَا لاَ عَلَيْنَا .

يتمثّل به كثيرا، وهو من كلام النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم، حين استصحى فقال : **اللّهُمّ حَوالَيْنَا ولاَ عَلَيْنَا** ! أي أنْزِل المَطَر حَوَالَيْنَا، ولا تُنْزِلْهُ عَلَيْنَا! والحديث مشهور .

وقال، مُشيراً الى ذلك على طريق الاقتباس، الصّاحب بن عبّاد :

أقولُ وقَد رأيتُ لها سحابًا   من الهِجران مُقْبلةً إلَينا

وقَد سحّت غَزَالِيها بِهَطْلٍ :   حوالَيْنَا الصُّدودُ ولا عَلَينا !

وتقول : جلست حول الرّجل وحولَيْه وحوالَيْه وأحْوالَه ـ مفتوحات الأوّل ـ وكلّها بمعنى واحد .

حَيْثُ لا يَضَعُ الرَّاقِي أنْفَهُ .

حَيْثُ من ظروف المكان ؛ والوضْعُ : الطَّرْحُ والجَعْلُ . تقول : وضَعْتُ الشيء أضَعُهُ ـ بفتح الضَّاد فيهما ؛ والرُّقْيَةُ ـ بضمّ الراء ـ العُوذَة، رَقَاهُ يَرقِيهِ رَقْيًا، فهو راقٍ له نفث في عوذته . قال عروة بن حزام :

فما تَركا من رُقْيةٍ يعلَمانِها ولا شُربةٍ إلاَّ بِها سَقَيَاني

وهذا المثل يُضرب في الأمر لا يُدنى ولا يُقرب منه .

قال أبو علي القالي : وكأنهم يرون أنَّ أصل ذلك أنَّ ملسوعًا لُسع في استه فلم يقدر الرَّاقي أن يقرب أنفه ممَّا هنالك . انتهى .

قلت : وأورده أبو عبيد في أمثاله بلفظ جَرحَهُ حَيْثُ لا يَضَعُ الرَّاقِي أنْفَهُ، وقال إنَّه يُضرب في الجناية لا دواء لها . فقال البكري عن ابن الكلبي : أول من نطق بهذا المثل امرأة من العرب، وأظنّها زوجة حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ـ أو بنته ـ وكان حنظلة شيخًا كبيرا . فأصابتهم ليلة ريح ومطرٍ وبرق . فخرجت تصلح طنب بيتها، وعليها صِدَارٌ . فأكبَّت على الطنب، وبرقت السَّماء برقة، فأبصرها مالك بن عمرو بن تميم وهي مُجَبِّيَةٌ، فشدَّ عليها حتَّى خالطها، فقالت :

يَا حَنْظَلُ بْن مَالِك لَحَرُّهَا يُشْفَى بِهَا مِن لَيلَةٍ وقَرُّها !

فأقبل بنوها وزوجها، فقالوا لها : مالك ؟ فقالت : لُدغت . قالوا : أينه ؟ فقالت : حَيْثُ لاَ يَضَعُ الرَّاقِي أنْفَهُ . فذهبت مثلا . ومات حنظلة بن مالك، فتزوَّجها مالك بن تميم، صاحب الَّلدْغة، فولدت له نفرا .

أحْيَرُ مِنْ بُرْغُوثٍ .

تقول : حَارَ الرَّجل يَحَارُ حَيْرَةً وحِيرَةً وتَحيُّراً، واسْتَحَار : إذا نظر فلم يهتد؛ والبُرغُوث ـ بضمّ الباء ـ معروف . قال الأعرابيّ :

ألا لَيْتَ شِعري هَل أبيتَنَّ ليلةً ولَيس لبُرغوثٍ عَلَيَّ سَبِيلُ ؟

وهو يطير الى وراء، وذلك من لطف الَّله تعالى به ليرى من يكيده.

أحْيَرُ مِنْ ضَبٍّ .

الحَيْرة تقدَّمت، والضَّبُّ معروف يوصف بالحيرة، وذلك أنَّهم يزعمون أنَّ في طبعه النسيان وعدم الهداية، ولذلك يحفر جحره عند صخرة، أو في أكمة ليلا يضلّ عنه إذا خرج لطلب الطعم، ولذلك توجد براثينه كَلِيلة من حفره الكُدى والأماكن الصلبة، كما قال خالد بن علقمة :

تَرى الشَّرَّ قَد أفنى دوائِرَ وجهه كضبِّ الكُدى أفْنى براثينَه الحَفْرُ

وتقدَّم شيء من هذا في الباء.

الحَيَّة مِنَ الحُيَيَّةِ .

الحَيَّةُ معروف، يقع على الذكر والأنثى، والتاء فيه للوحدة من الجنس، كالبَّطة والدجاجة وحكى بعض الأقدمين : رأيت حيًّا على حيَّة، أي ذكَرا على أنثى.

ومعنى المثل أنَّ الأمر العظيم ينشأ عن الأمر الصغير، وهو كقولهم : العَصَا من العُصَيَّة، وسيأتي . وقريب من قولهم : إنَّ السَّقْطَ يُحْرِقُ الحَرَجَةَ، وقد تقدَّم . وقد جعل بعضهم نظير هذا المعنى من كتاب الّله قوله تعالى : ولاَ يَلِدُوا إلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً .

أحْيَى مِنْ ضَبٍّ .

يقال : حَيِيَ الشيء ـ بالكسر ـ يَحْيَى، حياةً، فهو حَيٌّ ؛ والضَّبّ معروف، ووُصف بكثرة الحياة لطول عمره . فقد ذُكر أنَّه يعيش سبعمائة سنة أو أكثر، ولا تسقط له سنّ، ويبول في كل أربعين يوما مرّة واحدة . قال الشاعر :

إنَّك لَو عُمِّرت عُمْرَ الحِسْلِ أو عُمْرَ نُوحٍ زَمَنَ الفِطَحْلِ
والصَّخْر مَبتَلٌّ كَطينِ الوحْلِ[18]

والحِسْل ـ بالكسر ـ ولد الضَّبّ، [ومن ثمَّ] يقال للضَّبّ أبو حِسْل ؛ والفِطَحْلُ ـ على مثال هِزَبْر فيما يزعمون : زمان كانت الصخر فيه رطبة .

---

18) في الصحاح (مادة فطحل، هامش 2) في نسخة : ... والصخرُ مبتلٌّ كطين الوحْل كنت رهين هرمٍ أو قتل .

وممّا يلتحق بهذا الباب قولهم :

حُبًّا وكَرَامَةً .

يقول الرّجل لآخر إذا طلبه شيئا : نَعَمْ وحُبًّا وكَرامَةً . ويقال أيضا : حُبَّةً وكَرامَةً . والحُبَّةُ - بضمّ الحاء - بمعنى الحُبّ ؛ والكَرامَة من الاكرام، ويقال أيضا : حُبًّا وكُرْمة، وحُبًّا وكُرمانًا - بضمّهما - وقيل المراد بالحُبّ هنا الحُبّ الذي هو الجَرّة العظيمة - وهي الخابية - والكرامة غطاء الجرّة .
وقد يقال : افعل كذا حبًا وكَرامَةً لك - بالفتح - وكُرْما وكُرْمة وكُرْمى وكُرمة عين - بضمّ الكلّ - وليس له فعل ظاهر . وقولهم :

حُطْنِي القَصَا .

أي تَبَاعَد عَنِّي، والقَصَا البُعْد، يقال قَصَا الشيءُ يَقْصُو قُصُوًّا، وقَصِيَ الرجل عن جواري - بالكسر - يَقْصَى قَصًى، أي تباعد . والقصَا أيضا فناء الدار، ويُمَدُّ، والناحية . يقال : ذهبت قَصا فلان، أي ناحيته . وقال الشاعر :

فَحاطونَا القَصا ولَقَد رَأَوْنَا قريبًا حيثُ يُسْتَمَعُ السِّرَارُ

قال في الصحاح، عن الأصمعي : معنى حَاطُونَا القَصَى أي تباعَدُوا عنّا وهُمْ حولنا، وما كنّا بالبعد منهم لو أرادوا أن يدنوا منّا . انتهى . وقولهم :

تَحَلَّلَتْ عُقَدُ فُلاَنٍ .

أي سكن غضبه . ومن الأمثال المشتهرة في هذا الباب على ألسنة النّاس قولهم :

أحْسَنُ مِنْ نَارِ القِرَى .

كانت خولة بنت منظور بن زيان أجمل نساء قومها، فقدمت المدينة لزيارة أختها زوجة عبد الله بن الزبير، فسمع النّاس بها فخطبوها، وفيهم الحسن بن علي رضي الّله عنه . فجعلت

أمرها بيدي أختها، فوكّلت ابن الزبير فزوّجها من الحسن . فلمّا بلغ الخبر أباها جاء المدينة، فركز رايته عند المسجد ونادى : يا آل قيس ! فلم يبق قيسيٌّ إلاّ دخل تحت رايته . فبلغ ذلك الحسن فجاء إليه فقال له : شأنك بابنتك ! فجاءها فحملها معه . فلمّا خرجا قالت له : أوَ يرضى أحد بمثل فعلك ؟ الحسن بن علي وفاطمة، وسبط رسول الـّله صلـّى الـّله عليه وسلـّم، وسيـّد شباب أهل الجنـّة، أين تجد مثله ؟ فقال : صدقت، ولكن تعالـَيْ ننزل بقـُبـَا . فإن كان له غرض فيك، فسيلحقنا ! فبينما هم هنالك، أقبل الحسن والحسين وابن جعفر وابن عبـّاس، فردّها إليه . فولدت للحسن الحسن المثنـّى، أكبر ولده . ولم تزل عنده حتـّى مات . فكثر خطـّابها، فقالت : والـّله لا كان لي حَمْءٌ بعد رسول الـّله صلـّى الـّله عليه وسلـّم ! فكشفت القناع وبرزت للرجال في هيئة المتجالاّت، فيئسوا منها عند ذلك . وكانت معروفة بفعل الخير والتفضـّل، يقصدها النـّاس في حوائجهم فتقضيها . وعاشت كثيرا.

فحُكي عن معبد المغنـّي قال : جئتها ألتمس معروفها، وهي عجوز، وغنـّيتها شعرا قاله فيها بعض مَنْ أراد تزويجها وهي شابة فلم تنكحه، [ومنه] :

قِفَا في دارِ خَوْلـَةَ فَاسْألاَهَا   تَقَادَمَ عَهْدُهَا وهَجرتـُماهَا

بمـحلال كأنّ الـمِسْكَ فِـيهِ   إذَا فَاحَتْ بِأبْطُحِهِ صَبَاهَا

فطربت واهتزّت وقالت : يا عبد بني قطن، أنا والـّله يومئذ أحْسَنُ مِن نَارِ القِرَى في عَيْنِ التـّائِهِ الصدي ! وقولهم :

أحْقَرُ مِنْ ذُبَاب و أحْقَرُ مِنْ قُلاَمَة .

وهو ما يُزال من الظفر . وهذا باب مطرّد . وقولهم :

أحْيَرُ مِنْ طَيْر فِي شَبَكَة .

يريدون الطـّيْر المقنوص في الشـّبكة، الشديد الاضطراب والموَجان ؛ وقولهم :

أحْيَرُ مِنْ بَقـّة فِي حقـّة .

ونحو هذا .

ومن الأمثال العاميَّة قولهم :

حُلَّ عبستَكَ، مَا أرَدْتُ خُبْزَتَكَ !

يضربون للرَّجل يعجز أن يجامل النَّاس بحسن خلقه، فضلا عن ان يسمح بنداه .
وقولهم :

الحِمَارُ حِمَارِي وأنَا أرْكَبُ [مِنْ] وَرَاء !

وقد آن أن نذكر في هذا الباب ما تيسَّر من الشعر . قال الشاعر :

أخَاكَ أخَاكَ، إنَّ مَنْ لا أخَالَهُ   كَسَاعٍ الى الهَيْجا بغَير سِلاحِ
وإنَّ ابن عمِّ المَرءِ فاعلَم جَناحُه   وهَل يَنهضُ البازِي بغير جناح ؟

وقال الآخـــر :

وإنِّي وتَركي نَدى الأكْرمِينَ   وقَدْحي بكفِّيَ زَنْداً شَحَاحَا
كَتَــارِكةٍ بَيضَهَــا بالعَــــرَاءِ   ومُلْحِفَةٍ بَيْضَ أُخرَى جَناحَا

يريد النَّعامة، وتقدَّم ذلك فيها .

وقال عروة بن الورد :

وقُلتُ لقومٍ في الكَنيفِ تَرَوَّحوا   عَشيَّةَ بِتْنا عندمَا وانَ رُزَّحِ
تنالُوا الغِنى أو تبلُغوا بنُفوسِكم   إلى مُستَراحٍ من حِمامٍ مُبرِّحِ
ومن يكُنْ مثلي ذا عِيالٍ ومُقتِراً   يُغرِّر ويَطرح نفسه كلَّ مَطرحِ
ليبلُغَ عُذرا أو يُصيبَ رَغيبةً   ومُبلغُ نفسٍ عُذرَها مثل مُنجِحِ

والكَنِيفُ حظيرة تُعمل للماشية تُحفظ فيها ؛ والرُّزَّحُ جمع رَازِح، وهو السَّاقط المُعيِي هزالا، وهو نعت للقوم ؛ والحِمَامُ - بكسر الحاء - الموت، وجعله مُبَرِّحًا، أي شاقًا لطوله، لأنَّهم يبقون حتَّى يموتوا جوعًا.

وذلك أنَّ عروة مرَّ بقوم من أهله قد جهدوا وحظروا على أنفسهم حظيرة، فقال لهم : ما هذا؟ قالوا : انَّا جهدنا وخفنا على أنفسنا السباع، فعملنا هذا نبقى فيه حتَّى نموت . فلامهم على ذلك واستنهضهم لطلب الرزق . فسار بهم حتَّى نزلوا ماء يقال له مَاوَان لبني فزارة . فمرَّ بهم راكب معه ظعينة على بعير ومائة ناقة . فقام إليه عروة فقاتله حتَّى قتله .

فأخذ ذلك وقسمه على أصحابه .

وقوله : **ومُبلغُ نفسٍ عُذْرَها مثلُ مُنْجِحٍ** : مثل سائر عند القوم، ويريد به أنَّ من جدَّ في الطَّلَب، وعانى المشقَّة والتَّعَب، فهو إن ظفر فذلك ما يَسْعَى إليه، وإن لم يظفر فلا ملامة عليه، كما قال امرؤ القيس :

نُحَاوِلُ مُلْكًا أَونَمُوتَ فَنُعذَرا

وسيأتي ما يناسب هذا المعنى، إن شاء الله .

وقال ابن هرمة :

يُحِبُّ المَدِيحَ أبُو ثَابِتٍ ويَفْرَقُ مِن صِلَةِ المَادِحِ
كَبِكْرٍ تَشَهَّى لَذِيذَ النِّكَاحِ وتَجْزَعُ مِن صَوْلَةِ النَّاكِحِ

وقال الحماسي عمرو بن الإِطْنَابَة الأنصاريّ :

أبَتْ لي عِفَّتي وأبَى بَلائِي وَأَخْذِي الحَمدَ بالثَّمَنِ الرَّبِيحِ
وإجْشامي على المَكروهِ نَفْسي وضَربي هامَةَ البَطَلِ المُشِيحِ
وقَولي كُلَّما جَشَأتْ وجَاشَتْ : مَكانَكِ تُحمدِي أو تَستَريحِي
لأدْفَعَ عن مآثِرَ صَالِحَاتٍ وأحْمِيَ بَعدُ عَن عِرِضٍ صَحيحِ

الإِجْشَامُ : الإِكْرَاه على تحمّل المشقّة ؛ والمُشِيح والشَّائِحُ : الجادُّ في الأمر ؛ وجَشَأَتْ نفس الرَّجل : تحرّكَت واضطربت من جزَع أو حزن ؛ وجَاشَتْ : مَاجَتْ واضطربت، ومنه الجَيْشُ، لِمَوجانه بعضه في بعض ؛ والمَآثِر ما يُذكر عن الانسان ويؤثَر عنه ؛ والعِرْض الصحيح : الذي لم يعلق به عيب فيمرضه .

وقال جميل بن معمر :

أُريدُ صَلاَحَهَا وتُريدُ قَتْلي فَشَتَّى بَين قَتْلي والصَّلاحِ !

وقبله :

تَنَادى آلُ بُثْنَةَ بِالرَّواحِ وقَد تَركُوا فُؤادَكَ غَير صَاحِ
فَيا لَكَ مَنْظرا ومَسيرَ ركبٍ شجاني حينَ أمْعَن في الفَيَاحي
ويا لك خلّةً ظَفِرَت بعَقْلي كما ظَفِر المُقامِرُ بِالقِداحِ !

وبعده أُريدُ صَلاَحَهَا (البيت)

لَعَمْرُ أبيكِ لا تَجِدينَ عَهْدِي كَعَهدِكِ في المَودّةِ والسَّماحِ

ولــو أرسَلتِ تَـستهْديـنَ نفسي أتاكِ بها رسولـُكِ في سَـراحِ

وقال أبو الطيّـب :

وما كان تَـركُ الشّعر إلاّ لأنـّهُ تـُقصِرُ عن وصْفِ الأميرِ المَدائِـحُ

قلت : وما أحقَّ أن يـُتمثّـل بهذا عند ترك الاشتغال بمديح النبيّ صلـّى الـّله عليه وسلـّم ! فإنّ أكثر الفحول [تركوه] واشتغلوا بمديح غيره . وما ذلك إلاّ عجزًا : فإنّ نباهة مكانه صلـّى الـّله عليه وسلـّم، وجلالة جانبه تبهر العقل وتحيـّر الفكر، فلا يستطيع أن يـَجُولَ فيه، ولو جال لـَقـَصـَّرَ . وقد ذكر ابن الخطيب رحمه الـّله هذا المعنى في صدر كتاب **السحر والشعر** له، بعد أن ذكر مقطعات لبعض الأدباء في مدحه صلـّى الـّله عليه وسلـّم، فقال : وكما أنّ الشعر لم يتعلـّمه رسول الـّله صلـّى الـّله عليه وسلـّم ولا ينبغي له لئلاّ يرتاب المبطلون،وذلك في حقـّه كمال، بخلاف غيره ، كذلك يبعد أو يمتنع أن يوجد قسم السحر في مدحه، إذ أصله الإغياء والمحاكاة والخيال والتمجين، حتـّى قال : ووقار جانبه صلـّى الـّله عليه وسلـّم يبهر النفس ويمنع من استرسالها في ذلك . فالمُجيد فيه من عوّل على نصاعة اللفظ، وقـَصـْدِ الحقّ، وقـُرب المعنى، وإيثار الجدّ . انتهى .

قلت : ومن أسباب ذلك أيضا أنّ المديح إنـّما يحسن ويستغرب لاشتماله على محاسن وأوصاف كمال للممدوح، يتفطـّن لها الشاعر دون غيره، ويبالغ فيها أكثر ممـّا يتسحقّ الممدوح ويظنّ به .

وقد عـُلم في حقّ النبي صلـّى الـّله عليه وسلـّم أنّ كل ما يتخيـّله الشاعر من المحاسن والكمالات، فالنبي صلـّى الـّله عليه وسلـّم زائد على ذلك وأرفع منه، إذ لا يبقى فوق كماله صلى الله عليه وسلم إلاّ كمال الألوهيـّة، وليس لأحد أن يثبته له، فلم يبق للشـّاعر إلاّ أن يبيـّن ما هو عليه أو أنقص، وكلاهما لا طائل فيه، مع أنّ تبيان قدره صلى الله عليه وسلم متعذّر عادة، إذ لا تصل إليه العقول، فليس إلاّ القصور . ولـّله درّ القائل :

مَا قـَصـَّر الشـّعراءُ فيكَ تـَعمـُّدا بـَل دقَّ عن أفكارهِـم مـَعناكا

نعم ! يمكن الاتيان بشيء من حلاه صلـّى الـّله علين وسلـّم وأوصافه على نوع من الغرابة وضرب من المبالغة، بحسب ما يرى النـّاس من حاله صلـّى الـّله عليه وسلـّم.

وقال أيضا :

أيكونُ الهِجانُ غيرَ هِجانٍ ؟ أيكونُ الصُّراحُ غيرَ صُراحِ ؟
جَهِلوني وإن عَمرتُ قليلاً نَسَبَتني لهُم رؤوسُ الرِّماحِ

وقال أيضًا :

تخْفَى العَداوةُ وهْيَ غَيْرُ خفيَّةٍ نظرُ العَدوِّ بما أسرَّ يبوحُ

وقال أيضًا :

فَقُلتُ لكلِّ حيٍّ يومُ سوءٍ[20] وإن حَرصَ النُّفوسُ على الفَلاحِ

وقال أبو العلاء المعرّي :

وأمْراضُ المواعد أعْلَمَتني بأنَّ وراءَها سُقمًا صحيحَا

وقــال :

أعُبَّادَ المَسيحِ يَخافُ صَحْبِي ونَحنُ عَبيدُ مَن خَلَق المَسيحَا

وقــال :

وما لِلمِسكِ في أن فَاحَ حَظٌّ ولَكن حظُّنا في أن يَفُوحَا

وقــال :

وذلِكَ أنَّ شِعركَ طَالَ شِعري : فما نِلتُ النَّسيبَ ولا المَديحَا
ومَن لم يستَطِع أعْلامَ رَضْوَى لِينزِلَ بَعضَها نَزَل السُّفُوحَا

وهذا في معنى ما مرَّ لأبي الطيّب :

وقال الشاعر :

إذا أبْطَا رسولُكَ فَارجُ يُسرًا : فَفي إبْطائِهِ أثَرُ النَّجاحِ !

وهذا يشبه قول أبي الطيّب :

ومِن الخَيرِ بُطءُ سَيبِكَ عنّي أسْرعُ السُّحبِ في المَسيرِ الجَهامُ

وقال الآخـر :

إذا أنتَ لم تَصلُح لنفسِكَ لم تَجد لَها أحدًا من سائِرِ النَّاس يصلُحُ

وقال الآخــر :

جبينُك والعِمامةُ والثَّنايَا صباحٌ في صباحٍ في صَبَاحِ

وقال الآخـــر :

دعِ النَّاسَ طُرًّا واهجُر النَّاس كلَّهُمِ ... إذا كُنت في أخْلاقِهِم لا تُسامحُ !

وقال الآخـــر :

صَديقٌ بِلاعَيبٍ قليلٌ وجُودهُ ... وذِكْرُ عُيوبِ الأصْدقَاءِ قَبيحُ

وقال الآخـــر :

طَلَبت بِكَ التَّكْثِير فَازدَدتُ قلَّةً ... وقَد يخْسَرُ الانسَانُ في طَلَب الرِّبحِ

وقال الآخـــر :

كأنَّني الجَزَّارُ فِي فِعْلِهِ : ... مَا قَالَ بِسمِ اللَّهِ إلاَّ ذبَحْ

وقال الآخـــر :

كُن في أمانِ اللَّهِ مِن خَاطرٍ : ... مِثلُكَ لا يُهجَى ولاَ يُمدحُ

وقال الآخـــر :

لَيسَ عارًا بأن يُقال مُقِلٌّ : ... إنَّما العَارُ أن يُقَالَ شَحِيحُ

ومثله قول الآخـــر :

ألَم تَعلَمي يَا عَمْرَكِ اللَّهَ أنَّني ... كريمٌ علَى حِينِ الكرامُ قليلُ

وأنِّيَ لا أخْزَى إذا قيل مُملِقٌ ... كريمٌ وأخْزَى أن يُقال بخيلُ

وقول الآخـــر، من شعراء **الحماسة** :

أجلَّكَ قومٌ حينَ صِرتَ إلى الغِنى ... وكُلُّ غنيٍّ في العُيُون جَليلُ

وليسَ الغِنى إلاَّ غِنَى زَيَّنَ الفَتى ... عَشيَّةَ يَقْري أو غَداةَ يُنيلُ

وقال حسَّان بن حنظلة :

تِلكَ ابنَةُ العَدويِّ قالت باطلاً ... أزْرى بقَومِكَ قلَّةُ الأمْـــوالِ

إنَّا لَعَمْرُ أبيكِ يحمَدُ ضَيفُنا ... ويَسُودُ مُقتِرُنَا عَلَى الاقْلاَلِ

وقول الآخـــر :

لَنا حَمْدُ أربابِ المِئينَ ولا يُرى ... إلى بَيتِنا مَالٌ مَع اللَّيلِ رائحُ

وقول الآخـــر :

بَكَرَ العَواذِلُ بالسَّوادِ يَلُمنَني ... جَهلاً يَقُلْنَ : ألا تَرى ما تصنَعُ ؟

أفْنَيتَ مالك في السَّفَاهِ، وإنَّما ... أمْرُ السَّفاهَةِ ما أمَرنَكَ أجْمَعُ

وقُتودِ ناجيةٍ وضعتُ بقَفْرةٍ والطَّيرُ عاشِيَةُ العوافي وقّعُ
بمُهنّدٍ ذي حِليةٍ جَرّدتُه يَبْري الأصمَّ من الكُعُوب ويَقْطَعُ
لتَنوبَ نائبَةٌ فيُعلَمَ أنّني ممَّن يُغَرُّ على الثّناءِ فيُخْدَعُ
إنّي مُقسِّمُ ما مَلَكْتُ فجاعِلٌ أجْرًا لآخِرةٍ ودُنْيا تَنْفَعُ

وقول أبي زياد الأعرابي :

لَه نارٌ تَشُبُّ علَى يَفَاعٍ إذا النّيرانُ ألبسَتِ القِناعَا
ولَم يَكُ أكْثَرَ الفِتيانِ مَالاً ولَكِن كانَ أرحَبَهم ذِراعَا

وقول الآخر :

ولَيسَ بأوسَعِهِم فِي الغِنَى ولَكِنَّ مَعْروفَهُ أوْسَعُ

وقال الآخر :

وتبًّا لِمَن بَخِلَت نَفْسُهُ بشَيءٍ يَؤُولُ إلى المُسْتَرَاحْ

أي : المرحاض. وقال الآخر :

وشَيئَانِ مَعدومان في الأرض : درهمٌ حَلالٌ، وخِلٌّ في الحَقيقةِ ناصحُ

وقال الآخر :

ويُؤلِمُني جَميلٌ لاَ أكَافَا عَلَيهِ كأنَّهُ عِنْدي قَبيحُ

وقال الآخر :

هَجَوتُ زُهَيْرًا ثُمَّ إنّي مَدحْتُه وما زالتِ الأشْرافُ تُهجَى وتُمدحُ

وقال الآخر :

لا يَصحَبُ الانْسَانَ في قَبْرِهِ غَيرُ التُّقَى والعَمَلِ الصَّالِحِ

وقال الآخر :

وما العَيشُ إلاّ في الخُمول معَ الغنى وعافيةٍ تَغْدو بِها وتَروحُ

وقال الآخر :

وما كُلَّ حينٍ يصدُقُ المَرءَ ظنُّه ولا كُلُّ أصحابِ التِّجارةِ يَربَحُ

وقال مَعْنُ بنُ أوْس :

رأيْتُ رجالاً يَكرهُونَ بناتِهِم وفيهِنَّ لا تكْذِبْ نساءٌ صَوالِحُ
وفيهِنَّ والأيّامُ يَعْثُرنَ بالفَتَى عَوائِدُ لا يَمْلَلْنَهُ ونَوائِحُ

وقال الآخـــر :

ولاَ تُفشِ سِـرِّيَ إلاَّ إلَـيكَ فإنَّ لِكُلِّ نَـصيحٍ نَـصيحَا !
فَـإنِّي رأيْتُ غُـوَاةَ الرِّجَـالِ لا يَـتْرُكُـونَ أديمًـا صَحيحَـا

قيل : وكان أمير المؤمنين عليّ ـ كرَّم اللّهُ وجهه ـ يتمثّل بهذَيْن البيتَـيْن كثيرًا، وقيل إنّهما له . والاديمُ : الجِلْد، استُعير هنا للعرِض، وجعل كلام الوشاة سهاما يُرمى بها الأعراض حتّى تهتكها. ومثله قول ابن الخيّاط :

فَلا تَعدلْ إلى الوَاشِينَ سَمْعًا فإنَّ كَلاَمَ أكْثَرِهِـــم كِلامُ
وإنَّ الـوُدَّ عِندهُـمُ نِـفَـاقٌ إذا طاوعْتَهُـم والحَمْـد ذَامُ
وأقـوال إذا سُمِـعَتْ سِهَــامٌ تُقَصِّرُ عَنْ مَواقِعِهَا السِّهَامُ
فَمَا نَصحُوا لمجْدكَ بَلْ مُرَادًا لما قَد ساءنِـي قَعَدوا وقاموا
فَلَيتكَ تَسمَعُ القَولَينِ حَتّى تبيَّنَ في مَنِ الحَقُّ الخِصَامُ !

وقالت فاطمة بنت الأحْجَم الخزاعيّة ترثي أخاها ـ وقيل ليلى بنت يزيد بن الصعق ترثي ابنها قيس بن زياد ـ :

قَد كُنتَ لِي جَبَلاً ألُوذُ بظلّه فَتَركْتَني أضْحى بأجْرَد ضَاحِ
قَد كُنتُ ذاتَ حميَّةٍ ما عِشتَ لي أمْشي البَرازَ وكُنت أنت جَنَاحي
فاليَومَ أخْضعُ للذّليلِ وأتّقي منه وأدفَـعُ ظالـمي بالــرّاحِ
وأغُضُّ من بَصَرِي وأعْلَمُ أنّهُ قَد مات خيرُ فَـوارسٍ ورماحِ[21]
وإذا دعَتْ قُمْريَّةٌ شَجنًا لَهَا يومًا علَى فَنَنٍ دعَوتُ صباحي

وتمثّلت بها فاطمة أمّ السبطين ـ رضي اللّه عنها ـ يوم وفاة أبيها صلّى اللّه عليه وسلّم. ومعنى : دعَوتُ صَبَاحِي أي قلت : واسُوءَ صَبَاحَاهُ ! لعدم ناصري فيه .
وفي معنى الأوّل قول أبي الوفاء يرثي غازي :

أيا تَارِكِي ألقى العَدوَّ مُسلَّمًا متى ساءنِـي بالجِدِّ قُمتُ ألاعِبُه

وقال سعد بن قيس :

كَشَفَتْ لَهُـم عَـن سَاقِهَــا وبَـدَا مِـنَ الشَّـرِّ الصُّـرَاحُ
فالهَــمُّ بَـيْضَـاتُ الخُــدُورِ هُنَــاكَ لاَ النَّعَـمُ المُـرَاحُ

والضمير في كَشَفَتْ للحرب في قوله :

يا بُؤسَ لِلْحَرْبِ الّتي   وضَعَتْ أراهِطَ فَاسْتَرَاحُوا

وكشف السَّاق كناية عن اشتدادها، أخذ من كَشْفِ الرَّجلِ عن سَاقه وتَشْمِيره إذا جدَّ في الأمر، كما قيل :

وكُنتُ إذا جَاري دَعَا لِمَضُوفَةٍ   أُشَمِّرُ حتَّى ينصِفَ السَّاقَ مِئزري

والصُّرَاح : الخَالِص، أصله اللَّبَن الذي ذهبت رغوته، كما مرَّ ؛ فالهمُّ بَيْضاتُ الخُدور، إلخ... فيه وجهان : أحدهما أنَّه يقول : إنَّا حينئذ لا نبالي بأموالنا أن تذهب، وإنَّما همّنا الدفع عن حريمنا ؛ والآخر أن يريد : انَّا ظهرنا على العدوّ ولم نلتفت إلى أموالهم وأخذها، وإنَّما همّنا منهم القتل والسباء وهو أفخر .

وقال أحدُ بَنِي يَشْكُر :

ألا أبْلِغْ بَنِي ذُهْلٍ رسُولاً   وخُصَّ إلى سَرَاةِ بَنِي البِطَاحِ

بأنَّا قَد قَتَلنَا بالمُعلَّى   عُتَيبَةَ منكُمُ وأبَا الجُلاحِ

فإن تَرضَوْا فإنَّا قَد رضِينَا   وإن تَأبَوا فَأَطْرافُ الرِّمَاحِ

مُقَوَّمَةٌ وبِيضٌ مُرهَفَاتٌ   تُبينُ جَماجِماً وبَنَانَ رَاحِ

وقال الحَيْصَ بَيْص :

مَلَكْنا فكان العَفوُ منَّا سجيَّةً   فلمَّا ملكْتُم سالَ بالدَّم أبْطَحُ

وحلَّلتُم قَتْلَ الأسَارَى وطالَما   غَدونا عَلى الأسْرى فَنَعفُو ونَصفحُ

ويُحكى عن بعضهم قال : رأيت الامام عليَّ بن أبي طالب كرَّم اللّه وجهه في المنام، فقلت له : يا أمير المؤمنين، تفتحون مكّة وتقولون : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ثمَّ يؤثم على ولدك الحسين مآثم ؟ فقال لي : أسمعت أبيات ابن الصيفيّ في هذا، وهو الحَيْص بَيْص ؟ فقلت : لا . قال : اسمعها منه ! قال : فانتبهت، فلمَّا أصبحت بادرت إلى دار الحَيْص بَيْص فأخبرته بالقصَّة فبكى وحلف باللّه ما خرجَتْ من فيه إلى أحد، وما نظمها إلاَّ في ليلته، فأنشدني : مَلَكْنَا فَكَانَ العَفْوُ مِنَّا (البيتَيْن).

وقال الحماسي أحد بني الحارث بن كعب :

لَنا حَمْد أربابِ المِئِينَ ولا يُرى   إلى بَيتِنا مالٌ مَع اللَّيْلِ رائِحُ

وقال مالك بن أسماء، من شعراء الحماسة أيضا :

وحَسْبُكَ تُهمةً بِبريءِ قَومٍ يَضُمُّ على أخِي سَقَمٍ جَنَاحَا

وقبلـه :

هَجَوتُ الأدعِياءَ فَنَا صَبَتْنِي مَعاشرُ خِلتُها عربًا صِحَاحَا

فَقُلت لَهُم وقَد نبحُوا طويلاً إليَّ وما أجَبْتُ لَهُم نُبَاحَا :

أمِنهُمْ أنتُمُ فأكُفَّ عنكُم وأدْفَعَ عَنكُم الشَّتْمَ الصُّرَاحَا ؟

وحَسْبُكَ (البيت)

والمُنَاصَبَةُ : المُعَادَاةُ . يقول : إن عادَيتموني بسببهم وذببتم عنهم، فأنتم منهم ولا أهجوكم لِلُؤْمِكم، وكفى بكم ريبةً أن تضمّوا الجناح على المريبين .

وقال الآخـر :

وإنِّي لأغْلي لحْمَها وهْي حيَّةٌ ويَرخُصُ عِندي لحمُها حينَ تُذْبَح

بِذا فَأندبِيني وآمْدحِيني فإنَّني فتًى تَعْتَريني هِزَّةٌ حينَ أُمْدَحُ

وتقدّم هذا الشعر وما كان بمعناه .

وقال الآخـر :

ونَصرُ الفَتى في الحَربِ أعداءَ قومِه على قومِه للمَرءِ ذي الطّعم فاضِح

وقبلـه :

دعاني أبو نَصرٍ وأهْدى نَصيحَةً إليَّ وممَّا أنْ تَعِزَّ النَّصائِحُ

لأجْزِرَ لحْمي كَلبَ نبْهَانَ كالَّذي دعا القاسِطي حتفُه وهْوَ نَازِحُ

أو البُرجُميّ حينَ أهْداهُ حَيْنُهُ لنارٍ عليها مَوقِدانِ و ذابِحُ

ورَأْيِ أبي سَعْدٍ وإن كان حازمًا بصيرًا وإن ضَاقَت عَليه المَسارحُ

أعانَ به مَلعُونَ نبهَانَ سَيفَهُ على قومِه والقَولُ عاقٌ وجارحُ

ونَصْرُ الفَتَى في الحَربِ (البيت)

وقوله : لا جزر لحمي أي : أصيّر نفسي جَزَرة، والجزرة البدنة تنحر . قال عنترة :

إن يَعْقِرا مُهْري فإنَّ أبَاهُمَا جَزرٌ لخَامعَةٍ ونَسْرٍ قَشْعَم[22]

22) أورد في **لسان العرب** هذا البيت (في مادة جزر) لألفاظ تكاد تكون كلها مغايرة :

إن يَفْعلا، فلقد تركتُ أباهُما جَزَرَ السِّباعِ وكلِّ نَسْرٍ قَعْشَمِ

والقَاسِطِيّ الذي ذكره هو أحدُ القارظين الهالكين، وسيأتي فيهما المثل ؛ والبرجمي هو وافد البراجم المتقدّم ؛ وقوله : للمرء ذي الطّعم، أي ذي العَقْل والمعرفة . وقال الحماسي أشجع السلمي :

مَضَى ابن سَعيدٍ حين لم يبق مشرقٌ ولا مغْربٌ إلاّ له فيه مادحُ
وما كُنت أدري ما فواضِل كفّه على النّاس حتّى غيّبته الصّفائح
فأصْبَح في لحْدٍ من الأرض ميّتًا وكان به حيًّا تضيقُ الصّحاصِحُ
فما أنا من رُزْءٍ وإن جلّ، جازعٌ ولا بسُرورٍ بَعد مَوتِك فارحُ
كأنْ لم يَمت حيٌّ سواكَ ولَم تَقُم على أحَدٍ إلاّ عَليكَ النّوائِحُ !

وقال ابن المعتزّ :

كَما يُخْلق الثّوبَ الجديد ابتذالُه كَذا يُخلِق المَرءَ العُيُونُ الطّوامِحُ

ومن هذا قولهم : **طُولُ المُجَالَسَة يُخْلِقُ** . وقد قال أزْدشِير لابنه : لا تمكّن النّاس من نفسك : فإنّ أجْرأ النّاسِ على الأسُود أكثرُهُم لها معاينة !

وقال أبو بكر بن النطّاح في المدح :

يَتلقّى النّدى بوجْهٍ حَيِيٍّ وصُدورَ القَنَى بوجْهٍ وقَاحِ
هَكذا هَكذا تَكونُ المعَالِي : طُرُقُ الجَدِّ غَيرُ طُرْقِ المُزاحِ !

والبيت الثاني ذهب مثلا سائرا . وقال مجد الدين الاربلي :

طَرفي وقَلبي : ذا يَسيلُ دمًا، وذا بَين الورَى أنتَ العَليمُ بقَرحِهِ
وهُما بحُبِّكَ شاهِدَانِ وإنّما تَعْديلُ كُلٍّ منهُمَا فِي جُرحِهِ

ونحو هذا من التوجيه قول الآخر :

زُرت الامامَ الشّافعيّ ولَم أكُن يومًا زيارةَ قَبْرِهِ بالتّاركِ
فَوجَدتُ مَولايَ الحَبيبَ يَزُورهُ فَظَفِرتُ عند الشّافعيِّ بمالِك

وقول الآخر :

وعَاطَيتُه عِلْم البَديعِ وخَدُّه يُعلّمُني تَلْوينُه عِلمَ جَابِرِ
وصَفحته من شَوقِي مُدوّنَةُ الرِّضَى لثَغرٍ فأفتاني بنَصٍّ الجَواهِرِ

وقول الآخر :

لا غَروَ أن يَصْلَى الفُؤادُ ببُعدكُم نارًا تُؤجّجُها يَدُ التّذكارِ :

قَلبي إذا غِبتُم يُصورٍّ شخْصكُم فيه وكُلُّ مُصورٍ في النَّارِ !

وقال الآخر في هذا المعنى :

ألا إنَّ حالي في هَواكَ خَفِيَّةٌ ولَكِن لعَينِي بالصَّبابَةِ تَبريحُ
عَجِبتُ لِدمْعٍ لا يَزالُ مُروِّيًا فيقبِلُ في آثارهِ وهْوَ مَطروحُ
وأعْجَبُ مِن ذا أنَّ خَدِّيَ شاهدٌ يُصدَّقُ في أقوالِه وهْو مَجْروحُ

وقال أيضا :

ومُحكَّمِ التَّلحظَاتِ في مُهَجِ الورَى تحْكيمَ نار هَواهُ بَينَ جَوانِحي
جَرحَ الفُؤاد فَطَار مِن ولَعٍ به كَيفَ الخَلاصُ لطائرٍ من جارحِ ؟

ومثله أيضا قوله :

أحادثُه بالفِكر فَهْوَ مُنادمي على الدَّهر لا أبْغي عليه بَديلاَ
تملَّكَ قَلبي فَهْو رهْنَ اعتقَاله فَمن شاء يُبصرْ مالكًا وعقيلاَ

وتقدَّم لنا هذا المعنى في حرف الثاء، مستوفى، وسنعيد منه كثيرا .

وقال القاضي أبو الفضل عياض رحمه اللّه :

أُنْظُرْ إلى الزَّرعِ وخَامَاتِهِ تَحْكِي وقَد مَاسَتْ أمام الرِّياحْ
كَتيبَةً خَضْراءَ مَهْزومَةً شَقَائِقُ النُّعمَانِ فيها جِراحْ

ومثله قول الآخر :

فَتْحُ الشَّقائق جَرحاها، ومَغنَمها وشْيُ الرَّبيع ، وقَتلاها من الثَّمَر
لأجْلِ هَذا إذا هبَّت طَلائِعُه تَدرَّع النَّهْر واهْتزَّت قنا الشَّجر

ونحو هذا من حسن التعليل في هذا المعنى قولي :

إنَّ بَينَ الغَمامِ والزَّهَر الغَضِّ لَرِحْماً قديمةً وإخَاءَ
بانَ إلفٌ عَن إلْفِهِ فَتوارَى في الثَّرى ذا وذَاكَ حلَّ السَّماءَ
فإذا ما الغَمامُ زارَتْ جَنَاباً آذنَت فيه بالحَبيبِ الّلقَاءَ
ذكَرتْ عَهْدهُ القَديمَ فَحنَّت عِنْدَ لُقْياهُ فاسْتَهلَّت بُكاءَ
فَترى الزَّهر بارزًا من خَبَايَاهُ يُحَيِّي الوفُودَ والأصْدِقَاءَ
بَاديَ البِشْرِ والبَشَاشَةَ جَذلا نَ لَبوسًا مِن كُلِّ لَونٍ رداءَ
ثمِلاً من شَمُوسِ شَمْسِ الضُّحَى وهْوَ عَلى بُسْطِ سُنْدسٍ خَضْراءَ

راقصًا والصَّبا تُهَنِّيه والـوُ رْقُ غَواني القِيَانِ تشدو غِناءَ

وما رأيت أحدا ولا أظنه سبقني إلى هذا المعنى، لا تصريحًا ولا تلويحًا.

وقال الحسن بن هانىء :

مازلْتُ أشربُ روحَ الزِّقِّ في لَطفٍ وأستَميح دمًا من غَير مَجروحِ
حتَّى اغْتديتُ ولي روحان في جسدي والزِّقُّ مُطَّرحٌ جسمٌ بِلا روحِ

وقال أيضا من هذا المعنى :

أذكى السِّراجَ وساقي القَومِ يمزجُها فَلاحَ في البَيتِ كالمِصْباح مِصْباحُ
كِدنا على عِلمنا للشَّكِّ نَسْألُه : أراحُنا نارُنا أمْ نارُنا الرَّاحُ ؟

وسيأتي هذا المعنى مستو فىً بعدُ . وقال ابن الخيَّاط في صفة سحاب :

أخْفى مَسالكَها الظَّلامُ فأوقَدتْ من برقِها كَيْ تهْتدي مِصْباحا
وكأنَّ صَوتَ الرَّعد خَلْفَ سَحابِها حادٍ إذا ونَتِ الرَّكائِبُ صَاحَا

وتقدَّم هذا المعنى في حرف الهمزة . وقال عبد اللّه بن المعتزّ :

كأنَّ سماءنـــا لمَّـــا تجلَّتْ خِلالَ نُجُومِهَا عِنْدَ الصَّبَاحِ
ريَاضُ بَنَفْسَجٍ خَضِلٌ ثَرَاهُ تفـتَّحَ بينَهُ نَـوْرُ الأقَـاحِ

وقال ابن الزقَّاق :

فَبتُّ وقَد زَارتْ بأنْعَمِ لَيْلَةٍ تُعانقُني حتَّى الصَّباحِ صَبَاحُ
على عَاتقي من ساعِديْها حَمائِلٌ وفي خَصْرِها من سَاعِدَيَّ وشَاحُ

وقال إدريس بن اليماني :

ثقُلَت زُجاجاتٌ أتَتنا فُرَّغًا حتَّى إذا مُلئَتْ بِصِرفِ الرَّاحِ
خَفَّت فَكادتْ أن تَطِيرَ بما حوتْ وكذا الجُسُومُ تخِفُّ بالأرواحِ

وقال الآخر في وصف الروض :

ورياضٍ من الشَّقائِـقِ أضْحَت تَتَهادَى بها نسيمُ الرِّياحِ
زُرتُها والغَمامُ يَجلِدُ منْهَا زهَرَاتٍ تفـوقُ لَـونَ الـرَّاحِ
قُلتُ : ما ذنْبُها ؟ فقال مُجيبًا : سرقَتْ حُمرةَ الخُدودِ المـلاحِ !

وقال الآخر في زورق :

لَو أبْصَرت عيناكَ زورقَ فِتْيةٍ يُبْدي لهُم لَمْح السُّرورِ مِراحَهُ

وقَد استَدارُوا تَحتَ ظِلٍّ شِراعِهِ كُلٌّ يَمُدُّ بكأسِ راحٍ راحَهُ
لَحَسبتَهُ خَوفَ العَواصِفِ طَائِرًا مدَّ الحَنانُ على بَنيهِ جَناحَهُ

وقال ابن الرومي :

قالت : عَلا النَّاس إلاّ أنت قُلتُ لها: كذاك يسْفُلُ في الميزانِ مارجَحَا

وقال أبو إسحاق بن الحاج :

يا مالكي بِصَبيحِ وجْهٍ حُسنُهُ أربَى على فَلقِ الصَّباحِ الأوضَحِ
ما شكَّ قَلبي فيكَ أنَّك مالكٌ لمَّا عُرِفْت وسامةً بالاصْبحِ

وقال سيف الدولة :

لا أُؤاخِذكَ بالجَفَاءِ فَإنِّي واثِقٌ مِنكَ بالوفَاءِ الصَّرِيحِ
فَجَميلُ العَدُوِّ غَيرُ جَميلٍ وقَبيحُ الصَّديقِ غَيرُ قَبيحٍ !

وقال مهيار :

أذكُرونا مثْلَ ذِكْرانَا لَكُمْ رُبَّ ذكْرى قرَّبَت مَن نَزَحَا
وارْحَموا صبًّا إذا غَنَّى بِكُمْ شَربَ الدَّمْعَ وعَافَ القَدَحَا
وعَرفْتُ الهَمَّ مُذْفَارَقْتُكُمْ فكأنِّي مَا عَرفْتُ الفَرَحَا !

وقال شرف الدين الحَمَوِيّ، شيخ الشيوخ :

حَديثي في المحَبَّةِ ليسَ يبرحْ : فَدعْني من حديثِ اللومِ واسْرَحْ
فما لَكَ مَطْمَعٌ بِبَراحِ قَلْبي عَن الحُبِّ الَّذي أعْيا وبَرَّحْ
فكم مِن لائِمٍ ألْحى إلى أنْ تأمَّل مَن هَويتُ فَما تَنَحْنَحْ
فَيا للَّهِ ما أشْهَى وأبْهَى ويا لِلَّهِ ما أحْلى وأمْلَحْ !
لَه طَرفٌ يقول : الحَربُ أحْرَى ولي قلبٌ يقول : الصُّلحُ أصْلَحْ
سألْتُ سِوارَهُ المثري فَنادى فقيرُ وشاحِهِ : اللَّهُ يَفْتَحْ !
وماس مِن القَوامِ بِغُصْنِ بَانٍ إذا أنْشَدتُ أغْزالي تَرنَّحْ
وحيَّاني بألْحَاظٍ مِرَاضٍ صَحيحاتٍ فأمْرضَني وصَحَّحْ
أُعَاتبُهُ فَلا يُصْغِي لعَتبِي ولا أسْلُو فأتْركُهُ وأرْبَحْ

وقال عبد المحسن الصوري :

وأخٍ مسَّهُ نُزولِي بِقَرْحٍ مِثْلَ ما مَسَّنِي مِنَ الجُوعِ قَرحُ

بِتُّ ضيفًا لَه كما حَكَم الدَّ هْرُ وفي حُكمِه على الحُرِّ قُبْحُ
فابتَداني يقول وهْوَ مِنَ السَّكْرَ ةِ بالهَمِّ طافحٌ ليس يَصْحُو :
لِمْ تغرَّبْت ؟ قلت : قال رسول اللّه، والقول منه نُصحٌ ونجْحُ :
سافِروا تَغْنموا . فقال : وقد قال تمامُ الحَديثِ : صوموا تَصحُّوا !

وقال ابن الوردي :

قَـدْ عَجِبْنَا لِأمِيرٍ ظَلَمَ النَّاسَ وسَبَّحْ
فَهْوَ كَالجَزَّارِ فِيهِمْ يَذْكُرُ اللّهَ ويَذْبَحْ

وقال شهاب الدين الخَفَاجي، وهو من باب التورية اللّطيفة :

وصَفْتُ خَصْرَهُ الّذِي أخْفَاهُ رِدْفٌ رَاجِحُ
قَالُوا : وصِفْ جَبِينَهُ فَقُلْتُ : ذَاكَ واضِحُ !

وقال أيضا، وفيه نحو ما في الذي قبله من التورية :

لِلّهِ أيَّامُ الصِّبا والهَوَى لِلّهِ أيَّامُ النَّجَا والنَّجَاحْ !
ذاكَ زمَانٌ مَرَّ حُلْوَ الجَنَى ظَفِرتُ مِنْهُ بحَبيبٍ ورَاحْ

وقال أبو محمَّد الحريري :

لَزِمْتُ السِّفَارَ وجُبتُ القِفَارَ وعِفْتُ النِّفَارَ لأجْنِي الفَرَحْ
وخُضْتُ السُّيُولْ ورُضْتُ الخُيولْ لجَرِّ ذيولْ الصِّبَا والمَرِحْ
ومِطْتُ الوقَارْ وبِعْتُ العَقَارْ لِحَسْوِ العُقَارْ ورشْفِ القَدَحْ
ولَولاَ الطِّمَاحْ إلى شُرب راحْ لما كان باحْ فَمي بالمُلَحْ
ولا كان ساقْ دهائِي الرِّفَاقْ لأرضِ العِراقْ بحَمْلِي السُّبَحْ
فَلا تَغْضَبَنْ ولا تَصْخَبَنْ ولا تَعْتِبَنْ فَعُذْرِي وَضَحْ
ولا تَعْجَبَنْ لشَيْخ أبَنّْ بمَغْنًى أغَنّْ ودَنٍّ طَفَحْ :
فإنَّ المُدَامَ تُقَوِّي العِظَامَ وتَشْفِي السِّقَامَ وتَنْفِي التَّرَحْ
وأصْفَى السُّرورْ إذَا مَا الوَقُورْ أمَاطَ سُتُورْ الحَيَا واطَّرَحْ
وأحْلَى الغَرَامْ إذا المُستَهَامْ أزَالَ اكْتِتَامْ الهَوى وافتَضَحْ
فَبُحْ بهَواكَ وبرِّدْ حَشَاكَ فَزَنْدُ أسَاكَ بِهِ قَد قَدَحْ
وداوِي الكُلُومْ وَسلِّ الهُمُومْ بِبِنْتِ الكُرُومْ الّتِي تُقْتَرَحْ

وخُصِّ العَبُوقْ بسَاقٍ يَسُوقْ ... بلَاءَ المَشُوقْ إذا مَا طَمَحْ
وشَادٍ يُشِيدْ بِصَوْتٍ تَمِيدْ ... جِبَالُ الحَدِيدْ لَهُ إن صَدَحْ
وعَاصِ النَّصيحْ الَّذِي لاَ يُبِيحْ ... وِصَالَ المَلِيحْ إذا مَا سَمَحْ
وجُلْ في المِحَالْ ولَوْ بالمُحَالْ ... ودَعْ ما يُقَالْ وخُذْ ما صَلَحْ
وفَارِقْ أبَاكْ إذا مَا أبَاكْ ... ومُدَّ الشِّبَاكْ وَصِدْ مَنْ سَنَحْ
وصَافِ الخَلِيلْ ونَافِ البَخِيلْ ... وأوْلِ الجَمِيلْ ووَالِ المِنَحْ
ولُذْ بِالمَتَابْ أمَامَ الذَّهَابْ ... فَمَنْ دَقَّ بَابْ كَرِيمٍ فَتَحْ

وقال أيضا :

نهَاني الشيبُ عمَّا فيه أفْراحِي ... فكيف أجْمعُ بين الرَّاحِ والرَّاحِ ؟
وهَل يجوزُ اصْطِباحٌ من مُعَتَّقةٍ[23] ... وقَد أنارَ مَشيبُ الرَّأسِ إصْباحي
اليتُ لا خامَرَتْني الخَمْرُ ما عَلِقَتْ ... روحي بجِسمي وألفَاظي بإفْصاحي
ولا أكتَسَت لي بكاساتِ السُّلافِ يدٌ ... ولا أجَلتُ قِداحي بين أقْداحِ
ولا صَرفتُ إلى صِرفٍ مُشَعْشَعَةٍ ... همِّي، ولا رُحْتُ مُرتاحًا إلى راحِ
ولا نَظمْتُ على مشمولةٍ أبَدًا ... شَملي، ولا اخترتُ نَدمانًا سوى الصَّاحِ
محا المشيبُ مِراحي حينَ خَطَّ على ... رأسي : فأبْغِضْ به من كاتبٍ ماحِ !
ولاحٍ يلْحى على جَرِّي العِنانَ إلى ... ملهًى : فسُحقًا له من لائحٍ لاحِ !
ولَو لَهَوتُ وفَودِي شائبٌ لخفى[24] ... بينَ المَصابيح مِن غسَّانَ مِصْبَاحي
قومٌ سجاياهُمُ توقِيرُ ضَيْفِهِمُ ... والشَّيبُ ضيفٌ له التَّوقيرُ ياصاحِ !

وقال أيضا :

أعْدد لِحُسَّادكَ حدَّ السِّلاحْ ... وأوردِ الآملَ وردَ السَّماحْ
وصارمِ اللَّهوَ ووصْلَ المَهَى ... وأعْمَلِ الكُومَ وسُمْرَ الرِّمَاحْ
واسْعَ لإدراكِ مَحَلٍّ سَمَا ... عِمَادُهُ لَا لِادِّرَاعِ المِرَاحْ
واللهِ ما السُّؤددُ حَسْوُ الطِّلاَ ... ولا مَرادُ الحَمْدِ رُؤدٌ رَدَاحْ
واهًا لحُرٍّ صَدرُهُ واسعٌ[25] ... وهَمُّهُ مَا سَرَّ أهْلَ الصَّلاحْ

---

23) في المقامات (المقامة 24 القطيعة) : وهل يجوز اصطباحي.
24) في المقامات : لخبا، أي لخمد وطفىء.
25) في المقامات (المقامة 46 الحلبية) : واهًا لحرٍّ واسعٍ صدرُهُ.

مَـــورِدُهُ حُلْـــوٌ لِسُـــؤَّالِهِ ومَـــالُهُ ما سَأَلُـوهُ مُطَــاحْ
ما أسْمَــعَ الْمآمِلَ رَدًّا ولاَ مَا طَلَه والمَطْلُ لُؤْمٌ صُرَاحْ
ولا أطاعَ التَّلهْـوَ لمَّـا دَعَــا ولا كَسا راحًا لَه كَأْسُ رَاحْ
سَـــوَّدَهُ إصلاَحَهُ سِــــرَّهُ ورَدْعُهُ أهْـــواءَهُ والطِّمَــــاحْ
وحصَّلَ المَــدحَ لَهُ عِلْــمُهُ ما مُهِرَ الحُورُ مُهُورَ المِلاَحْ[26]

وقال عوف بن محلم :

ألا يا حَمَامَ الأيْكِ إلْفُكَ حاضِرٌ وغُصنُكَ ميَّادٌ فَفِيمَ تَنُوحُ ؟
أفِقْ لا تَنُحْ من غير شيءٍ فإنَّني بكَيتُ زمانًـا والفُـؤادُ صحيحُ
ولُوعًا فَشَطَّتْ غُربةً دارُ زينب فَهَا أنا أبْكي والفُؤادُ جريحُ

وزعموا أنَّه خرج مع عبد الله بن طاهر في بعض غزواته، فسمع عبد الله يوما وهما يتسايران صوت حمامة، فأنشد أبيات عوف المذكورة ثمَّ التفت إلى عوف وقال له : هل حضرك شيء في هذا المعنى وهذه القافية ؟ فقال عوف :

أفِـي كُـلِّ عامٍ غُربةٌ ونُـزوحُ ؟ أما للنَّـوى مِن وِنْيَـةٍ فتُريحُ ؟
لَقَد طَلَّح البَينُ القَذُوفُ رِكَائِبي : فَهَل أريَـنَّ البينَ وهْو طَليحُ ؟
وأرَّقني بالرَّيِّ نَـوحُ حَمَـامَةٍ فَنُحْتُ وذُو الشَّوقِ الغَرِيبُ ينُوح
على أنَّها ناحَت ولَم تُذْرِ عَبْرَةً ونُحتُ وأسرابُ الدُّموعِ سُفُوحُ
ونَاحَت وفَرخَاها بِحَيثُ تَراهُمَا ومن دون أفْراخي مَهامِهُ فيحُ
عسى جودُ عبد الله أن يعكِسَ النَّوى فَتُلقَى عصا التَّسيار وهْيَ طَريحُ
فإنَّ الغِنى يُدني الفتى من صَديقه وعُدمُ الغِنى بالمُقْترينَ نَزوحُ

فرقَّ له عبد الله وصرفه إلى أهله بعطاء جزيل وقال : يصلك عطاؤك كلَّ سنة لموضعك .

وللشعراء، قديما وحديثا، الاكثار من ذكر الحمام، والفواخت، والورشان في أشعارهم واستحسان أصواتها . فمن مستحسن ما للأوَّلين في ذلك قول الشاعر :

سَيُغْنيكَ عن مِزْمار آلِ مُخارقٍ وبَربَطِهِم تَغْريدُ تِلْكَ الحَمَائِمِ
بأيْكَةِ نظار تجاوبْنَ بالضُّحَى على شاهِقَـاتٍ آفِلاتٍ نَـواعِـمِ

---

26) فيها أيضًا : ما مُهِر العُورُ مُهور الصِّحاح.

وقول الآخــــر :

أحنُّ إلى حَوائِطِ ذاتِ عِـرقٍ لتَغريـدِ الفـواختِ والحَمَـــامِ
ألـمَّ بها بكُلٍّ فتًى كَريـمٍ من الفِتْيانِ مَخْلوعِ الزِّمَـامِ
[إذا غنَّت على الأغْصَانِ وُرقٌ أجَبناهـــا بإعْمـــالِ المُــــدَامِ][27]

وقول أبي صخرٍ :

ولمَّا دعَتْ غوريَّةَ الأيْك سجَّعت فسجْعَ دموعي يستهلُّ ويستَشري
يُذكِّرني شَجوي دُعاءُ حَمَامةٍ ويبعثُ لوْعاتِ الصَّبابةِ في صَدري
بكَت حَزَنًا رُزءَ الهَديل وشفَّني فراقُ حبيبٍ ضاقَ عن فقدهِ صَبْري

وقول الآخــــر :

أيُّها البُلبُل المُغرِّد في النخْـلِ غريبًا من أهْلِهِ حَيْرانَـا
أفِراقًا تشكوهُ أم ظِلْت تَدعُو فوقَ أفْنانِ نَخْلِك الورْشَانَا ؟
هاجَ لي شجْوكَ المُغَرِّدُ شَجْوًا رُبَّ صوتٍ يُهَيِّج الأحْزانَـــا

وقول حَمِيد بْنِ ثَوْر :

وما هاجَ هذا الصَّوتَ إلاَّ حمامةٌ دعَت ساقَ حُرٍّ تَرحَةً وتَرنُّما
مُحلاَّةُ طَوقٍ لم يَكُن بتميمَةٍ ولا ضَربِ صوَّاغٍ بكفَّيه درهَمَا
تغنَّتْ على غُصنٍ عشاءً فَلَم تَدَع لنائحَةٍ في نَوْحِها مُتَلَوَّمَا
إذا حرَّكَتْه الرِّيحُ أو مَالَ مَيْلَةً تغنَّتْ علَيه مائلاً ومُقَوَّمَـــا
عجبْتُ لها أنَّى يكونُ غِناؤُها فصيحًا ولَم تفغَرْ بمنطِقها فَما
فَلَم أرَ مِثْلي شَاقَهُ صَوتُ مِثْلها ولا عربيًّا شاقَهُ صَوتُ أعْجَمَا !

وقول الآخــــر :

ومِن بُستَانِ إبْراهيمَ حَنَّتْ حَمَائِمُ بَينَهَا فَنَنٌ رَطِيبُ

وقول عديٍّ بن الرِّقَاع :

وممَّا شجاني أنَّني كُنت نائمًا أُعلَّل من بردِ الكَرى بالتَّنسُّمِ
إلى أن دعَت ورقَاءُ في غُصن أيكةٍ تُردِّد مبكاها بحُسنِ التَّرنُّمِ

---

27) هذا البيت ساقط من ب.

فَلو قبل مَبكاها بكَيتُ صبابةً بسُعْدَى شفيتُ النَّفس قبل التَّندُّمِ
ولكن بكَتْ قبلي فهيَّج لي البُكا بُكاها فقُلتُ : الفَضْلُ للمُتقدِّمِ !

وقال المجنون :

وأدنيْتِني حتَّى إذا ما سَبيتِني بقول يُحِلُّ العصم سَهْلَ الاباطِحِ
تجافيتِ عنِّي حِينَ لا لِيَ حيلةٌ وخلَّفتِ ما خلَّفتِ بين الجَوانِحِ

وزعموا أنَّ رجلا دخل بني عامر يسأل عن المجنون، فقيل له إنَّه في هذه الصحراء قد استوحش، وإنَّه إذا رآك نفر منك ؛ ولكن إذا رأيته فاجلس كأنَّك لا تقصده، فإنَّه يجلس إليك . فإذا جلس إليك، فإن كان عندك شيء من شعرا بن ذريح، فاذكره فإنَّه يصغي إليك . قال : ففعلت ذلك . فلمَّا جلس إليَّ قلت : ما أشعر قيس بن ذريح حيث يقول :

وإنِّي لمُفنٍ دمْع عينيَ بالبُكا حِذارًا لما قد كان أوْ هُو كائِنُ
وقالوا : غدًا أو بعد ذاكَ بليلةٍ فراقُ حبيبٍ بانَ أو هُو بائِنُ
وما كنت أخْشى أن تكون منيَّتي بكفَّيَّ إلاَّ أنَّ ما حان حائنُ

قال : فبكى طويلا ثمَّ قال : أنا والله أشعر منه حيث أقول :

أبى القَلبُ إلاَّ حُبَّها عامريَّةً لها كنُيةٌ عمرٌو وليس لها عَمرُ
تكاد يَدي تندَى إذا ما لمستُها وينْبُت في أطرافِها الورقُ الخُضرُ
عجبتُ لسَعيِ الدَّهر بيني وبينَها فلمَّا انقَضى ما بيننا سَكَن الدَّهرُ

ثمَّ أوغل في الصحراء وتركني، فانصرفت . فلمَّا كان الغد رجعت فقلت : ما أشعر قيسا حيث يقول :

يبيت ويُضْحي كلَّ يومٍ وليلةٍ على منهجٍ تبكي عليه القبائِلُ
قتيلٌ للُبْنى صدَّعَ الحبُّ قلبهُ وفي الحُبِّ شُغْلٌ للمُحبِّين شاغِلُ

فبكى أيضا طويلاً ثمَّ قال : أنا والله أشعر منه حيث أقول :

سَلبْتِ عظامي لحْمَها فتركْتِها مُعرَّقةً تضحى لديْكِ وتخْصَرُ
وأخْليتِها من مُخِّها فكأنَّها قواريرُ في أجْوافِها الرِّيحُ تصْفِرُ
إذا سمِعَت ذكرَ الفراقِ تَقطَّعَت علائقُها ممَّا تخافُ وتَحذَرُ

ثمَّ قام هاربا وتركني . فانصرفت ثمَّ عدت من الغد فقلت : ما أشعر قيسا حيث يقول :

هَبُوني امرءًا إن تُحسنوا فهو شاكرٌ لذاك وإن لم تحسنوا فهْو صافحُ

فإن يَكُ قومٌ قد أساؤوا بهَجرنا فإنّ الّذي بيني وبينك صالحُ
فبكى أيضا طويلا ثمّ قال : أنا والّله أشعر منه حيث أقول : وأدنَيتِني حتّى إذا ما سَبَيتِني (البيتين) . ثمّ فرّ عنّي وانصرفت . وعدت من الغد فلم أجده، فأخبرت قومه فانطلقوا يطلبونه فوجدوه بعد يومَيْن ميّتا في شعراء، بين حجريْن .

قلت : وفي البيتيْن المذكوريْن قال جرير، لمّا أنشده إيّاهما بعض أصحابه وهما متوجّهان إلى الشام : لو كان النخير يصلح لنخرت حتّى يسمعني هشام على سريره من هاهنا !

وقال ابن الدمينة :

ألا ياحِمَى وادي المياهِ قَتَلتَني أباحَكَ لي قبل المَماتِ مُبيحي
ولي كبدٌ مقروحةٌ من يبيعُني بها كبدًا ليسَتْ بذَاتِ قُروحِ
أبى النّاس ريبَ النّاس لا يشترونها ومن ذا الّذي يشري دوًى بصحيح ؟

والدّوَى : المَريض الشديد المرض، والمرض الشديد أيضا، والأحمق.

ويُنشد هذا الشعر أيضا، على إسقاط البيت الأوّل وزيادة آخر وهو :

أئنُّ من الشّوقِ الّذي في جَوانحي أنينَ غَصيصٍ بالشّرابِ جَريحِ

ويُحكى عن إبراهيم الموصلي، المغني المشهور، أنّه قال : سألت الرشيد أن يهب لي يوما أخلو فيه بنفسي ـ وكان أمَره أن لاَ يتغيّب عنه يوما أصلاً ـ قال : فقال لي إنّي أستثقل يوم السبت، فَآلْهُ فيه بما شئت ! قال : فأعددت يوما شرابا وأطعمة منتخبة، وأصبحت عازما على أن لا آذن لأحد . فأمرت البوّاب بإغلاق الأبواب وجلست وحولي جواريّ والخدم يتردّدون بين يديّ، فإذا أنا بشيخ ذي هيئة وجمال حسن الثياب بِيده عكّازة مقمعه بفضّة، وقد سطع منه ريح المسك حتّى ملأ البيت . قال : فامتلأت غيظا على البوّاب وعزمت على عقوبته . فسلّم عليّ الشيخ بأحسن السّلام، فرددت عليه وأمرته بالجلوس . فجلس فأخذ في أحاديث العرب وذكر أيّامها وأشعارها حتّى أذهب ما بقلبي . وقلت : لعلّ البوّاب عرف أدبه فأراد مسرّتي به، فقلت له : هل لك في الطعام ؟ فأبى . فقلت : هل لك في الشراب ؟ فقال : ما أكرهه . فشربت وسقيته، فقال : يا أبا اسحاق، وهل لك أن تغنّي لنا من صنعتك ؟ فقد نبغت فيها عند الخاصّ والعامّ، وأحسن فيها ما استطعت حتّى نكافئك بمثلها ! فأخذت العود وغنّيته أصواتا حسانا، في كلّها يقول : أحسنت يا سيّدي ! ويطرب ويستزيدني . ثمّ وضعت العود فقال : أتأذن لعبدك في الغناء ؟

فاستصعبت، لكنّي أذنت له . فلمّا أخذ العود وجسّه خلته، والله، ينطق بلسان عربيّ .
ثمّ اندفع يغنّي :

ولي كَبِدٌ مَقْروحةٌ من يَبيعُني

إلى آخر الأبيات الثلاثة المتقدمّة . فوالله لقد ظننت أنّ الحيطان والأبواب وكل ما في البيت يغنّي معه، حتّى خلت عظامي وثيابي تجاوبه، وبقيت مبهوتا لا أستطيع الكلام لِمَا خالط قلبي . ثمّ غنّى :

ألا يا حمامات اللّوى عُدنَ عودةً فإنّي إلى أصْواتكُنّ حَزينُ
فعُدن فلمّا عُدن كِدن يُمتْنني وكِدتُ بأسراري لهُنّ أُبينُ
دعَونَ بتَرديدِ الهديرِ كأنّمَا شَربْن الحُميَّا أو بهِنّ جُنونُ
فلم تَرَ عَيْني مثْلَهُنّ حَمائِما بكَيْنَ ولم تَدْمَعْ لهُنّ عُيونُ

فكاد، والله، عقلي يذهب طربا وارتياحا لِمَا سمعت . ثمّ غنّى :

ألا يا صَبا نجْدٍ متى هِجتَ من نجد ؟ فقدْ زادني مَسْراك وجْدًا على وجْد
لقَد زعموا أنّ المُحبّ إذا دَنَا يَملُّ وأنّ النّأيَ يشْفيَ من الوجْد
بكُلٍّ تَداوينا فَلم يُشْفَ مابنا على أنّ قُرب الدّار خيرٌ من البُعد
على أنّ قُرب الدّار ليس بنافعٍ إذا كان من تهْواه ليس بذي وُدّ

ثمّ قال : يا إبراهيم، هذا الشعر الماخوري، فانْحُ نحوه في غنائك، وعلّمه جواريك ! فقلت : أعِدْه عليّ ! فقال : لست تحتاج إلى إعادته . فغاب عن بصري، فارتعت وقمت إلى السّيف فجرّدته وعدوت نحو الباب، فوجدته مغلقا . فسألت البوّاب عن الشيخ فقال : والله ما دخل عليّ اليوم أحد ! فرجعت متحيّرا، فإذا هو هتف بي من بعض جوانب البيت: لا بأس عليك، أبا إسحاق ! فقال هو إبليس اخترت منادمتك اليوم، فلا ترع ! قال إبراهيم : فركبت من فوري إلى الرشيد وقلت : لا أطرفه بطرفة أحسن من هذه ! فلمّا دخلت حدّثته الحديث، فقال : ويحك، غنّ لي ما غنّاك ! فأخذت العود وغنّيته إيّاها، كأنّها من محفوظاتي . فطرب الرشيد وجلس للشرب، ولم يكن عزم عليه، وأمر لي بصلة وقال : الشيخ كان أعلم، حيث قال إنّك أخذتها . فليته متّعنا بنفسه يوما كما أمتعك ! انتهى .
قوله الماخوري : هو نسبة إلى الماخور، وهو بيت الريبة معرّب . وقيل إنّه عربيّ، من مخرت السفينة الماء، لتردّد النّاس إليه . وقال [ابن] عبد المنان :

صبَّحتُه عِند المَساءِ فقال لِي : ماذا الصَّباح وظنَّ ذاك مُزاحَا
فأجبتُه : إشْراقُ وجهِكَ غَرَّني حتَّى توهَّمْت المَساءَ صَباحا

وسبب قوله هذا [الشعر] أنَّه دخل، وهو ثمل، على السلطان أحمد المريني عشيَّة، فصبَّحه. فنظر السلطان إليه نظر منكر، وقال له : أيّ وقت هذا ؟ وأيّ معنى للصباح فيه ؟ فأفاق من سكره وأنشد ما مرَّ ارتجالا، وهذه بديهة لا بأس بها.

ومثله ما يُحكى أنَّه وقع ليحيى بن أكثم، وكان الأمين بن الرشيد شرب يوما مع عبد الَّله بنطاهر، ومعهما يحيى . فتغامزا عليه، وأمرا الساقي فأكثر له حتَّى أسكره . وكان بين أيديهم ردم من رياحين . فأمر يحيى فدفن فيه، وأمر قينة أن تغنّي عند رأسه بيتيْن عملهما . فغنَّت :

ناديتُه وهْو ميتٌ لا حَراكَ به مُكفَّنٌ في ثيابٍ مِن رياحِينِ
فقلت : قُم ! قال : رجلي لا تُطاوعُني وقلت : خُذ ! قال : كفِّي لا تواتيني

فانتبه يحيى لصوت العود وصوت الجارية، فأخذ العود منها وغنَّى :

يا سيِّدي وأمير النَّاس كُلِّهِمُ قد جار في حُكمِه من كان يسقيني
إنِّي غفلْت عن السَّاقي فصيَّرني كما رأيت سليب العقل والدِّين
لا أستطيع نُهوضًا قد وهى بدني ولا أُجيبُ لداعٍ حين يدعُوني !

وقال أبو الفتح البستيّ :

أفِد طبعَك المكدود بالجدِّ راحةً يُجمَّ وعلِّلهُ بشيءٍ من المزْحِ
ولكن إذا أعطيتَه المزْح فليكُن بقَدر الَّذي يُعطى الطَّعام من المِلْح

وقال آخر في معناه :

مُمازحةُ الصَّديق تزيدُ وُدًّا إذا كانت تُضَافُ إلى المَلاحَهْ
فمازِح من تُحبُّ وتَصْطَفيهِ فَمزْحُكَ مَعْ صديقِكَ فيه راحَهْ

وقال الآخر في المدح :

إذا نَزل الضَّيفُ ليلاً بِهِمْ رأى أوجُهًا لاحَ منْها الصَّباحْ
كرامُ الوجوهِ لِمَنْ أمَّهُمْ وعند وجوهِ الكِرامِ السَّماحْ

وهذا من العكس، وهو عند أهل البديع قسمان : تعاكس الكلم وتعاكس الحروف .

فمن الأوَّل في النثر قولهم : عاداتُ السَّادات ساداتُ العادات ؛ وقولهم : عقولُ الملوك

ملوكُ العقول ؛ وكلام الملوك ملوك الكلام ؛ وقول بعضهم، وقد قيل له لا خير في السَّرف، لا سَرَفَ في الخير، ونحو هذا . وفي الشعر ما مرَّ وقول صاحب الحِلِّيَّة :

خَيْرُ اللَّيالي ليالي الخيرِ في إضَمٍ والقومُ قد بلغُوا أقصى مُرادهِم

وقول أبي الطيب :

فَلا مجْد في الدُّنيا لمن قلَّ ماله ولا مالَ في الدُّنيا لمن قلَّ مجدهُ

وقول ابن جابر :

عَطَفتْ قدَّها النَّضيرَ فقالت : هل رأيتُم لحُسن هذا نظيرا ؟

بَذلَت للمُحبِّ يومَ وِصَالٍ فرأينا وصَالَ يَوم كثيرا

ونحوه وهو كثير .

ومن الثاني في النثر كقوله تعالى : كُلٌّ فِي فَلَكٍ ؛ وقوله تعالى : ورَبَّكَ فَكَبِّرْ ؛ وقول العماد الاصبهاني للقاضي الفاضل : سِر، فلا كَبَابِك الفَرَسُ ! وقول بعضهم : سُورُ حَمَاة بربِّها مَحْروس ؛ وقولك : أرض خضراء ورمحٌ أحمر، ونحو ذلك وهو كثير .

ومن الشعر قول الشاعر :

مودَّتُهُ تَدومُ لكُلِّ هَولٍ وهَل كُلٌّ مَودَّتُه تَدوم ؟

ومن النوع الأوَّل قولي في أبيات :

نتائجُ أبناءٍ كِرامٍ غَطَارفٍ كرامُ بَنينَ ماجِدينَ كِبَار

وقول الآخر :

إذا المَرءُ لم يُمدحْ بحُسنِ فعاله فما دحُه يهْذي وإن كان يُفْصحُ

وقول الآخر في معناه :

وما شرفٌ أن يَمدحَ المَرءُ نفسَهُ ولكنَّ أعْمالاً تُذَمُّ وتُمدحُ

وقول الآخر، ويُروى لابن الفارض، رضي اللّه عنه :

خليلَيَّ إن زُرتُما مَنْزلِي ولَم تَرياهُ فسيحًا فَسِيحَا

وإن رُمتُما مَنْطقي من فَمي ولَم تَرياه فصيحًا فَصِيحَا

وقول أبي بكر بن عمَّار في الاستعطاف :

سجاياك إن عافيت أنْدى وأسْمَح وعُذركَ إن عاقَبتَ أجْلى وأوضَحُ

وإن كان بين الخُطَّتين مزيَّةٌ فأنتَ إلى الأدنى من اللّه أجْنَح

وقال أبو عيسى بن لَبُون في النسيب :

سقى أرضًا نووْها كُلُّ مُزنٍ ... وسايَرهُم سُرُورٌ وارتِياحُ
فما ألْوى بِهِم مَلَكٌ ولَكِنْ ... صُروفُ الدَّهْرِ والقَدرُ المُتاحُ
سأبْكي بعدهم حُزنًا عليهِم ... بِدَمْعٍ في أعنَّتِهِ جِماحُ

وقال أيضا :

يا رُبَّ ليلٍ شربنا فيه صافيَةً ... حَمراءَ في لَوْنِها تَنْفي التَّباريحَا
تَرى الفراشَ على الأكْواسِ ساقطةً ... كأنَّما أبْصرتْ منها مصابيحَا

وقال أبو محمَّد بن عبدون :

سقاها الحَيا مِن مَغَانٍ فِسَاحٍ ... فَكم لي بها من مَعانٍ فصَاحٍ ؟
وحلَّى أكاليلَ تِلكَ الرُّبَى ... ووشَّى مَعاطِف تلْك البِطاحِ
فما أَنْسَ لا أَنْسَ عَهْدي بِهَا ... وجرِّيَ فيها ذُيُولَ المِرَاحِ
ونَومي عَلَى حِبرَات الرِّياضِ ... يُجاذِبُ بُردَيَّ مَرُّ الرِّياحِ
ولَم أُعْطِ أمْرَ النُّهَى طاعةً ... ولَم أُصغِ سمعًا إلى لحْيِ لاَحِ
وليلٍ كَرَجْعَةِ طَرْف المُريبِ ... لَم أدرِلَه شَفقًا من صَبَاحِ

وقلت أنا :

أم والمُهيْمِنِ إنَّني من بَعدكُم ... لكطائِرٍ قد قُدَّ منه جَناحُ
أوديْتُمُ بمُحبِّكُم مِن بَعدكُم ... أو ليس فيه على المُضرِّ جُناحُ ؟
قَد كان فيهم أعْصُرًا بوصالِهِم ... قَد طِبْن رَوْحٌ للنُّفوس ورَاحُ
فكأنَّني صبِرْا سُقيتُ فكيف لي ... صبْرٌ وقد زمُّوا المَطيَّ وراحوا ؟

وقلت أيضا :

نقل النَّسيمُ عن الأراكِ مُحدِّثًا ... عن ثغْر سلْمى الأشْنَب الوضَّاحِ
وحديثُه المرويُّ أنَّ رُضابَهُ ... عسلٌ ومسكٌ شُوِّبا بالرَّاحِ
صدقا أحاديثُ الصَّحيح قَد اعتَلَت ... عَن ريبةٍ تُعزَى لها من لاحِ

وقال بعض السَّادات الصوفية، رضي اللَّه عنهم :

قد كُنت أحْسبُ أنَّ وصلك يُشترى ... بنفائس الأمْوال والأرواحِ
حتَّى رأيتُك تجتبي وتخُصُّ مَن ... تختاره بنفائس الأربَاحِ

فَعلمتُ أنّك لا تُنالُ بحيلَةٍ ولَويْتُ رأسي تحت طَيّ جنَاحِ
وجعلت في عُشٍّ الغَرام إقامتي أبداً وفيه تحوُّلِي ورَوَاحِي

وقال آخــر :

أبـداً تحـنُّ إليكُـمُ الأرْواحُ ووصالُكُـم ريحانُهـا والـرّاحُ
وقلوب أهل ودادكُـم تشتاقُكُـم وإلى كمال جمالكُـم ترتـاحُ
وارحْـمةً للعاشقيـنَ تَحَمّلُـوا ألم المَحبّةِ، والهَوى فضّاحُ
بالسِّرِّ إن باحوا تُباح دماؤُهُـم وكذا دماءُ البائحين تُبـاحُ !

وقال الآخــر :

راحوا فبانَت راحَتي من راحَتي صفْراً وأضْحى حُبُّهُم ليَ راحَا
فتحوا على القَلْب الهُمومَ وأغلقوا باب السُّرور وضيَّعوا المفْتاحـا

وقال بشّــار :

خليلَيَّ ما بالُ الدُّجى لا تزَحْزَحُ وما لعَمودِ الصُّبْحِ لا يَتوضَّحُ ؟
أضلَّ النّهارُ المُستنيرُ طَريقَهُ ؟ أم الدّهر ليلٌ كلّه ليس يبرحُ ؟
وطال عليَّ اللّيلُ حتّى كأنّهُ بليلين موصولٌ فما يتَزَحْزَحُ !

واعلم أنّ للشعراء في اللّيل، قديما وحديثا، مقصديْن مختلفيْن لباعثيْن متباينيْن : فتارة يستطيلونه ويستبطئون الاصباح، وذلك لأجل الاختناق، بتباريح الأشواق، عند احتساء كأس الفراق، المرّة المذاق ؛ وتارة يستقصرونه ويودّون أن لو دام، وذلك عند اجتناء ثمرات الوصال، والاشتغال بلذات الاقبال. فمن الأوّل قول مهلهل :

ألَيلَتَنَا بِذي حُسُمٍ أنِيري إذا أنتِ انقَضَيْتِ فَلاَ تَحُوري !

ولم يحضرني لمن قبله شيء في هذا الباب . وقول امرىء القيس :

وليلٍ كموجِ البحْر أرخى سُدولَهُ عليَّ بأنْواعِ الهُمومِ ليِبْتَلِي
فقلتُ لهُ لمّا تمطّى بجَوْزِهِ وأردَفَ أعجازاً وناء بِكَلْكَلِ :
ألا أيُّها اللّيلُ الطّويلُ ألا أُنْجلي بصُبحٍ وما الاصْباحُ منك بأمْثَلِ
فيالَكَ من ليلٍ كأنّ نجومَهُ بكُلِّ مُغار الفتْلِ شُدّت بيَذْبُلِ
كأنّ الثُّريّا عُلّقت في مصامِهَا بأمْراسِ كتّانٍ إلى صُمِّ جَنْدلِ

وقوله أيضــا :

أعِنـِّي على التَّهْمَامِ والذكـرات ... يَبِتْنَ على ذي الهَمِّ مُعْتكِراتِ
بلَيل التَّمامِ أو وُصِلْنَ بمثْلِه ... مُقَـايَسَةً أيَّامُهَـا نَكَـراتِ

وهو أوَّل من أبدع في هذا الباب فيما علمنا . وقول النابغة :

فَبتُّ كأنِّي ساورتْني ضَئيلَةٌ ... مِن الرُّقْشِ في أنْيابها السُّمُّ ناقعُ
يُسهَّدُ مِن ليلِ التَّمام سليمُها ... لحلْيِ النِّساءِ في يَديْه قعاقِعُ
تناذَرَها الرَّاقونَ من سُوءسُمِّها ... تُطَلِّقُه طورًا وطوْرًا تُراجِعُ

وقوله أيضــا :

كليني لهَمٍّ يا ٠ أُمَيْمةَ ناصِب ... ولَيلٍ أُقاسيه بَطيء الكواكِب
تطاولَ حتَّى قُلت ليس بمُنْقضٍ ... وليس الَّذي يرعى النُّجومَ بآئِب
وصَدرٍ أراحَ اللَّيلُ عازبَ همِّه ... تضاعفَ فيه الحُزنُ من كلِّ جانبِ

وقوله أيضــا :

كتَمتُك ليلاً بالجُمومَيْن ساهرًا ... وهَمَّيْن همًّا مُستكنًّا وظاهرا
أحاديثُ نفسٍ تشتكي ما يَريبُها ... وورد هُمومٍ لَن يجِدنَ مَصادرًا

وقوله أيضــا :

أتاني أبَيْتَ اللَّعْن أنَّك لُمتَني ... وتِلْك الَّتي أهْتمُّ منها وأنْصَبُ
فبتُّ كأنَّ العائداتِ فَرشْنَني ... هَراسًا به يُعلَى فِراشِي ويُقْشَبُ

وقول جندح :

في ليلِ صُولٍ تناهى العَرضُ والطُّول ... كأنَّما ليلُه باللَّيلِ موصولُ
لا فارق الصُّبحُ كفِّي إن ظَفِرتُ به ... وإن بَدت غُرَّةٌ منه وتحْجيلُ
لساهرٍ طال في صولٍ تملْمُلُه ... كأنَّه حيَّةٌ بالسَّوطِ مفْتولُ
حتَّى أرى الصُّبحَ قد لاحَت مخائلُه ... واللَّيلُ قد مُزِّقت عنه السَّراويلُ
ليلٌ تحيَّر ما ينْحطُّ في جهةٍ ... كأنَّه فوقَ متْن الأرض مشكولُ
نجومُه رُكُدٌ ليست بِزَائلةٍ ... كأنَّما هُنَّ في الجوِّ القناديلُ
ما أقْدر اللَّهَ أن يُدني على شَحَطٍ ... مَنْ دارُه الحَزْنُ ممَّن داره صُولُ
اللَّه يَطوي بساطَ الأرض بينهُما ... حتَّى يُرى الرَّبْعُ منه وهْو مأهولُ

وقول الحُصْرِيّ :

يا ليل الصَّبُّ متى غَـــدُهُ أقيامُ السَّـــاعةِ مَوعِـــدُهُ ؟

وقول الآخـــر :

ألا هَل على اللَّيلِ الطَّويل مُعينُ إذا نَزحَت دارٌ وحنَّ حزينُ ؟

أُكابدُ هذا اللَّيلَ حتى كأنَّما على نجْمِه ألاَّ يغُورَ يمِيـنُ

وتاللَّهِ ما فارقْتُكُم قاليًا لكُم ولكنَّ ما يُقضى فسوف يكونُ !

وقول الآخـــر :

ما لِنُجومِ اللَّيلِ لا تَغْرُبُ كأنَّها من خَلْفِها تُجْذَبُ ؟

رواكِـدٌ ما غَـارَ في غَرْبِهَـا ولا بَدَا مِن شَرقِها كَـوكَـبُ

وقول العبَّاس بن الأحنف :

أيُّها الرُّقـدون حولي أعينــوني على اللَّـيل حِسْــبةً وَٱئْتِجَـارَا

حدِّثـوني عَــن النَّهارِ حديثًـا أوصِفُوهُ فقَد نَسيتُ النَّهارَا !

وقال سُوَيد بن أبي كاهل :

وإذا ما قُلْتُ ليلٌ قَد مَضَى عَطَــف الأوَّلُ منْهُ فَرَجَـــعْ

يسْحَبُ اللَّيْلُ نُجومًا ظُلَّعًا فَتواليهـــا بطيــآتُ التبـــع

ويُزجِّيهـــا علَى إبْطَائِهَـــا مغربُ اللَّونِ إذا اللَّيْلُ آنْقَشَعْ

وقول ابن الرومي :

ربَّ ليْلٍ كأنَّهُ الدَّهـــر طولاً قَد تناهى فَليْسَ فيه مَزيدُ

ذي نُجومٍ كأنَّهُنَّ نجومُ الشَّيب لَـيْسَتْ تزولُ لَكِـن تَزيـدُ

وقول سعيد بن حميد :

يَـا لَـيْلُ بَـلْ يَـا أبَـدُ أنَـائِـمٌ عَـنْـكَ غَـدُ ؟

يَـا لَـيْلُ لَـو تَـلْقَـى الَّـذي ألْقَـى بِـهَـا أوْ تَـجِـدُ

قَصُرَمِـن طُــولِكَ أوْ ضَعُـفَ مِنْكَ الجَلَـدُ

أشْكُــو إلَـى ظَالِــمَةٍ تَشْكُو الَّذي لا تَجِدُ

وقَـفَ عَنْهَـا نَـاظِـري وقَـفَ عنْهـا السُّهُـدُ

وقول الآخـــر :

يـُخيل لي أنَّ سـُمـرَّ الشـُّهبُ في الدُّجى ... وشـُدَّت بأهـْدابٍ إليـْهنَّ أجـْفانُ

وقول الآخـــر :

رُبَّ ليلٍ أمدَّ من نفـَس العاشق ... طولاً قطعـْـتـُه بِأنـْتِحـَـابِ

وحديثٍ ألـَذَّ ممِن نـَظـَرِ الوامِقِ ... بدَّلـْـتـُهُ بِسـُـوءِ العِتـُـابِ

وقول ابن شـُهـَيـْد :

وبتـْنا نـُراعي الـَّليلَ لم يـَطـْو بـُردهُ ... ولم يجـْن شيبُ الصـُّبح في فرعه وخـْطا

تـَراه كـَملـْك الزَّنـْجِ من فـَرط كـِبـْرِهِ ... إذا رام مشيـًا في تبخـْتـُره أبـْطا

مـُطـِلاً على الآفاق والبـَدرُ تاجـُه ... وقد علـَّق الجـَوزاءَ من أذنـِه قـُرطا

وقال بعضهم : كان عليُّ بن الجـَهـْم يستنشدني شعر خالد الكاتب، فأنشده فيقول : ما صنع شيئا حتى أنشدته يوما له :

رقـَـدتَ ولـَم تـَرْثِ لِلسَّاهـِـرِ ... ولـَـيـْلُ المـُـحبِّ بِلاَ آخِـــرِ

ولـَم تـَدر بـَعـْد ذهاب الرُّقـاد ... ما صنعَ الدَّمعُ من ناظِـرِي

فقال : قاتله الـَّله، لقد أدمن الرمي حتـَّى أصاب الغـِرَّة !

ومن الاعتبار الثاني قول الأعرابي :

ولــيلٍ لم يـُقصـِّـرْهُ رُقـَـادُ ... وقـَصـَّـر طوله وصـْلُ الحـَبـيبِ

وقول ابن المستوفي :

حـَسـَد الصـَّباحُ الـَّليلَ لمـَّا ضمـَّنا ... غيـْظـًا ففـرَّق بينـَنـا دَاعِــيهِ

وقول الآخـــر :

رأيتـُكَ في المـَنامِ أقلَّ بـُخـْلاً ... وأطـْوعَ منكَ في غـَيـْر المـَنامِ

فـَليتَ الصـُّبـْحَ زالَ فـَلا نـَراهُ ... ولـَيتَ الـَّليلَ يبقـَى ألـْفَ عـَامِ !

ولو أنَّ النـُّعـَاس يـُبـَاعُ حينـًا ... لأغـْليـْتُ النـُّعـَاسَ على النـِّيـامِ

وقول القاضي الفاضل، وهو السحر حقـًّا :

بتـْنا جميعـًا كيفَ شاءَ الهـَوى ... وربـَّمـا لا يـُمكِـنُ الشـَّـرْحُ

بوَّابـُنـا الـَّـليلُ وقـُلنـا لـَهُ : ... إن غـِبتَ عنـَّا دخلَ الصـُّبحُ

وقول عبد الصَّمد بن المعذَّل :

أقول وجُنحُ الدُّجى مُلْبِدُ ... ولِلَّيْلِ في كُلِّ فَجٍّ يَدُ

ونَحن ضَجيعانِ في مَسْجِدٍ ... فللَّهِ ما ضمَّنا المَسْجِدُ :

فيا ليلَةَ الوصْلِ لا تَبْعُدِي ... كما لَيْلَةُ الهَجْرِ لا تَنْفَدُ

ويا غَدُ إن كُنتَ لي راحِمًا ... فَلا تَدنُ مِن ليلَتي ياغَدُ !

وقول الآخر :

شبابُ المَرءِ ثوبٌ مُسْتَعَارُ ... وأيَّامُ الصِّبَا أبدًا قِصَارُ

ولأجل الاعتباريْن كان قول الأعرابي :

تَطاولَ بالفُسطَاطِ ليلي ولم يكُن ... بأرض الغَضا ليلِي عليَّ يطولُ

وقول أبي الوليد بن زيدون :

أجَل إنَّ لَيْلِي فوق شاطيء بيطَة ... لأقْصَرُ مِنْ ليْلِي بِآنَةَ فَالْبَطْحَا

وقول عمر بن أبي ربيعة :

فيالَك من ليلٍ تَقَاصَرَ طولُهُ ... وما كان ليلي قبْل ذلك يقْصُرُ !

ومن الثَّاني أيضا قول الآخر :

للَّهِ أيَّامُ الشَّباب وعَصْرُهُ ... لَو يُستعارُ جديدُهُ فيُعَارُ

ما كان أقْصَرَ لَيْلهُ ونهَارَهُ ... وكذاكَ أيَّامُ السُّرورِ قِصَارُ !

وقول أبي بكر بن دُرَيْد :

يا رُبَّ يومٍ جَمعت قُطْرَيْهِ [لِي] ... بنتُ ثمانينَ عروسًا تُجْتَلَى

وقد شرح الاعتباريْن الوليد بن يزيد في قوله :

لا أسألُ اللّه تغْييرًا لِمَا فَعَلَتْ ... نامتْ وقد أسهرتْ عينَيَّ عيْنَاها

فاللّيل أطولُ شيء حين أفقدها ... واللّيل أقصر شيء حين ألقاها

والآخر في قوله :

أخو الهوى يستطيل اللّيل من أرقٍ ... واللّيلُ في طولِه جارٍ على قَدر

ليلُ الهوى سَنَةٌ في الهَجْرِ مدَّته ... لكنَّه سِنَةٌ في الوصل من قِصَر

والآخر في قوله :

لَيْلِي ولَيْلَى سواءٌ في اختلافهما ... قَد صيَّراني جميعًا في الهوى مثَلا

يجود بالطُّول لَيْلِي كلَّما بخِلَت بالطُّول لَيْلَى وإن جادت به بخِلا

وقول جميل :

وقالوا : لا يضُرُّك نأيُ شهرٍ فقلت لِصاحِبَيَّ : فمَن يَضِيرُ ؟

يطول اليومُ إن شَحَطَتْ نواها وحولٌ نلتقي فيه قصِيرُ

وقول بشَّار :

لا أظْلِم اللَّيلَ ولا أدَّعِي أنَّ نجومَ اللَّيلِ ليسَتْ تغُورْ

ليلي كما شاءت فإن لم تجُد طال وإن جادتْ فليلِي قَصِيرْ

تصرَّفَ اللَّيلُ على حُكْمِهَا فَهْوَ على ما صرفتْه يَدورْ

وقول الآخر :

تعالوْا أعينوني على اللَّيل إنَّهُ على كلِّ عينٍ لا تنامُ طَوِيلُ !

وقول الآخر :

لم يطُل ليلي ولكنْ لم أنَمْ ونَفَى عنِّي الكَرى طيفٌ ألمْ

وقول الفرزدق :

يقولون طال اللَّيل واللَّيلُ لم يطُل ولكنَّ من يبكي من الشَّوق يسهَرُ

وهذا المعنى أكثر من أن يستقصى . وترقى عن الاعتباريْن قول بعض العارفين المحبِّين :

لستُ أدري أطالَ ليليَ أم لا كيفَ يَدري بذاك مَن [ ][28]

لو تفرَّغْتُ لاسْتطالةِ لَيْلِي ولِرعْيِ النُّجُومِ كُنْتُ مُخِلاَّ

إنَّ للعاشقينَ عَن قِصَرِ اللَّيْل وعَن طولِه من الهَمِّ شُغْلاَ

وقال ابن حَمْدِيس الصِّقِلي في مجونه :

قم هاتِها من كفِّ ذاتِ الوشَاحْ فقد نَعى اللَّيلَ بشيرُ الصَّباحْ

باكِرْ إلى اللَّذَّات واركَبْ لَهَا سوابِقَ اللَّهْو ذواتِ المِراحْ

من قبل أن ترشُفَ شمسُ الضُّحى ريقَ الغوادي مِن ثغُور الاقاحْ !

وقال أيضا :

بتُّ منها مُستعِيرًا قُبَلاً كُنَّ لي منها على الدَّهْرِ اقْتِراحْ

وأُروِّي غُلَلَ الشَّوقِ بِمَا لم يكُن في قُدرةِ الماء القَرَاحْ

28) بياض في الأصل.

وقال الآخــــر :

سَل المُفتيَ المكّيَّ هل في تَزاورٍ   وضمَّة مُشْتاقِ الفُؤادِ جُنـاحُ

فقال : معاذَ الّله أن يُذهبَ التُّقى   تلاصُـقُ أكبَـادٍ بهـنَّ جراحُ

والمعنى هنا بالمفتي هو عطاء بن أبي رباح، الامام الفقيه المشهور، أحد الكبراء من التّابعين . وكان بمكّة مفتيا.

قال شمس الدين بن خلّكان في **تأريخه** : لمّا بلغه هذان البيتان قال : والّله ما قلت شيئـًا من هذا !

وقال فخر الدين التكريتي :

وما ذاتُ طوقٍ في فروعِ أراكـةٍ   لها رنّةٌ تحت الدُّجى وصُدوحُ

ترامَت بها أيْدي النّوى وتمكّنت   لها فُـرقةٌ من أهلِهـا ونُـزُوحُ

فحلّتْ بزوْراءِ العِـراق وزُغْبُهـا   بعُسفانَ ثارٍ منهُـمُ وطلـيحُ

تحنُّ إليهِم كُلّمـا ذرَّ شارقٌ   وتسجَعُ في جُنْحِ الدُّجا وتنـُوحُ

إذا ذكرتْهُـمْ هيَّجتْ ذا بَلابلٍ   وكادتْ بمكْتومِ الغَـرامِ تبوحُ

بأبْرحِ مِن وجْدي بِذِكْراكُمُ متى   تألّـقَ برقٌ أو تنسَّـمَ ريحُ

وقال ابن الزيات :

سماعـًا يا عِبـادَ الّلهِ منّي   وكُفُّـوا عَـن مُلاحظةِ المِلاحِ

فإنَّ الـحُبَّ آخِـرهُ المَنـايـا   وآخِـرهُ يُهَـيِّجُ بالمُـزاحِ[28م]

وقالوا : دعْ مُراقَبَـةَ الثُّريّـا   ونَـمْ فاللّـيلُ مُسودُّ الجنـاحِ

فقلتُ : وهل أَفَاقَ القلبَ حتّى   أُفرّق بيـن ليليَ والصَّبـاحِ ؟

وقال مؤيّد الدين الموصلي :

يا قالة الشّعر قد نصحْتُ لكُم   ولستُ أدهَى إلاَّ مِنَ النُّصْحِ

قد ذهب الدّهْر بالكِرامِ وفي   ذاكَ أمُـورٌ طويلةُ الشّـرْحِ

وأنتُمْ تمدحونَ بالحُسْنِ والظّرْفِ   وجوهـًا في غايةِ القُـبْحِ

وتَطلبـونَ السَّمـاحَ من رجُلٍ   قَد طُبعتْ نفسُه على الشُّحِّ

28م) لعل الأصل : «وأوله يهيج بالمزاح».

مِنْ هاهُنا تُحرمون كذَّكُمُ لأنَّكُم تكْذبون في المَدْحِ
صونوا القوافي فما أرى أحداً يعثُرُ فيه الرَّجاءُ بالنجْحِ
فإن شككتُم فيما أقولُ لكُم فكذّبوني بواحِدٍ سمْحِ !

ونحو هذا البيت في المعنى ما حُكي أنَّ بعض ظرفاء السؤال مرَّ بقوم يأكلون، فقال لهم : يا بخلاء ! فأنكروا عليه . فلمَّا سمع إنكارهم قال لهم : كذّبوني بلقمة !

وقال ابن ميادة :

فنظرْنَ من خِلل الحِجالِ بأعْيُنٍ مَرْضَى يُخالطُها السَّقامُ صِحاحِ
وأرشْن حين أردن أن يَرْمِينَنِي نبْلاً بلا ريشٍ ولاَ بِقَداحِ

وقال آخر يخاطب النَّاس :

تبعْتُمُ السَّابِحَ في لُجّهِ ورُعْتُمُ في الجوِّ ذاتَ الجَناحْ
هذا وأنتُم غرضٌ لِلرَّدَى فكيفَ لَوْ خُلّدتُمُ يا قِباحْ ؟

وقال ابن السَّاعاتي :

وكَم لي فيكَ من عَذْراءَ زُفَّتْ لفهمكَ في غُدوٍّ أو رواحِ
من الغِيدِ الحسانِ بِلاَ شبيهٍ فكيفَ يفوتُها حظُّ القباحِ ؟

وقال الآخر :

وإذا الفتى من دهْرِهِ كمُلَت له خمْسون وهْوُ إلى التُّقى لم يجْنَحِ
طلعت عليه المُخْزياتُ وقُلْنَ قَد أرضيتَنا فكذاك كُنْ لا تبْرحِ !
وإذا رأى إبْليسُ صورتَهُ بَدَتْ حيَّى وقال : فُديتَ مَنْ لَمْ يُفْلِحِ !

ومثله قول التهامي :

إذا بلغ الفتى عشرين عامًا وأعْجزهُ الفخارُ فَلا اعْتِذارُ
إذا ما أوّلُ الْخَطّيّ اعطى فما يُرجَى لآخِرِهِ انْتِظَارُ

وقول الآخر :

وصهْباءَ جُرجانيَّةٍ لم يَطُفْ بها حنيفٌ ولم تنغرْ بِها ساعةً قِدْرُ
أتاني بها يحيى وقد نِمْتُ نومةً وقد غابتِ الشّعْرى وقد طلع النَّسرُ
فقلت اغْتبقْها أو لغيريَ فاسقِها فما أنا بعد الشَّيب ويْحَكَ والخمْرُ
إذا المرءُ وافى الأربعين ولم يكُن له دون ما يأتي حياءٌ ولا سِتْرُ

فدعْه ولا تنفَسْ عليه الّذي ارتَأى ولَو جرَّ أسْبابَ الحياةِ له الدّهْرُ !

وقال الآخـــر :

وقالوا : في الهِجاء عليكَ إثْم، وليس الاثْمُ إلاّ في المَديحِ

لأنّيَ إن مَدحتُ مَدحتُ كِذْبًا وأهْجو حين أهْجو بالصَّحيحِ

وقال الآخـــر :

قالوا : تعشّقْتها عمْياءَ قلتُ لهم : ما شَانَها ذاك في عيني ولا قَدَحا

بلْ زاد وجدي فيها أنّها أبدًا لا تَعرف الشَّيب في فَوْدِي إذا وضَحا

إنْ يجْرحِ السَّيفُ مسلولاً فلا عجبٌ وإنّما العُجبُ سيفٌ مُغْمَدٌ جرحا

كأنّما هي بُستانٌ خَلوتُ به ونامَ حارسُهُ سكْرانَ قَد طَفَحا

تفتَّح الوردُ فيهِ مِن كمائِمِه والنَّرجِسُ الغضُّ فيه بَعْدُما انفَتَحا

ومثله قول ابن سَناء المُلْك :

فتنـــتْني مكْفُـــوفةٌ ناظِراهَـــا كَتَبَـالي من الجِـراحِ أمَانَـا

فهْي لم تسلُلِ الجفونَ حُسامًا لا ولم تحْمِلِ الفتورَ سِنانَـا

وهْي بكْرُ العينينِ مُحْصَنَـةُ الأجفان ما افْـتضَّ مِيلُهـا الأجْفَانَـا

قصرَت عشْقَها عليَّ فلَم تَعْـ شَقْ فُلانًا إذ لم تُعايِنْ فُلانا

عَمِيَتْ من هَوايَ وارتَحَل الانسَا نُ من عينِها وأخْلى المَكانَـا

عَلِمَتْ غيرَتي عليها فَخَافَتْ. أن تُسمِّي غَيْري لَهَا إنْسَانَـا

وقال ابن قاضي ميلة :

وكيـــف لا تُـــدركُه نَشْـــوةٌ واللّحْظُ راحٌ وجنى الرِّيق راحْ ؟

لو لم تكُـن ريقَـتُهُ خَمْـرَةً لما تثنّى عِطْفُهُ وهْوَ صَاحْ

وقال ابن نباتة السعدي :

وغَايةُ هذهِ الدُنْيَـا فَسَـادٌ فكيفَ نَكونُ منْها في صَلاَحِ ؟

هِيَ الخَرقاءُ تنقُضُ بَعْدَ نسجٍ فما فيهـا لِـحَيٍّ من فَلاحِ

وسيأتي هذا المعنى مستوفى في الحكم، إن شاء اللّه تعالى .

وقال الآخر ـ وكان أبو بكر بن دريد يتمثّل به كثيرا ـ أو هو قائله :

فواحزَنَـا إنَّ الحيـاةَ لذيـذَةٌ ولا عَمَلٌ يَرْضَى به اللّهُ صالحُ

وقلت أنا :

تصبَّرْ إن أصابكَ نَبْلُ عَوْضٍ وضاقَ عليكَ مُتَّسَعُ البَراحِ

فإنَّ الدَّهْرَ ليسَ بذي اصْطبارٍ عليك بلِ التَّحوُّلِ والبَراحِ

وإنَّ الخطْبَ أسْرَعُ من ذِنَابٍ بمُنسجمٍ يسيلُ إلى سَّراحِي

وما أمرٌ يضيقُ عليكَ إلاَّ بآخرةٍ يَصيرُ إلى سَراحِ

فَكم أمْسَيْتَ ذا حُزْنٍ وأصبحْتَ تُصْبَحُ مِسرُّورٍ كُؤوسَ راحِ !

العَوْضُ : الدَّهْرُ، كما قال الحماسي :

ولَوْلا نَبْلُ عَوْضٍ في خُضُمَّاتِي وأوْصَالِي

لَطَاعَنْتُ صُدُورَ الخَيْلِ طَعْنًا لَيْسَ بِالآلِي

والبَراحُ : المُتَّسَعُ من الأرض، لا زرع فيها ولا شجر ؛ والبراح في البيت الثاني : الزَّوَال، مصدر بَرِحَ مكانَه، أي زال عنه ؛ والذِّنَابُ مسيل ما بين التلعتين ؛ والسِّرَاحِي ـ بالياء، كالثماني ـ جمع سِرْحَان وهو هنا وسَط الحَوْض ؛ والسَّرَاح في البيت بعده الانسراح والانفراج ؛ وتُصَبَّحُ تَسْقِي، تقول : صَبَّحْتُ زَيْدًا إذا سَقَيْتَهُ الصَّبُوح، فهو مصبوح ؛ وقولي مِسرُّورٍ أي مِنَ السُّرَورِ، فحُذفت نون مِنْ وهو جائز فصيح .

ولنكتف بهذا القدر، والله يقول الحقَّ وهو يهدي السبيل .



بـــابُ الخـــاء المُعْجَمَـــة

خُبَأَةٌ خَيْرٌ مِنْ يَفَعَةِ سُوءٍ .

الخَبْأُ السِّتْرُ، تقول : خَبَأتُ الشيء خَبْأً وخَبِيئَةً إذا سَتَرْته ؛ والخُبَأة ـ على مثال هُمَزَة ـ المرأة تلازم بيتها . وفي الصحاح : الخبأة المرأة تطلع ثمّ تختبىء . واليفع التّلُّ والمرتَفَع من الأرض ووصفٌ للغُلاَم . يقال : غُلاَم يَفَع ـ بفتحتيْن ـ ويَفَعَة .

والمعنى أنّ بنتًا تلزم بيتها تخبأ فيه خَيْرٌ من غلام يَفَعة لا خير فيه، وهو واضح. والمسوّغ للابتداء بالنكرة، في هذا وما يشبهه، نحو تَمْرةٌ خيرٌ مِنْ جَرادَة، القصد إلى العموم، ذكره ابن مالك في شرحه على **التسهيل** . وهو أحسن من التعبير بأنّ المسوغ كونه مثلا، إذ لا يكون مثلا إلاّ بعد حين . وهو مفتقر أوّل وهلة إلى المسوّغ، مع أنّ كونه مثلاً وإن حصل ابتداءً لا يناسب أن يكون مسوّغا بوجه كما لا يخفى، إذ التسويغ [إنّما] هو بالتخصيص أو التعميم المُخْرِج للقضية عن الاهمال المحض لفظًا ومعنًى . نعم، المعنى قد يفهم بقرائن، وإن لم يكن ثَمّ مُسَوّغٌ ظاهر فيكفي ذلك، ويمكن أن يدعى أنّ هذا المثل ونحوه من ذلك . مع أنّه في مثلنا يدعى أنّ المسوغ كونُ المُبتدإ وصفًا لمحذوف هو المبتدا حقيقة . فإنّ المعنى امرأةٌ خَبْأة خَيْرٌ من غُلام يَفَعة . وفي المسألة كلام، وليس من غرضنا ولا هذا محلّه .

خَبَطَ خَبْطَ عَشْوَاء .

الخَبْطُ : الضَّرْبُ، يقال : خَبَطَ البعيرُ الأرضَ إذا ضَرَبَها بِرِجله . والعَشَى ـ بالقصر ـ سُوءُ البَصَر بالليل . يقال : عَشِيَ ـ بالكسر ـ يَعْشَى، وعَشَى أيضا عَشًى فهو أعْشَى وهي عَشْوَاء . والعشواء في المثل الناقة الضعيفة البَصَر والتي لا

تبصر أمامها، وهي تضرب وتخبط بيديها كل شيء، فيضرب بها المثل . ويقال : خبط فلان هذا الأمر خَبْطَ عَشْواء، وذلك إذا دخل فيه بغير بصيرة، وهو ظاهر .

خِبِقَّة خِبِقَّة، تَرَقَّ عَيْنَ بَقَّة !

الخِبَقُّ ـ على مثال هِجَفّ، وعلى مثال فِلِزّ ـ الطويل من الرجال والخيل . وقيل : الخِبَقُّ من الخيل : السَّريع ؛ والخِبَقُّ أيضا الرجلُ الوثَّاب . وهكذا وقع هذا الكلام في **القاموس** . والذي في **الصحاح** : **حُزُقَّةٌ حُزُقَّة تَرَقّ عَيْنَ بَقَّة** . والحُزُقَّةُ الرجلُ القصير، أو الذي يقارب الخطو لضعف بدنه . يقال : رجل حُزُقّ ـ على مثال عُتُلّ ـ ورجل حُزُقَّة . قال الشاعر في الأوَّل :

حُزُقٌّ إذا ما القَومُ ابْدوا فُكاهةً تفكَّر آإيَّاهُ يعنُونَ أم قِردا[1]

وقال امرؤ القيس في الثاني :

وأعْجبني مشْيُ الحزُقَّة خالدٍ كمشي أتانٍ حُلِّئت في المناهِلِ

حُلِّئتْ : مُنعَت وطُردت ؛ والتَّرقّي : الصُّعُود ؛ والبقّ : البعوض أو أعظمها . قال ذو الرّمَّة يذكر خيلا :

قيامًا تَذودُ البقَّ عن نُخَراتها بنهزٍ كإيماء الرُّؤوس المَوانِعِ

النُّخَرات ـ بالنون والخاء المعجمة ـ مخارجُ النَّفَسِ من الأنُوف ؛ ونَهَزَتِ الدَّابةُ بِرأسها إذا ذبَّت به .

ورُوي في الحديث أنّ النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم كان يُرقِّص أحد سِبْطيْه فيقول : **حُزُقَّة حُزُقَّة تَرقَّ عَيْنَ بَقَّة !** فجعله حُزُقَّةً لِصِغَره وقوله : تَرقّ، أي اصْعَدْ في السَّماء . ويقال أيضا : رجل حِبِقَّة ـ بالحاء المهملة وبكسرتيْن، مشدَّدة القاف ـ أي قصير . ورجل حُبَقٌ ـ على مثال صُرَد ـ أي ضعيف العقل . وكذا امرأةٌ حُبَقَة . قال الراجز :

حُبَقَةٌ يَتبعُها شيخٌ حُبَقْ وإن يُوفِّقها لخَيرٍ لا تَفِقْ

---

1) البيت لرجل من بني كلاب، وقبله :

ولَيْسَ بِحوَّازٍ لاحْلاسِ رحْلهِ ومزودِهِ كيْسًا من الرأي أو زُهْدَا

أخْدَعُ مِنْ ضَبٍّ .

الخَدْع : الخَتْل . يقال : خَدَعَه خَدْعًا إذا خَتَله وأراد به المكروه من حيث لا يشعر، واخْتَدَعُه أيضا اخْتِدَاعًا، فانْخَدَع هو ؛ والاسم الخَديعَة . والضَّبّ تقدّم ما فيه، وهو يوصف بالخديعة والمكر . قال الشاعر :

وأخْدعُ من ضبٍّ إذا جاءَ حارشٌ أعدَّ له عندَ الذُّنابةِ عقربا[2]

وإنّما قال ذلك لأنّهم يزعمون أنّ بين الضّبّ والعقرب أُلْفَة، فتأوي إلى جُحره، فمن مدّ إليه يده لسعته.

قال المبرّد في **الكامل** : العرب تزعم أنّه ليس من ضبّ إلاّ في جحره عقرب . فهو لا يأكل ولد العقرب، وهي لا تضربه، فهي مسالمة له وهو مسالم لها . وأنشد البيت السابق .

مُخْرَنْبِقٌ لِيَنْبَاعَ .

الاخْرِنْبَاقُ : انْقِمَاعُ الرجل المريب، والّلصوق بالأرض، والسكوت والاطراق ؛ والانْبِيَاعُ : سَيَلان العَرَق . يقال : انباع العَرَق إذا سَالَ، ويقال : انباعت الحَيَّة إذا بسطت نفسها بعد تَحَوّيها لتساور.

ومعنى مُخْرَنْبِقٌ لِيَنْبَاعَ : مُطْرِقٌ وسَاكِتٌ لِيَثِب إذا أصاب فرصة . والمعنى أنّه سَاكِتٌ لِداهية يريدها . يُضرب في الرجل يطيل الصّمت حتّى يُحسب مغفلا وهو ذو نكراء . والمُخْرَنْبِقُ : اللاّصق بالأرض لينباع ليثب . أو المُخْرَنْبقُ : السَّاكت على ريبة لينباع ليظهر ما طواه من الشرّ . والمقصد واحد . ويُروى : مُخْرَنْبِقٌ لِيَنْبَاقَ، ومعناه لِيَنْدَفِعَ . وقيل ليأتي بالبائقة، أي الدّاهية . ويُروى لِيَنْبَاغَ - بالمعجمة - أي ليتحرّك بالشرّ الذي في طيّه، فيظهره كأنّه من تَبَوَّغَ الدّمُ بمعنى هَاجَ، أو من تَبَوَّغَ زيْدٌ إذا غلب .

وفي معنى هذا المثل قول النابغة الذبياني :

لقَد نَهَيْتُ بني ذُبيانَ عن أقُرٍ وعَن ترفُّعِهِمْ في كُلِّ أصْفار

وقلت : يا قوم إنّ الّليث مُنقبضٌ على براثِينِه لوثْبَةِ الضَّاري

---

2) في د : « الذيابة » بدل « الذنابة ».

قوله : عَن أُقُرٍ هو موضع . وقوله : في كُلّ أصفار هو جمع صَفَر -بالتَّحريك - اسم الشهر ،وكان صَفَر يومئذ في زمن الربيع، وقيل غير ذلك .
وأراد باللَّيث النعمان بن الحارث الأكبر الغسَّاني أو أخاه عمرو بن الحارث . وقوله : لِوَثْبَةَ الضَّاري - بالاضافة - أي لِوَثْبَةَ الأسَد الضَّاري . ويُروى لِلْوَثْبَةِ الضَّار، فيكون الضَّاري وصفًا للَّيث .
ومثل ذلك أيضا قول ابن الرومي :
سكتّ سُكوتًا كان رهنًا بوثْبةٍ   عَمُوسٍ كذاكَ اللَّيثُ للوثبِ يلْبَدُ
وستأتي أمثال من هذا المعنى كثيرة، وتقدَّم بعضها .

تَخَرَّسِي يَا نَفْسُ لا مُخَرِّسَ لَكِ .

الخُرس - بالضمّ - طعام الولادة . قال الرَّاجز :
كلّ طعامٍ تشْتَهي ربيعَهْ   الخُرسُ والاعْذَارُ والنَّقِيعَهْ
والخُرسة - بالضمّ أيضا - طعام النُّفَاس نفسها . وتقول : خَرَّسْت على المرأة تَخْريسًا إذا أطْعَمْتَ في ولادتها، وتَخَرَّسَتْ هي اتَّخذت ذلك لنفسها، وخُرّست جعل لها الخُرسة . قال الهُذَلي :
إذا النُّفساءُ لم تُخَرَّس ببكْرها   غُلامًا ولم يُسكَتْ بحِترٍ فطيمُها
الحِتْرُ : الشيء القليل الحقير، أي لم يكن لهم شيء يُسكتون به الصبيّ من الطعام ولو قليلا، لشدَّة المجاعة . وكانت امرأة ولدت ولم يكن لها من يهتمّ بأمره فقالت : تَخَرَّسِي يَا نَفْسُ لاَ مُخَرّسَ لَكِ ! فذهب مثلا يُضرب عند اعتناء المرء بنفسه.

خَرْقَاءُ ذَاتُ نِيقَةٍ .

الخُرْق - بالضَّمّ - عدم الرّفق في الأمور، وعدم إتقان الصنعة، والحمق . خَرُقَ الرجل - بالكسر والضَّمّ - فهو أخْرَق وهي خَرْقَاء . قال :
إذا كَوكَبُ الخرقَاءِ لاَحَ بِسحْرَةٍ   سُهيلٌ أذاعتْ غَزْلَها في القرائِب
يريد أنّ المرأة الخرقاء لا تشتغل بالغزل في الصيف، بل تتمادى على التسويف والتفريط، حتَّى إذا طلع سهيل - وذلك حين يقبل البرد - قامت إلى قرائبها ليُعِنَّها، وجعلت

تفرّق بينهنّ غزلها . فسَمَّى سهيلا بكوكب الخرقاء لهذه العلاقة . وذات بمعنى صاحبة .
والنِّيقَةُ - بكسر الأوّل - اسم من التّنَوّق . يقال : تَنَوَّقَ الرجلُ في الشيء يَتَنَوَّقُ إذا تأنّق فيه، أي تخيَّر.

والمعنى أنّها خرقاء، ومع ذلك تتأنّق . فيُضرب في الجاهل بالشيء يدّعي فيه المعرفة ويتخيَّر في الارادة.

الخُرْقُ شُؤْمٌ .

تقدّم أنّ الخُرْق يكون عدم الرفق في الأمور بِتَناوُلِها على غير وجهها، مع عجلة وإفراط وتجاوز مقدار . والشُّؤْمُ - بضمّ الشين وسكون الهمزة - ضدّ اليُمْن .[3]
والمعنى أنّ من خَرِق في أمر فلا بدّ أن يعود عليه شؤمُه . وهذا الكلام يُروى حديثا مرفوعا إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم، وأنّه قال : **الرِّفْقُ يُمْنٌ والخُرْقُ شُؤْمٌ** .
وقال أيضا صلّى اللّه عليه وسلّم : **إنَّ اللّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأمْرِ كُلِّهِ** . وقال : **مَا كَانَ الرِّفْقُ في شَيْءٍ قَطُّ إلاَّ زَانَهُ، ومَا كَانَ الخُرْقُ فِي شَيْءٍ إلاَّ شَانَهُ**
وقال : **يَا عَائِشَةُ، مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ، ومَنْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ حُرِم حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ** . وقال صلّى اللّه عليه وسلّم : **إذا أحَبَّ اللّهُ تَعَالَى أهْلَ بَيْتٍ أدْخَلَ عَلَيْهِمُ الرِّفْقَ** . وقال صلّى اللّهُ عليه وسلّم : **إِنَّ اللّهَ تَعَالَى لَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِي عَلَى الخُرْقِ . وإذَا أحَبَّ اللّهُ تَعَالَى عَبْدًا أعْطَاهُ الرِّفْقَ، وما مِنْ أهْلِ بَيْتٍ يُحْرَمُونَ الرِّفْقَ إلاَّ قَدْ حُرِمُوا** .
وقال صلّى اللّه عليه وسلّم : **إنَّ اللّهَ تَعَالَى رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ ويُعْطِي عَلَيْهِ مَا لاَ يُعْطِي عَلَى العُنْفِ** . وقال صلّى اللّه عليه وسلّم : **يَا عَائِشَةُ ارْفُقِي فَإنَّ اللّهَ تَعَالَى إذا أرادَ بِأهْلِ بَيْتٍ كَرامَةً دلَّهُمْ عَلَى بَابِ الرِّفْقِ** . وقال صلّى اللّه عليه وسلّم : **مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الخَيْرَ كُلَّهُ** .
وقال صلّى اللّه عليه وسلّم : **التَّأنِّي مِنَ اللّهِ والعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ** . وقال

3) صحفت كلمة « اليمن » في ب، فكتبت « اليمنى ».

صلّى اللّه عليه وسلّم : **إنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ، فَإِنَّ المُنْبَتَّ لا أَرْضًا قَطَعَ ولاَ ظَهْرًا أَبْقَى.**

وما أحسن قول أبي الفضل [بن] النحوي في هذا :

والرِّفْقُ يَدُومُ لِصَاحِبِهِ والخُرْقُ يَصِيرُ إلَى الهَرَجِ

خَرْقَاءُ عَيَّابَةٌ .

العَيَّابَةُ : التي تعيب النّاس كثيرا . وهذا مثل للأحمق وذي العيوب، يعيب غيره وينسى عيوبه . قال إسماعيل بن القاسم :

يامَن يعيبُ وعيْبُهُ مُتشعِّبٌ كم فيكَ من عيْبٍ وأنتَ تعيبُ !

لِلَّهِ دركَ كيْفَ أنْتَ وغَايَةٌ يَدعوكَ ربُّكَ عنْدهَا فتُجيبُ ؟

وفي الحديث : طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ !

أخْرقُ مِنْ حَمَامَةٍ .

الخُرقُ مرَّ، والحَمَامُ أيضا تقدَّم ما فيه، ووُصف بالخرق لأنَّ الحمامة تبيض على أعواد ولا تحكم عشَّها، فربَّما وقع بيضها فتكسَّر . وقد تأتي إلى غصن شجرة فتبني عليه عشَّها في الموضع الذي يحرّكه الريح، فلا يكاد يسلم بيضها . قال عبيد بن الأبرص :

عَيَّوْا بِأَمْرِهِمُ كَمَا عَيَّتْ بِبَيْضَتِها الحَمامَهْ

جعَلَت لها عوديْنِ مِنْ نَشمٍ وآخَرَ مِنْ ثُمَامَهْ

ويقال أيضا : أحْمَقُ مِنْ حَمَامَةٍ .

خَرْقَاءُ وجَدَتْ صُوفًا .

تقدَّم أنَّ الخرق يكون بمعنى عدم الاتقان ؛ والمرأة الخرقاء من هذا المعنى ضدّ الصَّناع ؛ والصُّوفُ معروف، البعض منه صُوفَة .

ومعنى المثل أنَّ المرأة غير الصَّناع إذا وجدت صوفا عاثت فيه ودَّرَتْهُ . يُضرب مثلا

للأحمق يجد مالاً فيضيعه ويتلفه، أو لمن يخرق في كلّ[4] ما وجده وتمكّن منه .
يُحكى أنّ الحسن رضي اللّه عنه لقي سابق الحاج وهو يسرع، فجعل [الحسن] يومىء إليه بأصبعه كفعل الغازلة ويقول : خَرْقَاءُ وجَدَتْ صُوفًا .
وهذا المثل كالمثل الآخر الآتي : عَبْدٌ وخَلَّى فِي يَدَيْهِ .

أخْسَرُ صَفْقَةً مِنْ أبِي غُبْشَانَ .

الخَسَارَة ضدّ الرِّبْح . خَسِرَ الرجل - بالكسر - يَخْسَرُ خَسْرًا وخَسَارَةً : وأبُو غُبْشَانَ هو الخزاعي . وتقدّم هذا المثل وما كان من قصّته في حرف الحاء المهملة.

خَشٌّ ذُؤَالَة، بالحِبَالَةِ .

الخَشْيَة : الخَوْف، خَشِيَ - بالكسر - يَخْشَى خَشْيَةً ؛ وخَشَّيْتُهُ أنا تَخْشِيَةً : خَوَّفْتُهُ ؛ وخَشَّى فلانا تَخْشِيَةً : خَوَّفَهُ ؛ وذُؤَالَة - بذال معجمة، على مثال ثُمَامَة - الذئب، مأخوذ من الذَّأَلاَن، وهو مشية فيها إسراع أو خفة ومَيس . يقال : ذَأَلَ يَذْأَلُ ذَأْلاً وذَآلانًا إذا مشى تلك المشية ؛ والحِبَالَةُ : التي يُصاد بها.
والمعنى : خوف الذئب بالحبالة . يُضرب عند الأمر بالتهديد والتبريق .

خَشْيَةٌ خَيْرٌ مِنْ مَلْءِ وَادٍ حُبًّا .

أي : أن تخاف أرفع لمقدارك وأسمى لجنابك من أن تُحَبَّ.
وهذا كقولهم : رَهَبُوتى، خَيْرٌ مِن رَحَمُوتَى ؛ وقول الغضبان بن القبعثري للحجّاج : أو فرق خير من حبين، وسيأتي .

أخْطَأتِ اسْتُكَ الحُفْرَةَ .

الخَطَأ ضدّ الصواب . يقال : أخْطَأَ يُخْطِىءُ إخْطَاءً فهو مُخْطِىءٌ ؛ ويقال

4) في ب : في كل عام ما وجده...

خَطِئَ - بالكسر - يَخْطأُ إذا سلك سبيل الخَطَأ، عامداً أو غير عامد، فهو خاطئ . وقيل : الخاطئ هو المتعمّد ؛ والاسْتُ - بهمزة وصل - والسَّتَه : الدُّبُر أو حلقته ؛ والحُفرة - بضمّ الحاء - معروفة . وهذا المثل يُضرب لِمَنْ يحيد عن الصَّواب في مقصده، ويضع الشيء في غير موضعه . ومعناه ظاهر .

أخْطَأُ مِنْ ذُبَابٍ .

الخَطَأ مرَّ، وكذا الذُّبَابُ، ووُصف بالخطإ لأنَّه يقع في الهلاك بنفسه : فقد يسقط في الماء الحارّ فيموت، أو في الشيء الذي يلتزق به ولا يتخلَّص منه.

أخْطَأُ مِن فَراشٍ .

الفَرَاش - بفتح الفاء، بوزن سَحاب - هو الذي يتهافت على السراج، واحده فَراشَة . ووصف بالخطإ أيضا كما ذكر في الذباب، لأنَّه يلقي نفسه على السراج والنَّار كلها فيحترق . وقال الشاعر:

جهالةُ سنَّورٍ وخَطْءُ فراشةٍ وإنَّك من كلبِ التَّهارشِ أجْهَلُ

وفي الحديث : **إنَّكُمْ تَتَهافَتُوت في النَّار تَهافُتَ الفَرَاشِ وأنا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ**، أو كما قال صلَّى اللَّه عليه وسَّلم .

وما أحسن قول بعض الأدباء :

لَهيبُ الخَدِّ حِينَ بَدَا لِطَرْفي هَوَى قَلْبي عليهِ كَالفَرَاشِ
فأحْرقَه فَصَار علَيْهِ خالاً وهَا أثَرُ الدُّخَانِ عَلَى الحَوَاشِي

وقول الآخر :

جلَّتْ محاسنُهُ عن كُلِّ تَشْبِيهِ وجلَّ عَن واصفٍ في الحُسْنِ يَحْكِيهِ
أنْظُرْ إلى حُسنِه واستَغْنِ عَن صِفَةٍ سُبحانَ خَالقِه سُبحانَ بَاريهِ !
النَّرجسُ الغضُّ والوردُ الجنيُّ لَه والأقْحوانُ النَّضيرُ الضَّوْءِ في فيه
دعا بألحاظِه قلبي إلى عَطبِي فجَاءَهُ مُسرعًا طَوعًا يُلَبِّيهِ
مثْلَ الفراشَةِ تأتي إذ تَرى لهبًا إلى السِّراجِ فتُلقِي نفسها فيه

الخُنْفُسَاءُ إذا مُسَّتْ نَتُنَتْ .

الخُنْفَسَاءُ : الدُوَيْبَّةُ السوداء المعروفة . يقال إنَّها خُنْفَسَاء وخُنْفُس" وخُنْفَسَة"، ونونها زائدة . والنَّتْنُ قبح الرَّائحة . يقال : نَتُنَ الشَّيء - بالضَّم - وأنْتَنَ، فهو مُنْتِن" . والخُنْفَسَاءُ معروفة بالنَّتَن، فيُضرب ذلك مثلا للرجل المشتمل على الخبث والعيب، وأنَّه يُترك ويُجتنب . والمعنى : لا تفتّش ما عنده فإنَّه يوذيك بنتنِ معائبه !

أخَفُّ حِلْمًا مِنْ بَعِيرٍ .

الخَفُّ ضدّ الثّقل . خَفَّ الشيءُ يَخفُّ خِفَّةً، فهو خَفِيف" . والقياس خَاف" - كَدَبَّ يَدِبُّ فهو داب" -. ولكن حملوا الخفَّة على ضدّها - وهو الثقل - خَفِيف، كما قالوا : ثَقيل . والحِلْم تقدَّم . والبَعِير معروف . وهذا كما قال الحماسي :

لَقَد عظُم البعيرُ بغَيرِ لُبٍّ فَلم يستغْنِ بالعِظم البَعِيرُ
يُصرِّفُهُ الصَّبيُّ بكُلِّ وجْهٍ ويحْبسُهُ على الخَسْفِ الجَرِيرُ

أخَفُّ حِلْمًا مِن عُصْفُورٍ .

الحِلْمُ مَرَّ، والعُصْفُورُ : الطَّائِرُ الصغير المعروف، وهو على أنواعٍ كثيرة . والأنثى عُصْفُورَة" . قال الشاعر :

كعُصفورةٍ في كفِّ طفلٍ يسومُها حِياضَ المنايا وهْو يلهو ويلعَبُ

ويُضرب المثل في خفَّة الحلم بالعصفور، ولا خفاء بذلك . قال حسَّان بن ثابت، رضي اللَّه عنه :

لا بَاسَ بالقومِ من طولٍ ومن عِظَمٍ جِسْمُ البغال وأحْلامُ العَصافير !

وقال الآخــر :

إن يسمعُوا سُبَّةً طاروا بها فرحًا عنِّي وما سمعوا من صالحٍ دَفَنُوا
مثلَ العصافيـر أحلامًـا ومقْـدرةً لو يوزنونَ بِزِفِّ الرِّيش ما وَزَنُوا

أخفُّ رأسًا مِنْ ذِئبٍ .

الذِّئْبُ معروف، ويُوصف بخفَّة الرأس - ويعنون في النوم - لما يزعمون من أنَّه لا ينام إلاّ بإحدى مقلتيْه، كما قيل :

يَنامُ بإحْدَى مُقْلتَيْهِ ويتَّقِي بأُخْرى المَنايا فهْوَ يقْظان هَاجِعُ

وقالوا أيضا : **أخَفُّ رأْسًا مِنَ الذُّبَابِ ومِنَ الطَّائِرِ .**

أخَفُّ مِنْ لاَ عَلَى الِّلسَانِ .

الخِفَّةُ مرّت، ولاَ : حرف نفي، وهي خفيفة على اللسان . فيُضرب المثل بذلك في الخفَّة، وهو يحتمل أن تكون الخفَّة من جهة اللفظ لقلَّته وهو ظاهر، أو من جهة المعنى لملائمه الانكار للطبع غالبا، وخفَّة التبرّي والتنصّل على النفس في أكثر الأمور، أو منهما معًا . ويقال أيضا : كَلاَ ولاَ، في التعبير عن السرعة والخفَّة . قال :

يكونُ نُزولُ القَومِ فيها كَلاَ ولاَ غَشاشًا ولا يُدنونَ رحْلاً إلى رحْلِ

غَشاشا : أي على عَجَل . وقال الآخر :

وأروَعَ أهْداهُ لِيَ اللَّيلُ والفَلا وحَسٌ بمسٌ الأرضِ لكنْ كَلاَ ولاَ

أخَفُّ مِنْ يَرَاعَةٍ .

اليَرَاعَةُ - بفتح الياء المثنَّاة من تحت، ثمّ راء، ثمّ ألف، ثمّ عين مهملة - واحد اليَرَاع، وهو يُطلق على القصب وعلى طائر يطير بالليل كأنَّه نار . وهو في هذا المثل يجوز أن يراد به القصبة وأن يراد به الطائر .

والمعنى الأوّل هو مراد البلغاء والأدباء عند وصف أحد بالكتابة . وقولهم مثلا : إنّ فلانا من أرباب اليراعة، وفرسان اليراعة، وهذا في الشعر والنثر لا يُحصى.

تَخَلَّصَتْ قَائِبَةٌ مِنْ قُوبٍ .

التَّخَلُّصُ : النَّجَاةُ . خَلَّصْتَ الرَّجل تَخْلِيصًا، فتَخَلَّصَ هو : نَجَا ؛ والقَابِيَةُ : البَيْضَةُ ؛ والقُوبُ : الفَرْخُ ؛ وأمَّا بالفتح فمصدر . يقال : قَابَ

الطَّائِرُ بَيْضَتَهُ إذا فلَقَها، قَوْبًا، فانْقَابَتْ هي وتَقَوَّبَتْ .
ومعنى تَخَلَّصَتْ قَابِيَةٌ مِنْ قُوبٍ ـ على هذا ـ : تخلَّصت البيضة من الفرخ .
يُضرب لمَنْ انفصل من صاحبه . وعليه، ففي المثل قلب، لأنَّ الذي يتخلَّص هو الفرخ لا البيضة ؛ غير أنَّه يصحّ إسناده إلى البيضة باعتبار، كما تقول : تخلَّصت الحامل من ذي بطنها . وقيل إنَّ القائِبة الفرخ، والقوب البيضة ؛ وعليه فلا قلب، والأوَّل أنسب.
ولفظ المثل عند الجوهري : بَرِئَتْ قَائِبَةٌ مِنْ قُوبٍ . وهذا اللفظ لا يكون [معه قَلْبٌ] على كلا التفسيرَيْن، لأنَّ نسبة البراءة إليهما معًا صحيحة .
وحُكي أنَّ أعرابيًا استخفر أحدًا فقال له : إذا بلغتُ بك مكان كذا فبرئت قائِبةٌ من قُوب، أي فقد تخلَّصتُ من خُفَارتك .

اخْتَلَطَ الحَابِلُ بِالنَّابِلِ .

الاخْتِلاَطُ معروف ؛ والحَابِلُ الذي يصيد الصيد بالحبالة ؛ والنَّابِلُ الذي يصيده بالنَّبْل، فيُضرب ذلك في اختلاط الرأي؛ ويقال الحابل هنا هو السَّدَى والنابل الطُّعْمَة.
وهذا كما مرَّ في قولهم : حَوَّلَ حَابِلَهُ عَلَى نَابِلِهِ .

اخْتَلَطَ الخَاثِرُ بِالزُّبَّادِ .

هذا المثل كالذي قبله . والخَاثِرُ ضدّ الرَّقِيقِ . يقال : خَثُرَ اللبن ـ بالضمّ والكسر ـ فهو خَاثِرٌ . والزُّبَّادُ ـ على مثال رُمَّان ـ نبت، والزُّبَّادُ أيضا من الَّلبن ما لا خير فيه .
فكأنَّ المعنى أنَّه اختلط الجيِّد بالرَّديء، والصحيح بالسقيم.
وقال البكري في **شرح الأمثال** : الزُّبَّادُ نبت كانوا يضعون ورقه على ظروف اللبن . و يقال أيضا : زَبَدَتِ المرأةُ الصُّوفَ والشعرَ إذا نَفَشَتْه . فيحتمل أن يريد في المثل أنَّ خاثر اللبن اختلط بمنفوش الصوف، فلا يؤكل . انتهى. وما ذكرناه أوَّلاً أظهر، والَّله أعلم .

خَلْعُ الدِّرْعِ بِيَدِ الزَّوْجِ .

هذا مثل يضرب عند الخطإ في وضع الأشياء غير موضعها، وتقدَّمت قصَّته ومَنْ قاله في حرف الجيم، عند قولهم : التَّجْرِيدُ لِغَيْرِ نِكَاحٍ مُثْلَةٌ، فانظره هنالك .

أَخْلَفُ مِنْ صَقْرٍ .

يقال : خَلَفَ فَمُ الصَّائم - بفتح اللاَّم - يَخْلُفُ خُلُوفًا وخُلُوفةً - بضمّهما ؛ وأخلف إذا تغيَّرت رائحته . ومنه : نَوْمَةُ الضُّحَى مَخْلَفَةٌ لِلْفَمِ .
وفي الحديث أيضا : لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أطْيَبُ عِنْدَ اللّهِ مِنْ ريحِ المسْكِ .
والصَّقْرُ : الطائر المعروف، وتقدَّم . ضربوا المثل بخُبْثِ رائحة فمه .

أَخْلَفُ مِنْ عُرْقُوبٍ .

أخْلَفُ اسم تفضيل، من الاخْلاف في الوعد . لكن المعروف فيه الرباعيّ . يقال : أخْلَفَنِي فلانٌ ما وعَدَنِي، وهو أن يقول شيئا ولا يفعله على الاستقبال . وقد يقال : أخلفه إذا وجد وعده خلفًا . قال الأعشى :

أثْوَى وقَصَّر ليلةً ليُزوَّدا ... فمضتْ وأخْلفَ من قُتيلَةَ مَوعِدَا

أي مضت الليلة .
نعم، يجوز بناء اسم التفضيل من الرباعيّ على أفْعَل عند بعض المحقّقين، كأعطى .
وعرقوب رجل من العمالقة وعد أخاه تمرًا فأخلفه، وسيأتي . قال علقمة :

وقدْ وعدتْكَ موعدًا لو وفَتْ بِهِ ... مواعِيدَ عُرقوبٍ أخاهُ بيَثْرِبِ[4م]

وقال كعب بن زهير، رضي اللّه عنه :

كانت مواعيدُ عُرقوبٍ لها مثلاً ... ومـا مواعيدُهـا إلاّ الأبَاطِيلُ

وقلت أنا من قصيدة :

فسيَحْتَبيكَ بِوعْدِ غَانِيةٍ ... أو وعْدِ عُرقوبٍ جَنَى التَّمْرِ

خَلِّهِ دَرَجَ الضَّبِّ !

التَّخْلِيَةُ : التَّركُ ؛ والدَّرَجُ - بفتحتيْن - الطريق ؛ والضَّبُّ معروف .
والمثل يضرب فى الأنَفَة من مصاحبة مَنْ يُرغب عن صحبته .
والمعنى : خَلِّه يذهبْ حيث شاء وقيل معناه الذهاب، كأنَّه قيل : يذهب ذهابَ

4م) سقط ما بين معقوفتين من د.

الضبّ !، أي خلّه كضلال الضَّبّ !، لأنَّ الضَّبَّ أسْوَأ الحيوان هدايةً، ولذلك يضرب به المثل فيقال . أضلُّ مِنْ ضَبٍّ. ويقال أيضا : خَلِّ دَرَجَ الضَّبِّ !، أي خَلِّ طريقَه لئلاَّ يمرَّ بين يديك فتنتفخ ! وهذا قريب في المعنى ممَّا تقدَّم من قولهم : الخُنْفَسَاءُ إذَا مُسَّتْ نَتُنَتْ، كما مرَّ ذلك.

خَلِّ سَبيلَ مَنْ وهَى سِقَاؤُهُ !

التَّخْلِيَة مرَّت، وتقول : خَلَّيْتَ سَبِيلَ الرجل إذا تركتَه ولم تتعرَّض له . ووَهَى السِّقَاءُ ـ بالفتح ـ يَهِي وهْيًا : تمَزَّقَ . والسِّقَاءُ ـ بالكسر والمدّ ـ القِربَة. قال الشاعر :

أقولُ لعَبْدِ اللّهِ لمَّا سقَاؤُنَا، ونحنُ بوادي عبدِ شمسٍ، وَهَى: شِمِ!

أي أقول له، حين وهَى سِقَاؤُنَا ونحن بوادي عبد شمس : شِمِ البَرْقَ ! أي انظر إليه ! فشِمْ، في آخر البيت، فعل أمر، وهو معمول القول . وهذا المثل قد يُروى رجزًا فيقال :

خلِّ سَبِيلَ مَنْ وهَى سِقَاؤُهُ ومَن هُرِيقَ بالفَلاةِ مَاؤُهُ

يقال : أَرَقْتُ وَهَرَقْتُ- بقلب الهمزة هاءً ـ فأنا مُريقٌ ومُهَرِيقٌ ـ بفتح الهاء ـ وكان القياس حذف الهاء لأنَّها في مكان همزة أفْعَلَ . وهي تُحذف في المضارع لكنَّها، لمَّا صارت هاء ذهب الثقل فبقيت . قال الشاعر :

فَظَلِلْتُ كالمُهريقِ فضْلَةَ مائِهِ في ظِلِّ هاجرةٍ للَمْعِ سَرَابِ

وقد يقال : أهْرَقْتُهُ ـ بتسكين الهاء، والجمع بين الهمزة وبدلها ـ تناسيا للأصل، فأنا مُهْرِيقٌ ـ بالسكون أيضا . قال :

فَصِرت كمُهْرِيقِ الَّذي في سقائِهِ لرقْراق آل فَوقَ رابيةٍ صَلْدِ

والفَلاَةُ : القَفْرَةُ، والجمع فَلىً وفَلَوَاتٌ .

وهذا المثل كالذي قبله مضربا . وقد قيل إنَّه يضرب في الرجل لا يستقيم في أمره، وانَّه لا ينبغي أن يعاني . وقيل إنَّه يضرب في اقتناء السرّ، بمعنى أنَّه إذا باح صاحبك بسرّك ونضح به، كما ينضح هذا السقاء الواهي بالماء، فدَعْه عنك ولا تؤاخه ولا تصاحبه، فلا خير لك فيه ! وهذا مناسب لتشبيههم مَنْ لا يكتم السرَّ بالغربال، كما قال الحطيئة :

أغْربالاً إذا استُودعْتَ سِراً وكانُونا على المُتَحدِّثينا ؟

خَلاَؤُكَ أقْنَى لِحَيَائِكَ .

الخَلاَءُ - بفتح الخاء والمدّ - يطلق مصدراً من قولك : خَلاَ المكانُ وغيرُه، يَخْلُو خَلاءً وخُلُوّاً . ومكان خَالٍ وخَلاَءٌ : لا أحدَ به . قال حسّان، رضي اللّه عنه :

عَفَتْ ذاتُ الأصابِعِ فالجِواءُ إلى عذْراءَ منْزِلُها خَلاءُ

زقد يُطلق على المُتَوَضَّأ، كما في الحديث، ويطلق على المكان القفر لا شيء به، وهو المراد . قال زهير :

فأمّا ما فُوَيْقَ العِقْدِ مِنْها فمِن أدْماءَ مَرتَعُها الخَلاَءُ

والحَيَاءُ - بالمدّ - معروف . وقَنِيَ الرجلُ الحياءَ وقَنَاه - بالكسر والفتح - وأقْناه واقْتَنَاه : لَزِمه وحفظه . قال عنترة :

قامَتْ تُخوِّفني الحُتوفَ كأنَّني أصْبحتُ عن غَرضِ الحتوفِ بمعْزِلِ[5]

فأجبتُها : إن المنيَّةَ منهلٌ لابُدَّ أن أُسقَى بكأسِ المنْهَلَ

فاقْنَيْ حَيَاءَكِ لاَ أبالَكِ واعْلمي أنّي امرؤٌ سأموتُ إن لم أُقتلِ !

أي : الزمي حياءك واحفظيه ولا تضيّعيه ! وقال العطوي :

أيقْنَى جَميلَ الصَّبْرِ من هُدَّ ركنُه وهِيضَ جَناحَاهُ وجُدَّ الأناملِ ؟

ومعنى المثل أنّ منزلك، إذا خلوت به، هو ألزم وأحفظ لحيائك

الخَلَّة، تَدْعُو إلى السَّلَّة .

الخَلَّةُ - بفتح الخاء - الحَاجَةُ والخَصَاصَةُ والفَقْرُ . قال :

رأى خلَّتي من حَيْثُ يخْفَى مكانُها فكانَت قَذى عينَيهِ حتَّى تجلَّتِ !

ويقال للرجل إذا مات : اللّهمَّ اخلُفْ على أهله بخَيْرٍ واسْدُدْ خَلّتَه ! أي فُرْجَتَه التي تركها . قال أوس بن حجر :

لهُلْكُ فُضالةَ لا تَسْتَوي الفُقُودُ ولا خَلَّةُ الذاهِب

5) يروى أيضًا : بكَرَتْ تُخَوِّفُنِي...

يقول : إنّه كان سيّدًا، فلمّا مات ترك ثُلْمَةً لم تُسَدّ . تقول : خَلَّ الرجلُ، وأُخِلَّ بِهِ - بالضمّ - إذا احتاج . ورجل مُخَلٌّ ومُخْتَلٌّ وخَلِيلٌ، أي فقير . قال زهير :

وإن أتاهُ خليلٌ يَومَ مَسْألَةٍ يَقُولُ : لا غَائبٌ مالي ولا حَرِمُ

واخْتَلَّ إليه : احتاج . وفي كلام ابن مسعود : عَلَيْكُم بالعِلْم ! فإنَّ أحَدَكُم لا يَدْري متى يُخْتَلُّ إلَيْه، أي متى يحتاج النّاس إلى ما عنده . وما أخَلَّكَ إلَيه، أي ما أحْوَجَك ! والأخَلُّ الأفْقَرُ . ويقولون : « الأخلُّ فالأخلّ، أي الأفقر فالأفقر ».

والسَّلَّةُ - بفتح السين - : السرقة . وكذا الاسْلاَل . ويقال : لي في بني فلان سَلَّة، أي سرقة. والمعنى أنّ الحاجة والخصاصة تدعو إلى السرقة وتُلجىء إليها، عياذًا باللّه تعالى!

وأمّا الخُلَّة - بضمّ الخاء - فهي الصداقة . والصديق أيضا للذكر والأنثى، رجل خُلَّةٌ لي وامرأة خُلَّةٌ . قال امرؤ القيس :

وكانَ لها في سالِفِ الدّهْرِ خُلَّةٌ يُسارِقُ بالطَّرفِ الخِباءَ المُستَّرَا

أي خليل . وقال الآخر :

ألا أبْلِغَا خُلَّتي جَابِرًا بأنَّ خَليلَكَ لَمْ يُقْتَلِ !

وقال الآخر :

شبعْتُ من نومٍ وزَاحَتْ عِلَّتي وطَرقَتنِي في المنَامِ خُلَّتي
ومَا عَلمتُ أنَّهَا أَلَمَّتِ حتَّى قَضتْ حاجَتَهَا وَوَلَّتِ

أي خليلتي .

خَلالَكِ الجوُّ فبيضِي واصْفِرِي !

الجَوُّ معروف ؛ وبَاضَتِ الدّجاجة ونحوها، تَبِيضُ ؛ وصَفَرَ الطَّائر، يَصْفِر، صفيرًا : صَوَّتَ .

وهذا المثل يضرب للأمر يقدر عليه الانسان متمكّنا . وأوّل من قاله كُلَيْب بن ربيعة التّغْلِبِيّ الوائليّ في شعر له، وذلك أنّه كان له حِميً لا يقرب، فباضت فيه قبَّرة ؛ والقُبَّرَة - بضمّ القاف وفتح الباء المشدّدة - الطائر المعروف ؛ فأجارها وقال يخاطبها :

5م) يروى أيضًا :... يوم مَسْغَبَةٍ.

يَـــالَـكِ من قُـبَّـــرةٍ بمعمــرِ خَـلاَلـكِ الجَـوُّ فَـبِيضِـي واصْـفِـرِي !
ونَـقِّـرِي مَـا شِئْـتِ أنْ تُـنَـقِّـرِي !

وذلك أنَّه إنَّما يصفر الطائر ويتغنَّى في الخصب . فدخلت ناقة البسوس الحمى، فوطئت بيض القبَّرة، فرمى كليب ضرعها، فقتل جساس كليبا، وهاجت من ذلك حرب البسوس بين بني وائل أربعين سنة . وفي ذلك يقول الشاعر :

كُلَيْبٌ لعَمري كان أكْـثَـرَ ناصرًا وأيْـسَـرَ جُرمًا منكَ ضُرِّجَ بالدَّمِ
رمَى ضِرعَ نابٍ فاستمرَّ بِطَـعْـنَـةٍ كحاشِيَـةِ البُـردِ اليماني المُسهمِ

وسيأتي تتمَّة هذا الحديث .

وقيل إنَّ أوَّل من قاله طرفةُ بن العبد، وذلك أنَّه قال لأمّه وهو غلام : إنِّي أريد صيد القنابر، فابعثي أمتك مع البَـهْـمِ ! والقَـنَـابِـرُ جمع قُـنْـبُـرُة وهي القُـبَّـرَة، فقالت له أمّه : يا بنيَّ، إنَّ المضيع من وكّل ماله وأضاع عياله . ثمَّ إنَّها أرسلت أمتها مع البهم . وخرج طرفة وصاحب له معهما فخّ، حتَّى أتيا مكانا كانا يعهدان به القنابر كثيرة . فنصب الفخَّ، وتنحَّيا غير بعيد . فجعلت قبَّرة تحوم حول الفخّ، ثمَّ نقرته فأخطأها . فأقبل طرفة نحو فخّه وهو يقول : قد يعثر الجواد، وتُمحِل البلاد، ويُنهَب التِّلاد، ويضعُف الجلاد، والفخّ قد يُعاد . ثمَّ نصب فخَّه، فوقعت القنابر حول الفخّ، وهي تحيد عنه وتلقط ما أصابت . فلمَّا طال ذلك به، ضجر وانتزع فخَّه وهو يقول :

قاتَـلَكُـــنَّ اللّـه من قَـنَـابِـــرِ مُـهْـتديـــاتٍ بالفلاَ نَـوافِــــرِ
ولاَ سُقِيتُـنَّ مَعِيـنَ المَاطِـرِ ولا رَعَيْـتُـنَّ جَـنُـوبَ الحَاجِـرِ !

وانصرف هو وصاحبه راجعيْن . ثمَّ التفت، فإذا القنابر قد سقطن بالموضَع الذي نصب فيه فخَّه يلتقطن، فقال : يَـا لَـكِ مِنْ قُـبَّـرَةٍ... الأبيات المذكورة . فلمَّا أتى منزله، ورأته أمّه لم يصنع شيئا، قالت له : حدّك اليوم حادّ، وصدّك صادّ ! فقال لها طرفة :

ما كُـنْـتُ محْدودًا إذا غَـدَوْتُ وما رأيْـتُ مِـثْـلَ ما لَـقِــيتُ
مِن طائِرٍ ظلَّ بِـنَـا يَـحُـوتُ يَـنْـصَـبُ في اللَّوْحِ فَـمَا يَـفُـوتُ
يَـكَـادُ مِنْ رهْـبَـتِـنَـا يَـمُـوتُ !

فقالت أمّه : إنِّي لأرجو أن تكون شاعرا، وأن تشبه خالك ! وحَاتَ، يَـحُـوتُ : أسْرَعَ .

ورد أنَّ ابن عبَّاس، رضي اللَّه عنهما، تمثَّل بهذا المثل، وذلك حين خرج الحسين، رضي اللَّه عنه، إلى العراق، فلقي ابن عبَّاس ابن الزبير، فقال له : خلالكِ الجو فبيضي واصفري . هذا حسين يخرج إلى العراق ويخلّي لك الحجاز !

خَامِرِي أمَّ عَامِرٍ !

خَامِرِي : معناه استتري وتغطي، كأنَّه من التخمير وهو التغطية والسِّتر . ومنه الخمر والخمار ؛ وأمُّ عَامِرٍ : الضبع . قال :

ومَن يجْعَل المعروفَ من دونِ أهْله يُلاقِي الَّذي لاقى مُجيرُ امِّ عامِرِ

وسيأتي . وللضبع كُنًى كثيرة : يقال لها أمُّ عَامِرٍ - وأمُّ عَمْرٍو، وأمُّ الهِنْبر، وأمُّ خَنْثُور ؛ ويقال لها أيضا : حَضَاجِرُ - بفتح الحاء - على وزن الجمع، وجَعَارِ، وجَيْأَل؛ ويقال لها المُوقَّفَة . قال معاوية بن زهير :

فدونكُمُ بني لأيٍ أخَاكُمْ ودونَكِ مَالكًا يا أمَّ عَمْرِ
فَلولاَ مَشْهَدي قَامَتْ عَليهِ مُوَقَّفَةُ القَوائِمِ أمُّ أجْرِ !

أراد بكونها مُوَقَّفَةَ القوائم أنَّ في قوائمها الأوقَاف، وهي الخلاخل، جمع وقف، يعني السَّواد الذي في قوائمها . يقال : جارية مُوَقَّفَة : لبِست الوقْفَ . والأجْرِي جمع جِرْو، وهي أولادها . ومثله قول الهُذَلي :

وغُودِرَ ثاوِيًا وتأوَّبَتْهُ موقفة أمَيْمُ، لَهَا فَلِيلُ

ويقال لها عَرْفَاءُ والخَامِعَةُ - أي العَرْجَاءُ - قال الشنفرى :

ولي دونَكُم أهْلونَ : سيدٌ عملَّسٌ وأرقَطُ زُهْلولٌ وعرفَاءُ جَيْئَلُ

وقال الآخــر :

يا لَهْفِ من عَرفاءَ ذاتِ فليلةٍ جاءتْ إليَّ على ثلاثٍ تخْمَعُ
وتظَلُّ تنشِطُني وتَلْحمُ أجريًا وسَط العرينِ وليس حيٌّ يَدفَعُ !
لو كان سيْفي باليمين دفعْتُها عنِّي ولم أوكَلْ وجَنْبي الأضْيَعُ

وقال عنترة :

إن يعْقِرا مُهْري فإنَّ أباهُمَا جَزَرٌ لِخَامِعَةٍ ونسرٍ قَشْعَمِ

---

6) عيَّن في لسان العرب (مادة فل) اسم الشاعر . ساعدة بن جؤية، ورواد هكذا :
وغُودر ثاويًا وتَأوبَتْهُ مُذرَّعةٌ، أميمُ، لها فليل.

ولذلك قال ابن المهلَّب : الضَّبُعَةُ العَرجَاءُ، فلحن في قوله الضبُعة، إذ لا يقال كما مرَّ .

ويقال إنَّ الذي بها من العرَج ليس عرَجًا حقيقة، وإنَّما يتخيَّل كذلك للناظر من إفراط الرطوبة في أحد جانبيها . والضبع أحمق الحيوان، كما مرَّ ذلك في الحاء . وهي أفسقها أيضا وأشبقها . يزعمون أنَّها لا يمرّ بها حيوان من نوعها إلاَّ علاها، وأنَّها تقلب الميّت على قفاه وتستعمل كمرته، ولذلك يقال لها حين تصطاد : أبشري أمَّ عامر بجراد عضال، وكمر رجال ! يخدعونها بذلك . وقال الشاعر :

فَلو مات منهُمْ من جَرحْنا لأصبحَت ضباعٌ بأكنافِ الشَّريبِ عَرائِسَا

وقولهم في هذا المثل : خَامِرِي أمَّ عامرٍ، تقدَّم أنَّهم يقولونه للضبع عند الاصطياد يخدعونها به . فبقي مثلا للمغرور ومن عرف الدنيا وتَقَلُّبَها ونقضها ما أبرمت وسلْبَها ما وهَبَت، ثمَّ يسكن إليها مع ذلك ويغترُّ بها كما تغترُّ الضبع بقول القائل : خَامِرِي أمَّ عَامِرٍ . وقال البهاء زهير يشير إليه :

يَا هَذِهِ لاَ تَغْلَطِي والَّلهِ مالي فِيكِ خَاطِرْ
خَدَعُوكِ بالقَوْلِ المُحَالِ فَصَحَّ أنَّكِ أمُّ عَامِرْ

الخَنِق، يُخْرِجُ الوَرِق .

الخَنِقُ - بفتح الخاء وكسر النون، كالكَذِب - مصدر . يقال : خَنَقْتُهُ - بفتح النون - خَنْقًا، فهو خَنِقٌ أيضا وخنيق ومخنوق ؛ وخَنَقْتُهُ فَاخْتَنَقَ . والخِنَاقُ - بالكسر - الحبل يُختنق به - وبالضمّ - : داءٌ يمتنع معه نفوذ النَّفَس إلى الرئة والقلب . والوَرِقُ - بوزن كَتِف - : الدراهم المضروبة، ويقال لها الرِّقَةُ - بحذف الواو - على مثال عِدَة، والوَرَقُ - بفتحتيْن - والورْق - بسكون وتثليث الواو.

والمعنى أنَّك إذا اشتددت على الرجل وضيَّقت عليه، أعطاك . وهذا دأب الدنيء لا يسمح إلا رهبةً أو رغبة، كما قيل :

رأيتُك مثْل الجَوزِ يمْنَعُ لُبَّه صحيحًا ويُعْطي لُبَّهُ حين يُكسَرُ

خَـيْـرُ الأمُـورِ أوْسَاطُـهَـا .

الخَـيْـرُ هنا اسم تفضيل . يقال : فلان أخْـيَـرُ من فلان . وتحذف الهمزة غالبا فيقال : هو خَـيْـرٌ منه . فإن أطلق تناول جميع أوصاف المدح، وإن قُـيِّـد بشي تقيَّد ؛ والأمُـورُ جمع أمْرٍ وهو عامٌ ؛ والأوسَاطُ جمع وسَط بمعنى متوسّط بين طرفيْن.

وهذا الكلام يـُروى حديثا، وهو من جوامع كلمه التي أُعْـطِـيَـهَا صلَّى الَّله عليه وسلَّم، وهو متناول لأمور من الديانات والأخلاق والآداب والسياسات والمعاشرات والمعاملات، تعجز عقول الخلق عن إحصائها . وقد صنَّف ذوو البصائر من أهل العلم في تفاصيل ذلك دواوين . وهو بحر لا ساحل له، جمع له صلَّى الَّله عليه وسلَّم في جملة واحدة كما قال صلَّى الَّله عليه وسلَّم : **أُوتِـيتُ جَـوَامِـعَ الكَـلِـمِ، واخْـتُـصِـرَ لِـيِ الكَـلاَمُ اخْـتِـصَـارًا.**

قال الجاحظ : ينبغي للرجل أن يكون سخيًّا لا يبلغ التبذير، حائطا لا يبلغ البخل، شجاعا لا يبلغ الهَوَجَ، محترسًا لا يبلغ الجُـبْـن، حَـيِـيًّا لا يبلغُ العجز، ماضيا لا يبلغ القِحَـةَ، قوَّالاً لا يبلغ الهذَر، صموتا لا يبلغ العيَّ، حليما لا يبلغ الذُلَّ، منتصرا لا يبلغ الظُّلم، وَقورًا لا يبلغ البلادة، نافذًا لا يبلغ الطيش . قال : ثمَّ وجدت رسول الَّله صلَّى الَّله عليه وسلَّم جمع ذلك في كلمة واحدة، وهي قوله عليه السلم : **خَـيْـرُ الأمُـورِ أوْسَـاطُـهَـا**

وما ذلك إلاَّ لأنـَّه صلَّى الَّله عليه وسلَّم أُوتي جوامع الكلم . انتهى . وإلى هذا أشار بعض الشعراء بقوله :

عَـلَـيْكَ بأوْسَاطِ الأمـورِ فإنـَّهَـا ... نجاةٌ ولا تركَـبْ ذلولاً ولا صَـعْـبَـا !

والآخر بقوله :

[لا تَـذهَـبَـنَّ في الأمُـورِ فَـرَطَـا ... وكُـن من النَّاس جميعًا وسَطا !

والمعري في قوله][6] :

فإن كُـنت تهْوى العَـيْش فابغ توسُّطًا ... فعنـْد التَّناهي يقْصُـرُ المُتطاولُ

توقـَّى البُـدورُ النـَّقْـصَ وهْـيَ أهلـَّةٌ ... ويُـدركُـها النـُّقْـصانُ وهي كَـواملُ

6) سقط ما بين معقوفتين من د.

خَيْرُ العَشَاءِ سَوَافِرُهُ .

خَيْر : تقدَّم ؛ والعَشَاءُ ـ بالفتح والمدّ ـ طعام العشيّ . ولا يخرجه التأخير عن كونه عشاء، كما قال الحطيئة :

وآنيتُ العشاءَ إلى سُهَيْلٍ أو الشِّعْرى فطَالَ بيَ الأنَاءُ

وآنَيْتُهُ : جعلت أناه ـ أي وقته ـ ذلك الزمان المتأخّر . ويُروى : وأكْرَيْتُ العَشَاءَ... الخ، فَطَالَ بِيَ الكَرَاءُ، أي أخَّرت ؛ والسَّوافِرُ جمع سَافِرَة، يقال أسْفَرَتِ الشَّمسُ وسَفَرَتْ إذا أضَاءت، وسَفَرَتِ المرأةُ عن وجهها : كَشَفَتْ عنه . والمراد أنَّ خير العشاء ما أكل منه بضوء النهار، وكأنَّ اللقمة حينئذ تسفر للظلام عن وجهها.

وهذا المثل تكلَّم به الأصمعي للرشيد . ذكر بعض الأدباءِ عن أبي بكر بن شقير النحوي قال : دخلنا على محمَّد اليزيديّ، وهو يتغدَّى فقال : يا أبا بكر، خير الغَداء بواكره، فما خير العشاء ؟ فقلت : لا أدري. فقال : دخلت على عبيد اللَّه بن سليمان، وهو يتغدَّى، فقال : خير الغَداء بواكره، فخير العشاء ماذا ؟ فقلت : لا أدري . فقال : دخلت على حسين الخادم، وهو يتغدَّى، فقال : يا أبا القاسم، خير الغَدَاء بواكره، فخير العشاء ماذا ؟ فقلت : لا أدري . فقال : كنت بحضرة الرشيد، وهو يتغدَّى، فدخل الأصمعي فقال : يا أصمعي، خير الغَدَاء بواكره، فخير العشاء ماذا ؟ فقال : بواصره، ومعناه ما يُبصر من الطعام . انتهى .

وزعموا أنَّ تأخير العشاء يورث ضعفا بالبصر . ومن ثمَّ قال أبو بكر بن دريد :

وأرَى العَشَا فِي العَيْنِ أكْثَرَ مَا يَكُونُ مِنَ العَشَاءِ

العَشَا الأوَّل ـ بألف مقصورة ـ وهو ضعف البصر، وبالمدّ الطعام . وقال كُشَاجِم :

وَنَدِيمٍ مُخَالِفٍ لاَ يَشَاءُ الَّذِي أَشَا
هُوَ فِي الصَّحْوِ لِي أَخٌ وَعَدُوٌّ إِذَا انْتَشَا
اقْتَرحْتُ العَشَاءَ يَوْمـ ـًا عَلَيْهِ فَأَدْهَشَا
سَاعَةً ثُمَّ قَالَ لِي : العَشَا يُورِثُ العَشَا !

وورد في بعض الأحاديث نهيًا عن ترك العشاء : **لا تَدَعُوا العَشَاءَ ولَوْ بِكَفٍّ مِن حَشَفٍ فإنَّ تَركَهُ مَهْرَمَةٌ.**

خَيْرُ العِلْمِ مَا حُوضِرَ بِهِ .

المُحَاضَرَةُ : المُذَاكَرَةُ . والمعنى أنَّ خير العلم ما حصَّل الانسان في صدره فوجده عند المحاضرة، وكان عدَّة له عند المذاكرة . ويقال حرفٌ في قلبك، خيرٌ من ألف في كتبك . ويقال : لا خير في علم لا تُعْبَرُ به الأودية، ولا تُعْمَرَ به الأندية . ويقال : حِفْظُ سطرين، خيرٌ من حِمْلِ وقْرَيْن، ومذاكرة اثنين، خيرٌ من هذين .
وينسب للشافعي :

عِلْمي مَعي حيثما مشَيْت يتبعُني وعاؤُه القلبُ لا بيتي وصُندوقِي
إن كُنت في البيت كان العلم فيهِ معي أو كُنت في السوق كان العلمُ في السوق

وقال آخـــر :

عليكَ بالحفْظ دون الكُتْب تجمعُها فإن للكـــتب آفـــاتٍ تُفرقُهـــا
الماءُ يُغرقهـا والنَّـــار تُحرقهـا والفـارُ يَخرقُهـا والّلصُّ يسرقُها

لكن قد يولع المرء بالحفظ حتَّى يفوته تصوّر المعاني، فيكون كالحمار يحمل أسفارا . ولذلك رُوي في الخبر : همَّةُ السُّفهاء الرِّوَاية، وهمَّة العلماء الدِّراية . وقال ابن مسعود : كونوا للعلم وُعاة، ولا تكونوا له رُواة، فقد يُرْوَى ما لا يُدْرَى، ويُدْرَى مالا يُرْوَى . وحدَّث الحسن البصري بحديث . فقال له رجل : عمَّن ؟ فقال : وما تصنع بعمَّن ؟ قد نالتك عطيَّتُه، وقامت عليك حجَّتُه . وربَّما وَثِق بصدره ولم يقيِّد فيطرأ عليه النسيان ويضيع علمه.ولذلك ورد في الخبر : قيِّدُوا العِلْمَ بِالكِتَاب[7].
وورد أن رجلا شكا إلى النبي صلَّى الله عليه وسلَّم كثرةالنسيان، فقال له اسْتَعْمِلْ يَدكَ - أي اكْتُبْ ! -.

وشاع في أمثال النَّاس : يَنْسَى الرَّاس، ولا يَنْسَى الكُرَّاس .

خَيْرُ الغَدَاءِ بَوَاكِرُهُ .

الغَدَاءُ - بالفتح والمدّ والدَّال مهملة - ضدّ العَشاء، وتقدَّم هذا. والمراد أنَّ خير الغداء أيضا ما ابتُكر به . ولهذا علَّة وتحقيق يُذكر في الطبّ . ومنهم من رأى في الغداء

7) في ب : بِالكَتْب.

التأخير . ويُروى قول عليّ كرّم اللّه وجهه أو غيره من الحكماء : من أراد النَّساءَ ولا نَسَاء فَلْيُكْرِ الغداء، ولْيُبَاكِرِ العَشاء، ولْيُخفِّفِ الرداء، وليقلّلْ غِشْيَانَ النِّسَاء . انتهى . قوله فلْيُكْرِ الغَداء : أي يُؤَخِّره، كما مرَّ في بيت الحطيئة . وأراد بتخفيف الرداء أن يجنّب نفسه ثقل الدَّيْن : فإنَّ همَّ الدَّيْن يهرم، كما يقال : **لا همَّ إلاَّ همُّ الدَّيْن، ولا وَجَعَ إلاَّ وَجَعُ العَيْن.**

خَيْرُ الغِنَى القُنُوع، وشَرُّ الفَقْرِ الخُضُوع .

الغِنَى - بكسر الغين وألف مقصورة، بوزن رضَى - ضدّ الفقر . قال :

فتًى غيرُ محجوبِ الغِنى عن صَديقهِ ولا مُظْهِرُ الشَّكوى إذا النَّعلُ زلَّتِ

وقد يُمدّ للضرورة . قال :

سيُغْنيني الَّذي أغنَاك عنِّي فلا فقْرٌ يدومُ ولا غِنَاءُ

والقُنُوعُ : السُّؤالُ والتذلّل للمسؤول . وقد قَنَعَ الرجل - بالفتح - قنوعًا، فهو قانعٌ وقَنِيعٌ . قال :

لَمَالُ المرءِ يُصلحُه فيُغْني مفاقِرَهُ أخفُّ من القُنُوعِ

والمَفَاقِر جمع فَقْر - على غير قياس -، مثل مَذاكير لِذَكَر، ومَحَاسِن لحُسْن، على ما في ذلك من الكلام عند النحويّين . ومنه قول النابغة :

فأهْلي فِداءٌ لامْرِىءٍ إن أتَيتُهُ تقبَّلَ مَعْروفي وسَدَّ المُفاقِرَا

وقال عَديُّ بن زيد العِبادي :

وما خُنتُ ذا عهْد وأُبْتُ بعهده ولم أحْرِمِ المُضْطرَّ إذ جاء قانِعا

أي سائلا . وفي كلامهم : **نَسألُ اللّهَ القَنَاعةَ، ونعوذُ به من القُنُوع** .

وقلت في هذه المادّة من قصيدة :

إنّ ذُلَّ القنوعِ ليس بشافِيه على المرءِ نَيْلُ أقصى الأماني

ومَنِ اعتزَّ بالقنَاعةِ أمْسى في نعيمٍ وعِزَّةٍ وأمانِ

وقد يكون القُنوع بمعنى القناعة، وهو الرضى بالقسم على الضدّ، وهذا هو المراد في المثل . قال الشاعر :

وقالوا قد ذهبتَ فقلْتُ كلاَّ ولكنِّي أعَزَّنِيَ القُنُوعُ

والقانع : الراضي . قال لبيد :

فمنهم سعيدٌ آخِذٌ بنصيبِهِ ومنهُم شَقِيٌّ بالمَعِيشَةِ قانِعُ

ويقال إنّما سمّي السائل قانعا لأنّه يرضى بما أعطي وإن كان قليلا . فيكون معنى القنوع والقناعة واحداً أبدا ؛ غير أنّ فعل القناعة هو بالكسر، يقال : قَنِعَ - بالكسر - يَقْنَعُ قَناعةً، فهو قَنِعٌ وقانِعٌ وقَنُوعٌ وقَنِيعٌ . والفَقْرُ - بفتح الفاء - الحَاجَةُ : والخضوع : التّذلّل .

ومعنى المثل واضح، يُضرب في صيانة الحرّ نفسه عن خسيس المكاسب . وهو من كلام أوْسِ بن حارثة .

رُوي أنّه عاش دهراً وليس له إلاّ ابنه مالك . وكان لأخيه الخزرج خمسة أولاد : عمرو، وعوف، وجُشَم، والحارث، وكعب . فلمّا احتضر أوس قال له قومه : كنّا نأمرك بالتزّوج في شبابك، فلم تتزوّج حتّى حضرك الموت . فقال : الأوس : **لم يَهْلِكْ هَالِكٌ، تَرَكَ مِثْلَ مَالِك** - يعني مالك بن أوس ولده - وإن كان الخزرج ذا عدد، وليس لمالك ولد . فلعلّ الذي استخرج العَذْقَ من الجَرِيمَة، والنارَ من الوثِيمَة، أن يجعلَ لمالك نَسْلاً، ورجالاً بُسْلاً، يا مالكُ المنيّة، ولا الدّنيّة، والعتاب، قبل العقاب، والتجلّد، لا التبلّد ! وأعلم أنّ القبر، خير من الفقر ؛ وشرُّ شاربٍ المُشْتَفّ، وأقبحُ طاعمٍ المُقْتَفّ؛ وذهاب البصر، خير من كثير من النظر ؛ ومن كرم الكريم، الدفاع عن الحريم ؛ ومن قلّ ذلّ، ومن أمر فلّ . وخير الغنى القناعة، وشرّ الفقر الضراعة ؛ والدهر يومان : فيوم لك ويوم عليك، فإذا كان لك فلا تَبْطِرْ، وإذا كان عليك فاصْبِر، فكلاهما سَيَنْحَسِر . فإنّما تَعُزُّ مَن ترى، ويعُزُّك من لا ترى . ولو كان الموت يُشْتَرَى، لسلم منه أهل الدنيا، ولكنّ الناس فيه مُسْتَوون : الشريفُ الأبلج، واللّئيم المُعَلْهَج ؛ والموت المُفِيت، خيرٌ من أن يقال لك هَبِيت . وكيف بِسلامة، من ليست له إقامة ؟ وشرٌّ من المصيبة سوءُ الخلَف، وكلُّ مجموع إلى تلف . حيّاك إلاهُك ! انتهى.

فنشر اللّه من مالك بعدد بني الخزرج . والعذْق - بالفتح - النخلة نفسها، وبالكسر كباستها - كما مرّ في الهمزة ؛ والجريمة النّواة ؛ والوثيمة الموطوءة من الحجارة بحوافر الخيل ونحوها، من الوثم، وهو الكسر، كما قال عنترة :

خَطّارةٌ غِبَّ السُّرى مَوّارة[8] تَطِسُ الاكامَ بِذاتِ خُفٍّ مِيثَمِ

وهذا الكلام يحلف به العرب، يقولون : **لا، والذي أخْرَجَ العذق من الجَريمَة، والنّارَ مِنَ الوَثيمَة !** ومن أيمانهم أيضا : **لا، والذي شقّهُنّ خَمْسًا من واحد !** أي الأصابع ؛ **ولا، والذي أخْرجَ قابِيَةً مِن قُوب !** ـ أي فرخًا من بيضة ـ كما مرّ ؛ و : لا، **والذي وجْهِي زَمَمَ بيته !** بفتحتيْن ـ أي تلقاءه وتجاهَه ؛ والبُسْل : الشجعان، واحدهم بَاسِل، والبسالة : الشجاعة ؛ والمشتفّ هو المستقصي ما في إنائه، ومنه حديث أمّ زرع : **إن شَرِبَ اشْتَفّ** . والمقتفّ : الآخذ للشيء بعجلة ؛ وأمر الرجل : كثُر عدده ؛ وتعزّ : تغلب ؛ والمُعَلْهَجْ : المُتنَاهِي في الدناءة واللّؤم، وقيل هو العريق فيه اللئيم بن اللئيم ؛ والهبيت : الأحمق الضعيف، ويقال له الجبان المخلوع القلب . وضدّه الثّبِيتُ . قال طرفة

فَالهَبِيتُ لاَ فُؤَادَ لَهُ والثَّبِيتُ قَلْبُهُ قِيَمُهْ[9]

ويُروى : فهمه قيمه.

وقد علمت أنّ لفظ المثل في هذه الوصيّة التي سردنا من كلام أوْس : خَيْرُ الغِنَى القَنَاعَةُ، وشَرُّ الفَقْرِ الضَّرَاعَةُ . ورواية المثل ـ على هذا الوجه ـ هو رأي من لا يرى أنّ القنوع يكون بمعنى القناعة، وبذلك اعترض البكري على أبي عبيد في إيراده المثل على اللّفظ السّابق، وقد علمت ممّا مرّ أنّه صحيح . ومثل هذا المثل قول الفَارِعَة بنتِ طريف ترثي أخاها :

فَتًى لا يُعِدُّ الزّادَ إلاّ مِنَ التُّقى ولا المالَ إلا منْ قَنًى وَسُيُوفِ

وقول الأُبَيْرِد اليَرْبُوعيّ : :

فتًى كان يُدنِيهِ الغِنى من صديقِه إذا ما هُوَ اسْتَغْنَى ويُبْعِدُه الفقرُ

وقول إبراهيم بن العبّاس الصُّولي :

أسدٌ ضارٍ إذا استنْجَدتَهُ وأبٌ بَرٌّ إذَا مَا قَدَرَا
يَعْرِفُ الأبْعَدَ إنْ أثْرَى ولاَ يَعْرِفُ الأدنَى إذَا مَا افْتَقَرَا

وقوله أيضا :

---

8) يروى أيضًا « زيّافة » بدل « موارة ».
9) كتب الشطر الآخر محرفًا في المخطوطات، في بعضها مثلا : « والثبت ثبته نقمه ».

ولكنَّ الجَوادَ أبَا هِشَامٍ نَقِيُّ الجَيْبِ مَأمُونُ المَغِيبِ
بَطِيٌّ عَنْكَ مَا اسْتَغْنَيْتَ عَنه وطلاَّعٌ عَلَيْكَ مَعَ الخُطُوبِ
وقول الآخر :
إذا أعْطشَتْكَ أكُفُّ اللِّئامِ كَفَتْكَ القَنَاعَةُ شَبْعًا وريًّا
فَكُن رجُلاً رجْلُهُ في الثَّرَى وهَامَةُ هِمَّتِهِ في الثُّريَّا
فإنَّ إرَاقَةَ مَاءِ الحَيَاةِ دُونَ إراقَةِ مَاءِ المُحَيَّا !
وتقدَّم ما في ذكر القناعة من الشعر، وسيأتي أيضا كثير، إن شاء اللَّه تعالى !
ووصيَّة أوْس المذكورة مشتملة على أمثال عدَّة، وقد نبَّهنا على غريبها، والباقي واضح.

خَيْرُ ما رُدَّ فِي أهْلٍ ومَالٍ.

هذا يُستعمل في الدعاء بالخير للقادم من السفر . والمعنى : جعل اللَّه ما جئت به خير ما رجع به الغائب ! وقيل : المعنى أنَّ مجيئك بنفسك خير مارد في أهلك ومالك.

خَيْرُ المَالِ سِكَّةٌ مَأبُورة، ومُهْرَةٌ مَأمورة .

المَالُ معروف ؛ والسِّكَّةُ ـ بالكسر ـ : الحديدة التي تُضرب عليها الدَّراهم، والتي يُحرث بها . وتُطلق أيضا على السطر من الأشجار ؛ والمَأبُورَةُ : المُصْلَحَةُ، يقال : أبَرَ نَخْلَهُ، يأبُرُهُ، أبْرًا وإبَارًا وإبَارَةً ـ ككَتَبَ كَتْبًا وكِتَابًا وكِتَابَةً ؛ وأبَّرَهُ تَأبِيرًا : ألْقَحَهُ وأصْلَحَهُ ؛ وائْتَبَرَ الرجلُ : طَلَبَ غيره أن يَأبُرَ له . قال طرفة :
ولِيَ الأصْلُ الَّذي في مثْلهِ يُصلِحُ الآبِرُ زَرْعَ المُؤتَبِرِ
وتَأبَّرَتِ النَّخْلُ : قبلت الْإبار . قال الراجز :
تأبَّرِي يا خَيْرَةَ الفَسيلِ إذ ضنَّ أهْلُ النَّخْلِ بالفَحُولِ !
والمهرة معروف ؛ والمأمورة : الكثيرة النَّسل والنتاج . تقول : آمَرتُهُ ـ بالمدّ ـ : كثَّرتُهُ . فكان القياس أن يقال مُؤمَرَةٌ، كما تقول أعْمَرتُهَا فهي مُعْمَرَةٌ ؛ ولكنَّه قيل مَأمُورةٌ إتباعًا لمَأبُورَة، كما قيل **لا دريْتَ ولا تَلَيْتَ** ـ أي تَلَوت، **وارجِعْنَ مَازُورات، غيرَ ما جُورَات** ـ أي مَوْزُورات . على أنَّه قد يقال أمَرْتُهُ ـ كَنَصرْتُهُ ـ

فهو مَامُورٌ، أي كَثَّرَتْهُ، وهو لُغَيَّةٌ . وقد قيل بذلك في قوله تَعالَى : **وإذَا أرَدْنَا أن نُهْلِكَ قَرْيَةً أمَرْنَا مُتْرَفِيهَا** أيْ كثّرنا . ويقال : أمِرَ القومُ ـ بالكسر ـ أي كَثُرُوا . ومنه قول أوْس بن حارثة السَّابق : مَن أمِرَ فلَّ، وقول الآخر :

نَعُلُّهُمْ كُلَّمَا يبْنِي لهُم سلفٌ بالمشْرفيِّ ولولاَ ذاكَ قَد أمِرُوا

وقول أبي وجْزَة :

أمِرُونَ لا يرثونَ سَهْمَ القُعدُدِ

أي كثيرون، اسم فاعل أمِرَ . وقول الآخر :

أمٌّ جِوارٍ ضَنْؤُهَا غَيْرُ أمِرْ

أي نسلها . وقول الآخر :

والاثْمُ من شرٍّ ما يُصال به والبِرُّ كالغَيْثِ نَسْلُهُ أمِرُ

والسِّكَّة هنا أريد بها الأشجار . والمعنى أنَّ خير المال نخيل قمت عليه وأصلحته، أو فرس ولُود . وقيل : أريد بالسكة الحديدة التي يُحرث بها . ومعنى مأبورة : مُصْلَحة . والمعنى أنَّ خير المال الحرث والبطن . واعلم أنَّ هذا الكلام ذكره اللغويّون، وظاهر كلامهم أنَّه من كلام العرب . وفي **الصحاح** أنَّه حديث، واللَّه أعلم ! ورُوي في الحديث أيضا من هذا المعنى : **خَيْرُ المَالِ عَيْنٌ سَاهِرَةٌ لِعَيْنٍ نَائِمَةٍ** . ورُوي : **تِسْعَةُ أعْشَارِ الرِّزْقِ فِي التِّجَارَةِ** . ورُوي أنَّه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم **كان يأمُرُ الأغنياء باتخاذ الغنم، ويأمرُ الفقراءَ باتِّخاذِ الدَّجاج** . وقالت ابنة الخُسِّ : مائةٌ من المَعْزِقِنى، ومائةٌ من الضَّأْنِ غِنى، ومائة من الابل مِنى.

الخَيْلُ تَجْرِي عَلَى مَسَاوِيهَا .

الخَيْلُ جَمَاعَةُ الأفْرَاسِ . قال عنترة :

والخَيْلُ تَقْتَحِمُ الخَبَارَ عَوَابِسًا مَا بين شَيْظَمَةٍ وأجْرَدَ شَيْظَمِ[10]

ولا واحد لها . وحكى بعض الّلغويّين في واحده خَائِل ـ من الاختيال ـ وهو التبختر . والخيل أيضا جماعة الفرسان . قال امرؤ القيس :

فَياربَّ مَكْروبٍ كَرَرْتُ وراءَهُ وطَاعَنْتُ عَنْهُ الخَيْلَ حتَّى تنفَّسا

10) ويروى أيضًا : وآخر شيظم.

وقال الآخر :

علامَ تقولُ الرُّمحُ يُثْقِلُ عاتقي إذا أنا لم أطْعَن إذا الخَيْلُ كرَّت ؟

والجَرْيُ معروف ؛ والمَساوي : المَعائِبُ، قيل لا واحد لها، وقيل جمع مَسُوءٍ ـ على غير قياس ـ، والأظهر أنَّه جمع مَساءَة، كما تقول في مَنارَة مَنائِر . قال الشاعر في المفرد :

لَئِن ساءَنِي أن نِلْتَنِي بِمَساءَةٍ لَقَد سرَّني أنِّي خَطَرتُ ببالِكِ

وقول الآخر في الجمع :

وعَيْنُ الرِّضَى عن كلِّ عيب كليلةٌ ولكنَّ عينَ السُّخط تُبْدي المَساويا

يقال : سَاءه، يسُوؤه، سَوْءًا ـ بالفتح ـ وسُوءًا، وسَوَائِيَةً ـ كعَلانِيَة، وسَوَايَةً ـ بحَذف الهمزة ـ، ومَساءً، ومَساءَةً، ومَسائِيَةً، ومَسايَةً إذا فعل به ما يكره . وهذا المثل يُضرب في حماية الحريم والدفع عنه، مع الضرر والخوف . والمعنى أنَّ الخيل، وإن كانت بها أوصاب وعيوب، فإنَّ كرمها مع ذلك يحملها على الجري : فكذلك الحُرُّ من الرجال يحمي حريمه على ما فيه من علَّة . وقيل إنَّ المراد بالمثل أنَّ الرجل يستمتع به، وفيه الخصال المكروهة، وهو ظاهر .

الخَيْلُ أعْلَمُ بِفُرسَانِهَا .

الخَيْلُ تقدَّم ؛ والفُرسَانُ جمع فَارِس، والفَارس صاحب الفرس، كما قالوا لابِنٌ وتَامِرٌ لصاحب اللَّبَن والتمر . ويجمع على فَوارس . قال عنترة :

فإن يك عبد اللَّهِ لاقَى فوارسًا يردُّون خال العَارِضِ المتوقِّد

والفَراسَة ـ بالفتح ـ والفُروسة والفُروسِيَة الحِذْقُ بركوب الخيل وأمورها . وقد فَرُسَ الرجل ـ بالضمّ ـ يَفْرُسُ . قال ابن ظفر : وليس مَنْ ركب الفرس له حكمُ الفَراسة عند العرب ؛ ولكن الفارس عندهم مَنْ أحسن الجلاد على الفرس واشتهر بالشجاعة، كعمرو بن مَعْدِي كَرِب، وربيعة بن مكدم، ومُلاعبِ الأسِنَّة، وعنترة العبسي، وأضرابهم . فهؤلاء فرسانُ العرب . وقال الشاعر :

لَعَمرُ أبيك الخير إنِّي لخادمٌ لضيفي وإنِّي إن ركبتُ لفَارِسُ

فلم يتمدح بنفس الركوب . انتهى .

وهذا المثل يُضرب لمن يظنّ أنّ عنده غنى، ولا غنى عنده .

الخَيْلُ أعْلَمُ مِنْ فُرسَانِهَا .

هذا المثل يُضرب لمن تظنّ به ظنًّا فتجده على ما ظننت، هكذا قال بعض العلماء . ويحتمل أنّ هذين المثلين واحد ؛ وإنّما وقع التحريف في أحدهما . وتفسير الثاني أنسب بالأوّل، كما لا يخفى .

أخْيَلُ مِنْ مُذَالَةٍ .

يقال : خَالَ الرجل، يَخَالُ، واخْتَالَ، إذا تكبَّر وتبختر عُجْبًا، فهو خَالٌ وخَائِلٌ وخَالٍ - كَقَاصٍ - مقلوبا، ومُخْتَالٌ . والإِذَالَةُ - بالذال المعجمة - : الاهَانَةُ . يقال : أذَلْت الرجل، فهو مُذالٌ . قال زيْدُ الخَيْل يخاطب بني الصَّيْداءِ، وكان غزا غزوة، فطلع بعض خيله فأدركوه فأخذوه :

يا بني الصَّيداءِ ردُّوا فَرسِي إنَّما يُصنَعُ هَذا بالذَّليلِ
لا تُذيلُوهُ فإنِّي لَم أكُنْ يا بني الصَّيدا لمُهْري بالمُذيلِ
عوِّدُوهُ كالَّذي عَوَّدْتُهُ دلَجَ اللَّيْلِ وإيطاءَ القَتِيلِ !

ويُحكى أنّ أبا تمّام الطّائي خرج قاصدًا البصرة، وفيها عبد الصَّمَد بن المُعَذَّلِ . فلمَّا سمع عبد الصَّمَد بقدومه إليها كتب إليه :

أنتَ بين اثْنَتَين تَبْرُزُ للنَّاس وكلتاهُمَا بوجْهٍ مُذَال
لستَ تنفكُّ راجيًا لِوِصَالٍ مِن حَبيبٍ أو طالبًا لِنَوالِ
أيُّ ماءٍ لحُرِّ وجْهِكَ يَبْقَى بين ذُلِّ الهَوى وذلِّ السُّؤالِ ؟

فلمَّا وقف أبو تمَّام على الأبيات رجع وقال : شغل هذا ما وراءه ولا حاجة لنا فيه . وقريب من هذا قول بعضهم في هجو أبي الطيّب المتنبّي :

أيُّ فضلٍ لشاعرٍ يطلبُ الفضْل من النَّاس بُكْرةً وعَشِيًّا ؟
عاش حينًا يبيع في الكُوفة الماء وحينًا يبيع ماءَ المُحيَّا

وإنّما قال ذلك لِما يُحكى أنّ أبا المتنبّي كان سقّاء بالكوفة، واللّه أعلم !

ونحو الأوّل قول الْإسْعِرْدِيّ في مجونه الهجويّة :

أنت بين اثنتين يا نجل يعقوبٍ وكلْتاهما مقرُّ السِّيادهْ
لست تنفكُّ راغبًا عَرْدَ عبد مُسَبطرًا أو حاملاً خفَّ غادهْ
أيُّ ماءٍ لحُرٍّ وجْهك يبقى بين ذُلِّ البغَا وذلِّ القيادهْ

والمُذالَة في هذا المثل أرادو بها الأمَة لأنّها تُذال، أي تُمتهن بالخدمة وغيرها، وهي أكثر خلق اللّه اختيالاً وتبخترًا وعجبًا، وذلك من ضعف عقلها وسقاطة نفسها ونقصان همّتها : فإنّ الهموم بقدر الهمم.

وممّا يلتحق بهذا الباب قولهم :

أخْرجْتُ لَهُ حَرِيشتِي،

أي ملك يدي . وقولك مثلا :

أخْشَنُ مِن لِيفَةٍ .

والخُشُونَة ضدّ اللّين، واللِّيف ـ بالكسر ـ ليف النخل، وهو معروف، والواحدة لِيفَة ـ بالهاء ـ وهذا المعنى مطرّد، كما مرّ في نظائره.

ومن هذا الباب قولهم :

خِفَّةُ الظَّهْرِ أحَدُ اليَسَارَيْنِ .

جعلوا خفّة الظهر كناية عن عدم أو قلّة الحقوق اللازمة، والنفقات الواجبة، فإنّها للزومها، كالشيء المحمول على الظهر، يخفّ ويثقل . ولا فرق في أنّ الأحمال المحسوسة يحملها البدن المحسوس، والحقوق تحملها اللّطيفة الروحانيّة من البدن، وهي أقلّ صبرًا على الثقل للطافتها . واليَسَار : الغنى . وثُنّي بحسب حقيقته ومجازه لاتّفاق اللّفظ . وقد قالوا من هذا النحو : **الغُربَةُ أحَدُ السِّبَاءيْنِ، واللّبَنُ أحَدُ اللّحْمَيْنِ، وتَعْجِيلُ اليَأسِ أحَدُ اليُسْرَيْنِ، والشَّعَرُ أَحَدُ الوَجْهَيْنِ** أي النظر إلى الشعر كالنظر إلى الوجه ـ ؛ **والحِمْيَةُ إحْدَى المَوْتَتَيْنِ** ـ أي امتناع الطعام؛ **والقَلَمُ أحَدُ اللّسَانَيْنِ ؛ والخَالُ أحَدُ الأبَوَيْنِ** ـ **والرّاوية أحَدُ الهَاجِيَيْنِ**،

أي راوِي الهجو كقائله . وهذا كلّه من تثنية الحقيقة والمجاز . وفي ذلك خلاف عند النحويّين، والمشهور المنع والصحيح جوازه، وأنّه لا يشترط اتفاق [معنى] المثنّيين بل اللفظ فقط .

وممّا يشهد لصحته هذا الذي ذكرنا من الأمثلة، فإنّها أمثال من كلام العرب، ودليله من الشعر قول الشاعر :

كم ليثٍ اعتنَّ لِيِ ذا أشبُلٍ غَرِثَتْ فَكَانَنِي أعْظَمُ اللَّيْثَيْنِ إقْداما

أي كان أعظم الليثيْن إقدامًا إيّاي . وقول الآخر :

يداك كَفَتْ إحداهُمـا كُلَّ بَائِسٍ وأُخْراهُما كَفَّتْ أذَى كلِّ مُعتَدِ

وإن كان في هذا احتمال ضعيف . وممّا يدلّ عليه قول جَحْدَر : **ليث وليث في محلّ ضنك**، إذ لا فرق بين نحو هذا العطف وبين التثنية، فإنّه أصلها . وليس هذا محلّ تحرير هذه المسألة والاحتجاج لها.

وقولهم أيضا :

خَفِيفُ الحَاذِ .

الحَاذُ[ـ بالذّال المعجمة ـ الظّهر . وألفه عن واو، والذال لام الكلمة ومحلّ الاعراب، وليس بعدها ياء كما يصحف . ومعنى خفيف الحاذ : قليل المال والعيال . وفي الحديث : **مُؤْمِنٌ خَفِيفُ الحَاذِ**].[11] وقولهم :

خَفِيفُ الرِّدَاءِ .

أي قليل العيال والدين . والرِّداءُ ـ بالكسر والمدّ ـ يُطلق على الملحفة المعروفة، وعلى السيف والقوس، وعلى الجهل، وعلى ما زان وما شان ـ على الضدّ ـ، وعلى الوشاح، وعلى الدين . وممّا يحسن أن يُتمثّل به في هذا الباب قول النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لابن صيّاد :

---

11) سقط ما بين معقوفتين من ب.

خُلطَ عَلَيْكَ الأَمْرُ .

والقصَّة مشهورة ؛ وقول أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب، رضي اللَّه عنه :

هُوَ يَخْبَأُ وأبُوهُ يَكْنِزُ .

وذلك أنَّ خبيئة بن كناز ولِيَ في خلافته الابلة، فقال عمر، رضي اللَّه عنه، : لا حاجة لنا به ! هو يخبأ وأبوه يكنز.
ومن الأمثال المولَّدة قولهم :

الخَطُّ الحَسَنُ يَزيدُ الحَقَّ وضُوحًا،

بمعنى أنَّه، إذا أُجيد الخطّ وبُيِّنت الحروف، تبيّنت الألفاظ المؤدّية للمعاني، وانشرحت النفس، وانبسطت إليها، وأقبلت عليها ، فكَانَ قبولها للمعاني أتمَّ، وفهمها لها أكثر . وقد قالوا : **الخَطُّ أحَدُ اللّسَانَيْنِ** . وقالوا : **حُسْنُ الخَطّ إحْدَى الفَصَاحَتَيْنِ** . وقال جعفر بن يحيى : **الخَطُّ بَسْطُ الحِكَمِ : بِهِ تُفْصَلُ شُذُورُهَا ويُنَظمُ مَنْثُورُهَا** . وقال المبرّد : **رداءةُ الخطّ زمَانَةُ الأدبِ** . وقال الامام الماوردي : خطوط العلماء في الأغلب رديئة، لا شتغالهم بالعلم، حتَّى قال الفضل ابن سهل : من سعادة المرء رداءةُ خطّه، أي لئلاَّ يشغله تعلّم الخطّ عن تعلّم العلم.
قيل : والأسباب المخلَّة بالخطّ ثمانية : إسقاط ألفاظ منه، أو زيادة ألفاظ فيه، أو إسقاط بعض حروف الكلم، أو زيادة حروف أثناءها، أو وصل المفصول، أو فصل الموصول، أو تغيير الحروف حتَّى يشتبه حرف بغيره، أو ضعف الخطّ جملة، أو إهمال النقط أو الشكل.
قيل : وقد استقبح الكتَّاب النقط والشكل في مكاتباتهم، ورأوا ذلك من تقصير الكتَّاب وسوء نظرهم في فهم المكتوب، لا سيما مكاتبات الرؤساء . كما حكي أنَّ بعض كتَّاب الديوان حاسب عاملا، فشكاه في رقعته إلى عبيد اللَّه بن سليمان، فوقع فيها : **هَذَا هَذاء**.فظنَّ العامل أنَّ عبيد اللَّه أراد : هذا هذا، إثباتا لذلك القول، كما تقول في إثبات الشيء: هو هو . فحمل الرقعة للذي يحاسبه، فخفي عليه ما يقتضي التوقيع، فطيف به على الكتاب، فلم يفهموه . فردَّ إلى عبيد اللَّه . فشدَّد الثانية وكتب تحتها : واللَّه

المستعان! استعظاما لقصور نظرهم .

واستحسن آخرون النقط والشكل، وقالوا : الخطوط المعجمة كالبُرود المعلمة . وقالوا : إعجام الخطّ يمنع من استعجامه، وشكله يمنع من إشكاله . وقيل، ربّ علم لم تُعْجَمْ فصولُه فَاسْتعجم محصولُه.

آلاتُ الكتابة وأصناف الكُتَّاب

وإذ انْجَرَّ بنا الكلام في الخطّ فلنكمّل الغرض بذكر ما تيسَّر من آلات الكتابة، ومعنى الكتاب، والبراءة، والطبع، والتوقيع، والعنوان، وأصناف الكتَّاب، وجملة من شعر الأدباء في ذلك، وهذا باب واسع ألَّف فيه النَّاس . لكن نشير نحن إلى جملة يسيرة على وجه الاختصار يُنتفع بها .

فمن الآلات الدَّواة - ووزنها فَعَلَة كشجرة -، ثمّ قلبت الياء ألفًا فصارت كفَتَاة وقَنَاة، والجمع دَويَات - كقَنَوات - ودوِىً - كَقِنًى . قال الشاعر :

لِمَنِ الدَّارُ كَخطِّ باللدِّوَى ؟ أَنْكِرِ المَعْروفُ منها وامَّحَى

ودُوِيّ - بضمّ الأوّل - على فُعُول، كما يقال قُنِيّ وعُصِيّ في الجمع . قال الشاعر

عَرفْتُ الدِّيَارَ كرقْمِ الدُّويِّ حَبَّرهُ الكَاتبُ الحِمْيَرِي

وقال الآخر :

وكَم تركتَ ديارَ الشِّرك تحْسبُها تُلْقى الدُّويُّ على أطْلالِها لِفَقَا

واشتقاقها من الدواء، لأنَّ بها صلاح أمر الكاتب . واشتقَّها بعض الأدباء من قولك : دوِيَ الرجل - بالكسر - دَوًى إذا مرض، فقال :

أما الدَّواةُ فأدوَى حملُها جَسدي وحرَّف الخطَّ تحْريفٌ من القَلَمِ

أي أمرضه . ونحو هذا الاشتقاق لا يُعتمد عليه . ويقال لصانعها مُدَوٍّ، كما يقال لصانع القنى مُقَنّي، ولبائعها دوَّاء [كحَنَّاط][12] لبائع الحنطة، ولحاملها داوٍ - كسَائِف - لصاحب السيف، ولمتَّخذها مُدوٍ، وقد أدْوَى دواةً . ولِما تُصان به صوانٍ وغشاء وغلاف. وما تسدّ به صمام ونسداد وعفاص، وكذا غيرها . ويقال لصوفتها، إذ انفشت لتعمل فيها

12) سقط من ب .

قبل أن تبلّ، البوهة - بالضمّ -، وإذا بُلَّت فهي الّليقة، وقد تُسمّى به قبل ذلك مجازًا. ولقت الدواة فهي مَلِيقَة، وألَقْتُها فهي مُلاَقَة . فإن كانت من قطن فهي العطبة والكرسفة . والقطن كلّه يقال له ذلك . ولمدادها نِقْس - بكسر الأوّل، ويُفتح -. والمداد يذكَّر ويؤنَّث . ومَدَدتُ الدَّواة مدًّا : جعلته فيها ؛ وأمددتها : زدتها منه ؛ واستمددت: أخذت بالقلم من المداد ؛ وأمددت فلانا من دواتي : أعطيته . ويقال للدَّواة مَحْبَرَة - بالفتح - لأنّها محلّ الحِبْر - بالكسر - وهو النِّقْس ؛ ويقال لها النّون والجمع أنْوان ونِينَان ؛ ويقال لها الرقيم أيضا . وأمَهْتُ الدواة ومَوَّهْتُهَا جعلتُ فيها ماء.

ومنها القلم، والجمع قِلاَم وأقْلاَم - كجِبَال وأجْبَال -. ويقال له المِزْبَر والمِذْبَر - بالذّال المعجمة - لأنّه يُزْبَرُ به ويُذبر، أي يُكتب، وقيل الذبر، بمعنى القراءة . ويقال للقصبة يراعة واباءة والجمع يراع واباء ؛ ويقال لعُقَده الكُعُوب : فإن كانت فيه عُقدة تشينه فهي الأُبْنَةُ ؛ ولما بين العُقَد الأنابيب، وكذا في الرماح . ويقال لطرفي القلم اللّذين يكتب بهما السّنّان والشّعِيرتان، والواحد سنّ وشعيرة . فإن سُوّيا في القطع فهو قلم مبسوط، وإن جُعل أحدهما أطول فهو مُحَرَّف.

ومنها السكّين والمقصّ . قال ابن عبد ربّه : ينبغي للكاتب أن يصلح آلته التي لا بدّ له منها، وأداته التي لا تتمّ صناعته إلاّ بها، وهي دواته . فلينعم ربها واصلاحها، ثمّ يتخيّر من أنابيب القصب أقلّه عقدة، وأكتفه لحما، وأصلبه قشرا، وأعدله استواء . ويجعل لقرطاسه سكّينا ليكون عونا على بري أقلامه، ويبريها من ناحية نبات القصب . انتهى . ويقال السكّين والمدية والمجزأة والمبراة والفالية والشّلْقَاء - بالكسر والمدّ -، وغير ذلك . ويقال المِقصّ والمِقْراض والمِقْطَع - بكسر أوائلها - والجَلَم، وأكثر ما يُقال بالتثنية. قال الشاعر :

ولَولاَ نوالٌ مِنْ يزيدَ بنِ مزْيَد لصوّتَ في حَافاتِها الجَلَمَانِ

يعني لحيته . وجاء فيه الافراد . قال سالم بن وابصة :

داويْتُ صَدرًا طويلاً غِمْرهُ حَقدًا منه وقلَّمتُ أظْفارًا بلا جلَمِ

وقال أعرابيّ :

فَعليك ما اسطَعْتَ الظّهور بلمّتي وعليَّ أن ألقَاكَ بالمِقْرَاضِ

وأمّا الكتاب فهو المكتوب، ويقال له الزَّبور والزِّبير، والذَّبور والذِّبير . قال امرؤ القيس :

كَخَطِّ زبُورٍ في مَصَاحِفِ رهْبَانِ

وقيل : الزّبور في هذا البيت هو الكاتب، وهو الظاهر . فإن كان ما يُكتب فيه من جلود، فهو رَقّ وقِرطاس ـ بكسر القاف وضمّها ـ؛ وإن كان من خرق فهو كاغد ـ بِدَال مهملة، وروي بمعجمة ـ. وقد يستعمل القرطاس في الكلّ . ويقال لما يكتب الصحيفة والمُهْرَق ـ على وزن مُكْرم ـ والجمع مَهَارِق . قال الأعشى :

ربِّي كَريمٌ لاَ يُغَيِّرُ نِعْمَةً وإذا تُنُوشِدَ بالمَهَارِقِ أنشَدا[13]

والقضيمة . قال امرؤ القيس :

وبَين شَبُوبٍ كالقَضِيمَةِ قرهَبِ

والسجل والصكّ والقطّ . وكذا كتب الجوائز والصلات، والجمع صُكُوك وقُطوط . قال الأعشى :

ولا المَلِكُ النُّعْمانُ يَومَ لَقِيتُهُ بغِبْطَتِهِ يُعْطي القطوط ويأفِقُ

وقال المُتلمِّس :

ألْقيتُها بالثِّنْي من جنْب كافرٍ كذلك أقْنو كلَّ قطٍّ مُضلَّلِ

فإن كُتب فيها بعد مَحْو، فهي طِرس . ونَمَقت الكتاب نَمْقًا ونمَّقْتُه تنميقًا، وحَبَّرتُه ورَقَّشْتُه وزوَّرتُه، تحبيرًا وترقيشًا وتزويرًا ؛ وكذا زبْرجْتُه وزخْرفْتُه زبْرجَةً وزخْرفةً، أي كتبته كتابة حسنة . فإذا نَقَطَه قلت وشَمَه وشْمًا، وأعجمه إعجاما، ورقّشه ترقيشا . قال طرفة :

كسُطُـــور الــــرَّقِّ رقَّشَهُ بالضُّحَى مُرَقِّشٌ يَشِمُهْ

فإذا أفسد الخطّ قلت مَجْمَجَهُ وشَرمَجَه وهَلْهَلَه ولَهْلَهَه، مجمجةً وشَرمجةً وهَلْهَلَةً ولَهْلَهةً، وثَبَّجَه تَثْبِيجًا . وإذا لم يبيّنه قلت دحْمَسَهُ دحْمَسة ومَجْمَجَهُ وعَقَمَه عَقْمًا وعَقَلَه عَقْلاً . فإذا أدقَّ الحروف وقارب بعضها من بعض قلت قَرْمَط وقَرْصَعَ قرمطةً وقرصعةً . فإذا مدَّ الحروف قلت مَشَقَ مَشْقًا، وقيل المَشْقُ سُرعةُ الكتابة وخِفَّتُها . فإن نقص شيئا فألحقه فهو لَحَقٌ وجمعه ألحاق .

---

13) يروى هذا البيت أيضًا هكذا :

ربِّي كَريمٌ لاَ يُكَدِّرُ نِعمةً وإذا يُناشَدُ بالمهارِق أنْشَدَا

قال الشاعر :

عُـورٌ وَحُـولٌ وثَـالِثٌ لَهُـم كَـأنَّهُ بَيْـنَ أسْطُـرٍ لَحَـقُ

فإن وضعت عليه بعد الكتْب ترابا قلت تَـرَّبتـه تَـتْريبـًا، وأتـرَبْـتـه إترابـًا ؛ أو نشارة قلت نشَّرتـه تَـنْـشِيرًا .

وأمّا البراءة، فهي في الأصل مصدر قولك : بَـرِئْـتُ من الأمر ـ بالكسر ـ بَـرَاءَةً، أي تبرَّأت ؛ وأمّا هذه البراءة المستعملة في صناعة الكتاب، فقال أبو محمَّد بن السيد، رحمه اللّه، : سمّيت بذلك لمعنيَـيْـن : أحدهما أن تكون من قولهم بَـرِئْـتُ إليه من الدَّيْـنِ براءةً، إذا أعطيتَـهُ ما كان له عندك، وبرئت إليه من الأمر بَـراءةً، إذا تخلَّيت له عنه، فكأنَّ المرغوب إليه يتبرَّأ إلى الراغب ممَّا أمَّلَـهُ لديه، ويتخلَّى له عمَّا رغب فيه إليه . وقيل إنَّما كان الأصل في ذلك أنَّ الجاني كان، إذا جنى جناية يستحقّ عليها العقاب ثمَّ عفا عنه الملك، كتب له أمانا ممَّا كان يتوقَّعه ويخافه، فكان يقال : كتبت لفلان براءة، أي أمانًا، ثمَّ صار مثلا واستعير في غير ذلك . قال : وقد جرت عادة الكتاب ألاَّ يكتبوا في صدر البراءة : بسم الله الرحمن الرحيم، اقتداء بسورة براءة التي كتبت في المصحف من غير بسلمة .

وأمَّا الطبع، فهو طبع الكتاب . تقول : طَبَـعْـت الكتاب طبعًا، وخَـتَـمْـتُـه ختمًا، وأَفَـقْـتُـه أَفْـقًـا، ومن ذلك قول الأعشى السابق : يُـعْـطِـي القُـطُـوطَ ويَـأفِـقُ، أي يختم .

ويقال لما يُـطبع به طابع . قيل : وأوَّل من طبع الكتب عمرو بن هند، وذلك أنَّـه، لمَّا أعطى المتلمّس الصحيفة ليُـقتل ثمَّ استقرأها فهرب، كما سيأتي حديثه، أمر عمرو بعد ذلك بالكتب تُـختم . فكان يؤتى بالكتاب مطبوعًا فيقال من عني به، فلذلك سمّي العنوان عنوانا . ثمَّ لمَّا كتب النبي صلَّى اللّه عليه وسلَّم كتابا إلى ملك الروم ولم يختمه، قيل له إنَّـه لا يقرؤه إن لم يكن مختوما . فأمر أن يُـعمل له خاتم وينقش على فصّه: محمد رسول اللّه، فصار الختم سنَّة في الاسلام . وقيل أوَّل من ختم الكتاب سليمان ابن داوود، عليه السلام . وقيل في تأويل قوله تعالى : **إنِّـيَ أُلْـقِـيَ إلَـيَّ كِـتَابٌ كَـرِيمٌ**، أي مختوم . وأكرمتُ الكتاب ختمتُـه، وهو أوَّل من افتتح كتابه بالبسملة .

قيل : وكانت العرب تقول في افتتاح كتبها وكلامها . باسمك اللَّهمَّ ! فجري الأمر على ذلك في صدر الاسلام، حتَّى نزلت : **بِـسْمِ اللّهِ مُجْـرَاهَـا ومُـرْسَـاهَا**، فكتب رسول اللّه

صلّى اللّه عليه وسلّم : بِسم اللّه، حتّى نزلت **قُلْ ادْعُوا اللّهَ أو ادْعُوا الرّحْمَنَ**، فكتب : بِسمِ اللّهِ الرّحْمَنِ . ثمّ نزلت : **إنّهُ من سُلَيْمانَ وإنّهُ بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ**، فصارت سنّة إلى يومنا هذا .

وأوّل من كتب من فلان إلى فلان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، فصار ذلك سنّة، يكتب الكاتب ويبدأ باسمه قبل اسم من يخاطبه، ولا يكتب لقبا ولا كنية، حتّى ولي عمر بن الخطّاب وتسمّى بأمير المؤمنين، فكتب : من أمير المؤمنين عمر . فجرت السنّة بذلك إلى أيّام الوليد بن عبد الملك، فكان الوليد أوّل من اكتنى في كتبه، وأوّل من عظّم الخطّ والكتب وجوّد القراطيس . ولذلك قال أبو نواس :

سُبْطٌ مَشافرهَا رقيقٌ خطْمُها | وكأنّ سائر خَلْقِها بُنْيانُ
واحْتَازَها لونٌ جَرَى في جِلْدها | يققٌ كقِرطاسِ الوليدِ هِجانُ

فجرت سنّة الوليد بذلك إلى أيام عمر بن عبد العزيز ويزيد الكامل، فإنّهما لمّا وليا ردّا الأمر إلى ما كان عليه في زمن رسول اللّه صلّى الله عليه وسلّم وزمن أصحابه رضوان اللّه عليهم . فلمّا ولي مروان رجع إلى أمر الوليد، فجرى الأمر عليه . ذكر ذلك أبو محمّد بن السيّد، رحمه الله تعالى .

وأمّا التوقيع فهو ما يلحق بالكتاب بعد الفراغ منه ممّن رفع إليه، كالسلطان ونحوه من ولاة الأمور، كما إذا رفعت إلى السلطان أو إلى الوالي شكاة فكتب تحت الكتاب أو على ظهره : يُنظر في أمر هذا، أو : يستوفى لهذا حقّه، أو نحو ذلك . فهذا توقيع.

ورُفع إلى جعفر بن يحيى كتاب يُشتكَى فيه بعامل، فكتب على ظهره : يا هذا، قد قلّ شاكروك، وكثُر شاكوك، فإمّا اعتَدَلْت، وإمّا اعْتَزَلْتَ !

ورفع إلى الصاحب بن عبّاد كتاب فيه : إنّ إنسانا هلك وترك يتيما وأموالا جليلة لا تصلح لليتيم، وقصد الكاتب إغراء الصاحب . فأخذها فوقّع الصاحب فيها : الهالك رحمه اللّه، واليتيم أصلحه اللّه، والمال ثمره اللّه، والساعي لعنه اللّه ! ونحو هذا من التوقيعات .

والتوقيع في الأصل التأثير في الشيء . يقال : حمار موقع الظهر، أي أصابته في ظهره دبرة، فسمّي هذا توقيعا لأنّه تأثير في الكتاب حسّا أو في الأمر معنى ؛ أو في الوقوع لأنّه سبب لوقوع الأمر المذكور، أو لأنّه إيقاع لذلك المكتوب في الكتاب : فتوقيع كذا بمعنى إيقاعه .

وأمَّا العنوان فهو ما يُجعل عليه، ليستدلّ به عليه ويقال فيه : عُنْوان وعُنْيان - بضمّ الأوّل فيهما وكسره - . وأصله عُنَّان - على مثال رُمَّان - لأنَّه مشتقّ من قولك : عَنَّ لي الأمرُ، يَعِنُّ إذا عَرَضَ، لأنَّه هو يعرض للكتاب من ناحية، وعَنَّنَه وعَنْوَنَه وعَنَّاه : كتب عنوانَهُ . ويقال فيه أيضا عُلْوان - باللاّم - وعَلْوَنَ الكتابَ وعلاّه تَعْلِيَةً : كتب عنوانه، وكلُّ ظاهر شيءٍ استدللت به على باطنه فهو عنوان له . قال الشاعر :

رأيْتُ لسَانَ المَرءِ رائِدَ عقله وعُنْوانَهُ فانْظُرْ بماذا تُعَنْوِنُ !

وقال الآخــر :

ضحَّوا بأشْمَطَ عُنْوانُ السُّجودِ به يُقَطِّعُ اللَّيلَ تَسبيحًا وقُرآنَا

وأمَّا أصناف الكُتَّاب فكثيرة، منها : كاتب التدبير، وهو أجلّها وأعلاها درجة، وهو كاتب السلطان الذي يكتب سرَّه ؛ ومنها كاتب أرباب الأحكام، وأجلّها كاتب القاضي، ثمّ كاتب صاحب المظالم، ثمّ كاتب صاحب الديوان - وهو الخراج -، ثمّ كاتب صاحب الشرطة ؛ ومنها كاتب العامل، وكاتب المجلس، إلى غير ذلك . وكلّ واحد منها له أحكام وآداب ذُكرت في محلّها .

ولهم أقلام مختلفة اصطلحوا عليها في الكتابة، انتهى . مجموعها - بسحب ما ذكروا - إلى أحد وعشرين، وهي الجليل والسجلى - ويسمَّى قلم الثلثين -، والقَلَمُ الرِّئاسي، والنصف، وخفيف النصف، والثلث، وخفيف الثلث، والمسلسل، وغبار الحلبة، وصغير الغبار - وهو قلم المؤامرات -، وقلم القصص، والحوائجي، والمحدث، والمدمج، وثقيل الطومار، وخفيف الطومار، والشامي، ومفتح الشامي، والمنثور، وخفيف المنثور، وقلم الجزم.

واختُلف في أوّل من كتب : فقيل آدم، عليه السلام، كتب الصحف قبل موته بثلاثمائة سنة في طين، ثمّ طبخه . فلمَّا كان بعد الطوفان أصاب كلّ قوم كتابهم ؛ وقيل أوّل من كتب إدريس، عليه السلام ؛ وقيل أوّل من وضع الكتابة إسماعيل، عليه السلام، وضعها بلفظه ومنطقه ؛ وقيل أوّل من كتب قوم من الأوائل أسماؤهم أبجَد، هَوَّزُ حُطَيّ، إلى آخرها . وكانوا ملوك مَديَن، وقيل هم أبجد، هَوز إلى قُرِسَت ملوك مدين، فوضعوا الكتابة العربية على عدد حروف أسمائهم، وكان سيّدهم كلمن فهلكوا يوم الظُّلَّة، فقالت ابنة كلمن ترثيه :

كَلَمِنْ هَدَّمَ رُكْنِي هُلْكُهُ وسْطَ المَحَلَّهْ
سَيِّدُ القَوْمِ أتَاهُ الحَتْفُ نَارٌ وسْطَ ظُلَّهْ
جَعَلَتْ نَارٌ عَلَيْهِمْ دَارَهُمْ كَالمُضْمَحِلَّهْ

ويروى أيضا :

ألاَ يا شُعيْبُ قَدْ نَطَقْتَ مقالةً سبَقْتَ بها عمرًا وحيَّ بني عَمْرِ
ملوكُ بني حُطَيٍّ هوَّزَ منهُمُ وسَعْفَصٍ أهلٌ للمكارمِ والفَخْرِ

وقيل هم أسماء ملوك الجنّ الذين سكنوا الأرض قبل آدم، عليه السَّلام، فألقيت إلى العرب ؛ وقيل أسماء ملوك الجبابرة.

وقيل أول من وضع الخطّ العربي نفر من طيء من بولان، وهم : مرامر بن مرّة، وأسلم بن سدرة، وعامر بن حدرة . فساروا إلى مكّة، فتعلّمه منهم شَيْبَة بن ربيعة بن حرب بن عبد شمس، وعُتْبَة بن ربيعة، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب، وهشام بن المغيرة المخزومي . ثمّ أتوا الأنبار فتعلّمه نفر منهم . ثمّ أتوا الحيرة فتعلّمه منهم جماعة منهم : سفيان بن مجاشع بن عبد الّله بن دارم وولده، يُسمّوه بالكوفة بني الكاتب . ثمّ أتوا الشام فعلّموه جماعة، فانتهت الكتابة إلى رجلين من أهل الشام يقال لهما الضحّاك وإسحاق بن حمّاد، وكانا يخطّان الخطّ الجليل . فأخذ إبراهيم بن السجزي الخطّ الجليل عن إسحاق بن حمّاد واخترع منه خطًّا أخفّ فسمّاه الثلثين السّابق . ثمّ جعل الناس يختصرون ويغيّرون حتّى انتهى إلى ما مرّ . وليس هذا محلّ تفصيل هذا.

وأمّا ما قيل من الشعر في وصف الكتاب أو الأقلام أو المحابر، أو تفضيل القلم على السيف أو العكس، فأكثر من أن يُحصى . وقد وضعت في ذلك موضوعات مستقلة . فمن مستحسن ذلك قول أبي الفتح البستيّ :

إن هزَّ أقْلامَهُ يومًا ليُعْمِلَهَا أنْساكَ كلَّ كَمِيٍّ هزَّ عَامِلَهُ
وإن أقَرَّ على رقٍّ أنَامِلَهُ أقرَّ بالرِّقِّ كُتَّابُ الأنَامِ لَهُ

وقول الآخر :

يُمسِكُ الفارسُ رمْحًا بيَدٍ وأنا أمْسِكُ فِيهِ قَصَبَهْ
فكِلانَا فَارِسٌ فِي شَأنِهِ : إنَّ الأقْلامَ رِمَاحُ الكَتَبَهْ

وقول الآخر :

وما روضُ الرَّبيع وقد زهاهُ ... نَدى الأشْجارِ يأرَجُ بالغداةِ
بأضْوعَ أو بأبْسَطَ من نسيمٍ ... تُوديهِ الأفواهُ مِنْ دَواةِ

وقول الآخر في خلاف هذا :

دعِيٌّ في الكِتابةِ لا رَويٌّ ... لهُ فيما يُعدُّ ولاَ بَديهُ
كأنَّ دواتَهُ مِن ريقِ فيهِ ... تُلاَقُ فَريحُها أبدًا كَريهُ !

وقول بعضهم، وقد نظر إلى فتى عليه أثر المداد وهو يستره :

لا تَجْزَعَنَّ من المِدَادِ فإنّهُ ... عِطْرُ الرِّجَالِ وحِلْيَةُ الكُتَّابِ !

ويقال : أثر المداد دليل على الفضل، حتّى [إنّ] عبيد اللّه بن سليمان [رأى] صفرة زعفران في ثوبه، فطلاها بالحبر وقال : المداد أحسن بنا من الزعفران !، وأنشد :

إنَّما الزَّعْفَرانُ عِطْرُ العَذارَى ... ومِدادُ الدَّواةِ عطرُ الرِّجالِ

وقول الآخر يهجو كاتبًا :

حمارٌ في الكتابةِ يدَّعِيها ... كَدعْوَى آلِ حربٍ في زيادِ
فَدعْ عنْكَ الكِتَابةَ لستَ منْها ... ولَو غرَّقْتَ ثوبكَ في المِدادِ !

وقال بعضهم : كنت عند إبراهيم بن العبّاس وهو يكتب كتابا، فوقعت من القلم نقطة مفسدة، فمسحها بكمّه، فتعجّبت، فقال : لا تتعجّب ! المال فرع والقلم أصل، والأصل أحوج من الفرع إلى المراعاة، وبهذا السّواد جاءت الثياب . ثمّ أطرق قليلا فأنشد :

إذا ما الفِكْرُ ولّدَ حُسْنَ لَفْظٍ ... وأسْلَمَهُ الوجودُ إلى العِيانِ
ووشّاهُ فنَمْنَمَهُ مُسَدٍّ ... فَصِيحٌ في المَقَالِ بِلاَ لِسَانِ
تَرى حُلَلَ البَيانِ مُنَشّرَاتٍ ... تَجلَّى بَيْنَهَا صُوَرُ المَعَانِي

وكتب سليمان بن وهب بقلم صلب واعتمد عليه فصرّ تحت يده فقال :

إذا ما التقَيْنا وانْتَضَيْنَا صَوارمًا ... يكادُ يُصمُّ السَّامعينَ صريرُهَا
تساقَطَ في القرْطاسِ منها بَدائِعٌ ... كَمثْلِ الَّلآلِي نَظْمُها ونثيرُها
تقودُ أبياتَ البيانِ بفِطْنَةٍ ... يُكشِّفُ عن وجْهِ البَلاغَةِ نُورهَا
تَظَلُّ المَنايا والعَطايا شَوارعًا ... تَدورُ بما شِئنا وتمْضِي أمُورُهَا
إذا ما خُطُوبُ الدّهْرِ أرخَتْ ستورها ... تجلّتْ بنا عمّا تُسرُّ سُتورُهَا

وقول أبي تمّام يمدح محمد بن عبد الملك الزيّات من قصيدة :

لك القلمُ الأعْلى الّذي بشباتِه ... يُصابُ من الأمْرِ الكُلَى والمفاصِلُ
لَـه الخَلَـواتُ اللاءِ لـولا نَجِيُّهـا ... لما اخْتَلفتْ للمُلْكِ تلك المحافِلُ
لُعابُ الأفاعي القاتلاتِ لُعابُه ... وأرْيُ الجنا اشْتارتْه أيدٍ عواسِلُ
له ريقةٌ طلٌّ ولكنَّ وقْعَها ... بآثاره في الشَّرق والغربِ وابِلُ
فصيحٌ إذا استَنْطقْتَهُ وهْوَ راكبٌ ... وأعْجَمُ إن خَاطَبْتَه وهْوَ راجِلُ
إذا ما امْتطى الخَمْسَ الّلطافَ وأفرغَتْ ... عليه شعاب الفِكْرِ وهْي حوافِلُ
أطاعَتْه أطْرافُ القنى وتقوَّضَتْ ... لنجواهُ تقويضَ الخيامِ الجحافِلُ
إذا استغْزر الذّهنُ الذّكيُّ وأقبلت ... أعاليه في القِرطاسِ وهْيَ أسافلُ
وقد رفَدتْهُ الخِنْصرانِ وسدَّدت ... ثلاثَ نواحيهِ الثّلاثُ الأنامِلُ
رأيتَ جليلاً شأنُهُ وهْو مُرهفٌ ... ضنًى وسمينًا خَطْبُهُ وهْو ناحِلُ

وقول أبي الفتح البُستيّ :

إذا أقْسَم الأبْطال يومًا بِسيفِهِم ... وعدُّوه ممّا يُكسبُ المجْد والكَرمْ
كفى قَلَمَ الكتّابِ مجْدًا ورفْعَةً ... مَدى الدّهْر أنّ الّله أقْسم بالقلمْ

وقول البحتري :

تعنو لَه وُزراءُ الملْكِ قاطبةً ... وعادةُ السَّيفِ أن يستخْدمَ القَلَما

وقول الآخـر :

إن يخْدُمِ القلمَ السَّيفُ الذي خضعَت ... له الرّقاب ودانَت خَوفَه الأمَمُ
فالموتُ، والموتُ لا شيءَ يُقابِلُه، ... ما زال يتْبَعُ ما يجْري به القَلَمُ
بذا قَضى الّله للأقلامِ مُذ بُريتْ ... أنّ السُيوف لها مُذْ أرهِفَت خدمُ

وقول أبي الطيّب مناقضًا لهذا :

حتى رجعتُ وأقْلامي قوائلُ لي: ... المجْدُ للسَّيفِ ليسَ المجْدُ للقَلَمِ
اكْتُب بذا أبدًا بعد الكتابِ لها ... فإنّما نحنُ للأسيافِ كالخَدمِ !

وقول سليمان بن جرير النمريّ في نحوه :

جهابذةٌ وكتّابٌ وليْسُوا ... بفُرسانِ الكريهَةِ والطِّعانِ
ستَذْكُرنِي وتَعْرِفُنِي إذا ما ... تَلاقى الحلْقَتانِ مِنَ البِطَانِ

وقول كُشَاجم :

هنيئًا لأصْحابِ السُّيوفِ بطالةٌ   تُقضَّى بها أيَّامُهُم في التَّنعُّمِ !

وكم فيهمُ من دائمِ الأمْنِ لم يَرُعْ   بحربٍ ولم ينْهَد لقَرنٍ مُصمَّمِ !

وكلُّ ذوي الأقْلامِ في كلِّ ساعةٍ   سُيوفُهُمُ ليسَتْ تجفُّ من الدَّمِ

وقول الآخر في مدح القلم وأهله :

قومٌ إذا أخذوا الأقْلامَ من قصبٍ   ثمَّ استمدُّوا بها ماء المنيَّاتِ

نالوا بها من أعاديهم وإن بعُدوا   مالا يُنالُ بحدِّ المشْرَفِيَّاتِ

وقول البحتري يمدح الحسن بن وهب، ويصف أقلامه :

وإذا تألَّق في النَّديِّ كلامُه   المَصْقولُ خِلْتَ لسانَهُ من عَضْبِهِ

وإذا دجَت أقْلامُهُ ثمَّ انتَحَتْ   برقتْ مصابيحُ الدُّجَى في كتْبِه

فالَّلفْظُ يقْرُبُ فهمُه في بُعدِهِ   منَّا ويبعُد نيلُهُ في قُربِهِ

حِكَمٌ فسائحُها خِلالَ بنانِهِ   مُتدَفِّقٌ وقليلُهَا من قَلْبِهِ

فَكأنَّها والسَّمعُ معْقودٌ بِهَا   شخْصُ الحبيبِ بَدا لِعَيْنِ مُحبِّهِ

وقوله أيضا في ابن الزيَّات :

لتصرَّفْت في الكتَابَةِ حتَّى   عطَّلَ النَّاسُ فنَّ عبدِ الحميدِ

في نظامٍ من البلاَغَةِ ما شكَّ   امْرُؤٌ أنَّهُ نِظَامُ فَريدِ

وبَديع كَأنَّهُ الزَّهَرُ الضَّا   حِكُ في رونَقِ الربيعِ الجديدِ

ما أعِيرَتْ منهُ بُطُونُ القراطِيس   وما حُمِّلَت طهورُ البَريدِ

حُزنَ مُستعْمَلَ الكَلام اختيارًا   وتجنَّبْنَ ظُلْمَةَ التَّعْقِيدِ

كالعذارى غَدونَ في الحُلَلِ الصُّفر   إذا رُحْن في الخُطوبِ السُّودِ

ومن أمثال الأدباء قولهم :

أخَفُّ مِنْ دينَارِ يَحْيَى،

وهو يحيى بن علي، أعطى بعض الأدباء دينارا خفيفا، فقال فيه عدَّة مقاطيع، منها :

دينَارُ يحْيى زائِدُ النُّقْصانِ   فيهِ علامَةُ سكَّةِ الحِرمَانِ

قَدْ رَاقَ مَنْظَرُهُ ورَقَّ خَيالُهُ فكأنَّهُ روحٌ بِلا جُثْمَانِ
أهْداهُ مُكْتَتِمًا إليَّ بِرُقْعَةٍ فوجَدْتُهُ أخْفَى مِنَ الكِتْمَانِ !

ومن أمثال العامّة قولهم :

خَالِفْ تُعْرَفْ !

ونحوه قول الشاعر :

خلافًا لرأْيِ من فَيَالَةِ رأْيه كما قيلَ قبْلَ اليومِ : خالِفْ فتُذْكَرا !

ويظهر من هذا البيت أنَّ المثل قديم، والبيت أنشده الجاحظ.

ولنلمّ الآن بشيء من الشعر في هذا الباب . قال الشاعر :

تركْتُ النَّبيذَ لأهلِ النَّبيذِ وأصْبحْتُ أشْربُ ماءً نُقاخَا
شرابَ النَّبيئِينَ والمُرسَلِينَ ومَنْ لا يُحَاوِلُ منْهُ اطِّباخَا
رأيتُ النَّبِيذَ يُذِلُّ العَزيزَ ويَكْسو التَّقيَّ النَّقيَّ اتِّساخَا
فَهَبْني عَذرْتُ الفَتى جاهلاً فَما العُذرُ فيه إذا المرءُ شاخا ؟

قوله ماءً نُقاخًا، أي باردًا عذبًا صافيًا، وهو بضمّ النُّون وبالقاف ـ على مثال غُراب ـ.

وقال الآخر :

نَعُوذُ بِاللّهِ مِنْ أُنَاسٍ تَشَيَّخُوا قَبْلَ أن يَشِيخُوا
تَقَوَّسُوا وانْحَنَوْا رِيَاءً فَاحْذَرْهُمُ : إنَّهُمْ فُخُوخ !

وأشار بهذا التمثّل في الرياء إلى نحو ما حكي في الاسرائيليّات أنَّ عصفورة وقفت على فخّ فقالت له : مالي أراك منحنيا ؟ قال : لكثرة صلاتي انحنيت . قالت : فمالي أراك بادية عظامك؟ قال:لكثرة صيامي، بدت عظامي!قالت : فما هذا الصوف عليك ؟ قال : لزهادتي لبست الصوف . قالت : فما هذه العصا عندك ؟ قال : أتوكَّؤ عليها وأقضي بها حوائجي . قالت : فما هذه الحبّة في يدك ؟ قال : قربان، إن مرَّ بي مسكين ناولته إيّاها . قالت : فإني مسكينة . قال : خذيها ! فقبضت على الحبّة فإذا الفخّ في عنقها، فصاحت : قعى! قعى ! وتفسيره : لا غرّني مُراءٍ بعدك أبدا !

وممّا جاء في الرياء، أعاذنا اللّه منه !، قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : **إنَّ أخْوفَ ما أخَافُ عَلَيكُم الشِّركُ الأصْغَرُ . قالوا : وما الشِّركُ الأصغَرُ يا رسُولَ اللّهِ ؟ قال :**

الرِّياءُ . يقُول عَزَّ وجَلَّ يَومَ القِيَامَةِ إذَا جَازَى العِبَادَ بِأعْمَالِهِمْ اذْهَبُوا إلَى الَّذينَ كُنْتُمْ تُراؤُونَهُمْ في الدُّنْيَا، فانْظُروا كَيْفَ تَجِدُونَ عِنْدهُمُ الجَزَاءَ . وقوله صلّى اللّه عليه وسلّم : **مَنْ رَاأى، رَاأى اللّهُ بِهِ، ومَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللّهُ بِهِ**[1] . وقوله صلّى اللّه عليه وسلّم : **مَنْ أسَرَّ سَريرَةً ألْبَسَهُ اللّهُ رِداءَهَا، إن خَيْرًا فَخَيْرٌ وإنْ شَرًّا فَشَرٌّ** . والآيات والأحاديث والآثار في ذمّ الرياء والتنفير عنه لا تُحصى وهي مشهورة . وفي معنى ذلك قول الشاعر :

وإذا أظْهَرتَ شَيْئًا حَسَنًا ... فَلْيَكُن أحْسَنَ مِنْهُ مَا تُسِرْ

فَمُسرُّ الخَيْرِ مَوْسُومٌ بِهِ ... ومُسِرُّ الشَّرِّ مَوسُومٌ بِشَرْ

وقول الآخر في المتشابهين :

أهلَ الرِّياءِ لبسْتُمُ ناموسكُم ... كالذّئبِ يُدلجُ في الظّلام العاتِم

فَملكْتُم الدُّنيا بمذْهَبِ مَالِكٍ ... وقَسمْتُمُ الأمْوالَ بِابْنِ القاسِمِ

وركبتُمُ شُهْبَ البِغَالِ بأشْهَبٍ ... وبأصْبغٍ صُبغَتْ لكُمْ في العَالمِ

وقول الآخــر :

قُل للامامِ سنا الأئِمَّةِ مالكٍ ... نورِ العُيُون ونُزهَةِ الأسْماعِ :

لّلهِ درُّكَ من هُمامٍ ماجِدٍ ... قَد كُنتَ راعِيَنا فنعْمَ الرَّاعِي !

فمضيْتَ مَحْمُودَ النَّقِيبَةِ طاهرًا ... وتَركْتَنا قنصًا لشرِّ سبَاعِ

أكَلُوا بِكَ الدُّنيا وأنتَ بمَعْزِلٍ ... طَاوِي الحَشا مُتكفِّت الأضْلاعِ

تَشْكوكَ دنْيَا لم تَزلْ بِكَ بَرَّةً ... مَاذا رفَعْتَ بِها من الأوضاعِ

وقال محمود الورّاق لابن أخته :

تصوَّف كَي يقَال لَهُ أمِينٌ ... وما معْنَى التَّصوُّفِ والأمانَهْ ؟

ولَم يُرد الالَهَ بِهِ ولَكِنْ ... أرادَ بِه الطَّريقَ إلى الخِيانَهْ !

وقول الآخر :

صلَّى وصامَ لأمْرٍ كان يَطْلُبُه ... ومُذ حَواهُ فما صَلّى ولا صَامَا !

وقول الآخر :

شمِّر ثيابَك واستَعدَّ لقابلٍ ... واحْكُكْ جَبينَكَ للقَضَاءِ بثُومِ

وعَليكَ بالغَنَويِّ فاجْلِس عنْده حتَّى تُصيب وديعَةً ليتيمِ !

وقول الآخــر :

لا شَيءَ أخْسَر صفْقَةً من عَالمٍ لَعِبَت به الدُّنيا مَع الجُهَّال

فَغَدا يُفرِّق دينَه أيْدِي سَبَا ويديله حِرصًا بجَمْعِ المَالِ

لا خَيْر في كَسْبِ الحَرامِ وقلَّما يُرجَى الخَلاصُ لكَاسبٍ لحلاَلِ

فخُذِ الكَفافَ ولا تكُن ذا فضْلَةٍ فالفَضْلُ تُسْألُ عَنه أيَّ سُؤالِ !

وقول بعضهم، وقد رَأى ثمَّ افتضح، نعوذ بالله ! :

بيْنا أنا في توبتِي مُقْبِلاً قَد شَبَّهوني بِابْنِ رَوادِ

وقد حَملْتُ العِلْمَ مُسْتَظْهِرًا وحدَّثُوا عنِّي بِإسْنَادِ

إذ خَطَر الشَّيْطانُ بي خَطْرَةً نُكِسْتُ مِنْها في أبِي جَادِ

وقال آخر يخاطب معزولا :

ولَّوكَ إذ علموا بجَهْلكَ مَنْصبًا علموا بأنَّك عَن قليلٍ تبرخُ

طبخُوا بنارِ العزْلِ قلْبَك بعد ذا وكذا القلوبُ على المناصبِ تُطْبخُ

وقال الآخر في حمَّام :

حمَّامُكُم قيِّمُهُ أسْوَدُ هَربْتُ منْهُ وأنَا صَارخُ :

قَد سلخَتْ جِسْميَ أظْفارُهُ يا قَومُ هذا الأسْودُ السَّالخُ !

وفي هذين الشعرين التورية، وهي أن يذكر الشاعر لفظاله معنيان : قريب وبعيد . ويريد البعيد نحو قوله تعالى : **الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى**، فإنَّ المراد أحد معنيي الاستواء، وهو الاستيلاء قهرا وغلبةً، وهو المعنى الأبعد لأنَّه مجاز، وتُسمَّى التورية إيهامًا. فإن كان المعنيان مستويين، سمّي ذلك توجيها . وقد تقدَّم في ذلك جُملة من الشعر في الأبواب السابقة، ونحن نزيد [هنا] من مستحسن ذلك قول بعضهم يُهنّئ بعيد النحر :

تَهنَّ بِعيد النَّحر وابْقَ مُمتَّعًا بأمْثالِهِ سامي العُلى نافِذَ الأمْرِ !

تُقلِّدنا فيه قَلاَئِدَ أنْعُمٍ وأحْسنُ ما تبْدو القَلائِدُ في النَّحْرِ

وقول الآخــر :

بروحيَ أفْدِي خالَه فوق خدِّه وما أنا في الدُّنيا فأفْديه بالمالِ

تباركَ مَن أخْلى من الشَّعْرِ خدَّه وأسْكن كلَّ الحُسنِ في ذلك الخالِ !

وقول الآخـر :

مُهَفْهف القدِّ إذا ما انـْثنى قال، ولا يخْشى منَ الوَدِّ :

ما أنتَ كِفْلي يا كَثِيبَ الِّلوى ولَستَ يا غُصنَ النَّقا قدِّي !

لو نِلْتَ من خدِّه تَقْبِـيلَةً تَزيَّـنَ الرَّيْحَـانُ بِالـوَرْدِ

وقول الآخـر :

قُلت للأهْيَفِ الَّذي فضح الغُصنَ: كلامُ الوشاةِ ما ينبـغي لَكْ

قال : قول الوُشاةِ عِنْدي ريحٌ قُلتُ: أخْشى يا غُصن أن تستميلك !

وقول الآخر :

تهاون شمس الدِّين بي وهو صاحبٌ وأظْهر لي أضْعافَ ما يُظْهر العِدا

نزلت به أبْغِي النَّدا وهو طالعٌ وعند طُلوع الشَّمس يرتفِع النَّدا !

وقول الآخر في حقّ النبيِّ صلَّى الَّله عليه وسلَّم :

يا عَينُ إن بعُدَ الحبيبُ ودارُه ونَـأت مرابـعُه وشطَّ مزارُهُ

فلقَد ظفِرتِ من الزَّمانِ بطائلٍ إن لم تريْهِ فهـذه آثـارُهُ

وقول الآخر :

عاينْـتُه ودموعي غَيْـرُ جاريةٍ لأنَّ دمْعي من طول البُكا نَشَفَا

فقال : لم أدر وكْف الدَّمع. قلت له: حسِيبُك الَّله يا بَدر الدُّجا وكفا !

وقول الصفدي مع حسن التضمين :

ملَكتُ كتابًا أخْلقَ الدَّهْرُ جِلْدَه وما أحـدٌ في دهْـره بمُخلَّـد

إذا عايَنتْ كُتْبي الصَّحيحةُ حالهُ يقولون : لا تَهلِكْ أسًى وتجلَّد !

وقول أبي بكر بن حجة :

عزمت على السُّلوِّ لطولِ هَجْري فجـاءتني عَـوارضُهُ تُعَـارضْ

وكان العُذْرُ يُقبَل في سُلُوِّي ولكن ما سلمْتُ من العَـوارضْ

وقول البدر الدماميني :

وبي وجْنَـةٌ حمراءُ زاد صفاؤها فأبْدت صفاتٍ أبْدعَ الحُسن كونها

فَدع لائمي فيها عن الحُبِّ جُهدهُ فما أنا بالسَّالي صفاها ولونَـها

وقول ابن جعفر العسقلاني :

قد جئْتَ في علم الأصولِ لنا وفي عِلمِ الفُروعِ بخالصِ الابْريزِ
برَّزت في هذا وفي هَذا عَلَى الـرَّازي بالاحْسَانِ و التَّبْريزي

وقوله :

خليليَّ ولَّى العُمْرُ منَّا ولم نتُبْ وننْوي فعالَ الصَّالحين ولكنَّا
فحتَّى متى نبْني بيوتًا مشيدةً وأعمارنا منَّا تُهدُّ وما تُبْنا ؟

وقول المعمار :

إن قام يتْلو سورة الشَّمْس المُنيرَةِ في ضُحَاهَا
يَا حُسْنَهُ فكَأنَّهُ القَمَرُ المُنِيرُ إذَا تَلاَهَا

وقولـه :

تملَّك قلبي صارمٌ قَد هويْتُه من الهِنْد مَعْسولُ اللّمى أهيفُ القدِّ
أقول لصحْبي حين يرنو بلَحْظِهِ: خذوا حذركُم قد سلَّ صارمه الهندي

وقول الآخـر :

يَا مَنْ تَولَّى قَاضِيًا هَذَا قَضَاءٌ أمْ قَدَرْ ؟
عُذْرُكَ فِي نِسْيَانِنَا أنَّ القَضَا يُعْمِي البَصَرْ !

وقول ابن العفيف :

لَيْسَ خَلِيلِيَّا ولكنَّهُ يُضْرِمُ في الأحْشَاءْ نَارَ الخَليلْ
يا ردفَهُ جُرْتَ على خَصْرِهِ رفْقًا بِهِ ما أنت إلاَّ ثَقِيلْ !

وقوله ممَّا يكتب على كأس :

أدورُ لتقْبِيلِ النَّدامَى ولَم أزلْ أجودُ بروحي للنَّدامَى وأنْفَاسِي
وأكْسو أكُفَّ الشَّربِ ثوبًا مُذهَّبًا فمِن أجْل هَذا لقَّبونِيَ بالكاسِ

وقوله في مليح خيالي :

خيالي أخَافُ الهجْرَ مِنْهُ ولَيسَ أراهُ يرغَبُ في وِصَالِي
وكُنْتُ عَهدتُني قِدمًا شُجاعًا فمالي صِرتُ أفْزعُ مِن خَيَالي ؟

وما قيل في التورية والتوجيه أكثر من أن يُحصى . ولولا خوف الاطالة لأوردنا من مستحسن ذلك ما يكون جزءا مستقلا، وليس ذلك من غرضنا . وأنا أذكر هنا بعض ما اتَّفق لي نظمه

في باب التورية أو التوجيه من غير تعبئة لنزول هذا الميدان، ومطاردة هؤلاء الفرسان . فمن ذلك قولي :

بنفسي من أضْحى فُؤادي طائرًا   على غُصنٍ من قدِّه الّلدْن ميّالِ
على روضَةٍ من خدِّه الخالُ عارضٌ   وأبْهجُ روض ما علًا عارضِ الخالِ

وفيه التورية بالطائر من حيث إنّه اسم فاعل أو اسم ذي الجناح على التشبيه وحرف الجرّ بعده للتعليل على الأوّل والاستعلاء على الثاني، والتوريه بالخال من حيث إنّه النقطة أو الغيم المخيل بالمطر مع الجناس بين على وعلًا والعكس .

وقولـــي :

مررتُ على بالٍ من الرَّبْع دارسٍ   بكُلِّ ربابٍ عارضٍ اسحمٍ خالِ
ففاضت شؤون الجَفْن من ذكر حيرتي   وثار هواهُم إذ مررت على البَالِ

وفيه التورية بالخال من حيث إنّه وصف للدارس من الخلوّ أو وصف للرباب بمعنى المخيل كما مرَّ . والتورية بالبال آخرا من حيث إنّه راجع إلى الربع من البلى أو إنّه الفكر والخاطر ومعمول مررْتُ عَلَيْنِ محذوف أيْ عليه.

وقولـــي :

وعــاذِلٍ عَــن الهَــوى عادلٍ   يَدعُو لأمْرٍ في الهَـوى إمْـرِ
قال اسْلُهُمْ واصبْرِ فكَم ذائقٍ   أمرَّ في الهَجْرِ مِـن الصَّبْـرِ
وزع عِنـانَ القلبِ عمّـا جَـرَى   عَلَـيه من بَلْـواءَ أو يجْـرِي
فأيُّ عُذرٍ في اتّباعِ الصّبا ؟   قُلت لَه إنَّ الهَـوى عُــذْري

وفيه التورية بالصبر من حيث إنّه على معناه أو انّه المرُّ المعروف . وأصله صبر ثمَّ خفّف بالتسكين والتورية يجري من حيث إنه من الجريان بقرينة العنان أو انّه من الوقوع . والمعنى عليهما واضح . والتورية بالعذر من حيث أنّه بمعنى الاعتذار أضيف إلى ياء المتكلّم أو منسوب إلى بني عذرة، وهو الهوى الشديد، والمعنيان ظاهران .

وقولـــي :

قَالَ العُذُولُ إذْ بَدَا   بِعَــارِضٍ مُعَــذِّرٍ :
الـوَجْهُ الاعْتـزَالُ عَـنْ   هَـذَا الوجِـيهِ الأشْعَـرِ
فقُلتُ : ذاكَ الـوجْهُ   يَـبْقَـى فِيهِ فَضْلُ نَـظَرٍ

وفيه التورية في الأشْعَرِ مع الاعْتِزَالِ من حيث إنَّه وصف كأحمر - أي ذو شعر - أو بياء النسبة . والتورية في النظر والوجه من حيث إنَّه نظر البصر أو نظر البصيرة، والوجه وجه الحبيب أو وجه الدليل .

وقولي من قصيدة زمن الصبا أخاطب شيخنا الامام الهمام أمتعني الّله به :

وفينا معانٍ بيَّنتْ قِدمَ الهَوى فليسِ لعمْري بالبديعِ إلى الصَّدر

وقد أعْربَت جزمًا بنصْبِ أدلَّةٍ فيُرفع ما يبنى على الظَّنِّ من هجْر

فإن لم يكُن عن ذاك فعليَ مُعربًا تغنَّيت بالماضي من الحال والأمْرِ

وهذه التوريات واضحة كلّها، وقد وقع لي مثل هذا النوع كثيرا ولم أذكره .

وقولي من قصيدة أخرى موريا بالعباب و « الجوهري » من كتب اللغة :

وعَبَرتُ من لُجَج العلوم عُبابها حتَّى انثنيتُ بمُنْفساتِ الجوهرِ

وهذه القصيدة خاطبت بها بعض فضلاء العصر . فلمَّا وقف عليها استحسنها هو وجماعة من الفضلاء الواقفين عليها غاية . وكان من أغبياء الطلبة بعض من لم يرتق فهمه إلى ألفاظها، فضلاً عن معانيها، فتعلّل لنفسه القاصرة بأنَّها مشتملة على الوحشيّ من اللغة . فلمَّا بلغني ذلك قلت :

تسامى لأذيالي مُذالٍ ولم أكُن لكُلِّ ذليلٍ بالذّلولِ ولا السَّهلِ

ورامَ مراماتِ امرىءٍ طالما علاَ على الحَزْنِ من فيح البلاغة والسَّهْل

وارسلتهـا غراء ليس يَذيمُهـا سِوى العُمْي عن شمس الظهيرة والجُهل

فأنْكر جهْلاً ما حَوتْهُ رسالَتِي ولا غَرْوَ فالتَّكذيب شأنُ أبي جهْلِ !

وفيه التورية بأبي جهل مع الجناسات الكثيرة . والجُهْلُ - بضمّ فسكون - جمع جاهل .

وتخلّف بعض أصحابي عن مجلس الدرس في اليوم المسمَّى بالعجوز، آخر ينيَّر، حبسه البرد، فكتبت إليه على سبيل المطايبة :

أعجزتَ عنَّا بالعجوز ولم يكُن رجلٌ لتمنَعه عجوزٌ عائدهْ ؟

وعدلت عن أبكار فكريَ بُكرةً أتُباعُ بِكرٌ بالعجوز البارده ؟

وفيه التورية بالعائدة من حيث إنَّه وصف للعجوز - أي صارفة وعائقة - وأنَّه معمول المنع بمعنى العطيَّة والصلة، وفي العجوز [أيضا] بين اليوم والمرأة بقرينة ذكر الرجل . وينشد أيضا عجوز جالدة أو فائدة، وفي كليهما التورية : فالجالدة إمَّا بمعنى ذات الجليد، من

قولك جَلِدَتِ الأرضُ ـ بالكسر ـ، تجْلَدُ فهمي جَلِدَة وجالِدَة، اعتبارًا للعجوز بمعنى اليوم على قصد الليلة أو الصبيحة والبكرة ؛ وإمّا بمعنى المدافعة والمقاتلة، من قولك جَلَدتُهُ بالعصا : ضربته، اعتبارًا للعجوز بمعنى المرأة ؛ والفائدة إمّا بمعنى الافادة وهو معمول المنع، أو بمعنى الهالكة، من قولك : فَادَ، يَفِيدُ، فَيْدًا، إذا هلك ومات، اعتبارًا للعجوز بمعنى المرأة وأنّها هرمة فانية، فكيف تغلب الرجال ؟ والتورية في العجوز الباردة واضحة ؟ وأعلم أنّ التورية والتوجيه أعلى فنون البديع وأجلّها وأدقّها، وهو أحد معاريض البلغاء الذي يرفلون به في الحلل الرقائق، وينجون بفُسْحتها من المضائق .

فمن أظرف ما وقع من ذلك ما رُوي عن خالد بن الوليد، رضي اللّه عنه، أنّه لمّا نزل على ألحيرة أتاه عبد المسيح الغسّاني، وهو ابن ثلاثمائة وخمسين سنة . فلمّا مثل بين يديه قال له : أنعم صباحًا أيها الأمير ! فقال له خالد : قد أغنى اللّه عن تحيّتكم بسلام عليكم . ثمّ قال له خالد : من أين أقصى أثرك أيها الشيخ ؟ قال : من ظهر أبي . قال : من أين خرجت ؟ قال : من بطن أمّي . قال : فَعَلاَمَ أنت ؟ [قال : على الأرض . قال : فيم أنت ؟ قال : في ثيابي . قال : أتعقل ؟ قال : إي واللّه، وأقيد . قال : ابن كم أنت] ؟[2] قال: ابن رجل وامرأة . قال : ما سنّك ؟ قال : عظم . قال : كم سنّك ؟ قال : اثنان وثلاثون بين ضرس وغيض . قال : كم لك من السنين ؟ قال : السنون كلّها للّه . قال : كم أتى عليك ؟ قال : لو أتى عليّ شيء لقتلني . قال : كم عمرك ؟ قال : لا يعلمه إلاّ اللّه . فقال خالد : ما رأيت كاليوم إنسانا أسأله عن شيء وهو ينحو في غيره . فقال : ما أجبتك إلاّ عن مسألتك .

وما روي عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم حيث قال له الأعرابيّ : مَنْ أنتُم ؟ فقال صلّى اللّه عليه وسلّم : نَحْنُ مِنْ مَاءٍ، والقصّة مشهورة.

وما رُوي من أنّ رجلا وقف بباب المأمون ليشكو فلم يجد من يدخله فصاح : أنا أحمد المصطفى النبي المبعوث ! فأُخذ وأُدخل على المأمون وقيل له إنّه تنبّأ، فسُئل عن أمره فذكر شكواه فقال له : ما هذا الذي حُكي عنك ؟ قال : ما هو ؟ قال : إنّهم قالوا إنّك تنبّأت . قال : معاذ اللّه ! إنّما قلت : أنا أحْمَدُ المصطفى النبيّ المبعوث، وأنت يا أمير المؤمنين تَحْمَدُه، وكذلك هؤلاء . فاستظرفه المأمون وأمر بانصافه.

وما رُوي عن بشّار بن برد من أنّه خاط له رجل أعور يُعرف بعمرو بردًا فلم يعجبه فقال له:

ما هذه الخياطة ؟ قال له : خطته لك كذلك لتلبسه إن شئت على وجهه، وإن شئت من باطنه . فقال له بشّار : وأنا قد قلت فيك شعرا، إن شئت جعلته مدحًا وإن شئت جعلته هجوا، ثمّ أنشد :

خَاطَ لِي عمْرٌو قَبَاءَ ... لَيتَ عينَيْهِ سَوَاءُ

فأحَاجِي النَّاس طُرًّا ... أمديحٌ أمْ هِجَاءُ !

ويُروى :

خاطَ لي عمرٌو قَبَاءً ... لَيتَ عينَيْهِ سَوَاءَ

فَسَلِ النَّاسَ جميعًا ... أمَديحًا أمْ هِجَاءَ !

وهو على نصب الجزئيْن بِلَيْتَ .

وما رُوي أنّه نشأ ببغداد غلامان أحدهما ابن حجّام والآخر ابن مرّاق، فبرعا في الأدب . فخرجا ليلة وهما ثملان من نبيذ . فأخذهما العَسَسُ فأتوا بهما إلى صاحبهم . فلما مثلا بين يديه قال لهما : ما أخرجكما جوف اللّيل ؟ فقالا : القدر والقضاء . فقال مَنْ أنتما ؟ فقال ابن المرّاق :

أنا ابنُ الذي لا تنزلُ الدّهر قدرهُ ... وإن نزلَت يومًا فسوفَ تعُودُ

ترى النّاس أفواجًا إلى ضوءِ نارهِ ... فمنهُم قيامٌ حولَها وقعُودُ

وقال ابن الحجّام :

أنا ابن من ذلّتِ الرّقابُ له ... ما بين مخْزومِهَا وهَاشِمِهَا

تأتيهِ طوعًا إلَيْهِ خاضِعَةً ... يأخُذُ من مالِهَا ومن دمِهَا

فقال في نفسه : الأوّل من أبناء الكرام، والثاني من أبناء الملوك . فقال لأعوانه : خلّوا عنهما، فإنّه بلغنا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أنّه قال : أقِيلُوا ذَوِي الهَيْئَاتِ عَثَرَاتِهِم . فلمّا انصرفا أخبر بأمرهما، فاسترجعهما بالغد وقال لهما : ويْحكما ! خدعتماني . فقالا : ما خدعناك، وما أخبرناك إلاّ بما هو صفة والدينا . فلمّا تأمّل كلامهما وجده صدقا وقال : انطلقا ! من لم يكن منكما شريفا فلقد كان ظريفا .

وما رُوي عن أبي الفَرج الجوزيّ، رضي اللّه عنه، أنّه كان في مجلس فيه السنّيّة والشيعة، فسأله سائل : أيّ النّاس كان أحبّ إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، أبو بكر أم عليّ ؟ فتغافل، فقيل له : قل ما عندك ! فقال : أحبّهما إليه من كانت ابنته تحته.

ويـروى : أفضلهما من كانت ابنته تحته ـ على أنّ السؤال كان على الأفضليّة ـ . ففهم السنـيّة أبا بكر وفهم الشيعة عليـًا، ورضي الفريقان . ومحاسن هذا النوع أكثر من أن تـُحصى . وقد خرجنا عن الغرض، فلنعد إلى المقصود . وقال أبو محمّد الحريري :

يـَقـُولـُونَ إنَّ جـَمـَالَ الفـَتـَى وزينَـتـَهُ أدبٌ رَاسِخُ
ومَا ان يـَزينُ سِوَى المكـْثرينَ ومَـنْ طـَودُ سُـودَدِهِ شامِخُ
فـامّا الفـَقيـرُ فـَخَيْـرٌ لـَـهُ مِـنَ الأدبِ القـُرصُ والكـامخُ
وأيُّ جـَمـَالٍ لـَهُ أن يـُقـَالَ أديبٌ يـَعـَلِّـمُ أوْ نـَاسِخُ

الكـَامخُ : شيء يـُؤتدم به، أو طعام يتـّخذ من الحنطة والـّلبن على أنواع، والعرب كانت لا تعرفه . وقـُدّم لأعرابيّ فقال : ما هذا ؟ فقيل له : كـَامِخٌ . فقال : مِمَّ صنع ؟ فقيل : من الحنطة واللبن . فقال : أبوان كريمان وما أنجبا، وقلت :

إذا المرءُ إن أرضَيتـُهُ كان لي أخـًا وإن أُسِ عـادانـي فما هُولي بأخْ
فلا خيرَ في ودٍّ امرىء ليس صافيـًا تراهُ بأدرانِ المساوي قد اتـّسخْ
ولا خير في ودٍّ يكونُ تكلـّفـًا ولا في ودودٍ حيث لنْتَ له شَمخْ
وما الودُّ إلاّ ما تكنـّفه الحشـَا متى تهـْززِ الأحداثُ أغصانهُ رسخْ

وقلت أيضا من هذا المعنى :

ولا تـَبِت من فتـًى على ثـِقـَةٍ ولا يغـُـرّنْ حِجـاكَ من آخـَى
حتـّى تـَراهُ لـَدى النـّوائب إن قاضيتـَه في الحاجاتِ هـَل سـَاخـَى
وعنـْد سَعـْي الوشاةِ هل ثبـَتت رجلاً حشاهُ في الودِّ أم ساخا

سَاخـَى الأوّل فـَاعـَلَ، من السـّخـَاءِ وهو الكرم، وسَاخَ الثـّاني من سَاخَ يـَسُوخُ ويـَسِيخُ إذا هـَوَى في الطين ونحوه، وفيهما الجناس التام.

ولنكتف بهذا القدر من هذا الباب، والـّله يقول الحقّ وهو يهدي السبيل.



بَـــابُ الدَّال المُـهمَـلة

دَرْدَبَ لَـمَّا عَضـَّهُ الثـِّقَـافُ .

الدَّردَبَـةُ عَـدْوٌ على خوف، وهو أن يجري ويلتفت وراءه من الخوف . وعَـضِضْـتُ الشيء - بالكسر - كعَـلِـمْـتُ، - وبالفتح - كَـمَـنَـعْـتُ - : أمْسَـكْـتُـهُ بأسناني أو بلساني ثمَّ يستعمل العضّ فيما يشبه هذا من إلمام الحوادث ووقع الخطوب : والثـِّقَـافُ - بالكسر الخصام والمجالدة . ويقال : ثَـقِـفَـهُ - كعَـلِـمَـهُ - إذا صادفه أو أخذه أو أدْركه وظفر به. قال الشاعر :

مَن يُثْقَفَنْ منهُم فَلَيس بآئِبٍ   أبدًا وقتلُ بني قُتيبَةَ شَافِ

وقال ذو الكلب الهُذَلي :

فإمَّـــا تثْقَفُـــوني فاقْتُلُـــوني   فإن أُثْقَـــفْ فسوفَ ترونَ بالي[1]

والثـِّقَـافُ أيضا - بالكسر - الخشبة تسوَّى بها الرماح، وهو المقصود في المثل . فمعنى دردَبَ لمَّا عضَّهُ الثـِّقَـافُ : خَضَعَ وذَلَّ . ومضربه واضح . وقال عمرو بن كلثوم :

إذا عضَّ الثـِّقافُ بها اشْمأزَّت   وولَّتْهُـــم عشَـــوْزَنَـةً زَبُونَـــا[2]

وثَـقَّفْتُ الرُّمْحَ بالثـِّقَـاف تثقيفًا : سوَّيْتُـه وقوَّمْته، فهو مُثَـقَّف ومُقَـوَّم.

دفَعْتُ إلَيْهِ الشَّيءَ بِرُمَّتِهِ

الدَّفْعُ هنا الاعْطاء . والرُمَّة - بالضمّ - القطعة من الحبل البالية . ودفع رجل لآخر بعيرًا في رقبته حبلٌ فقيل : دفعه إليه برمَّته، وذهب مثلا لكلّ من أعطى الشيء أو أخذه بأجمعه . قال الأعشى يخاطب خمَّارا :

---

1) سقطت الياء من «بالي» في مخطوطاتنا.

2) الرواية المشهورة لهذا البيت :

إذا عضّ الثقـــافُ بهـــا اشمـــأزّتْ   تَشُجُّ قَفَا المُثَقَّـفِ والجَبِينَـا

فَقُلْتُ لَهُ : هذهِ هَاتِهَـــا بِأَدْمَاءَ في حَبْلِ مُقْتَادِهَـا

دَعْ بُنَيَّاتِ الطَّرِيقِ !

دَعْ : معناه اتْرُكْ، أصله الودْع، وهو التَّرك، لكن لم يُستعمل هذا المصدر إلاّ قليلا، كقوله صلّى الله عليه وسلّم : **لَيَنتهِينَ أقْوامٌ عَنْ ودْعِهِمُ الجُمُعَةَ**، الحديث. ولم يُستعمل منه أيضا الماضي إلاّ قليلاً، كقوله صلّى الله عليه وسلّم : **دعُوا الحَبَشَةَ مَا ودَعُوكُمْ** ! وقُرِىء : **مَا ودَعَكَ رَبُّكَ ومَا قَلَى**، بالتخفيف من هذا، وإنّما المستعمل منه كثيرًا المضارع والأمر، وهما بفتح عين الكلمة لمكان حرف الحلق، نحو قَعْ ويَقَع . وقد علمت من هذا أنّ حقّ هذا الحرف أن يُذكر في باب الواو، ولكن كتبناه في هذا الباب تقريبا لما أنّ الواو مستهلكة لا تظهر كما مرّ نظيره في حرف التاء . وبُنَيَّاتُ الطريق الطرق الصغار المتشعّبة عن الطريق الكبيرة وكأنّها بنات لها من حيث إنّها تنشّأت عنها وخرجت منها . ثمّ أطلقوا بُنَيَّات الطريق على الأباطيل، فضُرب المثل عند أمر الرجل أن يقصد معظم الشأن ويدع سفساف الأمور . قال ابن مناذر في قاضي البصرة :

أيُّ قَاضٍ أنْتَ لِلنَّقْضِ وتَعْطِيلِ الحُقُــوقِ ؟
يَدعُ الحقَّ ويَهْــوِي فِي بُنَيَّاتِ الطَّرِيــقِ

دعُوا دمًا ضيَّعَهُ أهْلُهُ !

الدَّمُ معروف، وفيه لغات : يُقال دمٌ، وهي الفصحاء، وأصله دمَوٌ ودَمَيٌ فحذفت اللاّم . ويقال دَمٌّ ـ بالتضعيف ـ، كقوله :

أهانَ دمَّكَ فرغًا بعد عزّتِه يا عَمرو بغْيُكَ إصرارٌ على الحَسَدِ ؟
فقد شقيتَ شقاءً لا انقِضاء له وسَعْدُ مُرديك موفورٌ على الأبَدِ

ويُقال دمَى ـ بالقصر ـ مثل فتَى وعَصَى كقوله :

كأطُـــومٍ فقـــدتْ بُرزُغَهـــا أعْقَبَتْها الغُبُسُ منهَا عَدمَا[3]

---

3) صحفت كلمة «الغُبْس» في بعض المخطوطات فكتبت «العنس».

غَفلت ثمَّ أتَتْ تَطْلُبُه فإذا هِيَ بعظَامٍ ودَمَا
الأَطُوم - بوزن صَبُور - البقرة، والبُرْزُغُ ولدها، والتَّضْيِيعُ معروف . وهذا المثل من كلام جذِيمَة الأبرش المتقدّم ذكره.

وكانت الزّبّاء لمّا احتالت على قتله، كما مرّ، قيل لها : احتفظي بدمه فإنّه إن يضع وتقع منه قطرة بالأرض طُلبت بثأره . فلمّا قبضت على جذيمة، وأجلس على النِّطْعِ، وجعل الخدم يقطعن رواهشه قالت الزبّاء : لا تضيّعن دم الملك ! فقال جذيمة : دعُوا دمًا ضَيَّعَهُ أهْلُهُ !

والمعنى : اتركوا دمًا أراقه أهله !، أي مستحقّوه وهم الزبّاء، أي فلا يهولنكم ضياعه، ولا **يهمنكم حفظه، ولا تتخوّفوا إذا ضاع أن تطالبوا به، لأنّكم لم تريقوه ظلمًا . وهذا كما في** الرواية الأخرى : **لا يُحْزِنَنَّكِ دمٌ أراقَهُ أهْلُهُ !** يخاطب الزبّاء . وتقدّمت القصة مستوفاة . وجذيمة يُحتمل أن يكون في هذه الرواية عبّر بتضييع الدّم عن إراقته مجازًا ليشاكل لفظ الزبّاء ؛ ويُحتمل أن يريد معناه لصحّته في المعنى ؛ وقد يكون جذيمة أراد أهله هو وأنّهم ضيّعوا دمه فيقول : إنّ دما أسلمه جمعه وواليه، وخانه ناصره وحاميه، جدير أن لا يُحتفظ عليه، وأن يضيع ولا يُلتفت إليه.

دَعَوْا دعْوةً كَوْكَبِيَّةً .

الدُعَاءُ : الرَّغْبَةُ إلى اللّه تعالى، دعَا له وعليه، يَدْعُو دُعَاءً، والمرّة منه دعْوَةٌ . والكَوكَبِيَّةُ : قرية كان أهلها ظلمهم عامل فدعَوا عليه دعوةً فمات عقبها، فضُرب المثل بذلك .

وممّا يشبه هذا ما حكاه صاحب **المدخل** أنّ قرية من أعمال السودان كان أهلها إذا ولّى عليهم السلطان عاملا فانبسط عليهم دعوا فهَلَك . فلمّا أعيا السلطانَ أمرُهم وتحيّر قام إليه بعض الحاضرين فقال : أنا ألِي عليهم ! فولاّه السلطان بعد أن عرفّه بكُنْه الأمر . فذهب ذلك الوالي فغصَب ملحا واستصحبه معه، ولم يكن في بلد السودان الملح . فلمّا بلغ موضع عمله قعد في المسجد ولم يصعد إلى موضع الأمير . فقالوا له : ألا تصعد إلى موضعك ؟ فقال : إنّما جئت على أن أكون واحدا منكم وأباشركم، ولا أصدر إلاّ عن

رأيكم، أو كما قال . وبقي على ذلك حتّى أعجبهم وحسنوا به الظنّ . فتمارض حينئذ، فسألوه عن موجب مرضه، فقال لهم : موجب المرض فقدُ الملح . فقالوا : نأتيك بالملح . فقال : لا أعرف أصله، وإنّ عندي ملحًا بالبلد أعرف جهته وأصله، فلعلّه يكون فيه الشفاء . فإن أردتم أن أرسل من يأتي به، وإلاّ فلا . فأذنوا له، فأرسل إليه حتّى بلغه، ففرّقه عليهم على وجه التبرّك . فلمّا علم أنّهم قد أكلوه قام إليهم ومدّ اليد إليهم، وطلع إلى موضع الولاية حينئذ . وكان قبل يخشى من دعائهم لاقتياتهم الحلال الصرف . فلمّا دخل أجوافهم ذلك الملح علم أنّ دعاءهم لا يُسمع عليه، وكان في القوم رجلان تفطّنا لذلك فلم يأكلا ملحهما . فلمّا ظهر أمره أتياه بما عندهما لم يفسدا شيئًا منه . فلمّا علم أنّهما قد بقيا هرب خوفًا منهما.

ومثل هذا حُكي عن الحجّاج لمّا دخل العراق واليًا، وكانوا لا يلي عليهم أحد ويظلمهم إلاّ دعوا فهلك . فلمّا خاف الحجّاج من دعائهم طلب منهم أن يأتوه كلّهم ببيضة بيضة لحاجة ذكرها، وقعد على صحن . فكلّ من أتى ببيضة أمره أن يطرحها في الصحن . فاستخفوا البيض منه وفعلوا ما أمرهم . فلمّا اجتمع البيض واختلط، أمرهم أن يأخذ كلّ واحد بيضة، وأراهم أنّه قد بدا له في ذلك ورجع عمّا أراد . فأخذ كلّ واحد بيضة من البيض ولا يدري عين بيضته . فلمّا علم الحجّاج أنّهم تصرّفوا في ذلك، مدّ يده إليهم فدعوا عليه، فمنعوا الاجابة . قال رحمه اللّه تعالى : ولأجل هذا كثرت المظالم وكثر الدعاء على فاعلها، وقلّت الاجابة أو عدمت .

دَفْنُ البَنَاتِ مِنَ المَكْرُمَاتِ .

الدّفْنُ معروف ؛ والبَنَات جمع بنت ؛ والمَكْرُمَة فِعْل الكرم .

وهذا المثل مشهور، ومثله المثل الآخر : نِعْمَ الصِّهْرُ القَبْرُ ! وقال الشاعر، مضمّنا المثل :

القبْــر أخْفى سترةٍ لِلبَنَــاتِ ... ودفْنُها يُــروَى من المكْرُمَـاتْ
أمــا رأيْتَ اللّهَ عزّ اسْــمُهُ ... قَد وضَع النّعْش بجنْبِ البَنَـاتْ !

وقول الآخـر :

أُحبُ بُنيَّـــتي وأوَدُّ أنّي ... دفنْتُ بُنَيَّتِي في قَعْرِ لَحْدِ

وشبه هذا قول الأمير ابن أبي حفصة :

وفي الدّار خلفي صبيةٌ قد تركتُهم يُطلّون إطلال الفراخ من الوكْرِ
جنيتُ على روحي بروحي جِنايةً فأثْقلتْ ظهري بالذي خفّ من ظهْر

والشعر في هذا المعنى كثير .

دقّكَ بالْمِنْحَازِ حَبَّ القِلْقِلِ .

الدّقُ معروف . والمِنْحاز ـ بالحاء المهملة وبالزاي ـ الهَاوُن، وهو المهراس . ونَحَزْتُ الشيء : دقَقْتُه . والقِلْقِل ـ بقَافَيْن مكسوريْن، على مثال زبْرج ـ : نبت له حبٌ أسود أصلب ما يكون من الحبوب، حسن الشمّ . قال أبو النَّجْم :

وآضَتِ البُهْمَى كنبْل الصَّيْقَل وطارتِ الريحُ يبيسَ القلْقِلِ[4]

وقد يُقال في هذا المثل بفائَيْن مضمومتيْن، وهو الفُلْفُلُ المعروف من الأبزار، وجعله الأصمعي تصحيفا من العامَّة . ومن النَّاس من ادَّعى أنَّ هذا هو الصواب، وأن الأوَّل هو التصحيف، لأنَّ حبَّ القِلْقِل ـ بالقاف ـ لا يُدقّ . وهذا المثل يضرب في الالحاح على الشحيح والحمل عليه، وكأنَّه شطر بيت من الرجز .

دقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشِمٍ .

الدّقُّ مَرَّ ؛ والعِطْرُ ـ بالكسر ـ معروف ؛ ومَنْشِم ـ على مثال مجْلس، وعلى مثال مَقْعَد، قيل ويُروى أيضا مَشْئِم ـ بالهمز ـ ؛ ومَن شَمّ مفصولة . واختُلف في معناه: فقيل مَنْشم اسم الشّرّ ؛ وقيل المَنْشِم يكون في سنبل العطر يُسمَّى قرون السنان وهو سمّ ساعة . وقيل منْشم اسم امرأة . واختُلف في اشتقاقه أيضا : فقيل منْشِم وضِع وضْع الأعلام ؛ وقيل مُشتقّ من قولك : نشم في الشيء إذا بدأ وأخذ فيه، ويُستعمل في الشّرّ . وقيل هو مركّب من اسم وفعل، والأصل مَن شَمّ، على أنَّ شمَّ فعل ماض من شمّ الرائحة، وهو صِلَةُ من . ثم وصل وحذفت الميم الثانية من الفعل وجُعِل الاعراب على الأولى . وعلى رواية مَشْأم فهو مأخوذ من الشّؤم . واختُلف أيضا

---

4) الرواية المشهورة : «وحازت الريحُ يَبيس القِلْقِلِ» بينما نجد في مخطوطاتنا «وطارت الريح...» أو «صارت الريح...».

في سبب المثل ومعناه : فقيل إنَّ منشِم اسم امرأة، وهي بنت الوجيه، وكانت عطّارة بمكّة . وكانت خزاعة وجُرْهُم إذا أرادوا الحرب تطيّبوا من طيبها، فكثرت القتلى، فجعلوا يقولون : أشْأمُ مِن عِطْرِ مَنْشَمٍ.

وقيل كانوا إذا أرادوا الحرب غمسوا أيديهم في طيبها وتحالفوا أن يستميتوا في الحرب ولا يولّوا . فكانوا إذا دخلوا الحرب بطيب تلك المرأة يقول النّاس : دقّوا بَيْنَهُم عِطْرَ مَنْشَمٍ . فلمّا كثر منهم هذا القول صار مثلا للشرّ العظيم . قال زهير :

تَداركْتُما عبسًا وذبيانَ بعد ما تفانَوا ودقّوا بينهم عِطْرَ منشِمِ

وقيل إنَّ منشم امرأة كانت تبيع الحنوط فسمّوا حنوطها عطرا في قولهم عِطْرَ منْشِمٍ، لأنّهم أرادوا عطر الموتى . وأمّا من ذهب إلى أنّه مركب فزعم أنّ امرأة من العرب كانت تبيع العطر، فورد عليها بعض أحياء العرب، فأخذوا عطرها وفضحوها . فلحقها قومها ووضعوا السيف فيهم وجعلوا يقولون : اقتلوا مَنْ شمّ من طيبها ! فبقي مَن شَمّ اسمًا مركّبا من هذا.

وقيل إنّ سبب المثل قتالُ يَوم حَلِيمة الذي قيل فيه : **ما يَومُ حَليمةَ بِسرّ** . وكانت فيه الحرب بين الحارث بن أبي شمر، ملك الشام، وبين المنذر بن المنذر بن امرىء القيس، ملك العراق . وأخرجت حليمة إلى المعركة مراكن الطيب، فكانت تطيّب الداخلين في الحرب، فقاتلوا من أجل ذلك حتّى تفانوا . وسيأتي شرح هذه القصّة .

دَمِّثْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ النَّومِ مُضْطَجَعًا !

التّدمِيثُ : التّسْهِيلُ . يقال : مكان دمِث - كفَرِح - أي لَيِّن سَهْل . ودمِثَ الشيء - بالكسر - يَدمَث، دماثَةً، فهو دمِث . ودَمّثته أنا تَدمِيثًا : سهّلته وليّنتُه؛ والمُضْطَجَعَ - بالفتح - مكان الاضطجاع .

والمعنى أنّك إذا أردت أن تنام فَسوِّ المكان وليِّنْه، وأزِلْ ما فيه من الخُشونة قبل اضطجاعك ! يُضرب في الاستعداد للنّوائب قبل نزولها . ومثله قول تأبّط شرًّا :

ولكنْ أخو الحزم الّذي ليس نازلاً به الأمر إلاّ وهو للقَصْد مُبْصِرُ

وقول الآخـر :

ولكنّ من لا يلقَ أمرًا ينوبُه بعُدّتِه يَنْزِلْ به وهْوَ أعْزَلُ

وقول أمّ المؤمنين عائشة، رضي الـّله عنها، في عمر، رضي الـّله عنه، : **كان والـّلهِ أحْوذيًا نَـسيجَ وحْدهِ، قد أعَدّ للأمُورِ أقْرانـَهَا** . ويُروى [إنّ] مَن رأى عُمَرَ ابْن الخطـّابِ عَلِمَ أنـّه خُلِقَ غَناءً للاسْلامِ . كان والـّلهِ أحْوذيًا إلخ...

الدّمُ لا يَنَامُ .

هذا المثل من كلام قصير بن سعد لجَذيمَةَ حيث شاورهم على الخروج إلى الزبـّاء، فقال له قصير : إنّ الزبـّاء قَتَلَتْ أباها والدّمُ لا ينام، وتقـّدم ذلك مشروحا . والمراد أنّ من كان له قِبَلَكَ ثَأرٌ وثَبَتَ له عندك دم، لا يغفل عنك وعن أخذ ثأره منك ليلا ولا نهارًا، ولا يكون منه سِلْمٌ صحيح ولا مصافاة خالصة أبدا.

دُهْدُرّيْن، سَعْدُ القَيْن .

دُهْدُرّيْن - بضمّ الداليْن وفتح الراء المشدّدة -، وقد اختـُلف فيه : فقيل هو اسم مبنيّ بصيغة المثنـّى ؛ وقيل هو تـَثنية دُهْدُرٍّ، وهو الباطل . ويقال أيضا دُهْدُنٌّ -بالنون - على وزنه . قال الراجز :

لأجْعَلَنْ لابْنَةِ عمْرٍو قِنـّا حتـّى يعُود مَهْرُها دُهْدُنّا

وهو في هذا المثل منصوب بفعل مضمر، وسَعْد منادى، وهو قَيْن كان ادّعى أنّ اسمه سَعْد زمانـًا ثمّ تبيـّن كذبه، والقَيْن وصف له، فقيل له ذلك، أي جمعتَ كذبا إلى كذب يا سَعْد الحدّاد ! وقيل إنّ دُهْدرّيْن اسم فعل مبنيّ بمعنى بَطَلَ، كما بُني شَتـّانَ وهَيْهَاتَ، وسعد فاعله، والقَيْن وصف له . والمعنى : بطَل سعدُ القَيْن . والمراد بطلان استعماله لتشاغل النـّاس عنه بالقحط . وحُذف تنوين سعد في هذا الوجه تخفيفـًا لكثرة الاستعمال، نحو : ولا ذَاكِرُ الـّلهَ إلاّ قَليلاً . وقيل إنّ دهْدُرّيْنِ موضعه رفع على الابتداء، كأنـّه قيل : كلامك باطل، أو فعلك باطل . وكذلك سعد، أي أنت سعد القين، أي مثله . وقيل إنـّه مركـّب، وأصله دُهْ أمر من الدّهاء - وكان الأصل دهى - ثمّ قـُلب فقيل دَاه - بجعل اللاّم موضع العين - كما قيل : لاَعٍ ولاَئِعٍ، ودُرّيْنِ من قولك : دُرّ الشيء إذا تتابع . والمعنى : بالغ في الكذب يا سعد ! وقد قيل إنـّه حدّاد عجميّ يدور في اليمن . وكان إذا كسد في مخلاف قال بالفارسيـّة : دُهْ بدرود، أي بالوداع،

يخبرهم أنّه يخرج غدا ليستعملوه، فعرّبوه وضربوا به المثل في الكذب والباطل . وقالوا :
إذَا سَمِعْتَ بِسُرَى القَيْنِ فإنّه مُصْبِحٍ، وقد تقدّم . ورواه بعضهم :
دُهْدُرَّيْنِ وسَعْدَ القَيْنِ ـ بالواو ونصب سعد. وروى آخرون :
دُهْدُرَّى ـ مقصود بغير نون التثنية ـ، وقالوا موضعه في ضرب المثل إذا ردّ على مُخبِرٍ خبره، أو على فاعل فعله، أو حمق أحمق . وروى آخرون :
دُهْدُرَّيْن سَاعِدُ القَيْنِ.
والمقصود من ذلك كلّه واحد، وهو الباطل والّلغو . فيُضرب عند التكذيب للحديث وادّعاء بطلان الأمر. وقال أبو زيد : يُقال للرجل يُهْزَأ به : طُرطُبَّيْن ودهْدُرَّيْن ودُهْدُرًّا وسعدَ القَيْن.
وللنّاس في هذا الّلفظ أقاويل هذا حاصلها، والّله أعلم.

الدّهْرُ حُبْلَى لا يُدْرَى مَا تَلِدُ .

الدّهْرُ ـ بفتح فسكون، وتُحرّك الهاء ـ الزمان الطويل، والزمان الممدود، أو ألف سنة : هذا قول الّلغويّين . وللفلاسفة فيه كلام بيّنّاه في علم الكلام ؛ والحُبْلَى : الحَامِل . قال امرؤ القيس :

فمثْلُكِ حُبْلى قد طرقْت ومرضعًا   وألهيتُها عن ذي تمائِم مُحْوِلِ

حَبِلَتِ المرأة ـ بالكسر ـ حبلاً، فهي حَابِلَة، والجمع حَبَلَة ؛ وحُبْلَى، والجمع حُبْلَيَات وحَبَالَى، والولادة معروفة . والمعنى أنّ الدّهر، لا نبهام الأقدار الجارية فيه، وخفاء التصاريف الواقعة بذويه، يشبه الحبلى المنبهم أمر ذي بطنها، لا تُعرف له ذكورة ولا أنوثة، ولا كمال ولا نقص، ولا حسن ولا قبح، حتّى تلد فيتبيّن ذلك . وكذا الدّهر لا يُعرف فيما يأتي به من الأقدار والحوادث، أخير أم شرّ، وزيادة أم نقص، وسعة أم ضيق، حتّى يقع ذلك فيظهر.

أدهَى مِنْ ثَعْلَبٍ .

الدّهَاءُ والدّهْيُ : المَكْر وجودةُ الرأي . ورجل دَاهٍ ودَهٍ ودَاهِيَة، والجمع دُهَاة ودَهُونَ . وقد دَهيَ الرجل ـ بالكسر ـ، دَهْيًا ودَهَاءً ودهَاءَةً، وتَدَهّى : فَعِلَ

فِعْلَ الدُّهاة ؛ والثعلب : الحيوان المعروف، وتقدَّم فيه كلام . وهو موصوف بالمكر والاحتيال مشهور بذلك . ومن مكره أنَّه إذا رأى الغلبة عليه تماوت حتَّى لا يُشكّ في موته فإذا غُفل عنه وثب هاربا .

ومن مكره المحكيّ في الخرافات عند العرب أنَّهم قالوا: إنَّ الضبع صادت ثعلبا فقالت : أخيّرك يا ثعلب بين خصلتيْن، فاختر أيتهما شئت . قال : ماهما ؟ قالت : إمَّا أن آكلك، وإمَّا أن أنكحك . فقال الثعلب : أما تذكرين يوم نكحتك ؟ فقالت : متى ؟ وانفتح فوها . فأفلت الثعلب [وهرب . فضربوا المثل بذلك وقالوا : **عَرضَ عليك خَصْلَتَي الثعلب**](٥٤). **وقالوا** أيضا : إنَّ الثعلب اطلع على بئر وهو عطشان، وعليها رشاء ودلوان، فقعد في الدلو العليا، فانحدرت به إلى البئر حتَّى شرب وبقي هنالك . فإذا بضبع اطلعت على البئر، فرأت بياض القمر انتصف الماء، والذئب قاعد في ضوئه، فقالت له : ما تصنع هنا ؟ فقال لها : إنّي أكلت نصف هذه الجيفة وبقي نصفها، فانزلي تأكليها ! قالت: وكيف أنزل ؟ قال : تقعدين في الدلو الأخرى . فلمَّا التقيا في وسط البئر قالت له : ما هذا ؟ قال : **كَذَا التَّجَارِبُ تَخْتَلِفُ** ! فضربوا ذلك للمختلفين في الأمور . ومثل هذه الحكايات كثير.

دَارُ الفُسوقِ جَدَثٌ، وحَديثُه حَدَثٌ .

هذا مثل مصنوع فيما أظنّ وهو ظاهر المعنى ؛ والجَدَث ـ بالجيم ـ القَبْرُ . قال الشاعر:

جَـدثٌ يَكُـونُ مقَـامُهُ أبَـداً بِمُخْتَلَـف الرِّيَـاحِ

والجمع أجْدَاثٌ وأجْدُثٌ . قال الآخر : أنشده الجوهري :

عَرفْتُ بِأجْدُثٍ فَنِعَافِ عِرْقٍ عَلامَـاتٍ كَتَحْبِيـرِ النِّمَـاطِ

دُونَ ذَلِكَ خَرْطُ القَتَادِ

دُونَ نقيض فَوقَ وبمعنى أمَامَ . ويكون ظرفا للمكان القاصر عن الغاية فيما يُضاف إليه، ثمَّ يُطلق على كل رتبة أدنى من أخرى في الأمكنة والأزمنة والمعاني ؛ والخَرْطُ : النَّزْعُ، تقول : خرطت الشجرة خَرطًا إذا انتزعت الورق منها اجتذابًا ؛ والقَتَادُ ـ على

مثال سَحَاب ـ شجر صلب شوكُه كالابر شديد، يُضرب به المثل كما قال أبو تمَّام :

نَثَا خبرٌ كأنَّ القَلْبَ أمْسَى يُجرُّ به عَلى شَوكِ القَتَادِ

وقال أيضا :

غَدتْ تستجير الدَّمْع حوف نوى غدٍ وعادَ قتاداً عندها كلُّ مرقَدِ

وخَرطُه أشدُّ شيء، فضُرب المثل به . وتقدَّم مثله في حرف الهمزة . قال أبو المظفَّر :

يا من يُساجلُني وليس بمُدركٍ شأوي وأين له جَلالَةُ منصبِي

لا تتْعبنَّ فدُونَ ما حاولْتَه خرط القتادِ وامتطاءُ الكوكب !

جدِّي مُعاويةُ الأغرُّ سمتْ به جُرثُومةٌ من طِينِها خُلق النَّبي

وروثْتُه شرفًا رفَعْتُ مَنَارَهُ فبنو أُميَّةَ يفخرونَ بِه وبِي

وقال الآخـر :

مالُ ابن دارَةَ دونَهُ لعُفاتِهِ خرطُ القتادِ والتماسُ الفرقَدِ

مالٌ لزومُ الجمعِ يمنَعُ صرفَهُ في راحةٍ مثلَ المنادَى المُفْردِ

دُونَ ذَا ويَنْفُقُ الحِمَارُ !

دونَ تقدَّم [معناه]، والنّفَاقُ : الرَّوجَانُ، تقول : نَفَقَ البيع ـ بالفتح ـ ينفق، نَفَاقًا ـ على مثال سَحَاب ـ إذا رَاجَ ؛ ونَفَقَتِ الدابَّةُ أو الرجل : مَاتَ ؛ والحمار معروف . ودخل رجل السوق بحمار له يبيعه . فقام رجل يقال له أبو يسار يمدح الحمار، وجعل يقول : إنَّ حافره جلمود، وإنَّ ظهره حديد . فقال صاحبه : **شَاكِهْ أبَا يَسارٍ، دُونَ ذَا ويَنْفُقُ الحِمَارُ** ! فذهب مثلا يُضرب للمفرط في الثناء والمدح . ومعنى شَاكِهْ : شَابِهْ وقَارِبْ في المدح ولا تُفْرِطْ، من المشاكهة وهي المشابهة . وسيأتي تتمَّة المثل في الشين، إن شاء اللّه.

ومن أمثال العامَّة في هذا الباب قولهم :

دجَاجَةٌ وتَرْكُلُ .

يُضرب لاستبعاد الصولة من الضعيف، والدجاجة معروفة ـ مثلَّة الأوَّل ـ والجمع دجَاج ؛ والرَّكْلُ ضرب الأرض برجْل واحدة، وركض الفرس بالرجل، والأرض المركَّلة

المكدودة بحوافر الدوابّ . قال امرؤ القيس يصف فرسا :

مِسحٌّ إذا ما السَّابحاتُ على الونَى أثَرنَ غُباراً بالكَديد المُركَّلِ

ويُستعمل الرَّكْلُ، في لسان العرب، في الضرب بالرِّجْل مطلقا، وهو المراد.

ثمَّ نذكر من الشعر في هذا الباب ما تيسَّر، والله المستعان.

قال طرفة بن العبد :

ستُبْدي لك الأيَّامُ ما كُنت جاهلاً ويأتيك بالأخْبار من لم تُزوِّدِ

وإلى معنى هذا البيت أشار ابن شرف في لاميته بقوله :

لا تسألِ النَّاس والأيَّامَ عن خبرٍ هُما يبثَّانكَ الأخْبارَ تَطفيلاَ !

وقال دُريْد بن الصِّمَّة :

وهَل أنا إلاّ من غزيَّةَ إن غَوتْ غويتُ وإن ترشُد غزيَّةُ أرشُدِ

وغزيَّة قبيلة، وهي ـ فيما أظنّ ـ بفتح المعجمة وكسر الزاي . وهكذا رأيته في نسخة من **الصحاح** مضبوطا بالقلم، ويؤيّده ما في **القاموس** من أنَّهم يُسمّون غازية وغَزيَّة كغَنِيَّة ـ ولم يثبت في أسمائهم غُزَيَّة . ـ بلفظ التصغير ـ. وقال من هذه القصيدة أيضا :

أمرتُهُم أمري بمُنعرَجِ اللِّوَى فلم يستبينوا الرُّشْد إلاّ ضُحى الغَد

وتمثَّل بهذا البيت أمير المؤمنين عليّ ـ كرَّم الله وجهه ـ على المنبر، في قصَّة التحكيم حين وقع ما وقع من الحكمَيْن، يعاتب أهل العراق ويوبّخهم على سفاهة رأيهم في ذلك وتوجيههم أبا موسى الأشعري، والقصَّة مشهورة . وعلى هذا البيت نبَّه ابن شرف بقوله في لاميته :

يَرى البَليدُ البَلايَا بَعْد ما نزلت وذو الذَّكاءِ يرى الأشْياء تخْييلا

وقال الأسود بن يَعْفُر :

جرت الرِّياح على محلِّ ديارهِم فكأنَّهُم كانوا على مِيعَادِ

ونظمه ابن شرف في لاميته بقوله :

بادوا كأنَّهمُ للفرقَةِ اتَّعَدوا فلم يكُن ذلكَ الميعادُ ممطولاَ

وقال الآخر :

أجمِل إذا طالَبتَ في طَلَبٍ فالجَدُّ يُغْني عَنْكَ لا الكَدُّ !

ونظمه ابن شرف بقوله :

والجَدُّ يُغني الفتى عن كدِّ مُهجته ... فلْيغْدُ تكثير حرص المرء تقليلا !

وقال الشاعر :

السيف يقْطع وهْو ذو صدإٍ ... والحدُّ يفْري الهَامَ لا الغِمْدُ

ونظمه ابن شرف بقوله :

والنَّفس جوهرةٌ ملبوسُها صدفٌ[5] ... والسَّيف يقْطَع رذلَ الغِمد مفلولا

وقـــال :

هل تنْفَعنَّ السَّيْفَ حليتُه[6] ... يومَ الجِلادِ إذا نبا الحدُّ

ونظمه ابن شرف بقوله :

وربَّ سيفٍ كهامٍ لا مَضاءَ له ... وقد تراهُ مُحلَّى الغِمد مصقولاَ

وقال الآخـــر :

وإنَّ امرءًا يمسي ويُصبحُ سالمًا ... من النَّاس إلاَّ ما جنى لسَعيدُ

ونظمه ابن شرف بقوله :

ومن يُعاقَبْ بما تجني يَداه بلا ... ظُلم التَّجنِّي فقد نال اليَد الطُّولَى

وقال الآخـــر :

وغيْظٍ على الأيَّام كالنَّار في الحشى ... ولكنَّه غيظُ الأسيـر على القـدِّ

ونظمه ابن شرف بقوله :

لنا على الدَّهر غيظٌ ليس ينفعُنا ... غيظَ الأسيرِ أسير القدِّ مغلولاَ

وقال الآخـر :

ماذا لقيتُ من الدُّنيا وأعْجَبُـه ... أنِّي بما أنا باكٍ منه محسودُ !

ونظمه ابن شرف بقوله :

قُل للحَسُودِ على أشياءَ تحزنني: ... خُذها احتقارًا وتهوينًا وترذيلا !

---

5) في د : ملبوسة صدفًا.

6) في بعض المخطوطات في أول البيت : «بلَ تنفسنَ...»

وقال بعض العرب :

إذا الرِّجالُ ولَدتْ أولادُها ... واضْطربت من كبرٍ أعضادُها
وجعَلت أوصابُها تعْتادُها ... فهْيَ زُروعٌ قَد دنا حِصَادُها

وقال الآخر :

لقد أسمَعْتَ لو ناديتَ حيًّا ... ولكن لا حَيَاة لمن تُنَادِي !

وما أحسن قول عزّ الدين المقدسي في كتابه **كلام الطيور والأزهار**، على لسان الغراب:

أنوحُ على ذهابِ العُمْر منِّي ... وحقَّ أن أنوحَ وأن أُنادِي
وأندبُ كلّما عايَنْتُ ربعًا ... حدا بهِمُ لوشْكِ البينِ حَادِ
يعنّفني الجهولُ إذا رآني ... وقَد أُلْبسْتُ أثْوابَ الحِدادِ
فقلت له : اتَّعِظ بلسان حالِي ... فإنّي قد نصحتُك باجْتهَادِ !
وها أنا كالخطيب وليس عيبًا ... على الخُطباءِ أثْوابُ السَّوادِ
ألم ترني إذا عاينْتُ ركْبًا ... أنادِي بالنَّوى في كلّ نَادِ ؟
أنوحُ على الطّلول فلم يُجبْني ... بساحتِها سِوى خُرس الجَمادِ
فأكثر في نواحيهَا نُواحِي ... من البيْن المُفتّت للفُؤادِ
فما من شاهدٍ في الكونِ إلاّ ... عليْهِ من شهودِ الغَيْبِ نَادِ
فكم من رائحٍ فيها وغَادٍ ... يُنادي من دنُوٍّ أو بعَادِ
لقد أسْمَعْتَ لو ناديتَ حيًّا ... ولكن لا حَيَاةَ لمَن تُنَادِي !

وقال الحطيئة :

وما قُلتُ إلاّ بالّذي عَلمت سعْدُ

وهذا مثل مشهور، وصدر البيت :

وتعْذلُني أبْناءُ سَعْدٍ عليهِمُ

وهذا البيت من جملة أبيات له، وهي من جيّد شعره . يقول فيها :

وإنَّ التي نكَّبتُها عن مَعَاشرٍ ... عليَّ غضابٍ أَنْ صددتُ كما صدُّوا
أتَت آلَ شمَّاسٍ بن لأيٍ وإنَّما ... أتاهم بيها الأحلامُ والحسبُ العدُّ
فإن الشَّقيَّ من تُعادِي صدورهم ... وذو الجَدّ من لانوا إليه ومن ودُّوا
يسوسونَ أحلامًا بعيدًا أناتُها ... وإن غضبوا جاء الحفيظَةُ والجِدُّ

أَقِلّـوا عليهـم لا أبـا لأبيكـــمُ   من الّلوم أو سُدّوا المكان الّذي سدّوا !
أولئك قومٌ إن بنوا أحْسنوا البنا   وإن عاهدوا أوفَـوا وإن عقدوا شدّوا
وإن كانت النُّعْمى عليهم جَزَوا بها   وإن أنْعَموا لا كدَّروها ولا كدّوا
وإن قال مولاهم على جلٍّ حادثٍ   من الدّهر رُدّوا فضْلَ أحلامِكم رَدّوا
فكيف ولـم أعلمهُـمُ خذلـوكـُـمُ   على مُعْظمٍ ولا أديمَكُمُ قَدّوا ؟
مطاعينُ في الهيجا مكاشيف للدجى   بَنى لهمُ آباؤهم وبَنى الجَدُّ
فمن مُبلغٌ أبناء سعدٍ فقد سعى   إلى السُّورة العليا لهم حازمٌ جلْدُ
رأى مجْد أقْوامٍ أُضيعَ فحثَّهُم   على مجدهم لمَّا رأى أنَّه الجهْدُ
وتعْذلُني أبْنَاءُ سَعْدٍ (البيت)
وقال أبو تمام حبيب بن أوس الطائي :
ما لِامْرِئٍ خاض في بحر الهوى عُمُرٌ   إلاّ وللبين فيه السَّهلُ والجَلَدُ
كما نما البينُ من إلحاحه أبدًا   على النُّفوس أخٌ للموت أو ولدُ
وقال يخاطب محمَّد بن يوسف :
واعذر حسودك فيما قد خُصصتَ به   إنَّ العُلى حسنٌ في مثلها الحَسَدُ !
وقال أيضا في وداعه لعليّ بن الجهم يمدحه :
هي فُرقةٌ من صاحبٍ لك ماجِدٍ   فغَدًا إذابةُ كلِّ دمْعٍ جامِدِ
فافزَع إلى ذخْر الشُّؤون وغربِـه: فالدَّمع يُذهبُ بعضَ جُهد الجاهدِ
فإذا فقدت أخًا فلم تفقد له   دمعًا ولا صبرًا فلسْتَ بفاقد !
ومنهـــا :
إن يُكْد مُطرَّفُ الاخاءِ فإنَّنا   نغْدو ونسْري في إخاءٍ تَالِدِ
أو يخْتلفْ ماءُ الوصالِ فماؤُنـا   عذْبٌ تحدَّر من غمامٍ واحِـدِ
أو نفترقْ نسبًا يُؤَلِّفْ بيننـا   أدبٌ أقَمْنَـاهُ مَقَـامَ الوالِـدِ[6م]
وقال أيضا من قصيدة أخرى :
سَقَتْهُ ذُعافًا غارةُ الدّهر فيهمُ   وسمُّ الّليالي فوق سُمِّ الأساودِ

ومنهـا :

غدا قاصدا للحَمد حتّى أصابَـه   وكم من مصيبٍ قصدهُ غير قاصِد !

ومنهـا :

يصُدُّ عن الدُّنيا إذا عنَّ سؤدَدٌ   ولو برزتْ في زيِّ عذراء ناهِد

إذا المرء لم يزهَد وقد صبغتْ له   بعصفرها الدُّنيا فليسَ بزاهِـد

وقال أيضا من أخرى :

إذا انصرف المحزون قد فَكَّ صبره   سُؤالُ المغاني فالبُكاءُ له ردُّ

ومنهـا :

نوًى كانقضاضِ النَّجمِ كانت نتيجةً   من الهزل يومًا إنَّ هزلَ الهوى جدُّ

فلا تحسبا هِنْدا لها العُذرُ وحدها   سجيَّةُ نفسٍ كلُّ غانيةٍ هنْدُ

ومنهـا :

وحقْدٌ من الأيَّام وهْيَ قديرةٌ   وشرُّ السَّجايا قُدرةٌ حازها حقْدُ

إساءةُ دهرٍ أذكرت حُسْنَ فعْله   إليَّ ولولا الشَّريُ لم يُعرف الشَّهدُ

وقال أيضـا :

ومن يأذنْ إلى السَّاعينَ يَسلُك   مسامِـعَهُ بألسِنَةٍ حِـداَدِ

وقال أيضـا :

ولكم عدوٍّ قال لي مُتمثّلاً :   كم من ودودٍ ليس بالمودودِ !

ومنهـا :

وإذا أراد اللّهُ نشْـرَ فضيلةٍ   طُويتْ أتـاح لهـا لسانَ حسودِ

لولا اشتعالُ النَّار فيما جاورتْ   ما كان يُعرف طيبُ عَرفِ العُودِ

لولاَ التَّخوُّف للعواقبِ لم تزَل   للحاسِد النُّعمى على المحسُودِ

يُعطي لها البَشْرى الكريمُ ويحْتبي   بردائِـها في المحْفِـل المشهُـودِ

بُشْرى الغِنىٌّ أبي البنات تتابعت   بُشراؤهُ بالفـارس المولـودِ

وقال أيضـا :

وإنِّي رأيت الوسْمَ في خلق الفَتَى   هو الوسْمُ لا ما كان في الشّعر والجِلْد

وقال أيضـــا :

ولكنّني لم أحْـوِ وفْرًا مُجمّعًا ففُزتُ به إلاّ بشَمْلٍ مُبدّدِ
ولم تُعطني الأيّامُ نومًا مُسكّنًا ألــذُّ به إلاّ بنـــومٍ مُشرّدِ
وطول مُقامِ المرء في الحيّ مخْلقٌ لديباجتيْهِ فاغترب تتجدّدِ !
فإنّي رأيت الشّمس زيدتْ محبّةً إلى النّاس أنْ ليسَت عليهم بسرمَدِ

ومنهـــا :

وليس يُجلّي الكربَ رأيٌ مُسدّدٌ إذا هو لم يُؤنَسْ برمحٍ مسدّدِ

ومنهـــا :

محاسنُ أصنافِ المغنّين جمّةٌ وما قصباتُ السّبقِ إلاّ لمعْبَدِ

وقال أيضـــا :

أحْلَى الرّجالِ من النّساء مواقعًا مَنْ كان أشْبهَهُم بهنّ خُدودًا
حتى إذا ما الشّعْر سوّد وجهَه كان المُسوّدُ بينهُـنّ مَسُودًا

ومنهـــا :

ما إن تَرى الأحسابَ بيضًا وُضّحًا إلاّ بحيثُ تَرى المنايا سُودًا

ومنهـــا :

أيَقِنتَ أنّ من السّماحِ شجاعةً تُدمِي وأنّ من الشّجاعةِ جُودًا ؟

ومنهـــا :

إنّ القوافيَ والمساعيَ لم تزلْ مثل النّظامِ إذا أصابَ فريدًا
هي جوهرٌ نَثرٌ فإن ألّفْتَه بالشّعرِ صار قلائـدًا وعُقـودًا
في كلّ مُعتركٍ وكُلّ مَقامةٍ يأخُـذنَ منهُ ذمّةً وعُقُـودًا

وقال أيضـــا :

شَابَ رأسِي ومَا رَأيْتُ مَشِيبَ الرّأسِ إلاّ مِنْ فَضْلِ شَيْبِ الفُؤادِ
وكَذاكَ الرُّؤُوسُ فِي كُلّ بُؤْسٍ ونَعِيـمٍ طَلائِـعُ الأجْسَـادِ
طَالَ إنكَارِيَ البَيَاضَ وإنْ عُمِّرْتُ شَيْئًا أنْكَرتُ لَونَ السَّوادِ !

ومنهـــا :

وضِيَاءُ الأمُورِ أفْسَحُ فِي الطّرْفِ وفِي القَلْبِ مِنْ ضِيَاءِ البِلادِ

ومنهـــا :

غَـيْـرَ أنّ الرُّبَـى إلَـى سَبَـلِ الأنْـوَاءِ أدنـَى والحَـظُّ حَـظُّ الوهَـادِ !

ومنهـــا :

كُـلُّ شَـيْءٍ غَـثٌّ إذَا عَـادَ والمَعْروفُ غَـثٌّ مَا كَـانَ غَـيْـرَ مُـعَـادِ

وقال أيضـــا :

وما شيءٌ من الأشْيَـاءِ أمْضَـى على المُهْجاتِ من رَأْيٍ سَدِيدِ

وقال أيضـــا :

لِـم تُـنْـكـُرِينَ مَـعَ الفِـراقِ تَـبَـلـُّدِي وبَـراعَـةُ المُشْـتَـاقِ أنْ يَـتَـبَـلَـّدَا ؟

وقال أيضـــا :

والسَّيفُ أعْمى غير أنّ غِراره يقِـظٌ إذا هادٍ نحاهُ لِـهَـادِ

ومنهـــا :

ومِنَ العجائب شَاعِرٌ قَـعَـدَتْ بـه هِـمَّاتُـهُ أوضَاعَ عِـنْـدَ جَـوَادِ

وقال أيضـــا :

مَا كُـلُّ مَن شَاءَ استمرَّتْ بالنَّدَى يَـدُهُ ولا استَـوْطَا فِـراشَ الجُـودِ

وقال أيضـــا :

وكَـذَا المَنايا مَا يَـطَـأنَ بِـمَـنسِمٍ إلاّ عَـلَـى أعْـنَـاقِ أهْـلِ السُّؤْدَدِ

وقال أيضـــا :

لَـو يَـعلَـمِ النَّاسُ عِلمِيَ بالزَّمانِ وما عَـاثَـتْ يداهُ لما ربَّـوْا ولا ولَـدوا !

وقال أبو الطيّب أحمد بن الحسن المتنبي :

فَـمَا تُـرَجِّي النُّفُـوسُ مِنْ زَمَـنٍ أحْـمَـدُ حَـالَـيْـهِ غَـيْـرُ مَـحْـمُـودِ

إنّ نُـيُـوبَ الزَّمـانِ تَـعْـرِفُـنِـي أنَـا الَّذي طَالَ عَـجْـمُـهَـا عُـودِي

وفيَّ مَا قَـارَعَ الخُـطُـوبَ ومَـا آنَـسَـنِـي بالمَـصَـائِـبِ السُّـودِ

وقال أيضا من قصيدة :

إذا كُـنتَ تخْشى العار في كلّ خلوةٍ فلم تتصبَّاك الحسانُ الخرائِـدُ

ومنهـــا :

أهُـمُّ بشيءٍ والّليـالي كأنَّهَـا تُـطَـارِدُنِـي عَـن كَـونِـه وأُطَـارِدُ

وحيدٌ من الخلاّنِ في كلّ بلْدةٍ إذا عظُمَ المطلُوبُ قلّ المُساعدُ

ومنهـــا :

ولكن إذا لم يحْمِلِ القلبُ كفّهُ على حالةٍ لم يحْمِلِ الكفّ ساعدُ

ومنهـــا :

أحقّهُمُ بالسّيف مَن ضَرب الطّلا وبالأمن من هانَت عليهِ الشّدائِد

ومنهـــا :

بذا قَضَتِ الأيّامُ ما بين أهْلِها مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائِدُ

ونظمه ابن شرف بقوله :

وموتُ قومٍ حياةٌ عند غيرهِمُ وقَد أبى الدّهرُ بين النّاس تَعْديلاَ

ومنهـــا :

وكلٌّ يرى طُرْقَ الشّجاعَةِ والنّدى ولكنّ طبْعِ النّفْس للنّفْس قائدُ

ومنهـــا :

فإنّ قليل الحُبِّ بالعقْل صَالحٌ وإنّ كثيرَ الحُبِّ بالجهْلِ فاسدُ

وقال أيضا من أخرى :

لكُلِّ امرىءٍ من دهْرِهِ ما تَعَوّدا

ومنهـــا :

ومن يجعَلِ الضِّرغامَ في الصّيدِ بازهُ تصيّدهُ الضِّرغامُ فيمن تصيّدا[7]

ونظمه ابن شرف بقوله :

ولا تضْمَنّ ليثًا كي تصيدَ به فتغْتَدي خاتلاً للصّيْد مخْتولاَ

ومنهـــا

وما قَتَلَ الأحْرار كالعَفْوِ عنهمُ ومَن لَكَ بالحرِّ الّذي يحْفظ اليدا ؟

إذا أنتَ أكْرمتَ الكريمَ ملكْتَه وإن أنتَ أكرمْتَ اللّئيمَ تمرّدا

ووضع النّدى في موضع السّيف بالعلى مُضرٌّ كوضعِ السّيف في موضع النّدا

ومنهـــا :

7) المشهور في رواية هذا البيت هو - كما في الديوان -:
ومن يجعَلِ الضِّرْغام بازًا لصيده تَصَيّدَهُ الضِّرْغامُ فيما تصيّدا

ودَعِ كلَّ صوتٍ غيرِ صوتي فإنَّني   أنا الصَّائح المحكيُّ والآخرُ الصَّدا

ومنهـــا :

وقيَّدت نفسي في ذَراكَ محبَّةً   ومن وجَد الاحْسَانَ قيْداً تقيَّدا

وقال أيضــا :

يا عاذِل العاشِقين دعْ فِئةً   أضلَّها اللّهُ كيفَ تُرشِدهَا

ومنهـــا :

فعُد بها لا عدمْتَها أبَداً :   خيرُ صِلاتِ الكريمِ أعْودُهَا

وقال أيضـــا :

عشْ عزيزاً أو مُت وأنتَ كريمٌ   بين طعْن القنا وخفْق البُنودِ !

فرؤُوسُ الرِّماح أذهَبُ للغَيْظِ   وأشْفى لغلٍّ صدرِ الحقُـــودِ

لا كما قَد حييتَ غيرَ حميدٍ   وإذا مُتَّ مُتَّ غيـر فَقِيـدِ

فاطلبِ العزَّ في لظًى وذَرِ الذُّلَّ   ولو كان في جِنَانِ الخُلُودِ !

يقتَل العاجزُ الجبانُ وقد يعجزُ   عن قَطعِ بُخْنُـقِ المولـودِ

ويُوقَّى الفتى المِخشُّ وقد خوَّ   ضَ في ماء لبَّةِ الصِّنْدِيدِ

لا بقَومي شرُفْتُ بَل شرفُوا بِي   وبنفْسِي فَخَرْتُ لا بِجُدُودِ

وقال أيضـــا :

يفْنى الكلامُ ولا يُحيطُ بفضْلكُم   أيُحيطُ ما يفْنَى بما لا ينْفَدُ ؟

وقال أيضـــا :

وكم للهَوى من فتًى مُدنَفٍ   وكم للنَّوى من قتيلٍ شَهِيدِ !

ومنهـــا :

فما لَكَ تقبَلُ زُورَ الكَلاَمِ   وقَدْرُ الشَّهَادَةِ قدرُ الشُّهودِ ؟

وقال أيضـا :

وما مَاضِي الشَّبَابِ بمُسْتَرَدٍّ   ولا يومٌ يمُـرُّ بمُستَعَـادِ

ومنهـــا :

فإنَّ الجُرحَ ينفِرُ بَعدَ حينٍ   إذا كان البِنَـاءُ على فَسَادِ

وإنَّ المَـاءَ يخْـرجُ من جَـمَـادٍ[8] وإنَّ النَّار تَـخْـرُجُ مِنْ زِنَـادِ

وقال أيضــا :

سأطْلبُ حقّي بالقَـنا ومشَـايخٍ كأنـَّهُـم من طول ما التَـثَـموا مُـردُ

ثقالٍ إذا لاقَـوا خِـفافٍ إذا دعَـوا كثيرٍ إذا شَـدُّوا قليلٍ إذا عُـدُّوا

ومنهـــا :

ومن نكَـدِ الدُّنيا على الحرِّ أن يرى عدوًّا له ما من صداقته بُـدُّ

يروح ويغْــدو كارهًـــا بوصالِـه وتضْطرُّه الأيـَّامُ والزَّمـنُ النـَّكْـد[9]

وزعموا أنـَّه قد قيل له إذ تنبـَّأ : لكلّ نبيّ معجزة، فما معجزتك ؟ فقال : هذا البيت .

وقال أيضـــا :

من خصَّ بالذَّمِّ الفراقَ فإنـَّني مَـن لا يـَرى في الدَّهر شيئـًا يـُحمَـدُ

وقال أيضــــا :

إذا غدرَت حسناءُ أوفت بعهدها ومن عهْـدِها أن لا يـَدومَ لها عَـهْـدُ

وإن عشقت كانت أشدَّ صبابةً وإن فركت فاذهَـبْ فما فِـركُـها قصدُ

وإن حقدت لم يبـْقَ في قلبها رضًـى وإن رضيـَت لم يبق في قلبها حِـقْـدُ

كذلك أخْلاقُ النـِّساءِ، وربـَّمـــا يضلُّ بها الهادي ويخفى بها الرُّشْـدُ

ومنهــــا :

يرومونَ شأوِي في الكلامِ وإنـَّما يـُحاكي الفتى فيما سِوى المَـنطقِ القردُ

ومنهـــا :

وأصْبَـحَ شِعري منهُـما في مكانِـه وفي عُـنقِ الحسناءِ يـُستحْسنُ العِـقْـد

وقال أيضـــا :

أبى خُـلقُ الدُّنيا حبيبـًا تـُديمه فما طَـلبي منْها حبيبـًا تردُّهُ

وأسرعُ مفعــولٍ فعلْـتَ تغيـُّــرًا تكلـُّفُ شيءٍ في طباعِـكَ ضدُّه

ونظم الأوَّل ابن شرف بقوله :

قد يحتني الدَّهر من كفـَّيک ما اُجْتَنَتا فكيف ما كان عن كفـَّيک معْزولا ؟

---

8) في الديوان : وإن الماءَ يجري من جماد.

9) لا يوجد هذا البيت في الديوان، ولعله مقحم، بدليل القصة الوارة بعده ففيها : «هذا البيت» لا هذان البيتان.

ومنهـــــا :

وأتعبُ خلقِ الّله من زادَ همُّه وقصَّر عمَّا تشْتهي النَّفسُ وجدهُ

ومثله قول الامام الشافعي رضي الّله عنه :

وأحقُّ خلق الّله بالهـمِّ أمـرُؤٌ ذو همَّة يُبلَـى بعيشٍ ضيِّقِ

وبعـــده :

فلا يَنْحلل في المجْد مالُك كلُّه فينحلَّ مجدٌ كان بالمال عقْدُهُ

ودبـِّره تدبير الذي المجدُ كفُّهُ إذا حارب الأعْداء والمالُ زندُهُ

فلا مجْد في الدُّنيا لمن قلَّ ماله ولا مال في الدُّنيا لمن قلَّ مجْدُهُ

ونظم هذا ابن شرف بقوله :

لا مال إلاَّ بمجْدٍ فالتمسْه ولا مالٌ إذا لم يكُن بالمجْد مشمولا

هكذا وجدته وكأنـَّه تحريف، وإنـَّما قال هكذا :

لا مال إلاَّ بمجْدٍ فالتمسْه ولاَ مجدٌ إذا لم يكُن بالمالِ مشمولاَ

أو هكـــذا :

لا مجْد إلاَّ بمالٍ فالتمسْهُ ولا مالٌ إذا لم يكُن بالمجدِ مشمولا

ومنهـــا :

إذا كنتَ في شكٍّ من السَّيف فابلُه: فإمَّـا تـُنفـِّيه وإمَّـا تـُعـدُّهُ

وما الصَّارمُ الهنديُّ إلاَّ كغيرهِ إذا لم يُفارقهُ النـِّجاد وغِمدُهُ

وقال أيضــا :

حسم الصُّلحُ ما اشتهتْه الأعادي وأذاعــتْه ألسُـــنُ الحُسَّـــادِ

ومنهـــا :

وكلامُ الوشاة ليس على الأحبابِ سُلطـــانُه على الأضْــــدادِ

إنـَّما تنْجَحُ المَقَالَةُ في المرء إذا وافَقَتْ هَوىً في الفُؤادِ

ومنهـــا :

قد يُصيب الفتى المُشير ولم يجهد ويُشوي الصَّوابَ بعد اجتهادِ

ومنهـــا :

وإذا الحِلمُ لم يكُن في طباعٍ لم يُحلِّم تَقَادُمُ المِيلاَدِ

ومنهــا :

إنَّمـا أنتَ والــدٌ والأبُ القَــا ... طِعُ أحْنى من واصِلِ الأوْلادِ

ومنهــا :

هذه دولَةُ المَكَــارِمِ والــرَّأ ... فَةِ والمجْدِ والنَّدَى والأيَادِي

ومنهـا :

كيف لا يُطرقُ الطَّريقُ لسيْلٍ[10] ... ضيِّقٍ عن أتــيِّهِ كلُّ وادِ

وقال أيضــا :

إذا أردتُ كُميتَ التَّلونِ صافيةً ... وجدتُها وحبيبُ النَّفس مفقودُ

ماذا لَقيتُ من الدُّنيا وأعجبُــه ؟ ... أنِّي بما أنا باكٍ منه محسودُ

ومنهــا :

العبدُ ليس لحرٍّ صالحٍ بأخٍ ... لو أنَّه في ثياب الحُرِّ مولُودُ

لا تَشتري العبد إلاّ والعصا معه ... إنَّ العبيد لأنجاسٌ مناكيدُ !

ما كُنت أحسبُني أحْيى إلى زمنٍ ... يُسيءُ بي فيه كلبٌ وهو محمودُ

ومنهــا :

إنَّ امرءًا أمةٌ حُبْلى تُدبِّره ... لمُستضامٌ سخِينُ العَينِ مفؤودُ

وعندها لَذَّ طعْمَ الموتِ شاربُه ... إنَّ المنيَّة عنـد الـذُّلِّ قنديـدُ[11]

وقال أيضــا :

إنَّ في الموجِ للغريقِ لَعُذرًا ... واضحًا أن يَفُوتَهُ تَعْدَادُه

وقـال أيضــا :

وغيظٌ على الأيَّامِ كالنَّار في الحشا ... ولكنَّه غيظُ الأسير على القدِّ

ومنهــا :

وليس حياءُ الوجه في الذِّئب شيمةً ... ولكنَّه من شيمَةِ الأسَدِ الورْدِ

وقال أيضــا :

رأوكَ لمَّــا بَلَــوكَ نَابِــتَةً ... يَأكُلُهَــا قبْل أهْله الرَّائِــدُ

---

10) في الديوان : كيف لا يُترَكُ الطريقُ لسَيْلٍ

11) بين هذين البيتين في الديوان :

ويُلْمُهَـا خُطَّةً ويْلُمُ قابِلِهـا ... لمثلهـا خُلِـقَ المَهْـرِيَّةُ القُــودُ

وخلٌ زيّا لِمن يُحقّقُهُ : ما كلُّ دامِ جبينُهُ عابِدُ

ومنها :

فالأمرُ للهِ رُبَّ مُجْتهِدٍ ما خابَ إلاّ لأنَّهُ جاهِدُ

وقال أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعريّ :

غير مُجدٍ في ملّتي واعتِقادي نَوحُ باكٍ ولا تَرنُّمُ شادِ

وشبيهٌ صوتُ النّعيِّ إذا قيس بصوتِ البَشيرِ في كُلِّ نادِ

ومنها :

تعبٌ كُلُّها الحياةُ فما أعجَبُ إلاّ من راغِبٍ في ازديادِ !

إن حُزنًا في ساعة الموت أضْعا فُ سُرورٍ في ساعَةِ الميلادِ

خُلِق الناس للبقاءِ فضلّت أمّةٌ يَحسِبُونَهُم لِلنَّفادِ

إنّما يُنقَلُون من دارِ أعْمَا لٍ إلى دارِ شِقْوةٍ أو رشَادِ

ضَجعةُ الموتِ رقدَةٌ يَستَريحُ الجِسمُ فيها والعَيشُ مثلُ السُّهادِ

ومنها :

زحلٌ أشْرفُ الكَواكِبِ دارًا مِنْ لِقاءِ الرّدَى على ميعَادِ

ولنارِ المرّيخِ مِنْ حَدَثَانِ الدّهْرِ مُطْفٍ وإن علَت في اتّقَادِ

ومنها :

وإذا البحرُ غاضَ عنّي ولم أروَ فَلا رَيَّ بادّخَارِ الثِّمَادِ

كلُّ بيتٍ للهَدمِ ما تبْتني الورْ قَاءُ والسَّيِّدُ الرَّفيعُ العمادِ

والفتى ظاعنٌ ويكْفِيهِ ظلُّ السِّدرِ ضربَ الأطنابِ والأوتادِ

بان أمرُ الالهِ واختلفَ النّا سُ فداعٍ إلى الضّلالِ وهَادِ

والّذي حارتِ البريّةُ فيهِ حَيوانٌ مُستحْدثٌ من جَمَادِ

والّلبيبُ الّلبيبُ من ليس يغترُّ بكَونٍ مَصيرُهُ لِلْفَسَادِ

وقال أيضا :

أحسَنُ بالواجِدِ من وجْدِهِ صبرٌ يُعينُ النّارَ في زنْدِهِ

ومن أبى في الرُّزْءِ إلاّ الأسى كان أساهُ مُنْتَهَى جُهْدِهِ[12]

12) يروى أيضا : كان بكاه منتهى جهده.

ومنهـــا :

والشّيء لا يكْثــــر مُــــدَّاحُهُ   إلاّ إذا قيسَ إلى ضِــــــدّهِ

لولا غَضَى نجْـــــدٍ وقُلاّمُهُ   لم يُثْنَ بالطّيبِ على رَنْدِهِ

ليس الّذي يُبْكَى على وصْلِه   مثل الّذي يُبْكى على فقْدهِ[13]

والطّـــرف يرتـــاحُ إلى غُـــمضِهِ   ولـــيس يرتـــاحُ إلى سُهْـــدِهِ

ومنهـــا :

إن لم يكُنْ رشْدُ الفتى نافعًا   فغَـــيُّهُ أنفُـــعُ من رُشْـــدِهِ

ومنهـــا :

لو عرف الانسانُ مقْـــــــــدارَهُ   لم يفخَرِ المولَى عَلى عَبْدِهِ

أمْسِ الّذي مرَّ على قُـرْبِهِ   يَعْجِزُ أهْلُ الأرضِ عن ردّهِ

ومنهـــا :

سلّم إلى الّلهِ فكُلُّ الّذي   ساءكَ أو سرّكَ من عِنْـــدهِ

لا يعْدَمُ الأسْمَرُ في غَابِهِ   حتفًا ولا الأبيَضُ في غِمْدهِ

وقال أيضــا :

أفوق البدر يوضَعُ لي مِهَادُ   أمِ الجوزاءُ تحت يَدِي وسَادُ ؟

قنِعْتُ فخِلتُ أنَّ النّجمَ دوني   وسيّـانِ التّقنُّـــعُ والجِهَـــادُ

وأطربني الشّبـاب غَـــداةَ ولّى   فليتَ سِنِيهِ صوتٌ يُستعادُ !

وليس صبًا يُعادُ وراءَ شَيْبٍ   بأعـوزَ من أخِي ثقَةٍ يُفَـــادُ

ومنهـــا :

سفاهٌ ذادَ عنْكَ النّاسَ حلمٌ   وغَيٌّ فيه منفَـــعَةٌ رشَـــــادُ

وقال أيضـــــا :

ثلاثةُ أيّامٍ هي الدّهــرُ كلّه   وما هو غيرُ الأمسِ واليوم والغَدِ

ومنهــــا :

وقد يُجتدى نيلُ الغَمَامِ وإنّما   من البحر فيما يزعُم النّاس يجتدِي

ويهدِي الدّليلُ القومَ والّليل مظلمٌ   ولكنّهُ بالنّجم يهدِي ويهْتَدِي

13) يروى : «مثل الذي يبكي على صدّه» وهو الأنسب للوصول السابق.

ومنهـــا :

وليس قضيب الهنْد إلاّ كنابتٍ من القضب في كفّ الهِدانِ المُعرّدِ

الهِدانُ ـ على مثال كِتَاب ـ : الجَبَانُ، ويقال هو الأحمق الثقيل.

ومنهـــا :

أرى المجدَ سيفًا والقريض نجادهُ ولولا نجادُ السَّيف لم يُتقلَّدِ

وخيرُ حمالات السُّيوف حمالةٌ تحلَّتْ بأبْكارِ الثّناءِ المُخلَّدِ

وقال أيضـــا :

كذاكَ اللّيالي ما يجُدْنَ بمَطْلَبٍ لخلْقٍ ولا يُبقينَ شيئًا على عَهْدِ

وقال أيضـــا :

أرى العنقَاءَ تكبُر أن تُصادا فعانِدْ من تُطيقُ له عِنادا !

وما نهْنهتُ في طَلَبٍ ولكِنْ هي الأيَّامُ لا تُعْطي قِيَادَا

فلا تلُمِ السَّوابقَ والمَطَايَا إذا غرضٌ من الأغْراضِ حَادَا !

ومنهـــا :

إذا ما النَّار لم تُطعَم ضِرامًا فأوشِكْ أن تمُرَّ بها رَمَادَا

فظُنَّ بسائِر الاخْوان شرًّا ولا تأمَن عَلى سِرٍّ فُؤَادَا

فلو خَبرَتْهُمُ الجوزاءُ خُبْري لما طلعَتْ مخافَةَ أن تُكادَا

تجنَّبتُ الأنامَ فما أُواخِي وزِدْتُ عَنِ العَدُوِّ فما أُعَادَى

ولمَّا أن تجهَّمَني زَمَانِي جَرَيْتُ مَعَ الزَّمَانِ كما أرَادَا

وقال أيضا يخاطب خاله، وقد سافر إلى المغرب :

ظَعنْتَ لتسْتفيدَ أخًا وفيًّا وضيَّعْتَ القَديمَ المُسْتَفَادَا

وقال طرفة بن العبد :

وظُلم ذوي القُربى أشدُّ مضاضةً على الحرِّ من وقعِ الحُسامِ المُهنَّدِ

وقال عَديٌّ بن زيد :

إذا كنت في قومٍ فصاحِبْ خيارهُم ولا تصْحبِ الأردَى فتردَى مع الرَّدِي

عن المرء لا تسأل وسَلْ عن قرينه : فكُلُّ قرينٍ بالمُقارِنِ يقْتَدِي

إذا ما رأيت الشَّرَّ يبعثُ أهلَه وقام جُناةُ الشَّرِّ للشَّرِّ فاقعُدِ !

وقال الأعشى :

إذا أنت لم ترحَل بزادٍ من التُّقى ... ولاقَيْتَ بعد الموت منْ قد تزوَّدا
ندمت على أن لا تكون كمثلِه ... فتُرصدَ للموت الَّذي كان أرْصَدا[14]

وقال المهلَّبي :

وكيف جُحود القلبِ والعينُ تشهَدُ ؟

وقال أيضا :

ولا خير فيمَن لا يَدومُ له عهْدُ

وقال الخرُيمي :

وحسْبُك منِّي أن أودَّ فأجْهدا

وقال الخُوارزمي :

لا تصحَبِ الكسلاَنَ في حاجاتِهِ ... كم صالحٍ بفسادِ آخَر يفْسُدُ !
عدوَى البليدِ إلى الجليدِ سريعةٌ ... والجمرُ يوضَعُ في الرَّماد فيخْمُدُ

وقال عمر بن أبي ربيعة :

حسنٌ في كلِّ عينٍ مَنْ تودّ

وقال الآخر :

وكلُّ ريحٍ لهــا هُبُــوبٌ ... يومًــا فلَا بُــدَّ من ركُــودِ

وقال الآخر :

إذا أكل الأحبابُ لحمي بِغِيبَةٍ ... فأهْونُ منه ما ستَأكُلُه الدُّودُ !

وقال الآخر :

إذا قلَّ عقلُ المرءِ قلَّت همومه ... ومن لم يكُن ذا مُقْلةٍ كيف يَرْمَدُ ؟

وقال الآخر :

إذا كان غير الَّلهِ للمرءِ عدَّةً ... أتَتهُ الرَّزايا من وجوهِ الفوائِدِ

وقال الآخر :

تخونون عهدِي في الهوى وأحبُّكم ... كذا الوردُ محبوبٌ وليس له عهْد

---

14) في مختار الشعر الجاهلي : وأنك لم ترْصِدْ كما كان أرْصَدَا.

وقال الآخـــر :

تشكّى المحبُّون الصَّبابة ليتَني ... تحمَّلت ما يلقَون من بينهم وحْدِي !

وقال الآخـــر :

تصافحتِ الأكُفُّ وكـان أشْهى ... إلينـا لو تصافحَتِ الخُـدُودُ

وقال الآخـر :

تعُدُّون ذنبًا واحدًا إن جنيتُه ... عليكُم ولا أحْصي ذنوبَكُمُ عَدًا

[وقال أبو الطيّب :

تفضَّلتِ الأيَّامُ بالجمعِ بيننا ... فلمَّا حمدنا لم تُدمنا على الحمد][15]

وقال الآخـــر :

ثوبي على من كسوتُ في نظري ... أزينُ من كونِه على جَسَدِي

وقال الآخـر :

جَامل عدوّك ما استطعْت فإنَّما ... بالرِّفقِ يُطمعُ في صَلاحِ الفاسد !

وقال الآخـــر :

جدلي يعفوك يا من دأبه الجود ... فالجود عندك مأمول ومعهود

وقال الآخـــر :

جعلتُ إليك ياربِّي انْقطاعِي ... إذا انقَطَعَ العِبَادُ إلى العِبَادِ

وقال الآخـــر :

حاشاكَ أن يقْبِضَ الزّمانُ يَدي ... عن نيل سُؤْلٍ وأنتَ لي عضُدُ

ومثلـــه :

حاشاكَ يا قُوَّتي ويا سَنَدِي ... يضْعُفُ ركْني وأنْتَ لِي سَنَدُ

وقال الآخـر :

حسبِي بقلبي شاهدٌ لك في الهَوَى ... والقلبُ أعدَلُ شاهدٍ يُستشْهَدُ

وقال الآخـر :

ذو العقلِ يسخُو بعيشِ ساعتِهِ ... وبالَّذِي بعدَهَا تشِحُ يَدُهُ

غيـره :

رأيتُ دنوَّ الدَّار ليس بنافعٍ ... إذا كان ما بينَ الفُؤادِ بعيدًا

---

15) سقط هذا البيت من ب .

غيــره :

رسول الـلّه كذّبـه الأعـــــادي فلا تجزعْ لتكذيبِ الجحودِ !

غيــره :

زيّنك اللّهُ في القلوبِ كما زيّن في قلبِ والدٍ ولدا

غيــره :

سقى اللّهُ أيّامًا تقضّتْ بقربكُم كأنّي بها قد كُنت في جنّة الخُلد !

غيــره :

سقى اللّه دهرًا لم أبت فيه ليلةً من العُمر إلاّ من حبيبٍ على وعْدِ !

غيــره :

صحّحْ لنـــا والــــدةً أولاً وأنتَ في حِلٍّ من الوالدِ !

غيــره :

صِل من دنا وتناسَ من بعُدا: لا تُكرهنّ على الهوى أحدا !

غيــره :

طعمُ عيشي مرٌّ إذا لم تزُرني وهْوَ حُلْوٌ إذا رأيتُكَ عِنْدِي

غيــره :

طويلُ عُمْرِ المعالِي والنّدا أبدًا قصيرُ عمْرِ الأعادِي والمواعيدِ

غيــره :

قد جُنّ أصحابُك من جُوعِهِم فاقرأ عليهِم سُورةَ المائِدهْ !

غيــره :

قد حفظوا القُرآنَ واستعْمَلُوا ما فيهِ إلاّ سُورةَ المائِدَهْ !

غيــره :

قد يُصادُ القطا ويغْدو سليمًا ويـــحُلُّ الـــبلاءُ بالصّيّـــادِ

غيــره :

قلّ الثّقاتُ فإن ظفرتَ بواحدٍ فاشْدُد يديكَ وأين ذاكَ الواحدُ ؟

غيــره :

قليل المال تُصلحُهُ فيبْقَى ولا يبقى الكثيرُ مَعَ الفَسادِ

غيـــره :

كلُّ المصائبِ قد تمرُّ على الفتى   فتهونُ غيرَ شماتةِ الحُسَّادِ

غيـــره :

كلّما زادتِ الذُبالةُ ضَوْءاً   كان أدنى لها إلى الاخْمادِ

غيـــره :

كلّما قُلتُ أعْتَقَ الشُّكر رِقِّي   صيَّرتْني لك المكارمُ عَبْداً

غيـــره :

كلوا اليوم من رزقِ الالهِ وأبشروا: فإنَّ على الرَّحمان رزقَكُم غَدا !

غيـــره :

كمْ تَـــائِهٍ بِـــولايَةٍ   وبِعَزْلِهِ يَغْدو البَريدْ !

غيـــره :

لأخرجنَّ من الدُّنيا وحُبُّكُمُ   بين الجوانحِ لم يشعُرْ به أحدُ

غيـــره :

لمائدةٍ موضوعةٍ ألفُ عائبٍ   وعيب التي لمتوضعِ الدهرَ واحدُ

غيـــره :

لم أبكِ من زمنٍ أشكو مساءتَه   إلاّ بكيتُ عليه حينَ أفْقدهُ

غيـــره :

لو علمنا مجيئكُم لَفرشْنا   تحْتَ أقْدامكُمْ بسَاطَ الخُدودِ

غيـــره :

ليس في العالمين أقْنَعُ منِّي   أنا أرضى بنَظْرةٍ من بعيدِ

غيـــره :

ما كلَّف الله نفساً فوقَ طاقتِها   ولا تجودُ يدٌ إلاّ بما تجدُ

غيـــره :

مُعاتبَةُ الأحبابِ تحسُنُ مرّةً   فإن اكثروا منها تؤُولُ إلى الصَّدِّ

غيـــره :

من لم يبتْ والحُبُّ حشوُ فؤاده   لم يدر كيفَ تفتُّتُ الأكْبادِ

غيـــره :

نـِعـَمُ الاله على العباد كثيرةٌ   وأجلهـُـــنَّ نجـــابةُ الأولادِ

غيـــره :

وأحسنُ من وجه الصَّنيعةِ شكرُها   وأقـْبحُ من حرمانِ نـُعمى جحودُها

غيـــره :

وإذا صفا لك من زمانك واحدٌ   فهـْو المرادُ وأينَ ذاك الواحدُ ؟

غيـــره :

وحدَّثـتـَني يا سعدُ عنها فزدتني   شـُجونـًا فزدني من حديثـِك يا سعدُ !

غيـــره :

وَدَعْ ظـُلمَ العبادِ فليسَ شيءٌ   أضرَّ عليك من ظـُلمِ العبادِ !

غيـــره :

وكلُّ أخٍ عند الهـُوينا مـُلاطفٌ   ولكنـَّما الاخوانُ عند الشـَّدائدِ !

غيـــره :

وكنتُ من النـَّـــاس في محـْفلٍ   فقد صرتُ في محفِلٍ من قـُرودِ !

غيـــره :

ولا بـُدَّلي من خفـَّةٍ في وصالِهِ   فـَمَنْ لي بخلٍّ أودعُ العقـْلَ عندهُ ؟

غيـــره :

ولربَّ عودٍ قد يـُشقُّ لمسجدٍ   نـِصفـًا وآخرهُ لبيتِ يهـُوديِ !

غيـــره :

ولربـَّمـا نالَ المـُرادَ مرفـَّهٌ   لم يسع فيه وخابَ سعيُ الجاهِدِ

غيـــره :

وليس قريبـًا من تخافُ بِعادَهُ   ولا من يـُرجـَّى قـُربـُه ببَعيدِ

غيـــره :

وما الدَّهر إلاَّ ما ترى : فـتى علـَتْ   يَـداكَ بدنـْيا فاصْطنِعْ بهما يَـدا !

غيـــره :

وما الشـِّعـْرُ إلا روضةٌ راقَ زهرُها   ولا سيـَّما إن كان قد وقع النـَّدا

غيـــره :

وما المال والأيامُ إلاّ مُعارةٌ : فما اسطَعْتَ من معروفـها فتزوّدِ !

غيـــره :

وما حملت من ناقةٍ فوق راحلِها أبرَّ وأوفى ذمّةً من مُحمَّدِ

وهذا أصدق بيت قاله شاعر بعد قول لبيد :

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ وكلُّ نعيمٍ لا محالةَ زائـلُ !

غيـــره :

وما كان طرفي بالسُّهادِ مُعوَّدا ولـكنّه لمّـا هجرتُـمْ تعـوّدا

غيـــره :

وما ماضي الشّباب بمُستَرَدٍّ ولا يومٌ يسرُّ بمُستعَادِ

غيـــره :

ويفْسُد بالاكثار ما هُو صالحٌ ويصْلحُ بالاقْلالِ ما هو فاسدُ

غيـــره :

لا أعدمُ الذّمّ حين أخْطِي وليس لي في الصّوابِ حَمْدُ

غيـــره :

لا تحقِرنّ صغيرًا في تقلُّبهِ : إن البعُوضةَ تُدمي مُقلة الأسد!

غيـــره :

وللشّرارةِ نارٌ حين تُضْرمُها وربّما أضْرمَت نارًا على بَلَدِ

غيـــره :

لا تلْقَ إلاّ بليْلٍ من تُواعدُه: فالشّمسُ نمّامةٌ والبدرُ قوّادُ

غيـــره :

لا يُحسَد المرءُ إلاّ من فضائِله: لا عاش مَن عاش يومًا غيرَ محسودِ !

غيـــره :

يا أخلاّيَ هل يعودُ التّداني منكُمُ بالحِمى يعودُ رُقَادُ ؟

غيـــره :

يارُبَّ من أسْخطنا بجُهْدهِ قَد سرّنا جهْلاً بغيرِ قَصْدهِ

غيـــره :

يا صاحب العُودينِ لا تُهْمِلْهُما: حرّك لنا عودًا وحرّق عُودا !

غيـــره :

يا من يعُدُّ الميّتينَ تعجُّبًا عمّا قليلٍ سوف تدخل في العددْ !

غيـــره :

يجود بالنّفس إذ ضنّ الجبانُ بها والجودُ بالنّفس أقصى غايةِ الجودِ

غيـــره :

يُدبِّرُ بالنُّجوم وليس يَدري وربُّ النَّجمِ يفْعَلُ ما يُريدُ

غيـــره :

يرى عاقباتِ الرّأي والأمرُ عازبٌ كأنّ له في اليوم عينًا على غَدِ

ومثلـه :

يرى العواقبَ في أثناء فكْرتِهِ كأنّ أفكاره بالغيبِ كُهّانُ

غيـــره :

يشْرونَ مثلَ ثيابه وعبيدِهِ أفيقْدرونَ على شِراءِ أسُودِهِ؟

غيـــره :

إلهي على كلّ الأمورِ لك الحمدُ: فليس لما أوليتَ من نعمٍ حدُّ !

وقال ابن أبي عُيَيْنَة :

كلُّ المصائبِ قد تمرُّ على الفتى فتهونُ غيرَ شماتةِ الحسَّادِ

ومثله قول حبيب :

أجْرُؤُ لكنّي نظرتُ فلم أجِدْ أجْرأ يفِي بشماتةِ الأعْداءِ

وقال الآخـــر :

لم يبق إلاّ نفَسٌ خافتُ ومُقْلَةٌ إنسانُهـــا باهتُ

ومُدْنَفٌ تُضرمُ أحْشاؤُه بالنّـار إلاّ أنّه سَاكتُ

رقّ له الشّامتُ ممّا به : يا ويْحَ من يَرثي له الشّامتُ !

ويُروى أنّه قيل لأيوب عليه السّلام : أيّ شيء كان في بلائك أشدّ عليك ؟ فقال : شماتة الأعداء !

وقال عَلْقَمَةُ الفَحْل :

ويلم لذاتِ الشبابِ معيشة مع الكُثر يُعْطاه الفتى المُتْلِفُ النَّدي

وقد يُقْصُرُ القُلُّ الفتى دون همِّه وقد كان لولا القُلُّ طلاَّع أنجُد

القُلُّ - بالضَّمّ -: الاقْلالُ ؛ وهَمُّهُ : ما يهتَمُّ بفعله من المكارم والعطايا، فيمنعه الفقر من ذلك، كما قال الامام الشافعي، رضي اللّه عنه :

أرى نفسي تَتوقُ إلى أمورٍ يُقصِّرُ دون مبْلغِهِنَّ مالي

فنفسي لا تُطاوعُني لبُخلٍ ومالي لا يُبلِّغُني فَعالي

وقال أيضا :

يا لهْف نفسي على مالٍ أُفرِّقُه على المقلِّين من أهل المروءاتِ !

إنَّ اعتذاري إلى من جاء يسألني ما ليس عنديَ من إحدى المصيباتِ

وفلان طلاَّع أنجُدٍ أي ذو أفعال كريمة، ومآثر عظيمة ؛ والأنْجَدُ جمع نَجْد، وهو ما ارتفع من الأرض، جعل طلوعه كناية عن البروز والاستعلاء وعدم الاستتار، كقول الآخر :

أنا ابن جَلا وطلاَّعُ الثَّنايا

وقول دُريد بن الصِّمَّة :

كميشُ الازارِ خارجٌ نصفُ ساقِه بعيدٌ من السَّوءاتِ طلاَّع أنْجُدِ

وقال الآخر :

لعمرك ما يدري الفتى أيُّ يومه وإن كان محروسًا على الرُّشد أرشَدُ

أفي عاجلاتِ الأمر أم آجلاتِه أمِ اليومُ أدنى للسَّعادةِ أم غَدُ ؟

وقال المُثقِّب :

وللموت خيرٌ للفتى من حياتِه إذا لم يثبْ للأمر إلاَّ بقائدِ

ويُروى :

إذا لم يُطِقْ عَلْياءَ إلاَّ بقائِد

وبعده :

فعالجْ جسيماتِ الأمور ولا تكُن هبيتَ الفُؤاد همُّه للوسائِد !

إذا الرِّيح جاءتْ بالحمام تشُلُّه هذالِيلُهُ شلَّ القِلاصِ الطَّرائدِ

وأعقب نوءُ المِرزمَيــن بغبــرةٍ وقطرٍ قليل الماء بالّليل بـَاردِ
كفى حاجة الأضيافِ حتّى يـُريحـَها على الحيّ منّا كلُّ أروعَ ماجِدِ
تراهُ لتفــريجِ الأمــور ولفّهَــا لما نال من معروفِها غيـْرَ زاهِدِ
وليس أخونا عندَ شيءٍ يخافـُه ولا عند خيرٍ إن رجاهُ بواحِدِ
إذا قيل مَنْ . للمُعضلاتِ أجابـَهُ عظامُ الّلهى منّا طوالُ السَّواعِدِ

الهَبيتُ الفُؤاد : الضَّعيفُ، والهذاليلُ جمع هُذلـُول وهو ما طال من الرمل . وهذاليلُ الرّيح : ما امتدَّ منها ؛ والمرزمان نجْمان مع الشّعريـَيْنِ

وقال حـُرثان بنُ عمرو :

إذا هتفَ العصفـور طار فـُؤاده وليثٌ حديدُ النّابِ عند الثّرائِدِ

وهذا الشعر هجا به أميَّة بن عبد الّله بن خالد بن أسيد . فقال عبد الملك بن مروان يوما لأميَّة هذا : مالك ولحـُرثان بن عمرو إذ يقول فيك : إذا هـَتَفَ العـُصْفور (البيت) ؟ فقال: يا أمير المؤمنين وجب عليه حدّ فلأقمته عليه . فقال : هـَلاّ درأت بالشبهات عنه ؟ فقال : كان حدّه أبين، وكان زَعـْمـُه عليَّ أهون . فقال عبد الملك : [يا] بني أميَّة ! أحسابكم أنسابكم، لا تعرّضوها للجهّال : فإنَّه باق ما بقي الدهر، والّله ما يسرّني أني هـُجيت بهذا البيت وأن لي ما طلعت عليه الشمس :

تبيتون في المشْتى ملاءً بـُطـُونـُكم وجاراتـُكم غرثـَى يبتـْنَ خـَمـَائصـًا

وما يبالي مـَن مـُدح بهذين البيتين ألاّ يـُمدح بغيرهما :

هـُنالك إن يـُستخـْبـَلـُوا المال يـُخـْبِلوا وإن يـُسألوا يـُعطوا وإن يـَيـْسِروا يـُغـْلوا
على مـُكثريهم رزقُ من يعتريهمُ وعند المـُقلّين السّماحة والبـذلُ

قلت : وهذان البيتان لزهير، وقبلهما :

إذا السَّنة الشّهباءُ بالنّاس أجحفت ونال كـِرامَ المال في الجـُحـْرة الأكلُ
رأيتَ ذوي الحاجاتِ حول بيوتهم قطينـًا بها حتى إذا نـَبـَتَ البقـْلُ
هـُنـَالِكَ (البيت)

وبعده :

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوهـُـم وأنـْديةٌ يـَنـْتابـُها القولُ والفعلُ

عَلَى مُكْثِرِيهِمْ (البيت)

قوله : إن يستخْبلُوا، الاستخْبالُ أن يستعير الرجل من آخر إبلا يحلبها ويشرب ألبانها، فإذا أخصب ردّها . وأنكر بعضهم هذا اللفظ وقال : لعلّه قال يُستَخْولُوا، والاستخْوالُ أن يملكها إياه .

وقوله : إن يَيْسروا يُغْلُوا، يريد أنّهم إذا يسروا بالقداح أعطوا سمان الابل وأغلاها ثمنًا . وتقدّم هذا المعنى . وقال أعرابي كان يمنعه أبوه من الضرب في الأرض وطلب المعيشة شفقة عليه، فكتب إلى أبيه :

ألا خلّني أذهَبْ لشأني ولا أكُن على النّاس كلاًّ إنّ ذا لشديدُ !
أرى الضَّرب في البلدان يُغني معاشرا ولم أر من يُجْدي عليه قُعودُ
أتمنعُني خوف المنايا ولم أكُن لأهرب ممّا ليس عنه محيدُ ؟
فدعني أجول في البلاد لعلّني أسرُّ صديقًا أو يُساء حسُودُ
فلو كنت ذا مالٍ لقرِّب مجلسي وقيلَ إذا أخْطأتُ أنت سديدُ !

وسيأتي ما قيل في هذا المعنى بعد، إن شاء الّله تعالى.

وقال كلثوم بن عمرو :

إنّ الكريم ليُخْفي عنكَ عُسرتَه حتى تراهُ غنيًّا وهو مجهُودُ
وللبخيلِ على أمواله عِلَلٌ زُرقُ العيُون عليهَا أوجُهٌ سُودُ

وكان كلثوم هذا كتب إلى صديق له : أمّا بعد، أطال الّله بقاءك وجعله يمتدّ بك إلى رضوانه والجنّة ! فإنّك كنت عندنا روضةً من رياض الكرم تبتهج النفوسُ لها، وتستريحُ القلوب إليها . وكنّا نعفيها من النُّجعة استتمامًا لزهرتها [وشفقة على خضرتها][16]، وادخارًا لثمرتها، حتّى أصابتها سنة كانت عندي قطعةً مِن سِنِي يوسف، واشتدّ علينا كدّها، وغابت عنّا فِضّتُها، وكَذَبَتْنا غيومُها، وأخْلَفَتْنا بُروقُها، وفَقَدْنا صالحَ الاخوانِ فيها، فانتجعتُك وأنا بانتجاعي إيّاك شديدُ الشفقة عليك، مع علمي بأنّك نعم موضع الزاد وأنّك تغطي عين الحاسد . والّله يعلم أنّي ما أعدك إلاّ في حومة الأهل . وأعلم أنّ الكريم، إذا استحيا من إعطاء القليل ولم يحضره الكثير، لم يعرف

16) ناقص من د .

جوده ولم تظهر همّته . وأنا أقول في ذلك :

ظلّ اليسار إلى العبّاس ممْدودُ وقلْبُه أبدًا بالمحْل ممدُودُ

إنّ الكَرِيمَ، إلخ....

قيل : فشاطره ماله حتّى أعطاه إحدى نعليه ونصف قيمة خاتمه .

واجتمع جماعة بباب دار عَديّ بن الرّقَاع، فخرجت إليهم بنيّة له صغيرة فقالت لهم : ما تريدون ؟ فقالوا لها : نريد أباك . فقالت : وما حاجتكم به ؟ فقالوا : جئنا إليه نهاجيه . فقالت على الفور :

تجمّعتُمُ من كلّ أوبٍ ووجْهةٍ على واحدٍ لا زلتُمُ قِرنَ واحِدِ

وقال أبو مسلم الخراساني :

أدركتُ بالحزمِ والكتمانِ ما عجزت عنه ملوكُ بني مروانَ إذْ حشدوا

ما زلت أسعى بجدّي في دَمارهمُ والقومُ في غفْلةِ الأيّامِ قد رقَدوا

حتى ضربتُهُم بالسّيف فانتَبَهُوا من نومةٍ لم ينمْها قبلهُم أحَدُ

ومن رعَى غنمًا في أرض مسبعةٍ ونام عنها تولّى رعْيها الأسَدُ

وقال الآخــر :

وأكرم نفسي إن أهِنْها لأنّها وحقّك لم تُكرمْ على أحدٍ بعدي

حدّث الأصمعي قال : مررت في بعض سكك الكوفة، فإذا رجل خرج من حَشٍّ على كتفه جرّة وهو يقول : وأكْرمُ نَفْسِي (البيت) . قال : فقلت له : أبمثل هذا تكرمها ؟ قال : نعم ! وأستغني عن مسألة مثلك . فصاح : يا أصمعي ! فالتفتّ، فقال :

لنقْلُ الصّخر من قُلل الجِبَالِ أحبُّ إليّ من مننِ الرّجَالِ

يقول النّاسُ كسْبٌ فيه عَارٌ وكُلُّ العَار في ذُلّ السّؤالِ !

وقال الآخــر :

يأيُّها الاخْوانُ أوصيكُمُ وصيّةَ الوالِدِ والوالِدَهْ

لا تنقُلوا الأقْدامَ إلاّ إلى من تُرتَجى من عنْدهِ فائِدهْ

إمّا لعلِمٍ تستفيدونَهُ أو لكريمٍ عنْدهُ مائِدهْ !

ورُوي عن الأصمعي قال : لقيني أبو عمرو بن العلاء وأنا ماشٍ في بعض أزقّة البصرة، فقال: إلى أين يا أصمعي ؟ قلت : لزيارة بعض إخواني . فقال : يا أصمعي، إن كان لفائدة أو لمائدة، وإلاّ فلا !

وقال الآخـــر :

ولمّا رأيت الدّهر أنحَتْ صرُوفُه — عليّ وأوهَت بالذّخائـر والعُقَـد
حذفْت فضولَ العيشِ حتى رددتُها — إلى القُوت خوفًا أن أجاء إلى أحَدْ
وقلت لنفسي : أبشري وتوكّلي — على قاسم الأرزاقِ والواحِدِ الصَّمَدْ
فإلاّ تكُن عنْدِي دراهِمُ جمّةٌ — فعندي بحولِ الّله ما شئتُ من جَلَدْ !

وقال الآخر :

إن يحسدوني فإني غير لائمِهم : — قبلي من الناس أهل الفضْل قد حُسدوا
فدام لي ولهم مابي وما بِهِمُ — ومات أكثرُنا غيظًا بما يجِدُ
أنا الّذي يجدوني في صدورهِمُ — لا أرتَقي صدرًا منها ولا أردُ !

وقال أبو فراس :

قد كنت عدَّتيَ التي أسْطوبِها — ويَدي إذا اشتدَّ الزَمانُ وساعدي
فرميتُ منك بضدِّ ما أمّلْتُه — والماء يشرقُ بالزُلالِ البَارِدِ

وقال ابن الضَّرير النّهْرواني :

لا بارك الّلهُ في الطّعامِ إذا — كان هلاكُ النّفوس في المَعِدِ
كم دخَلت لُقْمةٌ حَشى شرِهٍ — فأخْرجَت رُوحَهُ من الجَسَدِ !

وقال الوزير المُهلّبيّ في غلام قدّمه معزّ الدولة على سريّة، من أبيات :

جَعَلوهُ قائِدَ عَسْكَرٍ : — ضاع الرَّعِيلُ ومن يَقُودُهْ !

وقال أبو الفتح ابن جِنّي النحوي، وقيل أبو منصور الدّيْلميّ :

صدودُك عنّي ولا ذنبَ لِي — يدلُّ على نيّةٍ فَاسِدَهْ
فقَد، وحياتِك، ممّا بَكَيتُ — خشيتُ على عينيَ الواحِدَهْ !

وقال الامام السّهْروردْيّ لمّا ضعُف وكبر :

يا ربِّ لا تُحيني إلى زمنٍ — أكُونُ فيهِ كلاًّ على أحَدِ
خُذني قبلَ أن أقولَ لِمَنْ — ألْقاهُ عندَ القيامِ : خُذ بيدي !

وقال أبو محمَّد اليزيدي :

عش بِجَدٍّ ولا يضُرَّنْكَ نَوْكٌ : إنَّما عيشُ من تَرى بالجُدودِ
ربَّ ذي إربةٍ مقلٍّ من الما لِ وذي عُنْجهيَّةٍ مَجْدُودِ
عش بِجَدٍّ وكُن هبنَّقة القيسيَّ أو مثلَ شَيْبَةَ بنِ الوليدِ !

وسبب قوله ذلك أنَّه تناظر هو والكسائي في مجلس المهدي، وكان شيبة بن الوليد حاضرًا، فتعصَّب للكسائي وتحامل على اليزيدي فهجاه بذلك، واللَّه أعلم . وقال السَّلاميّ يصف الدِّرْع :

يا ربَّ سابغةٍ حبتْنيَ نعْمةً كافأْتُها بالسُّوءِ غير مُفنَّدِ
أضْحت تصونُ عن المنايا مُهْجتي وظللتُ أبذلها لكلِّ مُهنَّدِ

وقال الآخــر :

أخٌ لك ما مودَّتُهُ بمِذقٍ إذا ما عاد فقْرُ أخيكَ عَادَا
سألناه الجزيلَ فما تلكَّى وأعْطى فوقَ مُنْيتِنا وزَادَا
فعُدنا ثمَّ عُدنا ثمَّ عُدنا فأعْطى ثمَّ عُدتُ له فجادَا
مرارًا ما نعودُ إليه إلاَّ تبسَّمَ ضاحكًا وثنى الوسَادَا

وقال الآخــر :

هجرتُك، لا قليَ منِّي، ولكنْ رأيتُ بقاء ودِّك في الصُّدودِ
كهجر الحائماتِ الوردَ لمَّا رأت أنَّ المنيَّة في الورودِ
تُغيِّظ نفسها ظمأً وتخْشى حمامًا فهْيَ تنظُر من بعيدِ
تصُدُّ بوجْهِ ذي البغْضاءِ عنه وترمُقُه بألْحاظِ الورودِ

وقال أبو نواس :

ليس من اللَّه بمُستنْكرٍ أن يجْمع العالَم في واحِدِ

وهذا المعنى سبق إليه جرير فقال :

إذا غضِبَت عليكَ بنُو تميمٍ رأيتَ النَّاس كلَّهُمُ غِضابَا

إلاَّ أنَّ قول أبي نواس أشمل . ومن هذا المعنى قول السَّلاميّ :

فبشَّرت آمالي بملكٍ هو الورَى ودارٍ هي الدُّنيا ويومٍ هو الدَّهرُ

وأخذه الأرَّجانيّ فقال :

قد زرتُه فرأيت النَّاس في رجُلٍ والدّهرَ في ساعةٍ والأرضَ في دارِ

ومنه [أيضا] قول أبي الطيّب :

هي الغرضُ الأقصى ورؤيتُك المُنى ومنزلُك الدُّنيا وأنت الخَلائقُ !

وبيتا السَّلامي والأرَّجاني أسلس وأفخم مع انتقاص الزمان من بيت أبي الطّيب، إلاّ أنَّ قوله : وأنتَ الخَلائقُ، إن لم يقصره العرف، يقوم مقام قول أبي نواس في الشمول. وهذا المعنى موجود في بعض أبيات البوصيري في البردة في حقّ النبي صلَّى اللَّه عليه وسلَّم . وقال الأفْوَه الأودي :

بنى معاشرُ لم يبنوا لقومهِمُ وإن بنى قومُهُم ما أفْسدوا عادوا

لا يُرشَدون ولن يرعَوا لمُرشدهم فالجهل منهم معًا والغيُّ ميعادُ

أضْحوا كقَيْل بن عمرٍو في عشيرتِه إذ أُهلكت بالَّذي قد قدمتْ عادُ

ويروى :

كانوا كمثْل لقيم في عشيرتِه إذ أهْلكَت (البيت)

أو بعْدهُ كقُدار حينَ تابعَه على الغوايةِ أقْوامٌ فقد بادُوا

والبيت لا يُبتنى إلاّ له عَمدٌ ولا عماد إذا لم تُرس أوتادُ

فإن تجمَّع أوتادٌ وأعْمدةٌ وساكنٌ بَلغوا الأمرَ الَّذي كادُوا

وإن تجمَّع أقْوامٌ ذَوو حَسبٍ اصطادَ أمرهُم بالرُّشد مُصطادُ

لا يصْلُح النَّاس فوضَى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهَّالُهم سادوا !

ونظمه ابن شرف بقوله :

إذا تساوى الورى ضاعوا وحفْظُهم أن يجعلوا فاضلاً منهم ومفضولاَ

* * *

تُهدى الامور بأهل الرّأي ما صلُحتْ فإن تولَّت فبالأشرارِ تنْقَادُ

ونظمه ابن شرف بقوله :

فإن هم سوَّدوا جهَّالهُم هلكوا هَلْكَ الدَّليل إذا ما ضلَّ مدلولاَ

وقد علمت أنَّ ما يطابق آخر شطر [البيت] قبله :

إذا تولَّى سَراة القومِ أمَرهُم نما على ذاكَ أمر القومِ فازدادوا

أمارَةُ الغـَيِّ أن تـَلقى الجـَميعَ لـَدى الابرامِ للأمرِ والاذنابَ اكتـــاد

وبعده :

حان الرَّحيل إلى قـَومٍ وإن بـَعُدوا فهـُم صـَلاحٌ لِمـُرتادٍ وإرْشادُ

فسَوفَ أجعلُ بُعدَ الأرضَ دونكُمُ وإن دنـَتْ رَحِمٌ منكمْ وميلادُ

إنَّ النـَّجاةَ إذا ما كُنتَ في نفرٍ منْ لـُجَّةِ الغـَمِّ أبعادٌ فأبْعَادُ

والخيرُ تزدادُ منهُ ما لقيتَ بهِ والشَّـرُّ يكفيكَ منه قلـَّما زادَ

وقال بشـَّار :

فخيْرٌ منكَ ما لا خَيْرَ فيـهِ وخيرٌ منْ زيارتِكُـمْ قـُعُـودي

وسبب قوله ذلك أنـَّه تعشـَّق امرأة فراسلها مرارًا . فلمـَّا ألحَّ عليها شكته إلى زوجها فقال لها : أجيبيه وعديـه أن يأتـــي هنا ! فوجهت إليه، فجاء وزوجها معها وبشـَّار لا يشعر فجعلا يتحدَّثان، ثم قال لها بشـَّار : ما اسمك، بأبي أنت ؟ فقالت : أُمامة . فقال :

أُمامةُ قد وُصِفْتِ لنا بحُسْـنٍ وإنـَّا لا . نـَراكِ فالمَسينـَا !

فأخذت يده ووضعتها على أير زوجها وقد أنعظ من حسن ما سمع من حديثهما . ففزع بشـَّار ووثب قائما وقال :

عَلـَيَّ أليـَّةٌ ما دُمْتُ حَيـَّا أمُسُّكِ طائعـًا إلاَّ بِعـُودِ

ولا أُهْدي لأرضٍ أنْتِ فيهَـا سَلامَ اللـَّهِ إلاَّ مِـنْ بَعيـدِ

طـَلـَبْتُ غـَنيمَةً فـَوَضَعْتِ كـَفـِّي عَلى أيْرٍ أشَدَّ منَ الحَديـدِ

فخيـــــرٌ منك (البـــيت)

ومثل هذا البيت في المعنى قول طرفة :

فلـَيْتَ لـَنا مَكـَانَ المَلـْكِ عَمْرٍو رَغـُوثـًا حَوْلَ قـُبـَّتِنا تـَخـُورُ

من الزَّمِراتِ أسْبَلَ قـَادِمَاهـا وضَرَّتـُهَـا مُـرَكـَّنـَةٌ دَرُورُ

يـُشَارِكـُنا لـَنا رَخـْلانِ فيهَـا وتـَعْلـُوها الكِبـَاشُ فمَـا تـَنـُورُ

يقول : ليت لنا ـ بدل هذا الملك، وهو عمرو بن هند ـ رَغـُوثـًا، أي شاةً، ترضع من الزَّمِرات، أي القليلات الصـُّوف، وضرتها، أي لحم ضرعها، مركنة، مجتمعة، ويعني أنـَّها قليلة الصوف صغيرة الجسم، ومع ذلك يرضعها رخلان، أي ولدان لها، وهي هزيلة تعلوها

الكباش للسفاد، فما تنور، أي ما تستطيع أن تنفر لهُزالها . ومعلوم أنـّها، إذا كانت على هذه الأوصاف، لم يكن بها خير من صوف ولا لبن ولا لحم، ومع ذلك فهي خير لنا من هذا الملك . وهذا الشعر كان سبب قتل عمرو بن هند طرفة، وسنشرح قصّته بعد، إن شاء الـّله تعالى . وقال عَبِيدُ بنُ الأبرص :

لأعْرِفنـّك بعد الموتِ تندُبُني وفي حياتي ما زوّدْتني زَادِي !

وهو مثل سائر يُضرب للرجل يُضَيِّعُ حقّ أخيه في حياته، ثمّ يبكيه بعد الموت . يُروى عن طلحة بن عبيد اللـّه ـ رضي اللـّه عنه ـ قال : خرجت مع عمر بن الخطـّاب في بعض أسفاره، فإذا براكب على الطريق فقال : ما وراءك ؟ قال : أمر جليل . قال : ويحك، ما هو ؟ قال : مات خالد بن الوليد ! فاسترجع عمر استرجاعًا طويلا، فقلت له : يا أمير المؤمنين :

ألا أراكَ بُعيْدَ الموتِ تندُبني وفي حياتيَ ما زوّدْتَني زَادِي ؟

فقال : يا طلحة، لا تؤنـّبني !

وقال من شعراء الحماسة عمرو بن معدي كَرِب الزبيدي :

لَيْسَ الجَمَالُ بِمئْزرٍ فاعْلَم، وإنْ رُدِّيتَ بُرْدا !
إنّ الجَمَالَ مَعَادِنٌ ومَنَاقِبٌ أورَثْنَ مَجْدا

ومنها :

كلُّ امْرِىءٍ يجْرِي إلَى يومِ الهِيَاجِ بِما استَعَدّ

ومنها :

كم من أخٍ لِي ماجدٍ[17] بوّأتُه بِيَديّ لحْدا
ما إن جزعتُ ولا هَلِعْتُ ولا يرُدُّ بُكايَ زنْدا
ألْبستُه أثْوابَه وخُلقْتُ يومَ خُلقتُ جلْدا
أغْني غَناءَ الميّتينَ[18] أعَدُّ للأعْداءِ عَدّا
ذهَبَ الّذينَ أحبُّهُمْ وبَقيتُ مثلَ السّيفِ فَرْدا !

وقال العبّاسُ بن مرداس السُّلَمي :

إذا طالتِ النّجْوى بغير أولى النُّهى أضاعَت وأصْغَت خدّ من هو فاردُ

17) في الحماسة : كم من أخٍ لي صالحٍ ...
18) في الحماسة أيضا : أغنى غناء الذاهبين .

فحاربْ فإن مولاكَ حاردَ نصرُهُ ففي السَّيف مولًى نصرُه لا يُحارد !

الفَارِد : المُنْفَرِد ؛ وحَارَدَ نَصْرُهُ : قَلَّ، من قولك : حَاردتِ الابلُ إذا قَلَّ دَرُّهَا.

وقال العَبَّابُ العجْلِيّ :

لعلَّ الَّذي قاد النَّوى أن يردَّها إلينا وقد يُدني البعيدَ من البُعد
وعلَّ النَّوى في الدَّار تجمع بيننا وهل يُجمع السَّيفان ويْحك في غِمْد ؟

ومنهـــا :

فكُنت كمُهريقٍ الَّذي في سقائه لرقْراق آلٍ فوق رابيَةٍ صَلْدِ
كمُرضعَةٍ أولادَ أخْرَى وضيَّعَت بني بطْنها هذا الضَّلالُ عن القَصْد !

وقال عَقيلُ بنُ عُلَّفَة المُرِّي :

وأبغَضُ من وضَعْتُ إليَّ فيه لسانيَ معْشَرٌ عنْهُــم أذُودُ
ولستُ بسائلٍ جاراتِ بيـــــتي أغُيَّــابٌ رجـالُكِ أم شُهــودُ
ولا مُلْقٍ لذي الودعاتِ سوطي ألاعِــبُه وريبَـــتَه أريـــدُ
ولست بصادرٍ عن بيتِ جاري صَـدورَ العَيْـرِ غمَّـرهُ الـورود[19]

العَيْرُ : الحِمَارُ ؛ والتَّغْمِيرُ : أن يشرب دون الرِّيّ . يقول : لست بخارج من بيت جاري مريبا ألتفت وأتحيَّر خشية أن أُرَى كالعير المزعج عن الماء قبل أي يروى، أولا أخرج ملتفتا عاملا على العود إلى الريبة مرَّة أخرى كالعير الملتفت إلى الماء لبقاء العطش . وقال قيس بن كلثوم :

قد يُخْطمُ الفحْلُ قسراً بعد عزَّته وقد يُردُّ على مكروهِهِ الأسَدُ

الخَطْمُ : أن يُشدَّ على البعير خطامه فيملك بذلك . وقال تأبَّط شرّاً :

وإنَّك لو أصْلحت ما أنت مُفسدٌ تودَّدك الأقْصى الَّذي تتودَّدُ
وكان لك ابن العمِّ يحْمي ذمارَهُ ويمْنعُه حينَ الفرائِصُ ترعَـدُ
أخوكَ الَّذي إن تَدْعُهُ لمُلمَّةٍ يُجبْكَ لها والمُستعدُّون رُقَّدُ

وقال الفرزدق :

وفي الأرض عن ذي الجود منأًى ومَبعدٌ وكلُّ بلادٍ أوطنتْ كَـــــبِلادِ

---

19) هذا البيت مقدم على البيت قبله في الحماسة .

وماذا عسى الحجَّاجُ يبلُغُ جُهده　　إذا نحن خلّفنا حفيرَ زيادِ ؟

وقال غسَّان بن وعْلَـة :

إذا كُنت في سعْدٍ وأمُّك منهُم　　غريبًا فلا يغرْرك خالُك من سعْدِ

فإنَّ ابن أخْتِ القوم مُصغّى إناؤه　　إذا لم يُزاحِمْ خالَه بأبٍ جَلْدِ

وقال شُبَيْل الفَزاري :

وما عن ذلّةٍ غُلبوا ولكِنْ　　كذاك الأسْد تفرسُها الأسُودُ

وقال دريد بن الصِّمَّة :

صبا ما صبا حتى علا الشَّيب رأسَه　　فلمَّا علاه قال للباطل : ابعُدِ !

وكان الأصمعي يقول : هذا أحسن بيت قالته العرب ! ومنها :

وهوَّن وجْدي أنَّما هو فارطٌ　　أمامي وأنِّي هامةُ اليومِ أوغَدِ

وقال عبد الّله بن ثَعْلبة :

لكلِّ أُناسٍ مقبرٌ بفنائِهِمْ :　　فهُم ينقصونَ والقُبور تزيدُ

وما إن يُزال رسمُ دارٍ قد أخْلقَت　　وعهْدٌ لميْتٍ بالفناءِ جديدُ

فهُم جيرةُ الأحْياءِ أمَّا محلُّهُم　　فدانٍ وأمَّا المُلتقى فبعيدُ

وقال آخر في ابنٍ له :

أُلاَمُ عَلَى تَبَكِّيهِ　　وألْمِسُهُ فَلا أجِدُهْ

وكَيْفَ يُلاَمُ مَحْزُونٌ　　كَبِيرٌ فَاتَهُ ولَدُهْ ؟

وقال رجل من خَثْعمَ :

خَلَتِ الدِّيارُ فسُدتُ غير مسوَّدٍ　　ومن الشَّقاءِ تفرُّدي بالسُّؤدد !

وهذا مثل مشهور . رُوِي أنَّ حارثة بن بدر الغداني خرج ومعه كعب مولاه . فجعل لا يمرّ بمجلس من بني تميم إلاَّ قالوا : مرحبًا بسيّدنا ! فقال كعب : ما سمعت قطّ كلاما أقرَّ لعيني من هذا ! فقال حارثة : ما سمعت كلاما أكره إليَّ منه ! وتمثّل بالبيت .

ويُروى أيضا أنَّ أمَةً مرّت بابن جُرَيْج، أحد علماء المدينة، وهو يصلّي وقد خطَّ خطًّا بين يديه . فقالت : واعجبا لهذا الشيخ وجهله بالسنَّة ! فأشار إليها أن قفي ! فلمَّا أن قضى صلاته قال : ما رأيت من جهلي ؟ فقالت : إنّك تخطّ خطًا تصلّي عليه، وقد

حدّثتني مولاتي عن أمها عن أمّ سَلمَة، زوج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم، أنّه قال : **الخَطُّ بَاطِلٌ، لانّ العبْدَ إذا كَبّرَ تَكبيرَةَ الاحرامِ سَدّتْ مَا بَيْنَ السّماءِ والأرضِ** . فسألها أن تقفوه لمولاتها . ففعلت، فحدّثته بذلك وقالت : أتجهل، وأنت من علماء المدينة ؟ فقال عند ذلك :

خلَتِ الدّيارُ فسُدتُ غير مسوَّد (البيت)

وقال آخـر :

إنّ المساءة للمسرّة موعدٌ   أخْتان رهْنٌ للعشيّةِ أو غَدِ
فإذا سمعْتُ بهالكٍ فيتقّننْ   أنّ السّبيلَ سبيلُهُ فتزوّدِ !

وقال رجل من بني قُريْع :

متى ما ير الناسُ الغنيَّ وجارُهُ   فقيرٌ يقولوا : عاجزٌ وجليدُ
وليس الغنى والفقرُ من حيلة الفتى   ولكن أحاظٍ قُسّمت وجدودُ
إذا المرء أعيته المروءةُ ناشئًا   فمطْلبُها كهلاً عليه شَديدُ
وكائنْ رأينا من غنيٍّ مذمَّمٍ   وصعْلوك قومٍ [مات وهو حميدُ][20]

وقال المُقَنّع الكنْديّ :

يُعاتبني في الدّين قومي وإنّما   ديوني في أشياءَ تُكسبُهم حمْدا
ألم ير قومي كيف أوسرُ مرّة   وأُعْسر حتى تبلُغ العُسرة الجُهدا ؟
فما زادني الاقتار منهُم تقرُّبًا   ولا زادني فضْل الغنى منهُمُ بُعدا
أسدُّ به ما قد أخلّوا وضيّعوا   ثغور حقوقٍ ما أطاقوا لها سدًّا

ومنهـا :

وإنّ الذي بيني وبين بني أبي   وبين بني عمّي لمُختلفٌ جدًّا
أراهُم إلى نصري بطاءً وإن هُم   دعوني إلى نصرٍ أتيت لهم شدًّا
إذا أكلوا لحمي وفرْتُ لحومَهم   وإن يهدموا مجْدي بنيت لهم مجْدا
وإن ضيّعوا غيبي حفِظتُ غيوبَهُم   وإن هُم هووًا غَيّي هويت لهم رُشْدا
وإن زجروا طيرًا بنحْسٍ تمرُّبي   زجرتُ لهم طيرًا تمرُّ بهم سعْدًا
ولا أحملُ الحقْد القديمَ عليهمُ   وليس رئيس القوم من يحملُ الحقْدا

20) سقط ما بين معقوفتين من ب .

لهم جلُّ مالي إن تتابع لي غنًى ... وإن قلَّ مالي لم أكلِّفهمُ رِفْدا

وإنِّي لعبدُ الضَّيف ما دام نازلاً ... وما شيمةٌ لي غيرها تُشبه العبدا !

وقال محمَّد بن [أبي] شِحَاذ الضَّبِّي :

إذا أنت أعطيتَ الغنى ثمَّ لم تجُد ... بفضلِ الغنى ألفيتَ مالكَ حامدُ

إذا أنت لم تعرُک بجنْبک بعض ما ... يَريبُ من الأدنى رماک الأباعدُ

إذا الحلم لم يغْلب لک الجهل لم تزل ... علـيك بروقٌ جمَّةٌ ورَواعِـدُ

إذا العزمُ لم يفْرجْ لک الشَّکَّ لم تزل ... جنيبًا كما استتْلى الجنيبَةَ قائِـدُ

وقلَّ غناءً عنكَ مالٌ جمعْتَـه ... إذا صار ميراثًا وواراکَ لاحِـدُ

إذا أنت لم تترک طعامًا تُحبُّه ... ولا مجلسًا تُدعى إليه الولائـدُ(21)

تجللتَ عارًا لا يزالُ يشُبُّه ... سباب الرِّجال نثرهُم والقصائـدُ

وقال أعرابيٌّ قَـتَـلَ أخوه ابنًا له، فقُرِّب إليه ليقتصَّ منه، فألقى السيف من يده وقال :

أقول للنَّفس تأساءً وتعزيةً : ... إحدى يديَّ أصابتْني ولم تُردِ

كلاهُما خلفٌ من فقْد صاحبه : ... هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي !

وقال أحد بني فقعس :

وذوي ضِبابٍ مُظهرين عداوةً ... قَرحَى القُلوب مُعاودي الافْناد

ناسيتُهم بغْضاءهُم وتركـتُهم ... وهمُ إذا ذُكرَ الصَّديقُ أعادِي

كيما أعدَّهُم لأبْعدَ منهُمُ ... ولَقَدْ يُجاءُ إلى ذوي الأحْقَادِ

الضِّباب : جمع ضَبّ هو الحِقْدُ.

وقال آخـر :

تمنَّى ليَ الموتَ المعجَّلَ خالدٌ ... ولا خير فيمنْ ليس يُعرف حاسدهْ !

وقال آخـر :

وإنَّک لا تدري إذا جاء سائلٌ ... أأنتَ بما تُعطيهِ أم هُو أسْعَدُ ؟

عسى سائلٌ ذو حاجةٍ إن منعْتَه ... من اليوم سُؤلاً أن يكونَ له غَدُ

وفي كثرةِ الأيدي على الجهْلِ زاجرٌ ... وللحلمُ أبقى للرِّجالِ وأعْودُ !

وقال شَبيب بن البَرصَاء :

---

21) في الحماسة : ولا مقعدًا تُدعَى إليه الولائدُ .

إذا المرء أعراهُ الصَّديق بدا له	بأرضِ الأعادي بعضُ ألوانه الرُّبدُ

أعْراهُ : انفرد به وأفضى به إلى العراء . يقول : إذا انفرد الرجل بمن يعتدّه صديقا وصار معه في بلاد العدوّ فاحتاج إلى نصرته ومشورته انكشف له أمره، وبان له حينئذ أنّه عدوّ له أم صديق . والرُّبْدُ : الغُبْرُ المُظلِمة . ضربه مثلا لما يخفى من الصداقة والعداوة.

وقال الحسن بن مطير :

كُنت أذودُ العينَ أن تَردَ البُكا	فقد وردَت ما كنتُ عنْه أذودُها
خليلَيَّ ما بالعيش عتبٌ لو أنّنا	وجدنا لأيَّام الحمى من يُعيدُها

وقال آخــر :

هل الحبُّ إلاّ زفرةٌ بعد زفرةٍ	وحرٌّ على الأحشاءِ ليس له برْد ؟

غيــره :

وما كلُّ ما في النّفس للنّاس مظهرٌ	ولا كلُّ مالا تستطيعُ تذُودُ

وقال آخر من بلحارث بن كعب :

منّى إن تكُن [حقّا] تكن أحسن المُنى	وإلاّ فقد عشْنا بها زمنًا رغْدا

وقال حطائط، أخو الأسْود بن يعْفُر :

أريني جوادًا مات هزلاً لعلّني	أرى ما تريْن أو بخيلاً مخلّدا !

وقال يزيد الحارثي :

وإذا الفتى لاقى الحِمامَ رأيتَه	لولا الثّناءُ كأنّه لم يُولَدِ

وقال آخر، وتُروى لقيس بن عاصم، رضي اللّه عنه :

أيا ابْنَةَ عبد اللّه وابنةَ مالكٍ	ويا ابنةَ ذي البُردين والفرس الوردِ
إذا ما صنَعتِ الزّاد فالتمسي له	أكيلاً فإنّي لست آكِلَه وحْدِي
أخًا طارقًا أو جار بيتٍ فإنّني	أخاف مذمّات الأحاديث من بعدِي
وكيف يُسيغُ المرء زادًا وجاره	خفيف المِعى بادِي الخصاصة والجهْدِ ؟
ولَلْموت خيرٌ من زيارةِ باخلٍ	يُلاحظُ أطرافَ الأكيلِ على عمْدِ
وإنّي لعبدُ الضّيف ما دام ثاويًا	وما فيَّ إلاّ تلْك من شيمةِ العبدِ !

وقال آخــر :

ونُبئت رُكبان الطّريفِ تناذروا	عقيلاً إذا حلُّوا الذناب فصر خدا

فتـًى يجعل المحض الصَّريح لبطنه شعارًا ويقري الضَّيف عَضْبًا مهنَّدا

وقال الآخر :

وإنَّا لَنَجْفو الضَّيف من غَيْرِ عِلَّةٍ مَخافَةَ أن يَغْرى بنا فَيَعُودُ

غَرِيَ : كَلِفَ .

وقال الأسودُ بن يَعْفُر :

ولَقَدْ عَلِمْتُ لوْ أنَّ عَلْمِيَ نافِعٌ أنَّ السَّبيلَ سَبِيلُ ذِي الأعْوَادِ

ماذا أؤمِّلُ بَعْدَ آلِ مُحَرِّقٍ ؟ تَرَكُوا مَنازِلَهُم وبَعْدَ إيَادِ

أرْضُ الخَوَرْنَقِ والسَّدير وَبَارِقٍ والقَصْرُ ذُو الشُّرُفاتِ من سَنْدادِ

جَرَتِ الرِّياحُ على مَحَلِّ دِيارِهِمْ فَكَأنَّهُم كانُوا على مِيعَادِ

ولَقَدْ غَنُوا فيها بأكْرَمِ غُنْيَةٍ في ظِلِّ مُلْكٍ ثابِتِ الأوْتَادِ

فإذا النَّعيمُ وكُلُّ ما يُلْهى بِهِ يَوْمًا يَصيرُ إلى بِلًى ونَفَاذ !

وتقدم بعض هذا الشعر . وذو الأعواد رجل اسمه غُوِيّ بن سلامة، أو سلامة بن غُوِيّ، وقيل غير ذلك . وكان له خراج على مُضَر . فلمَّا شاخ وضعف كان يُحمل على سرير ويُطاف به على مياه العرب فيجبيها . وقيل هو جدّ لأكثم بن صيفيّ، الحكيم المعروف . وكان أعزّ أهل زمانه، فكان لا يأتي سريره خائف إلاّ أمن، ولا جائع إلاّ شبع . ومثل هذا الشعر ما رُوي أنه وُجد في حفير رجلٌ عليه خفَّان وعند رأسه لوح فيه مكتوب : أنا عبد المسيح بن حيَّان بن نُفَيْلَة :

حَلَبْتُ الدَّهْرَ أشْطُرَهُ حَيَاتي ونِلْتُ من المُنى فَوقَ المَزِيدِ

وكَافَحْتُ الأمُورَ وكَافَحَتْني ولَمْ أخْضَعْ لِمُعْضِلَةٍ كَؤودِ

وكِدْتُ أنَالُ بالشَّرَفِ الثُّرَيَّا ولَكِنْ لا سَبِيلَ إلى الخُلُودِ !

ودخل أرْطَأةُ بن سهية على عبد الملك فقال : كيف حالك ؟ وكان قد أسنّ، فقال : ضعف حالي، وقلّ مالي، وكثر منّي ما كنت أحبّ أن يقلّ، [وقلّ منّي ما كنت أحبّ أن يكثر][22]، قال : فكيف أنت في شعرك ؟ قال : والله ما أغضب ولا أطرب ولا أرهب . وما الشعر إلاّ من نتائج هذه، على أنّني القائل :

رأيتُ المرء تأكُلُه اللَّيالي كأكْلِ الأرض ساقِطَةَ الحديدِ

وما تُبقي المَيَّةُ حينَ تأتِي على نفس ابنِ آدمَ من مزيدِ

وأعلَمُ أنَّها عمَّا قَليلٍ ستُوفي نذْرَها بِأبي الوليدِ

22) سقط ما بين معقوفتين من ب .

فارتاع عبد الملك ثمَّ قال : بل تُوفِي نَذْرَها بك ! ويلك، مالي ولك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين، لا ترع ! والَّله ما عنيت إلاَّ نفسي ! فقال : أما والَّله لتُلمَنَّ بي ! وأبو الوليد كنية لعبد الملك وكنية لأرطأة أيضا ـ. وقال الآخر :

لنـــا عزٌّ ومَرمَانَــــا قريبٌ   ومَولًى لا يدبُّ مَع القُرادِ

وقوله : لا يدِبُّ مع القُراد، أشار به إلى رجل من العرب كان يخرج ومعه شَنَّةٌ فيها قِردانٌ، فيشدُّها في ذنب بعير من الابل، فإذا قرصته القِردانُ نَفَرَ، فَنَفَرتِ الابلُ لقعقعة الشَّنِّ . فإذا نفَرت استلَّ منها بعيراً، فذهب به .

وقال الآخـــر :

ستبكي المِخاضُ الجُربُ إن مات هيثمٌ   وكلُّ البـواكي غيرَهُـنَّ جُمـودُ

يقول إنَّه كان بخيلا يستبقيهنَّ ولا ينحرهنَّ : فهنَّ يبكين عليه إن مات، لِما أحسن إليهنَّ، ولا يبكي عليه أحدٌ من النَّاس، لعدم خيره وإحسانه . وهذا من أقبح الهجو، غير أنَّ في قوله «جُمُودُ» مغمزاً . وضدّ هذا من المدح قول الآخر :

قتيلانِ لا تبكي المخاضُ عليهما: إذا شبعتْ من قَرْمَلٍ وأفانِ

والأفَانِي جمع افانية، والأفانية والقرمل نبتان يُرعيان . وقال الآخر :

إذا جاوزَتْ من ذات عرقٍ ثنيَّةً   فقُل لأبي قابوسَ ماشئتَ فارعُدِ !

ونحوه قول الفرزدق السابق :

وماذا عسى الحجَّاجُ يبلُغ جُهدَه   إذا نحنُ جاوزْنا حفيرَ زيادِ ؟

وتقدَّم تفسير رعْد وبرَق بما أغنى عن إعادته . ونحوه قول الآخر :

يا جلَّ ما بعُدت عليكَ بلادُنا   فابرُق بأرضِك ما بدا لك وارعُد[23]

وقال الآخــر :

مَا قَامَ عَمْـرٌو في الـولاَيَـةِ   قَائِمًـا حَـتَّى قَعَــدْ !

وسبب هذا أنَّ بعض الوزراء قلد ابن حجَّاج ولاية، فخرج إليها يوم الخميس وتبعه عزله يوم الأحد، فقال فيه :

يَـا مَنْ إذَا نَـظَرَ الهِلاَلُ إلَى   مَحَـاسِنِهِ سَجَـدْ

وإذَا رأتْهُ الشَّـمْسُ كَـادَتْ   أنْ تَمُـوتَ مِـنَ الحَسَـدْ

23) نسبه في لسان العرب (مادة برد) الى ابن أحمر، وروى الشطر الثاني هكذا :
وطلابُنـا فابْرُقْ بأرْضكَ وارْعُـدِ

يَــومَ الخَمِــيسِ بَعَثْــتَنِـي وصَرَفْـــتَنِـي يَـــوْمَ الأحَــدْ
والنَّــاسُ قَــدْ غَنَّــوْا عَلَـيَّ كمَــا خَــرجْتُ مِــنَ البَلَــدْ

مَا قَامَ عَمْرٌو (البيت)

وقال جميل :

فأَقْسِمُ طرفي بينهُنَّ فيسْتوي وفي الصَّدر بونٌ بينهُنَّ بعيدُ

وقال أيضــا :

يموت الهوى منِّي إذا ما لقيتُها ويحْـيى إذا فارقتُهــا فيعُــودُ

وهذان البيتان من قصيدة لجميل يقول فيها :

ألا ليت أيَّام الصَّفاءِ جديـدُ ودهْرًا تولَّى يا بُثيْنَ يعُودُ
فتغْنَى كما كُنَّا نكونُ وأنتُمُ صديقٌ وإذ ما تبذُلينَ زهيدُ !
وما أنسَ من أشياءَ لا أنْسَ قولَها وقد قرَّبَت نِضْوِي أمصْرَ تريدُ ؟
ولا قولَها : لولا العيونُ التي ترى أتيتك فاعذرني فدتْك جدُودُ !
خليليَّ ما أُخْفي من الوجْد ظاهرٌ ودمْعي بما أخْفي الغداةَ شهيدُ
ألا قد أرى والَّلهِ أنْ رُبَّ عبرةٍ إذا الدَّار شطَّت بيننا ستزيـدُ
إذا قلت : مابي يا بُثينةُ قاتلي من الحبِّ قالت : ثابتٌ ويزيدُ
وإن قلت : ردِّي بعض عقلي أعشْ به مع الناس قالت : ذاك منكَ بعيدُ
فلا أنا مردودٌ بما جئْت طالبًا ولا حبُّها فيما يَبيدُ يَبيـدُ
جزتْك الجوازي يا بُثينَ ملامةً إذا ما خليلٌ بان وهو حميـدُ
وقلت لها: بيني وبينك فاعْلَمي من الَّله ميثـاقٌ له وعُهُــودُ
وقد كان حَبِّيكُم طريفًا وتالدًا وما الـحبُّ إلاَّ طارفٌ وتليـدُ
وإنَّ عروض الوصل بيني وبينها وإن سهَّلتْه بالمُنى لصَعُـودُ
فأفنيت عيشي بانتظاري نوالَها وأبْلَتْ بذاكَ الدَّهر وهـو جَـديـدُ
فليت وشاةَ النَّاس بيني وبينها يدوف لهم سمًّا طماطم سُـودُ
وليت لهم في كلِّ مُمْسىً وشارقٍ تصاعُفُ أكْبادٍ لهُم وقيودُ !
ويحْسب نسوانٌ من الجهلِ أنَّني إذا جئْتُ إيَّاهنَّ كُنتُ أريـدُ

فَأَقْسِمُ طَرْفِي (البيت)

وبعــده :

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلةً بوادِ القُرى إنّي إذًا لسعيد !

وهل أهْبطَنْ أرضًا تظلُّ رياحُها لها بالثّنايا القاويات وئِيدُ

وهل ألقينْ سُعْدى من الدّهر مرّة ومارثَّ من حبْل الصّفاء جديدُ ؟

وهل تلتقي الأهْواءُ من بعد يأسةٍ وقد تُطلب الحاجاتُ وهي بعيدُ ؟

وهل أزجُرنْ حرفًا علاةً شمِلّةً بخرقٍ تُباريها سواهِمُ سُودُ

على ظهْر مرهوبٍ كأنّ ستورهُ إذا جاز هُلاّكُ الطّريقِ رقُودُ[24]

سبتْني بعيْني جؤذرٍ وسْط ربربٍ وصدرٍ كفاثور الّلجيْنِ وجيدُ

تزيف كما زافت إلى سلفاتِها مُباهيةً طيَّ الوشاحِ مَيُودُ

إذا جئتُها يومًا من الدّهر زائرًا تعرّض منقوصُ اليديْن صَدودُ

يصدُّ ويُغضي عن هَوايَ ويجتني ذنوبًا علينا إنّه لعَنودُ

فأصرمُها خوفًا كأنّي مُجانبٌ ويغْفلُ عنّا مرّةً فنعُودُ

فمن يُعْطَ في الدُّنيا قرينًا كمثلها فذلك في عيشِ الحياةِ رشيدُ !

يموت الهوى مني (البيت)

وبعــده :

يقولون : جاهدْيا جميلُ بغزْوةٍ ! وأيُّ جهادٍ غيرَهُنّ أُريدُ ؟

لكلٌ حديثٍ بينهــنّ بشاشةً وكلُّ قتيلٍ بينهُنّ شهيدُ

فمن كان في حبِّي بُثينةَ يمْتري فبرقاءُ ذي ضالٍ عليّ شهيدُ

ألم تعْلمي يا أمّ ذي الودْعِ أنّني أُضاحكُ ذكراكُمْ وأنتِ صَلودُ ؟

وقال الآخــر :

إذا كُنت تهوى الحمد والمجْد مولعًا بأفْعال ذي غَيٍّ فلستَ براشِدِ

ولستَ وإن أغْيى أباك مجادةً إذا لم ترُم ما أسْلفاهُ بماجِدِ

قوله : أبَاكَ، أي أبَواكَ، فثنّى لفظ الأب من غير أن يردّ لامه . وقال الآخر :

شَرَيْتُ بردًا ولولا ما تكنّفني من الحوادثِ ما فارقْتُه أبَدا !

وقال الآخــر :

24) يروى الشطر الأول أيضا هكذا : على ظهرِ مرهوبٍ كأنّ نُشُوزَهُ

أتعْجبُ أَن رأيتَ عليَّ دنْيا ؟ (بيــاض)

وقال الأشهب بن رحيلة :

أسودُ شَرى لاقَت أسود خفيَّةٍ تساقتْ على حردٍ دماءَ الأساودِ

وقال الآخـــر :

إذا كانت الهيجاءُ وانشقَّت العصا فحسبُك والضَّحاكَ سيفٌ مهنَّدُ !

وقال أعرابي في السجن :

أيا واليَـيْ سجنِ اليمامةِ أشْرفا بيَ القصْر أنظُرْ نظرةً هل أرى نجْدا !

فقـال اليمانيَّـانِ لمَّـا تبيَّنـا سوابِقَ دمْعٍ ما ملكْتُ لها ردًا :

أمن أجل أعْرابيَّةٍ ذاتِ بُردةٍ تُبكّي على نجْدٍ وتَبْلى كذا وجْدا؟

لَعمْري لَأعْرابـيَّةٌ في عباءةٍ تحلُّ دماثًا من سُويْقَةَ أو فَردَا

أحبُّ إلى القلبِ الذي لجَّ في الهوى من اللاّبسات الرَّيْط يُظهرنَه كيْدا

وقال الآخر، ويقال الشافعي، رضي اللّه عنه :

تمنَّى رجالٌ أن أموتَ فإن أمُت فتلْك طريقٌ لستُ فيها بأوحَدِ !

يقال : لست في هذا الأمر بأوْحَد، أي لا أُخصّ به . وقال الآخر، ويقال هو هاتف سُمع لمَّا ولي عُمَر بن عبد العزيز، رضي اللّه عنه :

من الآن قَد طَابَت وقرَّ قرارُها على عُمدِ المَهْديّ قام عمودها

وقال يزيد بن الصَّيْقَل العَقيلِي، وكان يسرق الابل ثمَّ تاب :

ألا قُل لأربابِ المخائضِ أهْملُوا فقد تابَ عمَّا تعْلمونَ يزيدُ

وإنَّ امرءًا ينجو من النَّارِ بعدما تزوَّد من أعمالهـا لسعيـدُ !

وتقدَّم هذا الثاني . والاهْمالُ تركُ الابل بِلا راعٍ . وقال الآخر :

تمنَّيتُـمُ مِائَتَـيْ فَـارسٍ فردَّكُـمُ فَـارسٌ وَاحِـدُ

وقبلهـا :

فلَيتَ لهـا بارتبـاطِ الخُيُـولِ ضَأْنًا لها حَـالِبٌ قَاعِـدُ !

ألا هلْ أتاهـا على نَأيِهـا بِما فَضَحَتْ قَومَها غَامِدُ ؟

وغَامِدُ أبو قبيلة، وهو غَامِدُ بن نصر بن الأزد بن الغوث، فهجاهم هذا الشاعر . وقال حاتم :

وإنَّ الكريمَ مَن تلفَّتَ حولَه وإنَّ اللَّئيمَ دائمُ الطَّرف أقْوَدُ

وقال نَبْهَانُ العَبْشَمِيّ :

يقرُّ بعيني أن أرى من مكانهُ ذُرى عقِداتِ الأبْرقِ المُتقاوِدِ

وأن أردَ الماء الَّذي شربَتْ بهِ سُليمى وقد ملَّ السُّرى كلُّ واخِدِ

وأخْلِطَ أحْشائي ببرد تُرابه وإن كان مخْلوطًا بسمٍّ الأساودِ !

والعَقِدات واحد العَقِدَة ـ بكسر القاف وفتحها ـ وهو ما تراكم من الرَّمل وانعقد ؛ والأبْرقُ حجارة يخالطها رمل أو طين ؛ والمُتَقاوِدُ : المُنْقَادُ المُسْتَقِيمُ ؛ والأسَاوِدُ جمع أسْوَد، وهو الأسْود السَّالخ . وقال أبو الحسن بن أبي الطَّيِّب :

لا تُنكري يا عزَّ إن ذلَّ الفتى ذو الأصل واستعْلى خسيسُ المُحتَدِ

إنَّ البُزاة رؤوسُهُنَّ عواطِلٌ والتَّاج معْقُودٌ بِرأس الهُدهُدِ

وقال الحارث بن كَلَدَة :

ولَقَدْ رأيْتُ مَعَاشِرًا جَمَعُوا لَهُمْ مَالاً ووُلْدَا

وهُمْ زَبَابٌ حَائِرٌ لا تَسْمَعُ الآذانُ رَعْدَا

والزَّبَابُ ـ بالزاي مفتوحة ـ جمع زَبَابَة، وهي الفأرة العمياء ، وضرب ذلك مثلا لرعاع النَّاس وجهَّالهم الحائرين . وقوله : لا تَسْمَع الآذانُ رَعْدًا، أي لا تسمع آذانهم صوت الرعد لصَمَمِهم، فأقام الألف واللاَّم مقام الضمير وقال الآخر :

فَأثْنُوا علينا لا أبا لِأبِيكُمُ بأفْعالنا إنَّ الثَّناء هو الخُلدُ !

ومثله قول الآخر :

فإذا بلغتُمْ أرضَكُم فتحدَّثوا ومن الحديثِ مثالبٌ وخُلُودُ !

وتقدَّم ذكر هذا المعنى . وقال ابن اللَّبَّانة يمدح المعتمد :

لقد ضمَّ أمرَ المُلك حتى كأنَّه نطاقٌ بخَصرٍ أو سوارٌ على زنْدِ

وحسَّن طعْم العيشِ حتَّى أعادهُ ألذَّ من الاغْفاء في عقبِ السُّهْدِ

وحسبُ اللَّيالي أنَّها في زمانِه بمنزلةِ الخيلانِ في صفْحةِ الخدِّ

توقَّدَ عن نارَيْن للحربِ والقِرى وقام على طوْدَينِ للحِلمِ والمجْدِ

وجاءت به الأيَّامُ تاجرَ سُؤددٍ يبيعُ نفيساتِ المواهب بالحَمْدِ

يُغيثُكَ في محْلٍ يُعينُكَ في ردًى يروعُكَ في درعٍ يروقُكَ في بُردِ

جمالٌ وإجْمالٌ وسبقٌ وصولَةٌ كشمس الضُّحى كالمُزن كالبرقِ كالرَّعد!

وقال أيضـا :

إليه وإلاَّ قيّدوا قدمَ السُّرى وفيه وإلاَّ أخْرسوا ألْسُن الحمْدِ

وعنْه أفيضوا، إنَّه مَشْعَرُ الهُدى وحوليهِ طوفوا : إنَّه كَعْبَةُ القصْدِ

وألغُوا حديثَ البحر عند حديثه: فكم بين ذي جزْرٍ وكم بين ذي مدٍّ !

وقال الآخـر :

قلَّدتني منكَ الجميل قلائِدا ورحمتني حتَّى حسبتُكَ والِدا

والَّله لو جاز السُّجودُ لمُحسنٍ ما كُنتُ إلاَّ راكعًا لك ساجدًا !

وقال أبو جعفر البَطْرُوني :

وما زلت أجْني منك والدَّهر ممحلٌ ولا ثمرٌ يُجنى ولا زرْعَ يُحْصَدُ

ثمارُ أيادٍ دانياتٌ قُطوفُها لأغْصانها ظلٌّ علينا ممدَّدُ

ترى جاريًا ماء المكارمِ تحتَها وأطْيارُ شُكري لا تزالُ تُغرِّدُ

وقال ابن اللَّبانة أيضا :

هو صُبْحٌ وربيعٌ وحَيَا يُجْتَلى أو يُجْتَنَى أو يُجْتَدَى

هو طودٌ وشِهَابٌ ولَظَى مَارسَا أو مَاسَرَى أو مَا عَدا

وقال بكر بن النطاح :

ملَأتُ يَدي من الدُّنْيَا مِرارًا فما طمعَ العَواذلُ في قِيَادِي

وما وجَبَت عليَّ زكَاةُ مالٍ وهَل تجبُ الزَّكاةُ على جَوادٍ ؟

وقال الآخـر :

بفعالي عُرفْتُ لا بمقالي وبِذاتي شَرفْتُ لا بجُدودِ

إنَّ رأيِي ورايَتِي بَلَّغَاني غَايَتي هَذه بحُكْمِ السُّعُودِ

وقال ابن الخطيب :

تعجَّلتُ وخْط الشَّيب في زمن الصِّبا لخوْضي غمار الهَمِّ في طلب المجدِ

فمهْما رأيتُم شيْبَةً فوق مفْرقي فلا تُنكروها إنَّها شيْبَةُ الحَمْدِ !

وقال ابن الحداد، وللشعر حكاية :

شقيقُكَ غُيِّب في لحْدهِ وتَطْلُعُ يا بَدرُ من بَعْدهِ

فهلاّ خَسَفْتَ فكانَ الخُسُوفُ حِداداً لبسْتَ على فَقْدِهِ ؟

وقال الآخر في التعزية :

لا بُدَّ من فقْدٍ ومن فاقِدِ هيْهاتَ ما في النَّاس من خَالِدِ

كُن المُعزِّيَ لا المُعزَّى بِهِ إن كان لا بُدَّ من الواحِدِ !

وقال الوزير المهلَّبي :

خليليَّ إنّي للثُّريَّا لحاسِدُ وإنِّي على ريْبِ الزَّمانِ لواجِدُ

أيبْقى جميعًا شمْلُها وهي سبعةٌ وأفْقدُ من أحْببتُه وهْو واحِدِ ؟

وقال الآخر :

دهى اللّه مصْراً وسكّانهـا وفتّت أكْبادهُم بالحَسدْ !

متى يرتَجي مُفْلسٌ عندهُم غنًى وعلى كلٍّ فلْسٍ أسدْ ؟

وقال الآخر :

ما للمُعيلِ وللسِّفار وإنّما يُجْلى بوصْلِ البيد من هو فاردُ

فالشّمس تجتابُ السّماء فريدةً وأبو بنات النّعشِ فيها راكِدُ

وقال ابن سُكَّرَة :

قيلَ : ما أعْدَدْتَ لِلبَرْدِ وقَدْ جَاءَ بِشِدَّهْ ؟

قُلْتُ : دُرَّاعَةُ عُرْيٍ تَحْتَهَا جُبَّةُ رِعْدَهْ

وقال الآخر :

بين اللّثامِ وصُدغِهِ المعْقُودِ خمْرانِ : من ريقٍ ومن عنْقودِ

يلوِي على زردِ العذَارِ دلالَهُ : كم فتْنةٍ بين اللّوَى وزُرودِ !

وقال الآخر :

أهلاً بطَيْفكَ زائراً أو عائِداً تفديكَ نفسي غائبًا أو شاهِداً !

يا من على طيْف الخيالِ أحالَني أتظُنُّ طرفي مثل طرفِك راقِدا ؟

ما نمْتُ لكنَّ الخيالَ يُلمُّ بي فيجلُه طرفي فيُطْرقُ ساجِداً

وقال الراضي بن عبَّاد :

مرُّوا بنا أصلا من غيرِ ميعادِ وأوقدوا نار قلْبي أيَّ إيقادِ

لا غَرْوَ إن زاد في قلبي مرورُهُم فرؤيَةُ الماء تُذكي غُلّةَ الصّادِ !

وقال الآخـــر :

قالوا : خسرتَ القلبَ حين علقْتَهُ ... وربحْتَ فيه شماتَةَ الحُسَّادِ

فأجبتُهم : لا تعْذلوني إنَّني ... صانعْتُه عن مُهْجتي بفُؤادِ !

وقال بعض المشارقة :

ألْحاظُكم تجرحُنا في الحَشَا ... ولحْظُنا يجرحُكُم في الخُدودْ

جرحٌ بجُرحٍ فاحْسبوا ذابِذَا ... فما الَّذي أوجب جُرحَ الصُّدودْ ؟

وقال أبو العبَّاس بن الفيَّاض :

قُم آسقني بين خفْقِ النَّاي والعودِ ... ولا تبعْ طيبَ مفقودٍ بموجودِ

نحن الشُّهود وصوتُ العودِ خاطبنا ... فزوِّجِ ابنَ غمامٍ بنتَ عُنْقودِ !

وقال أبو البركات في غرناطة :

رعى اللَّهُ من غرناطةٍ مُتبوَّءًا ... يسرُّ كئيبًا أَوْ يُجيرُ طريدًا !

تبرَّم منها صاحبي عندما رأى ... مسارحَها بالبرد عُدنَ جليدًا

هي الثَّغْرُ صانَ اللَّهُ مَنْ أهلُه به ... وما خيرُ ثغْرٍ لا يكونُ بَرودًا

وقال ابن حجَّاج في صاحب وليمة أبطأ بالطعام فيها.

يا جائيـــا في داره ذاهبًـــا ... لغيـر معْنًى لا ولاَ فائـــدَهْ

قد جُنَّ أصحابُكَ من جوعِهمْ ... فاقرأْ عليهِم سورَةَ المائـدهْ !

وتقدَّم بعضه . وقال الآخـر :

مال ابـن دارةَ دونَهُ لعُفاتِه ... خرطُ القتـادِ والتماسُ الفرقَــدِ

مالٌ لزومُ الجمعِ يمْنَعُ صرْفَهُ ... في راحةٍ مثلَ المُنادَى المُفْردِ

وقال الآخــر :

فأكثر من الاخوان للدَّهر عُدَّةً: ... فكثْرةُ دُرٍّ العقد من شرف العِقد

وعظِّم صغير القوم وابْدأ بحقِّه: ... فمن خِنصِرِيْ كفَّيكَ تبْدأ في العدِّ !

وقال الآخــر :

ألاَ ! إنَّه كُلُّنَا بَائِدُ ... وأيُّ بَنِي آدَمٍ خَالِدُ ؟

وبَدؤُهُمُ كان من ربِّهِـم ... وكلٌّ إلى ربِّهِ عَائِـــدُ

فَيا عَجَبًا كيْفَ يُعْصى الالَهُ ... أمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاحِدُ

وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ وَتَسْكِينَةٍ أبَداً شَاهِدُ

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أنَّهُ وَاحِدُ

وقال البُستيّ :

أبُوكَ حَوى العَلْيا وأنتَ مُبَرِّزٌ عَلَيْه إذا نازَعْتَهُ قَصَبَ المَجْدِ

وللخَمْرِ مَعْنًى ليسَ في الكَرْم مثلُهُ وللنَّار نورٌ ليسَ يوجَدُ في الزَّنْدِ

وقال أبو القاسم الاصبهانيّ :

أصْبَحْتُ صَبًّا دَنِفًا بَيْنَ عَنَاءٍ وكَمَدْ

أعُوذُ مِنْ شَرِّ الهَوَى بِقُلْ هُوَ اللَّهُ أحَدْ !

وقال ابن الجهم :

أنَفُسٌ حُرَّةٌ ونَحْنُ عَبيدُ إنَّ رِقَّ الهَوَى لَرِقٌّ شَديدُ

لي حبيبٌ نَأى بهِ الهَجْرُ عَنِّي وأشَدُّ الهَوَى القَريبُ البَعيدُ

وقال الآخر :

وكَمْ لَيْلَةٍ بِتُّ منْ حُبِّكُمْ تَطُولُ عَلى طَرْفِيَ السَّاهِدِ

كَأنَّ نُجُومَ الدُّجَى في الدُّجى صِوَارٌ تَفَرَّقْنَ عَنْ صَائدِ

وقال ابن الرومي :

لِما تُؤذِنُ الدُّنْيا بِهِ مِن صُرُوفِها يَكُونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةَ يُولَدُ

وإلاَّ فَما يُبْكيهِ مِنْهَا وإنَّهَا لأوْسَعُ مِمَّا كان فيه وأرْغَدُ ؟

وقال الآخر في التورية :

تَقُولُ سَلِيْمى إذ رَأت شَيبَ لِمَّتي: لَقَدْ حَالَ مِنْ ذَاكَ الشَّبابِ سَوادُهُ

وما تُنْكِرُ الحَسْنَاءُ مِن خَطِّ كاتِبٍ إذا ابْيَضَّ من طُولِ الكتابِ مِدادُهُ

وقال كُثَيِّرُ :

فإنْ تَسلُ عنكَ النَّفسُ أو تَدعِ الهوى فَباليَأسِ تَسلُو عَنكَ لا بالتَّجَلُّدِ !

وكُلُّ خَليلٍ زارَني فَهْوَ قائلٌ : مِنَ أجْلِكَ هذا هامَةُ اليَومِ أو غَدَ !

وتقدم أن يزيد بن عبد الملك تمثّل به على قبر جاريته حبابة لما ماتت :

وقال ابو جعفر المنصور العباسي، وله قصة ستأتي في اللام :

إذا كُنتَ ذا رأيٍ فكُنْ ذا عَزيمَةٍ : فإنَّ فَسَادَ الرَّأيِ أنْ يَتَرَدَّدَا
ولا تُمْهِلِ الأعداءَ يَوْمًا بِقُدْرَةٍ وحاذِرْهُمُ أنْ يَمْلِكوا مِثْلَها غَدَا !

وسبب ذلك أن جارية له أهدت إليه تفاحة بعد أن طيبتها، وكتبت عليها :

هَدِيَّةٌ مِنِّي إلى المَهْدي تُفَّاحَةٌ تُقْطَفُ منْ خَدِّي
مُحْمَرَّةٌ مُصْفَرَّةٌ طُيِّبَتْ كَأنَّها منْ جَنَّةِ الخُلْدِ !

وقال عُرْوَةُ بنُ أذَيْنَةَ، رضي الله عنه :

إذا وجَدتُ أُوارَ الحُبِّ في كَبدي أقْبَلْتُ نَحْو سِقَاءِ القَوْمِ أبْتَرِدُ
هَبْني بَرَدْتُ بِبَرْدِ الماءِ ظاهِرَهُ فَمَنْ لِنَارٍ على الأحشاءِ تَتَّقِدُ ؟

وقال الامام الشافعي، رضي الله عنه، فيما زعموا :

خُذُوا بِدَمِي ذاكَ الغَزَالَ فإنَّهُ رَماني بِسَهْمَيْ مُقلَتَيْهِ على عَمدِ
ولا تَقْتُلُوه إنَّنِي أنا عَبْدُهُ وفي مَذهَبي لا يُقْتَلُ الحُرُّ بالعَبدِ !

وقال القاضي عبد الوهاب بن نصر المالكي، رحمه الله :

ونائمَةٍ قَبَّلْتُها فَتَنَبَّهَتْ وقالتْ: تعالَوْا فاطلُبوا اللِّصَّ بالحدِّ !
فقُلْتُ لها : إنِّي لثَمْتُكِ غاصِبًا وما حَكَمُوا في غاصِبٍ بِسِوى الرَّدِّ
خُذيها وكُفِّي لي عن إثْمِ ظُلامَتي وإنْ أنْتِ لمْ تَرْضَيْ فألْفًا منَ العَدِّ
فقالتْ : قِصاصٌ يَشهَدُ العَقلُ أنَّهُ على كَبِدِ الجاني ألَذُّ من الشَّهْدِ
فَباتَتْ يَميني وهْيَ هَيْمانُ خَصرِها وباتَتْ يَساري وهْيَ واسِطَةُ العِقْدِ
وقالت : ألمْ أُخْبَرْ بأنَّكَ زاهِدٌ ؟ فقُلْتُ : بَلى ما زِلْتُ أزْهَدُ في الزُّهدِ

وقال مسكينٌ الدّارِمِيّ :

قلْ للمَليحَةِ في الخِمارِ الأسْوَدِ : ماذا فَعَلْتِ بزاهِدٍ مُتَعَبِّدِ ؟
قَدْ كانَ شَمَّرَ للصَّلاةِ إزارَهُ حتَّى قَعَدْتِ لهُ ببابِ المَسْجِدِ
رُدِّي عليه صلاتَهُ وصِيَامَهُ لا تَفْتِنِيهِ بِحَقِّ جاهِ مُحَمَّدِ !

وزعموا أنه كان مشتهرا بالمجون، فنسك ولزم المسجد، وصار من العبّاد . فورد بعض تجار العراق على المدينة، على ساكنها الصلاة والسلام، بسلة فيها خُمُر مختلفة الالوان . فباعها

جميعا إلا السود من الخُمر . فتحيَّر في أمرها وجاء نحو المسجد وسأل عن من به من أهل الخير . فدُلَّ على مسكين الدارمي المذكور . فجاء وشكا إليه أمره وسأله الدعاء بتيسير بيع ما كسد من الخُمر، فقال له : تُباع إن شاء الله ! ثم صنع هذه الابيات، ودعا بعض اهل اللحون فدفعها له وقال له : غَنِّ بها حيثما أمكنك، فإنها لي ! فذهب يغنِّي بها في سكك المدينة، فظَن الناس أنه ترك التنسُّك وعاد إلى المجون، ولامه أصحابه في ذلك فقال : وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِين ! وشاع في المدينة أن الدارمي تعشق صاحبة الخمار الأسود، فلم تبق في المدينة متظرفة إلا اشترت خمارًا أسود، فبيعت بذلك خُمر التاجر، وعاد الدارمي إلى نسكه :

وهو القائل :[25]

وسُمِّيتُ مِسْكِينًا وما بِيَ حاجَةٌ وإنِّي لَمِسْكِينٌ إلى اللَّهِ راغِبُ

وإنِّي امْرُؤٌ لا أسأل النَّاسَ ما لَهُمْ بِشِعْرٍ ولا تُعْيِي علىَّ المَكَاسِبُ

وينسب إلى القاضي التنوخي في معارضة أبيات الخمار المذكورة :

قُلْ لِلْمَلِيحَةِ في الخِمار المُذْهَبِ : أفْسَدتِ نُسْكَ أخي التُّقى المُترهِّبِ

نورُ الخِمارِ ونورُ خَدِّكِ تحْتَهُ عجَبًا لوجْهِكِ كيْفَ لمْ يَتَلَهَّبِ !

وجَمَعْتِ بيْنَ المَذهَبَيْنِ فلمْ يكُنْ للحُسْنِ عنْ نَهْجَيْهِما منْ مَذهَبِ

وإذا أتَتْ عَيْنٌ لِتَسْرِقَ نَظْرَةً قال الشُّعاعُ لها اذْهَبِي لا تَذْهبي !

وقال الفرزدق :

وخَيرُ الشِّعْرِ أشْرَفُهُ رجالاً وشَرُّ الشِّعْرِ ما قالَ العَبيدُ

وسبب قوله ذلك أنه اجتمع مع نصيب، الشاعر الأسَديّ، في مجلس سليمان بن عبد الملك، فقال الفرزدق شعرا يفخر فيه بأبيه، ومنه :

ورَكْبٍ كأنَّ الرِّيحَ تَطْلُبُ عِنْدَهُمْ لَهاتِرَةً من جَذْبِها بالعَصَائبِ

سَرَوْا يَخْبِطون الرِّيحَ وهي تلُفُّهُمْ إلى شُعَبِ الأكوارِ ذاتِ الحَقَائبِ

إذا آنَسوا نارًا يَقُولون لَيْتَها وقَدْ خَصِرَتْ أيْديهِمُ نارُ غالِبِ !

فأعرض سليمان كالمغضب، ففطن له نصيب، فقال له : أيأذن أمير المؤمنين أن أقول ؟ قال : قل ! فقال نصيب :

---

25) ساقط منب .

أقولُ لِركْبٍ صادِرِين لَقِيتُهُمْ : قِفَا ذاتَ أوْشالٍ ومولاكَ قارِبُ
قِفُوا خَبِّروني عنْ سُلَيْمانَ إنَّني لِمَعْروفِهِ منْ أهْلِ وَدّانَ طالِبُ !
فَعاجوا فَأثْنَوْا بالَّذي أنْتَ أهْلُهُ ولوْ سَكَتوا أثْنَتْ عَلَيْكَ الحَقائبُ
وقالوا : تَرَكْناهُ وفي كُلِّ لَيْلَةٍ يَطيفُ بِهِ منْ طالِبِ العُرْفِ راغِبُ
فَلَو كان فوقَ النَّاسِ حَيٌّ فِعالُهُ كَفِعْلِكَ أو في الفَضْلِ منكَ يُقارِبُ
لَقُلْنا له شبهٌ ولكنْ تَعَذَّرَتْ سِواكَ على المُسْتَشفِعينَ المَطالبُ !
هُوَ البَدْرُ والنَّاسُ الكواكبُ حولَهُ وهلْ تُشْبِهُ البَدْرَ المنيرَ الكواكبُ ؟

فطرب سليمان وأمر لنصيب بعشرة آلاف . ثم التفت إلى الفرزدق فقال : كيف ترى يا أبا فراس؟ فقال : هو أشعر أهل جلدته . فقال سليمان : وأهل جلدتك ! فغضب الفرزدق وقال :

وخَيْرُ الشِّعْرِ أشْرَفُهُ رِجالاً وشَرُّ الشِّعْرِ ما قال العَبيدُ !

وعن دعبل قال : نودي بالنفير، فخرجت مع الناس، فإذا فتى يجرُّ رُمْحَهُ بين يدي، فقال : يا دعبل، اسمع مني ! وأنشد :

أنــا في أمْــرَيْ رَشَــادِ بَيْــنَ حُبٍّ وَجِهَــادِ
بــدَنِي يَغْــزُو عَــدُوِّي والهَـوَى يَغْـزُو فُـؤادِي !

ثم قال : كيف ترى ؟ قلت : جيّد والله ! فقال : ما خرجت إلا هاربا من الحب ! ثم قاتل حتى قتل .

وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان تخاطب زوجها عمر بن عبد العزيز، حيث اشتغل بأمور الخلافة ولم يتفرغ لها :

ألا يا أيُّها المَلِكُ الَّذي قَدْ سَبَى عَقْلِي وهامَ به فؤادي
أراكَ وَسِعْتَ كُلَّ النَّاسِ عَدْلاً وَجُرْتَ عَلَيَّ منْ بيْنِ العِبَادِ
وأعْطَيْتَ الرَّعِيَّةَ كُلَّ فَضْلٍ وما أعْطَيْتَني غَيْرَ السُّهادِ

وقال الآخر :

نحْنُ قَوْمٌ تُذيبُنا الأعْيُنُ النُّجْلُ عَلى أنَّنَا نُذيبُ الحَديدَا
نَقْتُلُ الأسْدَ ثُمَّ تَقْتُلُنا البِيضُ الْمَصُونَاتُ أوْجُهًا وخُدودَا
وتَرانَا لَدى الكَريهَةِ أحْرارًا وَفي السِّلْمِ للْحِسَانِ عَبيدَا

وزعموا أن العلوي، قائل هذا الشعر، حاصر قلعة حتى كاد يقتحمها . وكانت فيها امرأة ذات حسن وجمال، فقالت لأهلها : أنا أكفيكم أمره ! فتبرقعت وخرجت نحو العسكر وقالت : أبلغوني إلى الأمير ! فأبلغوها إليه، فقالت : أنت القائل :

نَـحْنُ قَـوْمٌ تـُذِيبـُنا الأعْيـُنُ ؟.. (الأبيات الثلاثة)

فقال : نعم ! فنزعت البرقع عن وجهها وقالت : أحسنـًا ترى أم قبيحـًا ؟ فقال : والله ما أرى إلا حسنا ! فقالت : ما حق المولى على عبده ؟ فقال : السمع والطاعة . فقالت : فارحل عنا وانصرف راشدا ! قال : نعم ! وأمر بالرحيل . فقال له أهل العسكر : إن المدينة بأيدينا . فقال : لا سبيل إلى الاقامة ساعة واحدة . ثم خطب تلك المرأة وتزوجها، فكانت عنده أحظى نسائه .

وقال الآخر في الثقلاء :

إلـْمامُ كُـلُّ ثـَقيلٍ قـَدْ أضـَرَّ بـِنا	نـَرُومُ نـَقـْصـَهـُمْ والشَّيْءُ يـَزْدادُ
ومنْ يـَخـِفُّ عـَلينا لا يـُلـِمُّ بـِنـَا	وللثـَّقيلِ على السَّاعاتِ تـَـرْدادُ

وقال الآخـر :

إذا هُـزَّ الكـَريمُ يـَزيدُ خـَيـْرًا	وإنْ هـُزَّ اللـَّئيمُ فـَلا يـَزيدُ

وروي أن أعرابيا وقف على مروان بن الحكم، وهو يفرض العطاء بالمدينة، فقال له : افرض [لي] ! فقال : قد طوي الكتاب ! فقال له الأعرابي : أما علمت أنـّي القائل :

إذا هُـزَّ الكريمُ ؟.. (البيت)

فقال : نشدتك الله، وأنت القائل له ؟ قال : نعم ! فقال مروان : افرضوا له ما يرضيه !

وقال الآخـر :

لا يـُوجـَدُ الخـَيـْرُ إلاّ في مـَعـَادِنـِهِ	والشـَّرُّ حـَيـْثُ طـَلـَبـْتَ الشـَّرَّ مـَوْجـُودُ

ويحكى عن جعفر بن يحي أنـّه في بعض اسفاره عرض عليه مماليك رجل جفاه السلطان، وفيهم غلام جميل . قال : فقلت له : ما أسمك ؟ قال : ماهر . قلت : وما صنعتـُك ؟ قال : الأدب والشعر والغناء، وما شئت من بعد . فسألت عن ثمنه فقيل خمسمائة [دينار] على الضرورة . فوزنت ثمنه وسألته أن يسمعني شيئا من غنائه . فأخذ العود واندفعَ يغني :

حـَمـَلـْتـُمْ جِبالَ الحـُبِّ فوقي وإنـَّني	لأعـْجـِزُ عنْ حـَمـْلِ القميصِ وأضـْعـَفُ
ظـَفـِرْتـُمْ بـِكـِتـْمانِ اللـّسانِ فـَمـَنْ لكمْ	بكـِتـْمانِ عـَينٍ دَمعُها الدّهرَ يـَذْرِفُ ؟

فأطربني غناؤه وشجاني، فأجزته وخعلت عليه، وأمرته بمعادلتي . فلمّا أجزت منزل مولاه بمقدار ميل أنشأ يقول :

وما كُنتُ أخْشى مَعْبَدًا أن يَبيعَني ... بشيءٍ ولَوْ أضْحَتْ أنامِلُهُ صِفْرًا

أخوهُمْ ومولاهُمْ وحامِلُ سِرِّهِمْ ... ومَنْ قَد ثَوى فيهِمْ وعاشَرهُمْ دَهرًا

أشَوْقًا ولَمَّا يَمْضِ لي غَيْرُ ساعةٍ ... فَكَيْفَ إذا سارَ المَطِيُّ بنا شَهْرًا ؟

فقلت له : يا غلام، أتعرف منزل مولاك من هاهنا ؟ فقال : وهل تخفى معالم الحب ؟ فقلت : اذهب، فأنت حر لوجه الله ! ووهبت له ألف دينار . فقال لي زميلي : أمثل هذا يعتق ؟ فقلت له : ويحك ! وهل مثله يملك ؟ فانطلق وهو يقول :

لا يُوجَدُ الخَيْرُ إلاّ في مَعادِنِهِ (البيت)

وقال محمد بن عبد الملك الزيات :

وأيُّ امْرِىءٍ سَمَّى بِها قَطُّ نَفْسَهُ ... فَفارقَها حتَّى يُغَيَّبَ في اللَّحْدِ ؟

وكان سبب ذلك أن ابراهيم بن المهدي اقترض من التجار أموالا كثيرة ببغداد . فيها لعبد الملك الزيات عشرة آلاف دينار . فلما لم يتم له أمر الخلافة لوى التجار أموالهم . فصنع محمد ابن عبد الملك قصيدة يخاطب المأمون، وهو صغير، منها :

تَذكَّرْ أميرَ المُومِنينَ قِيامَهُ ... بإيمائِهِ في الهَزْلِ مِنْهُ وفي الجَدِّ

وَواللَّهِ ما مِن تَوْبَةٍ نَزَعَتْ بِهِ ... إلَيْكَ ولا مَيْلٍ إليْكَ ولا وُدِّ

وكَيفَ بِمنْ قد بايَعَ النَّاسَ وَالْتَقَتْ ... بِبَيْعَتِهِ الرُّكْبانُ غَوْرًا إلى نَجْدِ

ومنْ صَكَّ تَسْليمُ الخِلافَةِ سمْعَهُ ... يُنادَى به بين السِّماطيْنِ عن بُعْدِ ؟

وأيُّ امْرِيءٍ سمَّى بها قَطُّ نَفْسَهُ ... (البيت)

وعرضها على إبراهيم وقال له : إمَّا أنصفت أبي، وإمَّا انشدتها المامون ! فأدَّى إلى أبيه ماله دون سائر التجار، واستحلفه على كتمانها، فحلف له، وهذا من فوائد الشعر .

وقال ابن الرومي يمدح النرجس :

للنَّرْجِسِ الفَضْلُ المُبينُ وإنْ أبَى ... آبٍ وحادَ عَنِ الطَّريقَةِ حائدُ

والنَّرْجِسُ احْتازَ المَلاحَةَ كُلَّها ... ولَهُ فَضائِلُ جَمَّةٌ وفَوائِدُ

ومنها :

شَتَّانَ بينَ اثْنَينِ : هذا مُوعدٌ ... بِتَسَلُّبِ الدُّنْيا وهذا واعِدُ !

وسيأتي تتمة هذا الشعر وما عورض به وما قيل في ذلك، إن شاء الله .

وقال الآخر :

وتــحتَ البَـراقِـــعِ مَقْلُوبُهـــا تَـدِبُّ على وَرْدِ خَـدٍّ نَـدِيِ[26]

وقال الآخـر :

إذا أنتَ ولّيْتَ الْخَؤون أمانةً فإنَّكَ قَدْ أسنَدْتَـها شَرَّ مُسنَدِ !

وقال الآخر يصف الكتب :

لنا جُلَسَاءُ لا يُمَلُّ حَديثُهُمْ أَلِبَّاءُ مَأمونونَ غَيْبًا ومَشْهَدًا

يُفيدونَنا من عِلمِهم عِلمَ مَن مضى وعَقْلاً وتأديبًا ورأيًا مُسَدَّدًا

فَلا فِتْنَةً تَخْشى ولا سُوءَ عِشْرَةٍ ولا تَتَّقي مِنْهُمْ لِسانًا ولا يَدًا

فَإنْ قُلْتَ : أمْواتٌ فَلَسْتَ بِكاذِبٍ وإنْ قُلْتَ : أحْياءٌ فَلستَ مُفَنَّدًا !

وقال الآخـر :

عَلَيَّ لإخْواني رقيبٌ منَ الصَّفا تَبيدُ اللَّيالي وَهْوَ ليْسَ يَبيدُ

يُذَكِّرُنيهِمْ في مَغيبٍ ومَشْهدٍ فَسِيَّانِ مِنْهُمْ غائبٌ وشَهيدُ

وإني لأسْتحيِي أخي أنْ أبَرَّهُ قريبًا وأنْ أجْفوهُ وَهْوَ بعيدُ

وقال الآخـر :

رَأيْتُ صَلاحَ المَرءِ يُصْلِحُ حالَهُ وَيُعْديهِمْ داءُ الفسَادِ إذا فَسَدْ

ويَعْظُمُ في الدُّنيا بِفَضلِ صَلاحِهِ ويُحفَظُ بعدَ المَوتِ في الاهلِ والوَلَدْ

وقال الآخـر :

أرى صاحِبَ النِّسْوانِ يَحْسِبُ أنَّها سَواءٌ، وبوْنٌ بينَهُنَّ بَعيدُ

فَمِنْهُنَّ جنَّاتٌ تَفيءُ ظِلالُها ومِنْهُنَّ نيرانٌ لَهُنَّ وَقودُ !

وقريب من هذا قول الأعرابي :

وإنَّ منَ النِّسْوانِ مَنْ هِيَ رَوْضَةٌ تَهيجُ الرِّياضُ دُونَها وتَصوحُ

غيــره :

وَكُلُّ أخٍ عِنْدَ الهُوَيْنا مُلاطِفٌ ولَكِنَّما الاخْوانُ عِنْدَ الشَّدائِدِ !

غيــره :

---

26) في ب : تدبُّ على خدّ ورد ندي

مَـا خَطْبُ مَـن حـُرِمَ الارادَةَ وادِعـًا مِـثْـلُ الذي حـُرِمَ الارادَةَ جاهِـدًا

غيــره :

ولَـقَـدْ أصْرِفُ الْـفُـؤادَ عنِ الشَّيْءِ حَـيَـاءً وَحُـبُّـهُ في السَّـوَادِ

غيــره :

عَـوِّدْ لسانَـكَ قَـولَ الصِّدقِ تحـْظَ بهِ إنَّ اللِّسانَ لِـما عَـوَّدتَ مُـعْـتادُ

مُـوَكَّلٌ بتَـقاضِي ما سَـنَـنْـتَ لَـهُ في الخَـيْـرِ والشَّرِّ فانْـظُـرْ كيفَ ترتادُ !

وقال أبو الفتح البُسْـتِـيّ :

تكَـلَّمْ وسَـدِّدْ ما استَـطَـعْـتَ فإنَّمَا كَـلامُـكَ حيٌّ والسُّكُوتُ جَـمادُ !

فإنْ لَـمْ تَـجِـدْ قَـوْلاً سديدا تقُـولُـهُ فَـصَـمْـتُـكَ عنْ غَـيْـرِ السَّدادِ سَـدادُ

وقال ابن الرومي . وقد سمع رجلا يثني على آخر مبالغا :

إذا ما وَصَـفْـتَ امْرءًا لامْـرِيءٍ فلا تَـغْـلُ في وصْـفِـهِ واقْـصِـدِ :

فإنَّـكَ إنْ تَـغْـلُ تَـغْـلُ الظُّـنُـونُ فيــهِ إلى الآمِــدِ الأبْـعَـــد

غيــره :

ألَـم ترَ أنَّ الدَّهْـرَ من سوءِ فِـعْـلِـهِ يُـكَـدِّرُ ما أعْـطى ويَـسْـلُـبُ ما أسْدى

فَـمَـنْ سَـرَّهُ ألاّ يـَرى ما يَـسُـوءُهُ فلا يَـتَّـخِـذْ شَـيْـئًـا يَـخافُ لَـهُ فَـقْـدًا

غيــره :

إنَّـمـا الدُّنْـيـا هِـبَـاتٌ وَعَـــوَارٍ مُـسْـتَـــرَدَّهْ

شِـدَّةٌ بَـعْـدَ رَخَـــاءٍ ورَخَـاءٌ بَـعْـدَ شِـدَّةٍ

غيــره :

لوْ أن ما أنْـتُـمُ فيهِ يدومُ لَـكُـمْ ظَـنَـنْـتُ ما أنا فيهِ دائمًا أبَـدًا !

لَـكِـنَّـني عالِـمٌ أنّـي وأنَّـكُـــمُ سَـنَـسْـتَـجِـدُّ خِـلافَ الحالـتَـينِ غَـدا

غيــره :

صِلْ مَـنْ دَنا وتَـنَاسَ مَـنْ بَـعُـدا لا تُـكْـرِهَـنَّ على الهَـوى أحَـدا

قَـدْ أكْـثَـرَتْ حَـوَّاءُ إذْ وَلَـدَتْ إذا جَـفا وَلَـدٌ فَـخُـذْ وَلَـدًا !

غيــره :

إذا اجْتَمَعَ النَّاسُ في واحِدٍ   وخَالَفَهُمْ في الرِّضى واحِدُ
فَقَدْ دَلَّ إجْماعُهُمْ دونَهُ   عَلى عَقْلِهِ أنَّهُ فاسِدُ !

غيره :

وإخْوانٍ تَخِذْتُهُمُ دُرُوعًا   فَكانُوها ولَكِنْ للأعَادِي
وَخِلْتُهُمُ سِهَامًا صَائبَاتٍ   فَكَانُوها ولَكِنْ في فُؤادِي
وقالوا : قَدْ صَفَتْ مِنَّا قُلوبٌ   لَقَدْ صَدَقوا ولكِنْ منْ وِدادِي
وقالوا : قَدْ سَعَيْنا كُلَّ سَعيٍ   لقدْ صَدَقوا ولكنْ في فَسادِي !

وقال أبو محمَّد الحريري :

ولمَّا تَعَامى الدَّهْرُ وهْو أبو الورى   عن الرُّشْد في أنْحائه ومقاصدهْ
تعاميْتُ حتى قيلَ إنِّي أخو عمًى   ولا غروَ أن يحذو الفتى حَذْوَ والدهْ !

ولـه :

والشِّبْلُ في البخَر مثل الأسد

ولهأيضـا :

من ضامه أو ضاره دهْـرُهُ   فَلْيَقْصِدِ القاضِي في صَعْدَه
سماحه أزْرَى بِمَنْ قَبْلَهُ   وعَدْلُه أتْعَبَ مَنْ بَعْدَه

ولـه أيضـا :

خُذْهَا إلَيْكَ وصِيَّةً   لَم يُوصِهَا قَبْلِي أحَدْ
غرَّاءَ حَاوِيَةً خُلاَصَاتِ   المَعَانِي والزُّبَدْ
نَقَّحْتُهَا تَنْقِيحَ مَنْ   مَحَضَ النَّصِيحَةَ واجْتَهَدْ
واعْمَلْ بِمَا مَثَّلْتُهُ   عَمَلَ اللَّبِيبِ أخِي الرَّشَدْ
حتَّى يَقُولَ النَّاسُ هَذَا   الشِّبْلُ مِن ذَاكَ الأسَدْ !

وقال ابن السَّاعاتي :

حُددت بِجَفْنَيْها على رشْف ريقها   ومن شَرِبَ الصَّهْباءَ يُلزم بالحدِّ

وقال شرف الدين الحَمَويّ :

ونحن مَعاشِرٌ نأبى الدَّنايَا   ونلْبَسُ من صوان العِرضِ بُرْدًا
نُعانقُ من رماحِ الخطِّ بانًا   وننشقُ من سُيوفِ الهِند وردا

وقال المُتلمِّس :

إنَّ الهوانَ حمارُ الذُّلِّ يألفُه والحرُّ ينكِرهُ والفيلُ والأسَدُ
ولا يُقيمُ بدارِ الذُّلِّ يألفُها إلاّ الأذلاّن : عَيْرُ الحيِّ والوتدُ
هذا على الخَسْفِ مربوطٌ برُمَّته وذا يُشجُّ فلاَ يَرْثِي لَه أحدُ !

وقال ابن قُلاقِس :

إنَّ مُقامَ المرءِ في بيتِهِ مثلُ مُقامِ الميْتِ في لحْدِهِ
فواصِلِ الرِّحْلَةَ نحوَ الغنى فالسَّيفُ لا يَقْطَعُ في غِمْدِهِ
والنَّارُ لا يُحرِقُ مَشْبُوبُهَا إلاّ إذا ما طَارَ عَنْ زَنْدِهِ

غيره :

قد تعفَّفتُ وارتضيتُ بِتَرفِيعِ زمانِي وقُلتُ إنِّيَ وحْدِي
لا لأنِّي أنفْتُ مَعْ ذَا من الكُدْ يَةِ أيْنَ الكرامُ حتَّى أكَدِّي

وقال أبو دُلَف :

أطْيَبُ الطَّيِّباتِ قتلُ الأعادي واخْتيالي على مُتُونِ الجِيادِ
ورسولٌ يأتِي بوَعْدِ حَبِيبٍ وحَبيبٌ يَأتِي بِلاَ مِيعَادِ

وسببه أنَّه قد قيل لأعرابي : ما أمتعُ لذّات الدنيا ؟ فقال : بيضاء رُعْبُوبة، بالشحم مَكْرُوبة، بالمسك مشْبُوبة . وسئل الأعشى فقال : صهباءُ صافية، تمزجُها ساقية، من صَوْب غادِيَة . وسئل طرفة عن ذلك فقال : مَركَبٌ وطِيّ، وثوبٌ بَهِيّ، وطُعْمٌ شَهِيّ . قال بعضهم : فحدَّثت بذلك أبا دُلَف فقال :

أطْيبُ الطَّيِّباتِ ... (البيتين)

وقال : وحدَّثت بذلك حُمَيْدًا الطُّوسيّ فقال :

فلولاَ ثلاثٌ هنَّ من عيشَةِ الفتى وجدِّك لم أحْفِلْ متى قام عوَّدي[27]
فمنْهنَّ سبقُ العاذلاتِ بِشَربةٍ كُميتٍ متى ما تُعْلَ بالماء تُزبِدِ
وكرِّي إذا نادى المُضافُ مجنَّبًا كسِيدِ الغَضى نبَّهْتَه المتورِّدِ[28]
وتقْصير يوم الدَّجنِ والدَّجْنُ مُعجبٌ ببهْكنةٍ تحت الطِّرافِ المُعمَّدِ[29]

27) في زهر الآداب فلولا ثلاثٌ هُنَّ من لذَّة الفتى
28) في زهر الآداب أيضا : كسيد الغَضَى ذي السَّوْرَة المتورِّد
29) وفيه أيضا : ببهكنة تحت الخباء المعمَّد .

قال : وحدّثت بذلك الزبير بن عبد الله فقال : ما أدري ما أقول ولكنّي أقول :

فاقْبَلْ من الدّهْرِ ما أتاك به من قرَّ عينًا بعيْشِهِ نفَعهْ !

قلت : والأبيات الأربعة التي أنشدها حميدٌ ليست له، وإنّما تمثّل بها، وهي لطرفة بن العبد من قصيدته الداليّة المشهورة ؛ وكذا البيت الذي أنشده الزبير هو لشاعر قديم، وسيأتي ذكره مع غيره في موضعه . وشيع طرفة في ذكر الثلاث جماعة من الفضلاء . فمن ذلك قول عزّ الدين بن هبة الله المعتزلي معارضا :

لَولاَ ثلاثٌ لم أخَفْ صرعَتِي ليْسَت كما قَالَ فتى العَبْدِ

أن أنْصُرَ التّوحيدَ والعدلَ في كلّ مكانٍ باذلاً جُهْدِي

وأن أناجي اللّهَ مُستمتعًا بخَلْوةٍ أحْلى من الشّهْدِ

وإنْ أتِيهَ الدّهْرَ كِبْرًا على لئيمٍ [بياض] الخَدّ

لذاكَ أهْوَى لا فَتَاةٌ ولاَ خَمْرًا ولاَ ذَا مَيْعَةٍ نَهدِ

وقول الآخر :

لَولا ثلاثٌ هُنّ و[اللّه من][30] أكْبَر آمالي فِي الدُّنْيا :

حجٌّ لِبَيْتِ اللّهِ أرجو بِهِ أن يقْبَلَ التّوبَةَ والسّعْيا

والعِلْمُ تَحْصِيلاً ونَشْرًا لما رويتُ أو سعْتُ الورى ريًّا

وأهْلُ ودٍّ أسألُ اللّهَ أن يُمْتِعَ بالبُقْيا إلى اللُّقْيَا

ما كُنتُ أخْشى الموتَ أنّى أتى بَلْ لم أكُنْ التذُّ بالمَحْيا !

وقال أثير الدين :

أما إنّهُ لولا ثلاثٌ أحِبُّها تمنّيْتُ أنّي لا أعَدُّ من الأحْيَا

فمنْهُنّ صوني النّفْسَ عن كلّ جاهلٍ لئيمٍ فلا أمْشي إلى بابه مَشْيَا

ومنها رجائِي أن أفوزَ بتوبَةٍ تُكفّرلي ذنْبًا وتُنجحُ لي سَعْيَا

أتَتركُ نصًّا للرّسولِ وتقْتدي بشخْصٍ لقدْ بُدّلْتَ بالرّشَد الغيًّا ؟

وقول الصّفَدِيّ :

لولا ثلاثٌ هنّ أقْصى المُنى لم أهَبِ الموتَ الّذِي يُرْدِي :

تكْميلُ ذاتي بالعُلُومِ الّتِي تَنْفَعُني إنْ صرتُ فِي لَحْدِي

30) سقط من ب .

والسَّعْيُ في ردِّ الحُقُوقِ الَّتي أصاحبي نلتُ بها قَصْدِي
وأن أرى الأعداءَ في صَرْعَةٍ لَقيتُها في جَمعهمْ وحْدِي
فَبَعْدَهَا اليومُ الَّذِي حمَّ لي عنْدِي استَوَى في القُربِ والبُعْد

وقولي أنا من هذا الباب :

لولاَ ثلاثُ فوائِدٍ تُرجَى لَمَا أحْبَبتُ تنْفيسَ الحَياة إلى مَدا

قُربٌ من المَولَى وعِلْمٌ نافعٌ وأخٌ يُؤازِرُني ويشْفَعُ لي غَدَا

وذكر الجاحظ أنَّ عمر بن الخطَّاب، رضي الّله عنه، أنشده رجل قول طرفة المذكور فقال : لولا أن أسير في سبيل الّله، وأضع جبهتي لّله، وأجالس أقواما ينتقون أطايب الحديث كما ينتقون أطايب الثمار، لم أُبال أن أكون قدمتّ . قال : وقال عامر بن عبد الله القيسيّ : ما آسى من العراق إلا على ثلاث : على ظمإ الهواجر، وتجاوب المؤذّنين، وإخوان لي منهم الأسْودُ بن كلثوم . وقال أعرابي :

لوْلا ثلاثٌ هنَّ عيشُ الدّهر : الماءُ والنَّوْمُ وأُمُّ عَمْرِو
لَمَا خَشِيتُ مِنْ مَضِيقِ القَبْرِ

وقال الآخر :

صُنْتُ نفسي عمَّا يليقُ بمثْلي وتحصَّنْتُ بالجفاءِ الشَّديدِ
مَا يُساوي قَضَاءُ حقِّ المَوالِي ما يُقَاسَى مِن سُوءِ خُلقِ العبيدِ !

وقال البحتري :

ولستَ تَرَى شَوكَ القتادَةِ خائفًا سُمومَ الرِّياحِ الآخِذاتِ من الرَّنْدِ
ولا الكلْبَ محْمُومًا وإن طَالَ عُمرهُ ألا إنَّمَا الحُمَّى على الأُسْدِ الوُردِ

غيره :

لقَد كسَدتْ سوقُ الفضائلِ كلِّها ولَلهَزلُ أحْظى في الزَّمانِ من الجِدِّ
فلستُ أرى إلاَّ كَريمًا يَفِرُّ مِن لَئيمٍ وحُرًّا يشتكي الضَّيمَ من عبْدِ !

غيره :

وما زالَ هذا الدَّهرُ يلحَنُ في الورى: فيرفَعُ مجْرورًا ويخْفضُ مُبْتَدا

وقال ابن سَنَاءِ المُلْك :

أبى الدّهر إلاّ ضدّ ما أنا طالبٌ فيا ليت منّي مكَّن اللّهُ ضدّهُ !
يعدُّ الفتى إخْوانَهُ لِزَمَانِه وأعْدَى له من خَوْفِهِ مَنْ أعدّهُ

غيره :

تحفَّظْ من ثيابِكَ ثمَّ صُنْهَا وإلاّ سَوفَ تَلْبَسُهَا حِدَادَا
وميِّزْ عَن زمانِكَ كُلَّ حِينٍ ونافِرْ أهْلَهُ تسُدِ العِبَادا
وظُنَّ بسائرِ الأجْنَاسِ خَيْرًا وأمَّا جِنْسُ آدَم فالبعَادَا !
أرادُونِي بجَمْعِهِـــمُ فرُدُّوا على الأعْقَابِ قَدْ نَكصوا فُرادى
وعادوا بعد ذا إخْوانَ صدقٍ كَبَعْضِ عَقَاربٍ رجَعُوا جِدَادَا

وقال الأرَّجَانِيّ :

أرى بين أيَّامي وشَعْرِيَ قَد بَدا لتَعْجيلِ إتْلافي خِلافًا يُجدِّدُ
فقد أصْبحَتْ سودًا وشعْرِيَ أبيضًا وعهْدِي بها بيضًا وشِعْرِي أسودُ !

وقال بعض أهل المجون :

تعشَّقْتُه شيخًا كأنَّ مَشِيبَهُ على وجْنتَيْهِ يا سمينٌ على وردِ
أخا العقْلِ يَدرِي ما يُراد من النُّهى أمِنْتُ عليهِ من رقيبٍ ومن ضِدٍّ

غيره :

لامَ العواذلُ إذ عَشقْتُ فتًى له سبْعونَ عامًا غيرَ عامٍ واحِدِ
لا تعْذلوني في هَواهُ فإنَّني عاينتُ فيهِ لمْحةً من والِدِي !

قيل لبعض أهل المجون : لِمَ لا تميل إلى النسوان ؟ قال : أذكر أمّي فاستحيي . فقيل له : لِمَ لا تذكر بالذكور أباك ؟ وعكس هذا الشاعر ذلك المعنى . ومن هذا النمط قول بهاء الدين بن النحّاس :

قالوا: حبيبُكَ قد تبدّى شيبُه فلِإلاَمَ قلبُكَ في هواهُ يهيمُ ؟
قلت : اقْصُروا فالآنَ تمَّ جماله وبَدا سفاهُ فتًى عليه يلُومُ
الصُّبحُ غُرَّتُه، وشَعْرُ عِذاره ليلٌ، ونبتُ الشَّيبِ فيه نجومُ

وقول ابن الوكيل، وهو لطيف لولا عيب القافية :

شَبَّ وجْدِي بِشَائِبٍ　　مِنْ سَنَا البَدْرِ أوْجَهُ
كُلَّمَا شَابَ يَنْحَنِي　　بَيَّضَ اللّهُ وجْهَهُ !

وقال الصفدي :

عَشقتُ شيْخًا بديعَ حُسنٍ　　لامَ على حُبِّهِ العَذُولُ
كأنَّ يا قوتَ وجْنَتَيْهِ　　لا شَيْبَ فيها جِبَالُ لُولوُ

أي لُؤْلُؤ . وقال الآخر :

شمسُ الضُّحى يُعشى العُيونَ ضياؤها　　إلاَّ إذا رُمقَتْ بعينٍ واحدهْ
فلذاكَ تاه العورُ واحتقروا الورى　　فاعرِفْ قضيَّتَهُمْ وخُذها فائدهْ !
نُقْصانُ جارحةٍ أعانَتْ أُخْتَها　　فكأنَّها قويَتْ بعيْنٍ زائِدهْ

وقال أبو نواس :

إنِّي وما جَمَّعتُ مِنْ صَفَدِ　　وحَويْتُ مِن سَبَدٍ ومِن لَبَدِ
هِممٌ تصرَّفتِ الخُطُوبُ بِهَا　　فنزعْنَ مِنْ بَلَدٍ إلَى بَلَدِ
يا ويْحَ مت حَسَمَتْ قناعَتُهُ　　سَبَبَ المطامِعِ عن غدٍ فَغَدِ
لو لم يكُنْ لّلهِ مُتَّهِمًا　　لم يُمْسِ مُحْتاجًا إلَى أحَدِ !

وقال محمَّد بن كِنَانَة الأسَديّ :

ومن عَجبِ الدُّنْيا تيقُّنُكَ البِلا　　وأنَّكَ فيها لِلْبَقاءِ مُريدُ
إذا اعتادتِ النَّفس الرِّضاع من الهوى　　فإنَّ فطامَ النَّفْسِ عنْهُ شَديدُ

وقال الامام البوصيري، رحمه الّله تعالى، يمدح الشيخ أبا العبَّاس المرسي، رحمه الّله ونفع به :

قُل للذينَ تكلَّفُوا زِيَّ التُّقَى　　وتخيَّروا للدَّرسِ ألْفَ مُجلَّدِ :
لا تحسبوا كَحَلَ الجُفونِ بحِيلَةٍ　　إنَّ المَهَى لم تكتَحِلْ بالاثْمِدِ !

الكَحَلُ ـ بفتحتين ـ أن يعلُوَ منابتَ الأشفار سوادٌ خِلقةً، أو هو أن تسودَّ مواضع الكحل . يقال : كَحِلَتْ ـ بالكسر ـ فهي كَحْلاَءُ، وهو أكْحَلُ . وهذا مثل قول الآخر :

لَيْسَ التَّكحُّلُ في العينَيْنِ كالكحَلِ

وسيأتي . وقال الآخـر :

وكنَّا كزوجٍ من قطا في مفازةٍ لدى خفْض عيشٍ مُعْجبٍ مونقٍ رَغْد
أصابهما ريبُ الزّمانِ فأفْردا ولم نر شيئًا قطُّ أو حشَ من فردِ
حُكي عن أبي السَّمَوْءل قال : دخلت منزل نخَّاس في شراء جارية، فسمعت في بيت بإزاء البيت الذي كنت فيه صوت جارية وهي تقول :

وكُنَّا كَزَوْجٍ ...(البيتين)

فقلت للنخَّاس : اعرض عليَّ هذه المنشدة ! فقال : إنَّها شَعْثَة مَرهَاءُ حَزينَة . فقلت: ولِمَ ذاك ؟ قال : اشتريتها من ميراث، فهي باكية على مولاها . ثمَّ لم ألبث أن أنشدت :

وكنَّا كغُصْنَيْ بانةٍ وسْطَ روضةٍ نشُمُّ جنى الرَّوضات في عيشةٍ رَغْد
فأفْردَ هذا الغُصنَ من ذاك قاطعٌ فيا فردةً باتت تحنُّ إلى فردِ !

قال أبو السَّموءل : فكتبت إلى عبد الَّله بن طاهر أخبره بخبرها، فكتب إليَّ أن ألْقِ هذا البيت عليها، فإن أجابت فاشترها ولو بخراج خراسان ! والبيت هو :

قَريبٌ صدَّ بُعَيْدَ وصْلٍ جَعَلْتُهُ مِنْهُ لِي مَلاذا

قال : فألقيته فقالت في سرعة :

فعَاتَبُوهُ فَذابَ شَوقًا ومَاتب عِشْقًا فكانَ مَاذا ؟

قال : فاشتريتها وحملتها إليه فماتت في الطريف، فكانت إحدىالحسرات .

وقال عمرو بن معدي كرب :

أُريدُ حياتَهُ ويُريدُ قَتْلي عذيرَكَ من خَليلِكَ من مُرادِ

وهذا مثل مشهور، كان عليّ كرَّم الَّله وجهه ـ فيما يروون ـ يتمثَّل به عندما يرى ابن مُلْجم . وتمثَّل به غيره أيضا، كما مرَّ في حرف الهمزة . والعذِيرُ : العَاذِرُ والحال التي تحاولها لتُعذر عليها . والعرب يقولون : **عَذِيرَكَ مِنْ فُلاَنٍ**، وينصبونه بعامل لا يظهر . والمعنى : هَلُمَّ من يعذرك من فلان، فيلومه ولا يلومك، كما قال النبيّ صلَّى الَّله عليه وسلَّم : **مَن يَعْذِرُني من أنَاس أبَنُوا أهْلي** في حديث الافك.

وقال زيدُ الخَيل :

أمرْتحلٌ قومي المَشَارِقُ غُدْوةً وأتْرَكُ في بيتٍ بفردةٍ منجدِ ؟
ألا رُبَّ يومٍ لو مرضْتُ لعادني عوائدُ من لم يبر منهن يجْهدِ

فليت اللّواتي عُدنني لم يَعُدنني ... وليتَ اللّواتي غِبنَ عنّيَ شُهَّدي !

وقال أعرابي :

إذا وجدت أوارَ الحبِّ في كبدي ... أقبلتُ نحو سقاءِ القومِ أبْتردُ

هبني بردتُ ببردِ الماءِ ظاهره ... فمن لنارٍ على الأحشاءِ تتّقِدُ

وقال الآخر :

ما لعيني كحِلَتْ بالسُّهادِ ... ولجنْبي نائيًا عن وسادِي ؟

لا أذوق النَّومَ إلاّ غرارًا ... مثل حسْوِ الطّير ماء الثّمادِ

أبتَغي إصْلاحَ سُعْدى بجُهْدٍ ... وهيَ تسعَى جُهدها في فَسادِي

فَتتاركْنا على غيْرِ شَيءٍ ... ربَّما أفْسَدَ طُولُ التَّمادِي

وقال المعتمد بن عبّاد في باب الغزل :

أباحَ لطيفي طيفُها الخدَّ والنّهْدا ... فعضَّ به تُفّاحةً واجْتنى ورْدًا

ولو قدرتْ زارتْ على حالِ يقظةٍ ... ولكن حجابُ البينِ ما بيننا مُدّا

أما وجَدتْ عنّا الشُّجونَ مُعرَّسًا ... ولا وجدت منّا خُطُوبُ النَّوى بُدًّا ؟

سقى الّله صوبَ القطر أمَّ عُبيدةٍ ... كما قد سقَت قلبي على حرِّه بَردا

هي الظّبْيُ جيدًا والغزالةُ مُقلةً ... وروضُ الرُّبا عَرْفًا وغُصنُ النَّقى قدًّا

وقال الرئيس أبو مروان بن رزين :

وروضٍ كساهُ الطّلُّ وشْيًا مُجدّدا ... فأضْحى مُقيمًا للنُّفوس ومُقْعِدا

إذا صافحتْه الرِّيحُ خِلْتَ غُصونَه ... رواقِصَ في خُضْرٍ من العُشْب مُيَّدا

إذا ما انسكابُ [الماء] عاينتَ خلتَه ... وقد كسرتْه راحةُ الرِّيحِ مبْردا

وإن سكنت عنه حسبتَ صفاءهُ ... حُسامًا صقيلاً صافيَ المتنِ جرِّدا

وغنَّت به وُرقُ الحمائمِ بيننا ... غناءً يُنسِّيك الغَريضَ ومعْبَدا

فلا تجْفونَّ الدَّهْر ما دام مُسْعدًا ... ومُدَّ إلى ما قد حباكَ به يَدا

وخُذْها مُدامًا من غَزالٍ كأنَّهُ ... إذا ما سَقى بدرٌ يُحمِّلُ فرقَدا

وقال ابو بكر بن عمّار، من قصيدة :

وما هذهِ الأشْعَارُ إلاّ مجامرٌ ... تضوَّعَ فيها لَلنَّوَى قِطعُ النَّدِّ

وقال أيضـا :

تبرَّعتَ بالمعروفِ قبلَ سُؤالِهِ وعُدتَ بما أوليتَ والعودُ أحمَدُ

وقال أبو الحسن بن الحاج اللُّورَقِيّ يتغزَّل في معذِّر :

وقد كان يُنْبِتُ زهْرَ الرياضِ فأصبَحَ يُنْبتُ شوكَ القَتادِ

أبِنْ لي متَى كان بَدْرُ التَّمام يُدركُ بالكونِ أو بالفسادِ

وهل كُنتَ في المُلكِ من عبد شمسٍ فأخْفى عليكَ ظُهورُ السَّوادِ ؟

وقال أبو محمَّد بن عبد البرّ في مجذوم :

ماتَ مَنْ كُنَّا نراهُ أبداً سالمَ العقْلِ سقيمَ الجَسَدِ

بحرُ سُقمٍ ماج في أعْضائِه فرمى في جِلْدِهِ بالزَّبَدِ

كان مثلَ السَّيْفِ إلاَّ أنَّهُ حُسِدَ الدَّهْرُ عليهِ فَصَدِي

وقال أبو بكر بن الملح :

والرَّوضُ يبعثُ بالنَّسيمِ كأنَّما أهْداهُ يَضْربُ لاصطباحك موعدا

سَكرانُ من ماءِ النَّعيمِ فكُلَّما غنَّاهُ طائرُهُ وأطْربَ ردَّدا

يَأْوِي إلى زهرٍ كأنَّ عُيُونَه رُقباءُ تعْقِدُ للأحبَّةِ مرصَداً

زهرٌ يبوحُ به اخْضرارُ نباتِه كالزُّهرِ أسْرجَهاَ الظَّلامُ وأوقَدا

ويبيت في فننٍ توهَّم ظلَّه بالصُّبْحِ في عينِ القرارةِ مِرْوداً

قَدْ خفَّ موقِعُه عليه وربَّما مَسح النَّسيمُ بعِطْفِه فَتأوَّدا

وقال الفقيه أبو الحسن بن زنباع :

ومن يُطْفي بنزْرِ الماءِ ناراً فليس يزيدُها إلاَّ اتّقاداً

وقال أبو جعفر التُّطيلِي :

تنافس النَّاسُ في الدُّنيا وقد علموا أنْ سَوفَ تقتلُهم لذَّاتُها بَدَدا

تَبَادروها وقَد آذَتهمُ فشَلاً وكاثروها وقَد أحْصَتْهُمُ عَدَدا

قُلْ للمحدِّثِ عن لُقْمانَ أو لُبدٍ: لم يترُك الموتُ لُقمانًا ولا لُبَدا !

ولا الَّذي همُّه البُنيانُ يرفَعُه : إنَّ الرَّدى لم يُغادر في الشَّرى أسَداً !

ما لابنِ آدمَ لا تفْنى مَطالبُه يرجو غداً وعَسى ألاَّ يعيشَ غَدا ؟

وقال الآخر :

باح مجنونُ عامرٍ بهواهُ وكتمتُ الهوى فمتُّ بوجدي
فإذا كان في القيامةِ نودي : من قتيلُ الهوى ؟ تقدَّمتُ وحدي !

وقال الآخر :

يقولون : إنَّ الحبَّ كالنَّار في الحشى لقد كذبوا فالنَّارُ تذكو وتخمُدُ
وما هو إلاَّ جذوةٌ مسَّ عودها تُسعِّر قلبًا للمشوقِ وتوقِدُ !

وقال الآخر :

أمسِك ملامكَ عنِّي إنَّني كَمِدُ إذ لم تجد في الهوى يومًا كما أجِد !
إن لم تُصدِّق دموعي في الَّذي شهدت فانظُر إلى جَسدي إن كان لي جسَدُ
يا ويحَ أهلِ الهوى إنِّي لأرحمُهم تبلى الجسوم وأثواب الهوى جُدُدُ
لولا ترحُّمُهم أيقَنْتُ أنَّهُمُ يشْقون دهرهُم أضعاف ما سعدوا !

وقال الآخر :

كفى حزنًا أنِّي مُقيمٌ بلذَّةٍ وأحبابُ قلبي نازحونَ بَعيدُ
أقلِّبُ طرفي في الدِّيارِ فلا أرى وجوهًا لأحْبابي الَّذين أريدُ !

وقد قلت في غرض الباب قصيدة، فرأيت أن أثبتها هنا، وإن كان فيها بعضُ طول، وهي :

أبى الدَّهر إلاَّ أن يجورَ عن القصْد وأن يعْكس الآمال في كلِّ ما يُبدي
ويبسُط بين الفرقَدين يَد النَّوى ويُدني الثُّريَّا من سُهَيْل على بُعد
ويسمُوَ بالوهد الحضيض على الذُّرى ويسفُل بالطَّودِ السَّميِّ على الوهْدِ
ويستبدل البرديَّ في الطَّعنِ بالقنا وغُصن النَّقى الأمْلودَ بالصَّارم الهنْدي
وأن يجعل العقْبان في الجوِّ طُعمةً لورقاء والضِّبْعانَ مفْترسَ الأسْدِ
ويَهديَ بالضَّبِّ القطاةَ رَكِيَّةً على العشْرِ والسِّمْعَ التنائفَ بالخُلدِ
ويرفعَ أقدارَ اللِّئامِ على الأُلى لهم قدمٌ في المجد والشَّرفِ العدِّ
ويُوليَ تدبيرَ الورى كلَّ مائقٍ وفضْلَ الغنى كلَّ امرىءٍ شكِسٍ نكْد
أجل إنَّها الأحداث تجري مُدارةً مقاليدها في قَبْضَةِ الصَّمد الفردِ !
مقادير منه أبرمت عن مشيئةٍ قديمًا وعن علمٍ مُحيطٍ وعن قصْدِ
وعدلٌ واحكامٌ مبينٌ وحِكْمةٌ تحارُ النُّهيَ في نيلِ فيَّاضها المدِّ
وليست بما تهوى النُّفوس صرُوفُها ولا حذرُ المُحتال في صرفِها يُجْدِي

ولا يُحرمُ الوفْرَ الفتى بجهالةٍ وعجْزٍ ولا يحْظى بعقلٍ ولا كدٍّ
ولكنَّها الأرزاقُ أعْـدِدْنَ للفتى قديمًا على قدرِ الشّقاوةِ والجَدِّ
فكائنْ رأينا من حليـمٍ مُقتّـرٍ عليه وغمْرٍ بات في عيشةٍ رَغْدِ
أراني عَروفًا بالزّمان فمن يكُن كمثْليَ لم يُصبِحِ على الدّهر ذا نقْدِ
ولم يبْتئِس إن مسّه بمضوفةٍ ولم يزْهُ بالدّنيا إذا فاز بالوجْدِ
وقد قرعَتني الحادثاتُ فلم تلِن قناتي لِغَمْزٍ من شباها ولا لَهْدِ
وما رسْنني حتّى نزعْن عن امرئٍ بعيد الهوى ثبْتِ الحشا حازمٍ جَلْدِ
إذا ظفرت كفّاه لم يزْه فاخرًا وإن نيل لم يضرعْ ولم يُمْس ذا وجْدِ
فأصْبحتُ لا آسى على فقد هالكٍ ولا يعْتريني بينُ غانيةٍ رأدِ
ولا أبتغي ودّ امرئٍ عن تكلّفٍ وإن كان حُسنُ العَهْدِ ديني لذي ودٍّ
ولو ملّني يومًا من الدّهر معْصمي لفارقْتُه طوعًا ولم يَشْكُهُ عضْدي
ورُبَّ غبيٍّ يَزْدَرِينيَ إن رأى شُحوبيَ من أحْداثِ آونَةٍ لُدِّ
ولم يدر أنّ الأجْردَ النّهدَ فضْلُه بإحْضارهِ لا بالّلجامِ ولا الّلبْدِ
وأنّ الحُسامَ الهنْدوانيّ إنّما بمضْربِه يعْتامُ لا جِدّةِ الغِمْدِ
وأنّ رُواء الوهْم لم يُبْق عزّةً عليه إذا ما قادهُ أصْغَرُ الولْدِ

الوهْمُ : الجَمَلُ العظيم الذّلُول، ورُوَاؤُهُ : منظره .

وأنّ برأسِ الهُدهد التّاجَ وهْوَ لم يفُز بالّذي للباز والنّسر من مُجْدِ
وأنّ بهار الدّفلِ كالوردِ منْظرًا وحُسنًا وبعد الخُبر محْمَدةُ الورد
وغمرٌ جهولٌ يرتجي نيلَ منصبي رجاء حضيضٍ أن سيرقى إلى النّجْدِ
ويصبو إلى ما نلتُه مثلَ ما صبا حصورٌ إلى ما نيل من عذرِ الخُردِ
ويسعى إلى إدراك شأوي كما سعت أتانٌ خريعٌ خَلْفَ صافِنَةٍ جُردِ
وغَرّتْه منّي لينةٌ وبشاشَةٌ كما غرَّ غمرًا كشرةُ الأسَدِ الوردِ
ومن مدَّ للبدرِ المنيرِ يمينَهُ ليُمسكَه فليستْبِنْ ضيعةَ المَدِّ !
وذي ثروةٍ يستأمني بلُعاعةٍ ليقْتادني قود الوديقِ إلى الوردِ
ولم يدر أنّي أجْتوي الأري شابهُ هوانٌ وأستحْلي بعزٍّ جَنى الهَبْدِ
وأن لستُ للباغيّ ضيمًا بمُصحبٍ ولا باذلٍ ماءً بوجْهي على شَكْدِ

وأنّي لو أرتادُ ما ضاق مذْهبي بحولٍ ولم يصلِد لمفْلقةٍ زنْدي
ولكنَّ صَوْنَ النّفس عن كلِّ موردٍ تُهانُ به أحْظى بعزّتها عنْدي
وإنّي لفضْفاضُ السّجايا دميثُها لالِفْي ونشّابٌ إذا شئتُ في اللُّغْدِ
وأنَّ لساني الصّبرُ ما لم أزُمَّهُ وإن كان أحْلى للودودِ من الشّهْدِ
وأنّيَ لو هاجيْتُ دانَ ابنُ غالبٍ لأمري ولم يعْرض لسيلي فتى العبْدِ
ولولا ثلاثٌ هنَّ أجْرِرنَ مقْولي عن الشّرِّ وائْتَمّتْ به جُدد الجدِّ :
فمنها تحاشى أن يمُرَّ به الخَنا فإنَّ الخنا من شيمةِ الدّانيء الْقِدِّ
ومنها تجافي أن أناصِب معْشرًا لئامًا فمن لُؤمٍ مُناصبةُ الوغْدِ
ومنها التّحامي عن وعيد الّتي إلى مداها جميعُ العالمين على وخْدِ
وما المرءُ إلاّ حيث حلَّ برحْلِه فكُن نازلاً بالنّفس في يفَعِ الحمْدِ
وكُن رابئا عن كلِّ وردٍ دنيّةٍ بنفسكَ تغشاهُ مع الشُرّع الوردِ
وحُمْ بجناب الورْدِ إن كنت صاديًا فإن تسترِبْ فلْتولِهِ صفْحةَ الصّدِّ
كما أعرضَت كُدْرٌ عنِ الماء عندما توجّسْن ذعرا فانثنيْن على جُهْدِ
ولاتَكُ كالعَيْرِ الوديقِ يؤمُّهُ فيُحْلأُ عنه بالهراوى وباللّكْدِ !
فإنَّ حياضَ العزِّ تُغشى سخينةً وإنَّ حياض الذُّلِّ تُقْلَى على بردِ
وما ضيمَ غير الفقْعِ يوطَأ بمنسمٍ على قرقرٍ من غيرنُكْرٍ ولاردِّ
وغيرُ تريكٍ بيضَهُ بلديّةٍ وغيرُ أتانِ الحيِّ تعصى أو الودِّ
وكُن حافظًا بالغيب والسُخط والرِّضى لعهد مُصافيكَ الهوى دائم الودِّ !
ألمَّ بنا إلمامةً بعد هدْأةٍ من اللّيلِ طيفٌ من أُميمةَ أو هنْدِ
سرى ورواقٌ من دجى اللّيل مُطنبٌ بما لو سرتْه الرِّيح ضلَّت من البُعد
فلم أر مثل الطّيف جوّابَ لاحِبٍ بلا سائقٍ يحدو ولا سابقٍ يهدِي
ولا والجًا لا يُغْلقُ البابُ دونَه ولا يُتّقى منه بسورٍ ولا سَدِّ
وآمنَ من لحظِ الرّقيبِ وريْبِهِ إذا زار منه والرّقيبُ على رصْدِ !
فهيّجَ أشْجانًا من القلبِ وانثنى بلا طائلٍ منها عتيدٍ ولا وعْدِ
بأسرعَ من لحظِ الجفونِ إذا رنا إليك وبالبرقِ الوميضِ من الرّعْد
[فيا ليت شعري والحوادثُ جمّةٌ وعهْدُ الغواني كالسّراب على صلْدِ !

أقامت على ما بيننا من صبابةٍ ... أُميمةُ أم غيَّتْ مودَّتُها بعْدِي ؟
فخالِكِ من الأخْدانِ كلَّ مُساعدٍ ... على أيِّ حالٍ خُضتَه صادقِ العهْد
حليمٍ غضيضِ الطَّرف عمَّا يريبُه ... سليم الحشا من هاجِس الضِّغن والحقد !
فإنَّ ودادَ المرء كالظِّلِّ زائلٌ ... إذا لم يكُن بين الجوانح عن عقْدِ
وإنَّ حِبال الوصلِ منقوضةُ العُرى ... إذا لم تكُن في القلب مُحكمة المسْدِ
وإنَّ بنـــاءً شدتَهُ وأشدتَهُ ... لواهٍ إذا لم يُرس عن ثابتِ العُمْد
وإنَّ ركيَّـــا رُدْتَه ووردْتَهُ ... لَغَوْرٌ إذا لم يُزكَ من باطنِ المَدِّ
فهل تستـوي عادية بخميلةٍ ... بها الماء عدٌّ دائمٌ بِحِسَى ثَمْدِ ؟
وإنَّ أليفَ المرء إلفٌ مُشاكلٌ ... وأحْسنُ شيءٍ ضمُّك النِّدَّ للنِّدِّ
ولا تطمعن من غير شكلٍ مودَّةً ... تدوم ويجني الودُّ فيها على الودِّ !
فإنَّ السَّجايا في الأنامِ سويَّةٌ ... وشتَّى وبدعٌ صُحبةُ الضِّدِّ للضِّدِّ
وإنَّك ما أبصرت أُسدًا أليفةً ... لحُمرٍ وغربانًا تحنُّ إلى العُفْرِ
وما المرءُ إلاَّ ابن الثَّرى فمراحُه ... وإن عاش أزمانًا إلى ذلك المهْدِ
وعُمر الفتى المضْمارُ بينا جوادُه ... يُباري مداه إذ هوى في هُوى اللَّحْد
وبينا الفتى يزهو بمالٍ وأسرةٍ ... إذا هو يَشْجَى بالرَّزايا وبالفقْدِ
إذا ما سمعت الدَّهر عولةَ حائرٍ ... فكن راصدًا أمثالها إنَّها تُعدي][31]

وقلت أيضا :

أستغْفر اللَّه قد ضيَّعْتُ نحْوكُمُ ... خطوًا وذلك من إخْطائيَ السَّددا
سلكتُ فيها خَبارًا بل وطئتُ بها ... شوكَ القتاد ولم أسلُك بها جَدَدًا
لو كنت أعلمُ ما ألقى ببابكُمُ ... جعَلت تصفيد رجْلي دونكُم صَفَدا

وقال الآخر :

إن وصفوني فناحِلُ الجَسَدِ ... أو فتَّشوني فَأبْيَضُ الكَبدِ
أضْعفَ وجدي وزادَ في سَقَمي ... أنا لسْتُ أشكو الهَوى إلى أحَدِ
آهٍ من الحبِّ آهٍ من كَبِدي ... إن لم أمُت في غدٍ فبعْد غَدِ
جعلتُ كفِّي على فُؤاديَ من ... حرِّ الهوى وانطويْتُ فوق يَدي
كأنَّ قلبي إذا ذكرْتُكُمُ ... فريسَةٌ بين ساعِدَيْ أسَدِ !

31) الابيات السبعة عشر الأخيرة ساقطة من ب .

وقال الآخــــر :

تغرَّب أمري فانفردتُ بغُربةٍ فصرتُ فريدًا في البريَّةِ أوحَدا
تسرْمَد وقْتي فيك فهْو مسرمدٌ وأفْنيتني عنّي فصرتُ مُجدَّدا

وقال الآخــر :

لو كُنت أملكُ طرفي ما نظرتُ به من بعْد فُرقتكُم يومًا إلى أحَد
ولست أعتدُه من بعْدكُم نَظرًا لأنَّه نظرٌ من ناظريْ رمَـدِ

وقال الآخــر :

تزوَّد من الدُّنيا النُّقاخَ ولن ترى بِوادي الغضا ماءً نُقاخًا ولا وردًا
ونلْ من نسيمِ البانِ والرَّنْد نفحةً وهيْهاتَ وادٍ يُنبتُ البان والرَّنْدا !
وكرِّر إلى نجدٍ بِطرفكَ إنَّهُ متى تغْد لا تنظُر عقيقًا ولا نجْدا !

وقال الآخــــر :

أكلِّف القلب أن يهوى وألْزمُه صبْرًا وذلك جمعٌ بين أضْدادِ
وأكتُم الرَّكْب أوطَاري وأسْــألُه حاجاتِ نفسي لقد أتْعبْتُ رُوَّادِي
هل مخْبرٌ عندهُ من مُنكرٍ خبرٌ وكيف يُعلم حال الرَّائح الغادي ؟
فإن رويتُ أحاديث الّذين مضوْا فعن نسيمِ الصَّبا والبرقِ إسْنادِي

وقال الآخــر :

زعموا أنَّ من تباعد يَسْلو ولقَد زادني التَّباعُدُ وجْدًا
إنَّ وجْدي بكُم وإن طال عهْدي وجْد يعْقوب حين فارق عهْدا

وقال الآخــر :

خليليَّ إنَّ الجزعَ أضحى تُرابُه من الطّيب كافورًا وأغصانه رنْدا
وأصْبح ماء البحر خَمْرًا وأصبحَت حجــــارتُه دُرًّا وأوراقُه وردا
وما ذاك إلاّ أن مَشت بجنابه أميمَةُ أو جرَّت بتربتِه بُردًا

وهذا الشعر يتمثَّل به السَّادات الصوفية في انخراق العوائد واستحالة الأشياء ببركة من جاورها ومسَّها أو استدعاها من الصالحين.

ذكر صاحب التَّشوّف رحمه اللَّه تعالى عن بعض الناس قال : كنت أتوضّأ في البحر على

قرب من الشيخ أبي عبد اللّه الصنهاجي، المعروف بابن أمغار . قال : وكان أبو عبد اللّه شرع في الوضوء من البحر، فتطعّمت ماء البحر فوجدته حلوا، فقلت له : يا أبا عبد اللّه، إنّ ماء هذا البحر حلو ! فقال لي : هو كما قلت !

وقال بعض النّاس : كنت بالحرم الشريف مكّة، فخرجت وقت السّحَر لأشرب من زمزم، فوجدت شيخا قد أخذ الدّلو فشرب وأفضل، فوجدت الماء أحلى من العسل والسكر . فلمّا كان الغد، خرجت في ذلك الوقت أيضا إلى زمزم، فوجدت صاحبي . فلمّا شرب، أخذت الفضلة، فتعلّقت به وقلت : سألتك باللّه إلاّ ما أخبرتني من أنت ! قال : أنا سفيان الثوريّ، واسْتُرْ عَلَيَّ !

وحدّث صاحب التشوف أيضا عن بعضهم قال : مررت بالشيخ أبي موسى الدُكّالي السّلاوي المشهور، وهو يأكل عسلوجًا من عساليج الكلخ . فناولنيه فأكلته فوجدته طيّبا. وعن أبي الحسن الأنصاري، المعروف بابن الصّائغ، قال : زرت الشيخ أبا يعزى، فلمّا كان غروب الشمس خرجت للوضوء مع جماعة، فبعدنا عن القرية، فحال الأسد بيننا وبين القرية . فقيل للشيخ أبي يعزى : حال الأسد بين أصحابك وبين القرية . فأخذ الشيخ عصاه بيده وجعل يضرب الأسد، ففرّ أمامه وقربنا منه، فجعل يأكل عيون الدّفْلى، فقال لترجمانه : قل لأبي الحسن : ما تقولون أنتم معشر الفقهاء فيمن يأكل الدّفْلى ؟ فقلت له : قل له : يقولون : من أكل الدّفْلى طرد الأسد ! فأعلمه الترجمان بقولي، فرأيته يبتسم.

ومن هذا ما حدّثني به بعض الثّقات، وأنا بساحل حاحة، عند ضريح الشيخ أبي العبّاس أحمد الهشتوكي، المعروف بالسائح، تلميذ الشيخ سيدي سعيد بن عبد المنعم المناني . قال : حدّثني فلان - وكان من أصحاب أبي العبّاس - قال : جئت مع أبي العبّاس عند هبوطه إلى هذا الساحل، فأتينا على مصلّى الشيخ محمّد بن سليمان الجزولي، وكان مصلاّه معروفا هناك بشاطىء البحر يُزار . قال : فأقمنا في المصلّى يومَيْن - أو قال ثلاثة . وأحسبه قال - قال : لا نطعم شيئا حتّى أحسست بجوع شديد . فقال لي أبو العبّاس : قم إلى الضرْو فخذ لنا من أوراقه ! - والضرْو شجر معروف، أوراقه أمرّ شيء -. قال فقمت إلى شجرة منها، فملأت حجري من الورق، وجئت به إليه، فطرحه أمامه - وأحسبه قال - قال : فحرّكهُ، فعاد زبيبا ولوزا . قال : فأكلنا حتّى اكتفينا . فلمّا قمنا من ذلك الموضع ومررنا على قرب من موضع الشجرة، تركت الشيخ حتّى أدبر . فانسللت منه

وأتيت الشجرة، فاقتطفت قبضة من أوراقها وجعلتها في فمي ومضغتها، فوجدتها أمرّ شيء، فمججتها، واتبعت الشيخ فأدركته يتوضّأ في شعب هنالك . فلمّا رآني جعل يتبسّم وقال لي : أفعلت كيت وكيت ؟ قلت : نعم ! فقال لي ما معناه : أفتحسب أنّ لا إله إلاّ اللّه في أفواه الرجال سواء ؟

وقد وقع مثل هذا لابراهيم بن أدهم وغيره . وحكايات الصالحين في نحو هذا لا تنحصر، وإنّما أردنا أن نتبرّك ببعض ذلك، نفعنا اللّه بمحبّتهم وحشرنا في زُمرتهم ! وهذا القدر يكفي، واللّه تعالى يقول الحقّ وهو يهدي السبيل.

انتهى الجزء الثاني من كتاب زهر الأكم

ويليه الجزء الثالث مبتدئا من «حرف الذال».

فهـرس موضوعات الكتاب

الجـزء الأول

الجــزء الثاني

الجـزء الثالث